



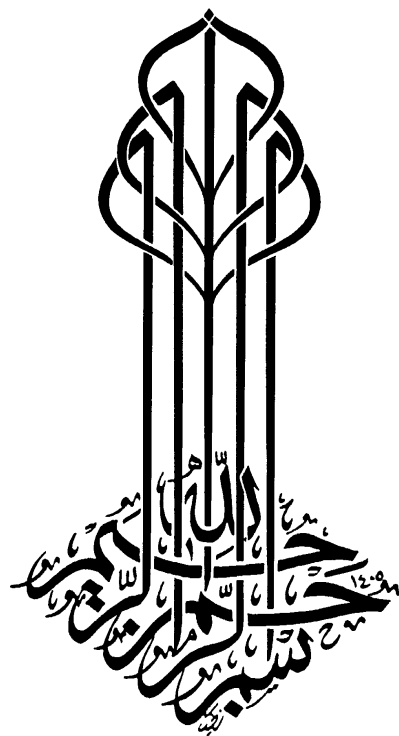
أبحاث المؤتمر الدولي



محمد صلى الله عليه وسلم

برعاية خادم الحرمين الشريفين
الملك / عبدالله بن عبدالعزيز - حفظه الله -

المجلد السادس





رؤية علماء غربيين منصفين للإسلام ونبيه

إعداد

أ. د. مصطفى محمد حلمي سليمان

ابيض



المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أما بعد:

فقد ظهر الوجه القبيح لحضارة الغرب، وزالت عنه مساحيق التكنولوجيا والتقدم العلمي المبهر، واتضح زيف شعارات السباحة وحقوق الإنسان، وطفأ على السطح ما تكنه هذه الحضارة في أحشائها من عنصرية حاكمة ورثتها من أجدادها اليونان والرومان، فانفجر في شكل الحملات اللامعقولة المعادية للإسلام، وعلى رأسها اتهامه بالإرهاب! وهو الدين الوحيد دون غيره من الملل والنحل الموضوع في قفص الاتهام، والموصوف بأحط الصفات المستمدة من عملية تزيف للحقائق التاريخية من خيال مبشرين ومستشرقين^(١) وأدباء وساسة

(١) إن القول بأن الاستشراق قد وُلد - ابتداء - في أحضان الكنسية والأديار النصرانية الرومانية يبقى صحيحاً على إطلاقه، وكل التفسيرات المطروحة تؤكد هذه الحقيقة وتوثقها وتعمقها «د. محمد عبد الله الشرقاوي الاستشراق ص ٣٢ دار الفكر العربي بالقاهرة سنة =

وغيرهم، وضعوا على أعينهم غشاوه فأعمت أبصارهم بعد أن عميت قلوبهم
المفعمة بالأضغان على الإسلام ورسوله ﷺ، متهزين حقيقة سمو أخلاق
المسلمين وصبرهم وحسن ذوقهم التي لا تسمح لهم بأن يقابلوها بنفس
الابتذال.

ولعل ما يخفف من آلامنا لمواجهة هذه الحملات، أن تكذيب الأنبياء
والافتراء عليهم وسبهم ظاهرة قديمة صاحبت الأنبياء جميعاً، فقد أخبرنا الله
تعالى أن الكفار قالوا عن موسى ﷺ: إنه ساحر وإنه مجنون، فقال فرعون: ﴿إِنَّ
رَسُولَكُمْ الَّذِي أَرْسَلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧]، وقوله: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي

= ١٩٩٣ م).

وقد بدأ اهتمام المستشرقين بالكتابة عن حياة محمد ﷺ اعتباراً من القرن السابع عشر بعد
أن كانت الكتابات السابقة في هذا المجال كتابات جدلية كنسية تعبر عن اتجاه الكنيسة
المعادي بطبيعة الحال للإسلام ولكن هدف المستشرقين الواضح والمعلن حينذاك لم يكن
أيضاً هدفاً علمياً، بل كان محاربة الإسلام والدفاع عن النصرانية. ومن أجل هذا الغرض
وجد المستشرقون أن أفضل وسيلة لمحاربة محمد ﷺ تتمثل في معرفته ومن هنا كان لا بد
من الاطلاع على القرآن ومحاولة فهمه. وقد اشتملت المؤلفات في ذلك الوقت على أكثر
الأساطير مدعاة للسخرية وأكثر المزاعم والشتائم وقاحه. (د. محمد حمدي زقزوق -
الإسلام في تصورات الغرب - ص ١٣٠ مكتبة وهبة القاهرة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م).



عَلَّمَكُمْ السِّحْرَ ۖ [طه: ٧١].

وذكر تعالى عن اليهود أنهم قالوا عن مريم بهتاناً عظيماً، فقول اليهود في المسيح من جنس أقوال الكفار في الأنبياء، وكذلك قول كفار أهل الكتاب في خاتم الأنبياء محمد ﷺ، فقال تعالى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣]، وقال لرسول الله ﷺ: ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وقد تعرض ﷺ منذ مبعثه وإلى عصرنا الحالي لأقبح الشتائم ففي كتاب «دفاع عن محمد ﷺ ضد المنتقسين من قدره» قال الدكتور عبدالرحمن بدوي: (نادراً ما يصدق الناس الحقائق لاسيما إذا تعارضت مع مصالحهم)، وقال: (وهذا يفسر ذلك المعدل الرهيب من الأكاذيب التي ساقها الكتاب البيزنطيون والأوروبيون منذ اثني عشر قرناً في موضوع النبي محمد ﷺ الذي أصبح أكبر أعداء الأوروبيين كما كان الهجوم عليه هدفاً للامبراطورية البيزنطية وأوروبا سواء على الصعيد الأيدولوجي أو الصعيد الدعائي من جانب المؤرخين الأوروبيين المدعومين بعلماء النصرانية في البلاد الخاضعة لسيطرة المسلمين أمثال «يوحنا الدمشقي وتيودور أبو قره وإلياس، وعبد المسيح الكندي وغيرهم» وقد تبعهم في المنهج نفسه قساوسة أوروبيون بدءاً من القرن الثاني عشر الميلادي

وحتى يومنا هذا^(١).

ومن أشد الافتراءات مدعاة للعجب والسخرية قديماً وحديثاً ما نقله لنا شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله: (فإنه من المعلوم أن كثيراً من أهل الكتاب، كان عندهم من البغض له والعداوة وتكذيبه والحرص على إبطال أمره ﷺ ما أوجب أن يفتروا أشياء لم توجد ونسبوا إليه أشياء يعرف كذبها كل من عرف أمره حتى آل الأمر ببعضهم إلى أن يفسروا قول المسلمين (الله أكبر) بأنه أكبر صنم وأن النبي ﷺ أمر بتعظيم هذا الصنم)^(٢).

وترددت هذه الأكذوبة الفجة أيضاً في العصر الحديث، داله على الغيظ الشديد والجهل المطبق، فقد زعم رئيس أساقفة تورين (أنه يوجد في الأندلس على شاطئ البحر فوق عمود شديد الارتفاع، صنم من البرونز صنعه محمد ﷺ ويعبده المسلمون!)^(٣).

(١) د. عبد الرحمن بدوي «دفاع عن محمد ﷺ ضد المنتقسين من قدره» ص ٣ ترجمة كمال جاد الله ط الدار العالمية للكتب والنشر ١٩٩٩ م.

(٢) ابن تيمية «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» ج ٣ ص ٢٩٦ قدم له وأشرف علي طبعه علي السيد صبح المدني مطبعة المدني القاهرة رجب ١٣٨١ هـ - يناير ١٩٦٢ م.

(٣) لواء أحمد عبد الوهاب «الإسلام في الفكر الغربي» ص ٩ مكتبة التراث الإسلامي ١٩٩٣ م.



وها نحن مطالبون جميعاً بالذب عن رسول الله ﷺ بكل ما توافر لدينا من وسائل، ودفع الاتهامات الباطلة الموجهة إليه التي زادت عن حد الاحتمال، مع الإصرار على استمرارها وانتقالها من بلد إلى آخر في تناسق وترتيب بين وسائل الإعلام الغربية التي يقف وراءها دهاة المستشرقين والمبشرين. واتضح أن وراءها أغراضاً تتجاوز حد الإساءة لشخصه ﷺ أو الإسلام الذي يصفونه بالإرهاب، فهي في حقيقتها حرب نفسية موجهة للأمة الإسلامية لنزعها من درعها الذي تقاوم به الحرب الصليبية، ثم الإلقاء بنفسها في أحضان النصرانية، كما يتوهم المبشرون.

وقد صور الدكتور محمد حسين هيكل - رحمه الله - مدى ما هوى إليه القوم إلى الحضيض، فبعد أن عرض ما ورد في موسوعة «لاروس» الفرنسية، علق عليها قائلاً: (أرأيت الحضيض الذي هوت إليه هذه الطائفة من كتاب الغرب؟ أرأيت إصرارهم، مع توالي القرون، على الضلال وعلى إثارة العداوة والبغضاء بين أبناء الإنسانية؟! ومن هؤلاء من جاءوا في العصور التي يسمونها عصور العلم والبحث والتفكير الحر وتقرير الإخاء بين الإنسان والإنسان. قد يخفف من أثر هذا الضلال قيام أولئك المنصفين إلى حد ما. فمنهم من يقر بصدق إيمان محمد ﷺ بالرسالة التي عهد الله إليه تبليغها عن طريق الوحي، ومنهم من

يُشيد بعظمة محمد ﷺ الروحية وبسمو خلقه ورفعة نفسه وجم فضائله، ومن
يصور ذلك في أقوى أسلوب وأتمه روعة.

وإن بقي الغرب مع ذلك ينال من الإسلام ونبيه ﷺ أشد النيل، ثم تبلغ
منه الجرأة حتى يثب المبشرون في أنحاء البلاد الإسلامية يذيعون مثالهم
الوضيعة، ويحاولون صرف المسلمين عن دينهم إلى النصرانية^(١).

أما الآن، فنحن نعاني من الحملات الشرسة ضد الإسلام عقب أحداث
١١ سبتمبر ٢٠٠١ م.

منهج البحث:

التزمت بمنهج تحليل المضمون للكتاب الذين خصصوا مؤلفات في سيرة
الرسول ﷺ لإبراز آرائهم للرد على الأفكار الشائعة في بلادهم عن الرسول
ﷺ وبيان تهافتها باتباع الموضوعية في الدراسة مع التخلص من الأفكار
السابقة المتوارثة الممتلئة بالأحقاد منذ القرون الوسطى وتحميل الصورة المشوهة
للإسلام.

(١) د. محمد حسين هيكل «حياة محمد ﷺ» ص ٣١ مكتبة الأسرة بمصر ٢٠٠٠ م في الأصل
«المسيحية» وهو انتساب غير صحيح.



أولاً: الكاتبة الإيطالية: د. لورا فاجليري.

ثانياً: الأديب الإنجليزي: توماس كارلايل.

ثالثاً: عالمة الأديان: كارين أرمسترونج.

رابعاً: الفيلسوف الفرنسي والأديب: فولتير.

وفيما عداهم اتبعت المنهج التركيبي لعرض آراء المنصفين في مسائل بعينها
أثير حولها اللغط كاعترافهم بالخلق العظيم للرسول ﷺ رداً على المفترين،
ونفي الرواية المخترعة عن نشر الإسلام بالسيف.

وأخذت على عاتقي مهمة ليست باليسيرة، تمثلت في التنقيب بين ركام
مؤلفات الحاقدين على الإسلام من الغربيين لكي أعثر على آراء المنصفين منهم
بسبب قلتهم. ولذلك أكثر من الاقتباسات والاستشهادات من مؤلفاتهم
لكي أعوض قلتهم، ولكي تنتشر آراؤهم بين الباحثين المسلمين وتتغلب
ببراهينها الساطعة على كتابات الأعداء.

الجدور التاريخية للعداء للإسلام ولنبيه ﷺ :

نبدأ بمحاولة تفسير الأحقاد والضغائن الراسبة في قلوب الغربيين بقيادة
المستشرقين والمبشرين لعلنا نعثر على طريقة لعلاج أمراض قلوبهم.

فنحن - بحمد الله دعاة للحق - ونتقرب إلى الله ﷻ بمحاولة تخليصهم مما هم فيه، ونحرص على هدايتهم، طمعاً فيما عند الله تعالى من الأجر الجزيل. ويمكن تفسير ما استقر في نفوسهم المريضة بأسباب منها:

الأول: النظرة الاستعلائية العنصرية الغربية، فالغرب كان (منذ الاغريق والرومان وحتى اليوم، يري نفسه معدن الحضارة ومركز العالم، والجدير بالسيطرة والتفوق، والشعوب الأخرى همجاً وبرابرة أو حتى أرقاء. وقد تمكنت نظرة الاستعلاء في الإنسان الغربي حتى أصبحت بمثابة الغريزة المركوزة أو الجبلية الثابتة)^(١).

لذلك كان لفتح القسطنطينية على يد محمد الفاتح وقع الصاعقة على أوروبا، لأنها كانت ترى بقية من الزهو اليوناني والروماني القديم على تلك المدينة (وكان تنظر إليها على أنها حصن أوروبا ضد برابرة آسيا، وبسقوطها فُتح باب أوروبا على مصراعيه للسيل الإسلامي. وفي القرون التي امتلأت بالحروب لم تعد عداوة أوروبا للإسلام قضية ذات أهمية ثقافية فحسب، بل ذات أهمية سياسية أيضاً)^(٢).

-
- (١) د. محمد عبد الله الشرقاوي «الاستشراق» ص ١٧٨ دار الفكر العربي بالقاهرة ١٩٩٣ م.
- (٢) محمد أسد «الإسلام على مفترق الطرق» ص ٥٩ ترجمة د. عمر فروخ دار العلم للملايين =



الثاني: اجترار الخيبة بسبب فشل المشروع الصليبي في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، وعلى العكس جاء الأتراك العثمانيون إلى عتبة دار أوروبا.
تقول كارين أرمسترونج: وبسبب الخوف كان من المحال على نصارى الغرب التزام العقلانية أو الموضوعية إزاء العقيدة الإسلامية^(١).
(فضل الإسلام يمثل تحدياً لا يتوقف للغرب حتى القرن الثامن عشر، أما الآن فيبدو أن حرباً باردة ضد الإسلام توشك أن تحل محل الحرب الباردة ضد الاتحاد السوفيتي)^(٢).

وبسبب اطلاعها الواسع على الإسلام من مصادره، ومعرفتها بتاريخه وحضارته كعالم أديان تفرغت لدراستها، أخذت توجه النصح إلى بني جنسها فقالت (فنحن في الغرب لم نستطع أبداً التعامل مع الإسلام، فأفكارنا عنه كانت، وما زالت فجوة ورافضة وتناقض التزامنا المعلن بالتسامح والتراحم» وتحذّر من استمرار الغرب في هجومه المتواصل على الإسلام إذ إن الحقيقة

=بيروت ١٩٧٤م.

(١) كارين أرمسترونج «محمد ﷺ» ص ١٨، ٣٦ ترجمة د. فاطمة نصر ود. محمد عناني

١٩٩٨م ط ٢.

(٢) المرجع السابق.

البارزة أنه ظل صامداً؟ (إن الإسلام لن يختفي ولن يخبو) ثم وضعت يدها على العصب الحساس في حضارتها فاعترفت بأن «الضعف الأساسي» للحضارة الغربية - وللنصرانية أيضاً - في العالم الحديث هو عدم القدرة على الاعتراف بأنهم يقتسمون الكوكب، ليس مع من هم أدنى منهم، بل مع أندادهم^(١).

وشمل نقدها الذاتي للكنيسة أيضاً، فاقترحت عليها أن تتمرس فقهياً في التعامل مع البشر على أساس من الاحترام الجوهري.

ورأت أنهم في الغرب بحاجة إلى تخلص أنفسهم من بعض أحقادهم القديمة، ثم قالت: «ولعل شخص محمد ﷺ يكون مناسباً للبدء» ونفت قيامه ﷺ بنشر الإسلام بالسيف - برغم الأسطورة الغربية، لأن اسم الإسلام نفسه ذو دلالة على السلام والوفاق^(٢).

الثالث: صدمة الفتوحات الإسلامية في عصورها الأولى كانت قد أصابت أوروبا بالفرع، إذ خرج من الصحراء شعب كان بعيداً عن ميزان القوة، فإذا به بعد إسلامه يكاد يمحو قوة كل من عداه من الشعوب.

(١) كارين أرمسترونج «محمد ﷺ» ص ٣٩٣ في الأصل أطلقت عليها اسم الحضارة المسيحية.

(٢) نفسه.



عندئذ أصيبت الأمم الأوروبية بالذعر بسبب انتصارات الجيوش الإسلامية المتوالية، فلما عجز ملوكهم وقوادهم من مقاومته في ميادين الوغى، انبري كتابهم وشعراؤهم لهجاء النبي ﷺ والنيل منه، فقالوا ما قالوا، وسبوا وطعنوا وقذفوا وشتموا ما شاء لهم الغيظ والحقد والحسرة على ممالكهم الضائعة^(١).

وبقي الغرب يتلقف السب والقذف والشتائم جيلاً بعد جيل بلا رادع من ضمير أو قانون (فإن رسول الإسلام ﷺ لا يتمتع حتى الآن في الغرب بأي حماية قانونية، فالإساءة إليه وتشويه صورته لا يقعان تحت طائلة القانون، بل إنهما من الأمور المقبولة سياسياً)^(٢).

وقد تجدد هذا الفزع التاريخي المتوارث منذ الحروب الصليبية بالصحة الإسلامية التي شهدتها العقود القليلة الماضية، فأضافت فزعاً جديداً للغرب من الإسلام، إذا جاءت هذه الصحة معارضة تماماً مع تكهنات المحللين المتخصصين في دراسة الشرق، إذ كانوا يعتقدون حتى خمسينات القرن الماضي

(١) محمد لطفي جمعة «ثورة الإسلام وبطل الأنبياء ﷺ» ص ٣٣ مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨ م.

(٢) مراد هوفمان «الطريق إلى مكة» ص ١٤٩ دار الشروق بمصر ١٤١٩ هـ ١٩٩٨ م.

موت وفناء الإسلام^(١).

هذا التعليل يفسر انطلاق حملة الإساءة إلى الرسول ﷺ في القارة الأوربية وازدياد حملات الهجوم عليه ﷺ في الآونة الأخيرة، وانتقالها من بلد إلى آخر بعناد وقسوة، يشجعها على الاستفحال تجاوب الرأي العام وافتقار القانون الرادع.

وما زالت الصورة المشوهة للإسلام والعرب مستمرة في الدراسات الاستشرافية وفي وسائل الإعلام في الغرب بوجه عام، وفي أمريكا بوجه خاص... وإنه ما زالت تنشر الكتب والمقالات دون توقف عن الإسلام والعرب، وهي لا تختلف إطلاقاً عن الجدل الخبيث المعادي للإسلام في القرون الوسطى وعصر النهضة^(٢).

ويسعى المستشرقون في المستقبل لتحقيق هدف أكثر طموحاً، إذ يقول هاري دورمان: (لن يكون تركيز المبشرين في السنوات القليلة القادمة على تغيير ديانة أفراد المسلمين مثل عنايتهم بتغيير الإسلام نفسه)^(٣).

(١) نفسه ص ١٤٧.

(٢) د. محمد عبد الله الشرقاوي «الاستشراق» ص ٥٤.

(٣) نفسه ص ٥٥.



الرابع: صلة الصحوة الدينية الراهنة بالغرب بازدياد الهجمات على

الإسلام ورسوله ﷺ.

هناك صحوة دينية في الغرب قد يغفل عنها البعض - ولكننا لا نفعل -

لأنها ذات صلة وثيقة باشتداد الحملات على الإسلام ورسوله ﷺ وهي تمد

الحرب الصليبية المعاصرة بالوقود اللازم لاستمرار اشتعالها، ولو بقي الغرب

محافظاً على قشرة «العلمانية» التي خدعنا بها، لما ظهرت أحقادها الدينية المتوارثة

سافرة بلا خجل، وقد ظهرت للعيان في عدة مواقف وسلوكيات لا تحفى على

أحد: منها احتضان الكاتب الهندي سلمان رشدي والدفاع عنه بحرارة،

التصريح المهين لبابا روما وإصراره على عدم الاعتذار للمسلمين والرسوم

المسيئة للرسول ﷺ بالدانمارك، وآخرها منع بناء مآذن للمساجد في سويسرا.

فليس إذن من الغريب في هذا البحث إيجاد الصلة بين ازدياد الهجمات على

الإسلام ورسوله ﷺ وبين الصحوة الدينية المنتشرة في الغرب منذ نهاية

القرن الماضي. يقول («جيل كيبيل» العالم الفرنسي في الأديان تحت عنوان «أوروبا

أرض رسالة وإرسالية»: (ينفتح الربع الأخير من القرن العشرين في أوروبا

الكاثوليكية على مفارقة، إذ يبدو المجتمع وكأنه لم يكن يوماً على هذا القدر

الكثيف من الدنيوية العلمانية ومن اللانصرانية، ومع هذا فإن حركات معاودة

تنصيره تنبعث وتتولد في كل مكان، ويعلل ظهور هذه الحركات بإفلاس العلمانية^(١).

ومن الدارسين من يرى أن أوروبا لم تكن منغمسة في العلمانية بالتعريف الشائع، فيقول «جيفري لانج» (إن تعبير علمانية الغرب، تعبير خاطئ يجانبه الصواب تماماً، كما يدل الدكتور هوفمان على ذلك بتعاقب الدين والدولة في ألمانيا كمثال، فهناك أعياد وإجازات دينية، وهناك جمعيات دينية تخطى باعتراف الدولة وحمايتها وتحصل الجهات المالية الحكومية ضريبة الكنيسة من أجل مساندتها، ويقوم مدرسون دينيون بتدريس مادة الدين في المدارس الحكومية، كذلك يتم الأخذ بالقسم بالله أمام المحاكم وفي القوات المسلحة، كما يتم توظيف رجال الدين بهذه القوات، ونجد على خرائط الفصول الدراسية بالمدارس المسيح مصلوباً^(٢).

(١) جيل كيبل «ثأر الله - الحركات الأصولية في الديانات الثلاثة» ص ٥٩ ترجمة نصير - دار قرطبه - ليماسول ١٩٩٨ م ويُنظر بحثه تحت عنوان «انحلال سحر العلمانية والمفاصلة الكاثوليكية» ص ٦٧-٩٠ في الأصل اللامسيحية.

(٢) د. مراد هوفمان «الإسلام في الألفية الثالثة... ديانة في صعود» ص ١٠١ مكتبة الشروق بمصر ٢٠٠١ م.



ويؤكد القس إكرام لمعي بأنه لم يحدث في عصر من العصور أن كان الدين محوراً للاهتمام للدرجة التي اختلط فيها الدين بالأسس والمبادئ التي تُبنى عليها معظم النظريات السياسية والاقتصادية كعصرنا الحالي، ويستطرد فيقول: (أصبح الدين هو الملجأ الأخير الثابت الذي تتعلق به حضارات تنهار، وحضارات تريد أن تستيقظ من جديد)^(١).

وربما يعني بذلك - بصفة خاصة - المقارنة بين الحضارتين الغربية والإسلامية.

وفي الدراسة التي أجراها الباحث الروسي ميران مشيدلوف، لفت أنظارنا إلى أنه بعدما انتهت سلطة البابا المعنوية ١٨٧٠ م. عادت مدينة الفاتيكان ١٩٢٩ م. لتصبح أشبه بحكومة إقطاعية في المقر البابوي المقدس، ومما زاد من سلطتها العالمية أن العرف الدولي منح الدولة البابوية الحق في تعيين ممثلين لها في الدول المختلفة وإبرام المعاهدات وعقد الاتفاقات، كذلك فإن الكنيسة الكاثوليكية لها هيئة إدارية قوية، تضم مجموعات الكرادلة والمحاكم وغير ذلك مما يشكل الأداة الحاكمة للبابا^(٢).

(١) إكرام لمعي «الاختراق الصهيوني للمسيحية» دار الشروق ١٩٩١ م. ص ٧.

(٢) ميران مشيدلوف «الدين في العالم اليوم» ص ١١٥، ١١٦ ترجمة جمال السيد، دار العالم =

أما في الولايات المتحدة الأمريكية، فقد حدثت طفرة ثقافية دينية متمثلة بالتوظيف الكثيف للشاشة الصغيرة في الوعظ الإنجيلي «الكنائس المرئية» من أواسط السبعينات إذ شعر ملايين الأمريكيين بالحاجة إلى اعتناق أشكال التدين التي كان يقدمها رجال الدين المشهورين الذين نجحوا في صياغة التحول في عمق الأخلاق الاجتماعية بمقولة الخطاب الإنجيلي أو الأصولي وهناك اليوم أكثر من ٦٠ مليون شخص يعلنون أنهم مسيحيون معمدون «أي وُلدوا ثانية» وهناك ٦٠ مليون آخرين يعتبرون أنفسهم مؤيدين للأخلاق الدينية، وهناك ٥٠ مليون يمتلكون مثلاً أعلى خلقياً ويريدون أن يُربى أولادهم في مجتمع خلقي، فضلاً عن أن ٨٤٪ من الشعب الأمريكي يعتقدون أن الوصايا العشر لا تزال صالحة اليوم^(١).

ويقول جيمس فين (لا أحد يستطيع أن يفهم أمريكا وحرّياتها، إلا إذا وعى وتفهم التأثير الذي يباشره - وما زال يباشره - الدين في صنع هذا البلد)^(٢).

=الجدید ١٩٩٠ م.

(١) جيل كيبل «ثأر الله - الحركات الأصولية المعاصرة في الديانات الثلاث» ص ١١٨.

(٢) رضا هلال «المسيح اليهودي ونهاية العالم» ص ٩ مكتبة الشروق ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م.
وللتوسع ينظر مقال بعنوان «خدعونا فقالوا إن الغرب تحلى عن دينه» بكتابنا «المنهج»



ولا يفوتنا ملاحظة أن هذا المد الديني الغربي جعله يستدعي الرصيد المختزن من العداوة للإسلام، وينشره على الملأ بأجهزة إعلامه بل يثير دهشتنا ان تُخصّص جامعة في أمريكا لمحاربة الإسلام. وفي هذا الصدد يقول المهتدي للإسلام / أحمد عبد الله «سابقاً رالف دنيس» (أسلمتُ حيث كان يجب أن أكون من ألد أعداء الإسلام، فقد تعرفت على الإسلام في جامعة من أخطر الجامعات التي تخصصت في محاربة الإسلام: إنها جامعة برنستون)^(١).

نفي الرواية المختلقة بأن الإسلام انتشر بحد السيف:

ظن الغرب كما يقول ويفالنج لنجرميس إنه بسبب ما سجله التاريخ من سرعة انتشار الإسلام بشكل لم يحدث قبله - ظن الغرب أن المسلمين فرضوه بالسيف، وينفي ويفالنج هذا الظن لأن سبب الحروب في بعض الأحيان كان بسبب أن أهل الديانات الأخرى أصروا على القتال، وكان المسلمون يعاملون أهل الكتاب - كما اعترف الرهبان - معاملة طيبة وكانوا أحراراً في عباداتهم^(٢).

=السلفي.. لا الحداثة طريق النهضة» دار العقيدة بمصر ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م.

(١) د. عبد الودود شلبي «الإسلام والغرب» ص ١٠٧ مكتبة الآداب بالقاهرة ١٤٢٤هـ ٢٠٠٤م.

(٢) أنور الجندي «الإسلام في غزوة جديدة للفكر الإنساني» ص ٩٠ المجلس الأعلى للشئون=

ويري السير ريتشارد وود خطأ الاعتقاد بأن الإسلام دين القوة والسيف لمخالفة ذلك للواقع، لما جاء في القرآن الكريم: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾ [البقرة: ١٩٠]، ويقول رينان العالم الفرنسي (إن حب العلم والكمال قد حقق في القرن العاشر في تلك البقعة الممتازة من العالم «الأندلس» تسامحاً لا يوجد في عصور المدنية ما هو أعظم منه، ولقد سقطت جميع الحواجز التي تفصل بين الناس من المسلمين والنصارى واليهود، وأصبح جامع قرطبة حيث كان طلبة العلم يعدون بالألوف مركزاً حياً للدروس الفلسفية والعلمية)^(١).

وقد أنكر أيضاً الزعيم الهندي غاندي أكذوبة انتشار الإسلام بالسيف ورأى أنه اتسم بالتسامح وأحرز إعجاب العالم كله بينما كان الغرب غارقاً في الظلمات، وقال: (وقد غدوت مقتنعاً كل الاقتناع أنه ليس السيف هو الذي جعل للإسلام مكانة في معترك الحياة بل إن بساطة النبي ﷺ التامة وإنكاره الكلي لذاته واحترامه الدقيق لعهوده وإخلاصه الشديد لأصدقائه وأتباعه وشجاعته وبسالته وثقته الكاملة بالله. ورسالته هذه لا السيف هي التي جرفت

=الإسلامية بالقاهرة ١٣٨٤هـ ١٩٦٤م.

(١) نفسه ص ٩١، ٩٢.



كل شئ أمام المسلمين الأولين^(١).

وقد نفت الكاتبة البريطانية أرمسترونج الرواية المختلفة بأن الإسلام انتشر بحد السيف، تأتي أولاً بالرواية التي يرددونها في الغرب، فتقول: (وفي الغرب، غالباً ما نتخيل محمداً ﷺ قائد حرب ماضياً يلوح بسيفه ليفرض الإسلام على مجتمع كاره له بقوة السلاح) وتنفي هذه الفكرة المخالفة لحقيقة الأحداث التاريخية التي أحاطت بدعوة النبي ﷺ، فقد كان يكافح مع أصحابه في سبيل الإبقاء على حياتهم وقد اضطروا لاستخدام السيف لتحقيق السلام في فترة اضطراب وانحطاط وقد اجتازوا سنوات أسي ورعب (فلم تتمكن الأمة من إنهاء حالة العنف والخطر في بلاد العرب إلا بجهد قاس)^(٢).

وتحل لفظ «الجهاد» فتذكر أنه يعني أكثر من مجرد حرب مقدسة، فهو دال على مجهود جسماني وأخلاقي وروحاني وعقلي - والجهاد - خلافاً للرأي السائد في الغرب ليس أحد أركان الإسلام، وتتوسع في معناه ليشمل النضال في

(١) نفسه ص ٩١.

(٢) كارين أرمسترونج «محمد ﷺ» ص ٢٥٣ ولم يفتها الإتيان بالحديث الموضوع «لقد عدنا من الجهاد الأصغر، إلى الجهاد الأكبر» وشرحته بقولها: أي إن الجهد الأكثر صعوبة وحسماً هو هزيمة قوى الشر في نفس الإنسان، وفي مجتمع الإنسان في جميع تفاصيل الحياة اليومية.

جبهات أخلاقية وسياسية وروحية من أجل تحقيق مجتمع عادل (يعيش فيها الإنسان وفقاً لإرادة الله وقد يكون الحرب والقتال ضرورة في بعض الأحيان، لكن ذلك جزء ثانوي من الجهاد أو النضال)^(١).

وقد أتت بآية سورة الفتح وهي قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَزَعٍ أُخْرِجَ شَطَئُهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩]، وقد علقت عليها كما فهمت منها بقولها (وقد يعترض معترض قائلًا إن هذه التقوى لها جانب عدواني، وقد يكون الهدف منها - فيما يبدو - هو «إغاظة» الكفار، ولكن تقاليد أديان التوحيد التاريخية الثلاثة تشترك في هذا التصلب في الرأي وفي رفض أي حل وسط فيما يتعلق بأصول الدين. بل إن المسيح ﷺ المسالم نفسه قد قال: إنه لم يأت بالسلام بل بالسيف، وسوف نجد في الأناجيل صوراً أشد ضراوة و«حمية» بكثير عما نجده أحياناً في صورة التقوى الشائعة)^(٢).

(١) المرجع السابق.

(٢) نفسه ص ٣٣٤.



وتضيف إلى ذلك أن المسلمين يستعملون القوة أحياناً لقمع الطغاة والأنظمة الكريهة، إذ لم تُقمع، لغمر الشر العالم أجمع، وقد أجبر الأنبياء السابقون أحياناً على الحرب والقتال، فلقد قتل جالوت بعون من الله. ثم أتت بقول الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وقرّبت أرمسترونج مفهوم الجهاد بوصفه حرب عادلة لبني جلدتها بقولها: (ويتفق نصارى كثيرون على مفهوم الحرب العادلة لأنهم يعلمون أن المعركة المسلحة ضد أمثال هتلر وسيسكو هي الطريقة الوحيدة المؤثرة، ولهذا فبدلاً من أن يكون الإسلام ديناً سلبياً يدير الخد الآخر، فهو دين يقاتل الطغيان والظلم)^(١).

عرض لآراء بعض المنصفين في الغرب:

- * الكاتبة الإيطالية د/ لورا فاجليري.
- * الكاتب البريطاني توماس كارلايل.
- * الباحثة في الأديان كارين أرمسترونج.
- * الفيلسوف والأديب الفرنسي الشهير فولتير.

(١) نفسه ص ٢٥٩ فضلت تغيير اسم المسيحية الوارد بالنص إلى الوصف القرآني «نصارى».

أولاً: د/ لورا فاجليري.

وقد وقع اختيارنا على الدكتورة لورا فاجليري وهي كاتبة مسيحية وأستاذة بمعهد الرسائل الشرقية بميلانو لعرض موقفها كنموذج طيب من العقلیات الغربية الكبيرة التزیهة واتسمت کتاباتها بالنزاهة والإنصاف^(١).

تصف الرسول ﷺ بقولها: (كان محمد ﷺ غاية في التسامح متبعاً في ذلك المبادئ السماوية خاصة نحو أتباع الأديان التي تنادي بالتوحيد وعرف كيف يستعين بالصبر حيال الوثنيين وينتظر معتقداً أن الوقت كفيل بإحداث التغيير المنشود).

أما عن وصفه ﷺ بالقسوة، فتقول: «والجواب على اتهام محمد ﷺ بالقسوة سهل ميسور، فمحمد ﷺ كرئيس دولة مسئول عن حياة وحرية شعبه، عاقب في تطبيقه للعدالة عقاباً شديداً أشخاصاً ارتكبوا جرائم، ويجب أن يُنظر إلى عمله هذا على ضوء الوقت الذي كان يعيش فيه، وعلى ضوء المجتمع الوحشي الشرير الذي كان يحيا وسطه، وكان محمد ﷺ في تبشيره بدين الله لطيفاً رحيماً حيال أعدائه الشخصيين، وكانت الرحمة والعدل مغروسين فيه،

(١) محمد عبد الله السمان «مقدمة كتاب» تفسير الإسلام للدكتورة لورا فاجليري (سلسلة الثقافة

الإسلامية) العدد ١٢ ربيع الآخر ١٣٧٩هـ أكتوبر ١٩٥٩م.



وهما اثنتان من أنبل القيم التي يمكن للعقل الإنساني تصورهما. وليس من الصعب أن نؤيد ذلك بأمثلة كثيرة من سيرته ﷺ يقول أحد مؤرخي سيرته (أصبحت الحرب تلك الضرورة البشعة للحياة الإنسانية عملاً أقل قسوة في التطبيق العملي على يديه)^(١).

ورغم أن النبي ﷺ دعا خصوم الإسلام إلى أن يأتوا بكتاب مشابه له أو حتى بسورة منه، قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، ومع أن هؤلاء الذي كانت لديهم القدرة على التعبير ببلاغة كبيرة كانوا كثيرين بين العرب فلم يستطع أي منهم إنتاج شيء يمكن مقارنته بالقرآن، لقد حاربوا النبي ﷺ بسواعدهم، ولكنهم فشلوا تماماً في مباراة روعة القرآن)^(٢).

وما زال لدينا دليل آخر على الأصل الإلهي للقرآن هو أن نصه قد ظل ثابتاً نقياً طوال القرون الطويلة منذ نزوله إلى اليوم^(٣).

(١) د/ لورا فاجليري «أستاذة بمعهد الدراسات الشرقية بميلانو» تفسير الإسلام ص ٢٤ / ٢٣ ترجمة أحمد أمين سلسلة الثقافة الإسلامية العدد ١٢ ١٣٧٩ هـ أكتوبر ١٩٥٩ م.

(٢) نفسه ص ٣٤.

(٣) نفسه ص ٣٥.

وقد توسعت في شرح رسالة النبي ﷺ الداعية إلى التوحيد، واتخذت من إخلاص صحابته، ونجاحهم في الفتوحات المذهلة ومن إعجاز القرآن وهي معجزة الإسلام العظمى وأخلاق الرسول ﷺ، اتخذت من كل ذلك أدلة على أنه ﷺ نبي صادق وأنه كان مجدداً لدين إبراهيم ﷺ الذي حُرف من بعده، ووصفت القرآن الكريم بأنه أعظم معجزة، وأنه ممتنع عن التقليد والمحاكاة، وتتساءل (كيف يمكن أن يكون هذا الكتاب المعجز من عمل محمد ﷺ وهو العربي الأمي)؟! (١).

وفي ضوء فلسفة التاريخ التي تفسر قيام الحضارات وسقوطها، تأملت النقلة الهائلة التي انتقل بها العرب من الجاهلية إلى الحضارة، إذ تقول (ولا يزال العقل البشري يقف ذاهلاً، دون اكتشاف القوى السحرية التي مكنت جماعة من المحاربين الحفاة من الانتصار على شعوب متفوقة عليها تفوقاً كبيراً في الحضارة والثروة والخبرة والقدرة على شن الحرب) (٢).

لقد اخرج الله العرب بالإسلام من الظلمات إلى النور، وعلة ذلك هذا

(١) لورافينشيا فاغليري «دفاع عن الإسلام» ترجمة منير البعلبكي الطبعة الثالثة ١٩٧٦م دار العلم للملايين / بيروت.

(٢) نفسه ص ٢٢.



الدين الذي يخاطب العقل والقلب جميعاً وأقام حكومة لم يعرفها العالم من قبل (لقد تجلّى أمام عيون العالم المندهش دين جديد بسيط سهل، يخاطب القلب والعقل جميعاً، وأقام شكلاً جديداً من أشكال الحكومة كان أسمى في خصائصه ومبادئه الأخلاقية من تلك المعروفة في ذلك العصر)^(١).

وسرى كيف قطعت ألسنة أعدائه الذي اختلقوا عنه الأباطيل، فاتهموه ﷺ بالكذب والقسوة، وتصدت تدافع عنه ﷺ متسلحة بمنطق العقل ومستندة إلى سيرته العطرة ﷺ وتاريخ حضارة الإسلام وسير صحابته وإبراز الوجه الناصع لتاريخ المسلمين المتميز.

وتعلل انتشار الإسلام - لا بالقوة - بل لأنه يستند إلى الكتاب الذي قدمه المسلمون إلى الشعوب المغلوبة - كتاب الله - كلمة الحق، أعظم معجزة كان في ميسور محمد ﷺ أن يقدمها إلى المترددين في هذه الأرض» ومن مميزات القرآن أنه ممتنع على التقليد والمحاكاة، وأن نصه ظل صافياً طوال قرون مما يبرهن على مصدره الإلهي، وأنه يوقع في نفس من يتلوه أو يصغي إليه حساً عميقاً من المهابة والخشية^(٢).

(١) نفسه ص ٢٧.

(٢) نفسه صفحات ٥٨ و ٥٩.

كان المثل الأعلى الذي أراد محمد ﷺ أن يحققه بأي ثمن، فقاتل قتال الرجل الوديع ضد الغطرسه والطغيان، أو قل قتال الرجل الذي لا يرغب في الحرب ولكنه مكره على منازلة أولئك الذي أصروا على تدميره بالقوة، وإنما نهض بهذه المهمة وأنصاره قلة قليلة، ولكنه نهض بها واثقاً من أنه كان يمهد السبيل لإيصال الحقيقة إلى كثير من النفوس، ومن أنه كان مكلفاً بأن يهدي الناس سواء السبيل في غمرة الظلام، وعند وصوله إلى المدينة مدّ يد الصداقة أول ما مدّها إلى اليهود الذي مثلوا في هذه المدينة جماعة غنية مزدهرة.

لقد دعاهم إلى التعاون الصادق في وحدة سياسية واجتماعية. ولكنه حين أدرك أنهم معادون له عداءً مطلقاً وأنهم مصرون على اتباع سبيل خاطئة غادرة تعين عليه أن يقاتلهم ويعاقبهم. كانت الحرب ضد الأعداء الخارجيين ضرورة من ضرورات العصر^(١).

لقد كانت الحرب دائماً وسيلة لحماية الدين الجديد وتعظيمه، لا غاية في ذات نفسها. كانت دفاعاً ضرورياً، لا عدواناً جائراً. ولقد عبر القرآن عن هذه الفكرة بأجلى بيان: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].



وتنفي تهمة الروح العدوانية للإسلام فتذكر أن الرسول ﷺ الصابر على
سخرية قريش واضطهادها (اضطر أن يمتشق الحسام بعد أن فوض الله تعالى
إليه أمر الدفاع عن نفسه ورد كيد أعدائه ومن ذلك الحين لم يعطه أولئك الأعداء
أيما مهلة تمكنه من إعادة الحسام إلى غمده)^(١).

وقالت الدكتورة لورا فاليري في دفاعها عن النبي ﷺ «قام أعداء
الإسلام الألداء الذين أعماهم الحقد والتعصب واتهموا رسول الله ﷺ ذلك
الرجل النبيل الذي كان يُنظر إليه قبل الرسالة نظرة إكبار وإجلال من جميع
مواطنيه لما تحلى به من الأمانة والسجايا الكريمة، وكانت هذه التهمة التي رموه
بها مما لا يقبله عقل ولا يمكن أن يسلم به عاقل، فضلاً عن أنها لا تقوم على أي
أساس... (وليت شعري كيف أن هؤلاء الناس لم يسألوا أنفسهم إذا كان النبي
ﷺ في الحقيقة كاذباً «حاشاه»، فكيف اجترأ على أن يوجه في القرآن إلى
الكذابين والمخادعين أشد عبارات الذم وأقساها. وكيف توعدهم بالنار وسوء
العذاب؟ وكيف تسنى له أن يقوم بدعوته إذا لم يكن هناك وحي إلهي يدفعه
إليه؟... وكيف صمد للمقاومة أكثر من عشر سنين وهو في مكة، احتمل أثناءها
الشيء الكثير من صنوف الاضطهاد والآلام، وهو ذلك الرجل الوديع الهادئ

(١) نفسه ص ٢٣.

الطباع؟ وكيف تهيأ له أن ينحاز إليه طواعيةً واختياراً بل بمتهى التحمس جماعات كبيرة من رجالات قريش ونبلائهم وأن ينحنوا تحت لوائه مع غيرهم من السوق والعبيد؟ أوليس ذلك لأنهم تبينوا صدقه ﷺ وتحققوا من صحة ما جاء به؟ حسبنا ما قدمناه من الأدلة والبراهين، لأن رجال الغرب أيضاً قد بدأوا يقتنعون بأن إخلاص محمد ﷺ في دعوته كان أمراً لا ريب فيه^(١).

ثانياً: الكاتب البريطاني توماس كارلايل.

وتوماس كارلايل هو أحد القلائل الذي عارضوا الأباطيل التي أذاعها نفر من بني جلدته النصراني حول النبي ﷺ، وكان يعتمد - كما سنرى - على حجج عقلية دامغة، وتفنييد الأباطيل بدراسته الشاملة لتاريخ العرب وعقائدهم وطباعهم وعاداتهم قبل الإسلام وبعده، وأخذ يتعقب سيرة الرسول ﷺ منذ مولده وكيف كانت رسالته صدمة لأهل الجزيرة العربية، واصفاً الرسول ﷺ بالصدق والأمانة والإخلاص في إبلاغ دعوته.

ولا يصرفنا تقديرنا لموقف كارلايل الشجاع بمواجهته للمفترين من النصراني ببلده، لا يصرفنا ذلك عن نقد منهجه بكتابته «الأبطال» - مصدر

(١) د. لورا فيتشيا فالير «محاسن الإسلام» ص ٢٢ / ٢١ ترجمة طه فوزي - مطبعة الجامعة الإسلامية - يافا قدم له شكيب أرسلان في ١٧ جمادى الآخرة ١٣٥٢ هـ.



دراستنا - إذ وقع في خطأ فادح لخلطه بين «الأبطال» بعقائدهم وعظائم أعمالهم التي تميزهم عن سائر الناس، وبين الأنبياء والرسل ﷺ الذين اصطفاهم الله ﷻ لإبلاغ دينه، وقد خلط بين هؤلاء وأولئك بقوله: (وكل ما تراه قائماً في هذا الوجود كاملاً متعمقاً فاعلم أنه نتيجة أفكار أولئك العظماء الذين اصطفاهم الله وأرسلهم إلى الناس)^(١).

وبدا في المحاضرة التي خصصها للحديث عن الرسول ﷺ بقوله: (ننتقل الآن من تلك العصور الخشنة. الوثنية الشمالية إلى دين آخر في أمة أخرى.. دين الإسلام في أمة العرب، وما هي إلا نقلة بعيدة وبعد شاسع بل أي رفقة وأي ارتقاء نراه هنا في أحوال العالم وأفكاره؟ في هذا الطور الجديد لم ير الناس في بطلهم إلهاً بل رسولاً بوحى من الإله، وهذه هي الصورة الثانية للبطل، لقد كان اعتبار الرجل العظيم إلهاً غلطة وحشية فاحشة)^(٢).

وقد نفى بشكل حاسم الاتهامات الموجهة للرسول ﷺ: «فإن الرسالة

(١) توماس كارلايل «الأبطال» ص ١٣ ترجمة محمد السباعي مكتبة مصر بالفجالة - القاهرة ١٩٩٤ م.

(٢) كارلايل «الأبطال» ص ٥٢ ويقصد بذلك أن قدماء السويد والنرويج كانوا يعبدون شخصاً اسمه «أودين» ويصفه بأنه كان قطب دائرة الوثنية في تلك الأقطار ص ١٥.

التي أداها ذلك الرسول ﷺ مازالت السراج المنير مدة اثني عشر قرناً لنحو مائتي مليون من الناس أمثالنا، خلقهم الله الذي خلقنا، أفكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها هؤلاء الملايين الفائقة الحصر والإحصاء كذبة وخدعة؟!^(١).

وكان شديد اللهجة في وصف القائلين بذلك من بني جنسه، فيقول تارة: (لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد متمدن من أبناء هذا العصر أن يصغي إلى ما يظن من أن دين الإسلام كذب)^(٢).

ويعبر في موضع آخر عن حبه للرسول ﷺ ووصفاً أخلاقه، ومثبتاً صفة رسالته العالمية بخطابه إلى قياصرة الروم وأكاسرة العجم: (وإني لأحب محمداً ﷺ لبراءة طبعه من الرياء والتصنع، ولقد كان رجلاً مستقل الرأي لا يعول إلا على نفسه ولا يدعي ما ليس فيه، ولم يك متكبراً، ولكنه لم يكن ذليلاً فهو قائم في ثوبه المرقع كما أوجده الله، وكما أراد، يخاطب بقوله الحر المبين قياصرة الروم وأكاسرة العجم، يرشدهم إلى ما يجب عليهم لهذه الحياة وللحياة الآخرة)^(٣).

(١) نفسه ص ٥٣.

(٢) نفسه ص ٥٤/٥٣.

(٣) نفسه ص ٧٩.



وبعد ذلك يفصح عن رأيه الذي خلص إليه من دراسة سيرة النبي ﷺ فيقول: (فلسنا نعد محمداً ﷺ هذا قط رجلاً كاذباً متصنعاً يتذرع بالحيل والوسائل إلى بغيه أو يطمح إلى درجة ملك أو سلطان أو غير ذلك من الحقائق والصغائر، وما الرسائل التي أداها إلا حق صراح)^(١).

ثم يقرر في عبارة واضحة جلية بما سماها بالحقيقة الكبرى (وهي أنه رجل صادق ونبي مرسل ﷺ)^(٢).

وينفي كارلايل تلقي الرسول ﷺ العلم من بحيرا الراهب بقوله: (وإني لست أدري ماذا أقول عن هذا الراهب الذي يزعم أن محمداً ﷺ سكن معه في دار، ولا ماذا عساه يتعلمه غلام في السن الصغيرة من أي راهب ما. فإن محمداً ﷺ لم يكن يتجاوز آنذاك الرابعة عشرة، ولم يكن يعرف إلا لغته)^(٣).

ونضيف هاهنا أن قصة التقاء الرسول ﷺ للراهب بحيرا تعرضت لنقد علمي وفق منهج علماء الحديث في الجرح والتعديل، إذ ضعف الشيخ رشيد رضا هذه القصة وقال بأن الروايات الخاصة بها ضعيفة الإسناد إلا رواية

(١) نفسه ص ٥٥.

(٢) نفسه ص ٥٥.

(٣) نفسه ص ٦١.

الترمذي وليس فيها بحيرا وفيها غلط في المتن وليس في شيء منها أن محمداً ﷺ سمع من بحيرا شيئاً عن عقيدته أو دينه «ولم يكن بحيرا - إن وجد حقيقة أبلاه إلى درجة أن يفتح صبيّاً صغيراً بمثل هذه الأسرار العليا»^(١).

(١) محمد لطفي جمعة «ثورة الإسلام وبطل الأنبياء ﷺ» ص ٥٥٠ مكتب النهضة المصرية ١٩٥٨ م.

تتلخص الرواية التي أوردها البيهقي في كتابه «دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة فيما يلي:

(أن الراهب ويسمى «بحيراً» سأل الرسول ﷺ عن أشياء من حاله في نومه وهيئته وأموره، فجعل رسول الله ﷺ يخبره، فيوافق ذلك ما عند بحيرا من صفته، ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه، من صفته التي عنده. قال: فلما فرغ منه أقبل على عمه أبي طالب، فقال له: أهذا الغلام منك؟ فقال: ابني. فقال له بحيرا: ما هو بابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً. قال: فإنه ابن أخي. قال: فما فعل أبوه؟ قال: مات، وأمه حبل به. قال: صدقت. قال: ارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه اليهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شراً، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن).

البيهقي: دلائل النبوة ج ٢ ص ٢٩ / ٢٨ تحقيق د/ عبد المعطي دار الكتب العلمية / بيروت وقد أورد الرواية صفى الرحمن المباركفوري في كتابه «الرحيق المختوم» ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م تحت عنوان «بحيرى الراهب» حيث أخذ بيد رسول الله ﷺ، وقال: هذا سيد العاملين، هذا رسول رب العالمين، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين» ص ٧٦ ط دار الوفاء بالمتصورة - مصر ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.



ويقول كارلايل في موضوع آخر - متحدثاً عن الوحي - مع التحفظ (فمن فضائل الإسلام التضحية بالنفس في سبيل الله، وهذا أشرف ما نزل من السماء على بني الأرض. نعم هو نور الله قد سطع في روح ذلك الرجل فأنار ظلماتها، هو ضياء باهر كشف تلك الظلمات التي كانت تؤذن بالخسران والهلاك، وقد سماه محمد ﷺ وحيًا «جبريل» وأينا يستطيع أن يحدث له أساء؟ ألم يجيء في الإنجيل أن وحي الله يهبط الفهم والإدراك؟ فشعور محمد ﷺ إذا اشتعلت روحه بلهب هذه الحقيقة الساطعة بأن الحقيقة المذكورة هي أهم ما يجب على الناس علمه لم يك إلا أمراً بديهاً، وكون الله قد أنعم عليه بكشفها، ونجاه من الهلاك والظلمة، وكونه قد أصبح مضطراً إلى إظهارها للعالم أجمع هذا كله هو معنى كلمة «محمد رسول الله» وهذا هو الصدق الجلي والحق المبين^(١).

وبعد استبعاد عبادة الأصنام وهي ليست سوى أخشاب حقيرة فإنه يعلن

=وقال في الحاشية: انظر جامع الترمذي، وتاريخ الطبري، والمصنف لابن أبي شيبة ودلائل النبوة للبيهقي، ولأبي نعيم وإسناده ثابت وقوي.

ولم يرد قط في رواية التقاء الراهب بحيرى بالرسول ﷺ أنه سكن معه أو تعلم منه، بل كان لقاءً عابراً، وأخذ الراهب يسأل الرسول ﷺ فيجيبه.

(١) كارلايل «الأبطال» ص ٦٧.

في عبارة جامعة (وأن لا إله إلا الله وحده لا شريك له فهو الحق وكل ما خلاه باطل، خلقنا وبرزقنا، الله أكبر والله الحمد، ثم الإسلام وهو أن نسلم الأمر لله ونذعن له ونسكن إليه ونتوكل عليه، وأن القوة كل القوة هي في الاستقامة لحكمته والرضا بقسمته أيا كانت في هذه الدنيا وفي الآخرة، ومهما يصيبنا به الله ولو كان الموت الزؤام فلتتلقه بوجه مبسوط ونفس مغتبطة راضية ونعلم أنه الخير وأن لا خير إلا هو. ولقد قال شاعر الألمان وأعظم عظمائهم «جوته» إذا كان ذلك هو الإسلام فكلنا إذن مسلمون. نعم كل من كان فاضلاً شريف الخلق فهو مسلم^(١).

ثالثاً: كارين أرمسترونج الباحثة في الأديان.

أقدمت الكاتبة البريطانية كارين أرمسترونج الباحثة في الأديان بشجاعة لتكتب عن الإسلام وعن الرسول ﷺ بمنهج علمي موضوعي^(٢) مستند على مصادر تاريخية، وتناقش مخالفيها بحجج عقلية دامغة، غير مبالية باتهامها بالنفاق، فقالت «ولو أن كلامي هذا سيجلب لي تهمة النفاق من وجهة نظر

(١) نفسه ص ٦٦، ومراده فقد طبق تعاليم الإسلام وإلا فإن من المعلوم أن حسن الخلق وحده لا يكفي في جعل الشخص مسلماً.

(٢) في الجملة وإلا فلم تسلم كتاباتها من الخطأ والانحراف.



أوبريان، الذي يحیی التقالید التي تعتبر أي احترام للإسلام بمثابة خیانة ثقافیة^(١) وقد مضت فی دراساتها لتثبت الوحي للرسول ﷺ وتنفي نقله عن اليهود والنصارى مؤيدة لمعنی أميته ﷺ بأنه الجهل بالكتابة والقراءة، وتعرف الإسلام بأنه استسلام المرء لله ﷻ مفسرة لفظ «الفارقلیط» بالترجمة الصحیحة وتعني «أحمد» الذي هو تنويع علی اسم «محمد».

وتورد الآية الكریمة ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٥]^(٢).

(١) كارين أرمسترونج «محمد ﷺ» ص ٦٨.

(٢) نفسه ص ١٣٤.

وهكذا عرفوا حقيقة اسم «الفارقلیط» الوارد فی الإنجيل، ولابن تیمية شرح مفصل لمعنی هذا الاسم، قال: (فإن معنی الفارقلیط، إن كان هو الحامد أو الحماد أو الحمد أو المعز، فهذا الوصف ظاهر فی محمد ﷺ فإنه وأمته، الحمادون، الذين یحمدون الله علی كل حال، وهو صاحب لواء الحمد، والحمد مفتاح خطبته ومفتاح صلاته).

ويمضي قائلاً: (وإذا كان كذلك، فهو ما جاء فی القرآن ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، قالوا: ولا شك عندهم أنه اسم مشتق من الحمد.

ص ١٠١ كتاب «دلائل النبوة وأعلام رسالة النبي محمد ﷺ»، وهو مختصر كتاب =

وربما كانت عبارتها التالية معبرة باختصار عن منهجها في البحث المؤدي تلقائياً إلى النتائج الصحيحة، قالت: (وتثبت الدراسة الجادة للإسلام أن المثل القرآنية العليا قد ساهمت مساهمة كبير، على امتداد ١٤٠٠ سنة، في انتعاش الحياة الروحية للمسلمين وتوافق على النتيجة التي وصل إليها أحد الباحثين حيث ثبت لديه أن الشريعة المسلمة من المجتمع الإسلامي لا تزدهر إلا إذا كان الإسلام قوياً وحيوياً ونقياً وخلاقاً وسليماً)^(١).

كذلك فانها تثبت الوحي الإلهي بقولها: (حينما تلقى النبي محمد ﷺ الذي ولد بمكة بالحجاز وحيه الأول عام ٦١٠ ميلادية لم يكن يعتقد أنه على وشك تأسيس ديانة عالمية جديدة، وكان محمد ﷺ الذي اشتهر بنزاهته أثناء اشتغاله بالتجارة في مكة، قد اهتم لفترة طويلة بالحالة الروحانية المتدهورة التي كانت مدينته تعاني منها - أي بعدم الرضا عن الوثنية القديمة)^(٢).

= ابن تيمية «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» اختصره الدكتور / مصطفى حلمي - دار الإبداع بالإسكندرية ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م.

(١) نفسه ص ٦٩.

(٢) كارين أرمسترونج «القدس، مدينة واحدة، عقائد ثلاث» ص ٣٦٩ ترجمة د. فاطمة نصر ود. محمد عناني مكتبة الأسرة ٢٠٠٩ م.



إلا أن ذلك كله تغير دون رجعة في شهر رمضان من عام ٦١٠ م حينما اهتز كيان محمد ﷺ في حضور إلهي رهيب، ووجه كلمات كتاب مقدس موحى به تتدفق من فمه، واستمر محمد ﷺ على مدى السنوات الاثنتين والعشرين التالية، في تلقي الوحي من الله، وقد قام صحابة محمد ﷺ بعد ذلك بجمعه في مصحف عربي يُعرف بالقرآن.

وتقول (ويؤكد القرآن الكريم مراراً أن الوحي الذي أنزل على محمد ﷺ لا يلغي رسالات من سبق من الرسل مثل آدم ونوح وإبراهيم وإسحاق وإسماعيل ويعقوب وموسى وداوود وسليمان وعيسى. أي أن ما جاء بالقرآن هو إعادة تذكرة بالرسالة الواحدة التي أرسلها الله للأمم جميعها. وعلى هذا تكون الوثنية تفضيل عقيدة أو مذهب إنساني على الله ذاته الذي يسمو فوق كل الأنظمة الإنسانية، ولذا فإن المسلمين بعودتهم إلى العقيدة الأولى لإبراهيم يجعلون من الإيمان بالله وليس أي مؤسسة دينية أخرى هدفاً لحياتهم)^(١).

وتنفي أرمسترونج نفيًا قاطعاً نقل الرسول ﷺ من اليهود والنصارى، لأنه أمر بناءً على ما ورد بالقرآن الكريم بالعودة إلى دين إبراهيم ﷺ.

(١) نفسه ص ٣٧٤.

فتقول: (دُهِشَ النبي ﷺ حينما اكتشف تنازعهم (أي اليهود والنصارى) على أمور عقائدية ليس بإمكان أحد أن يبرهن على صحتها أو عدم صحتها)^(١).
وجاء الرسول ﷺ بالتوحيد مثل إبراهيم ﷺ «فلقد أمر القرآن المسلمين بالعودة إلى دين إبراهيم ﷺ الأصل الخالص، ولقد عاش إبراهيم ﷺ قبل التوراة والإنجيل، لذا لم يكن يهودياً أو نصرانياً وإنما كان ببساطة - مسلماً - أي إنساناً سلم نفسه كلية لله ﷻ»^(٢).

وتصف تغير القبلة بأنه أكثر إيماءات الإسلام إبداعاً، فقد كان ذلك التغير علامة على عودة المسلمين إلى عقيدة إبراهيم ﷺ الأصلية قبل انقسامها نتيجة لتشرذم اليهود والمسيحيين في طائفة متناحرة^(٣).

وقد ناقشت باستفاضة أمية الرسول ﷺ لترد على بعض الدارسين الغربيين المحدثين الذين نفوا بأن لقب «أمي» تعني الجهل بالقراءة والكتابة إذ كان النبي ﷺ قد ألم بمبادئ الكتابة، ويذهبون إلى معنى أنه ﷺ كان نبياً «لأُميين» الذين لم يتلقوا كتاباً سواها من الله، وبمعنى آخر يفسر لفظ الأمي على

(١) نفسه ص ٣٧٣.

(٢) نفسه ص ٣٧٣.

(٣) نفسه ص ٣٧٧.



أنه يعني غير اليهودي «النبي المرسل لغير اليهود» وواصل البعض من هذا المنطلق تأكيدهم أن لفظ أمي متصل بلفظ أمة، ويعني في هذا السياق بني القوم. وكانت موفقة في الرد عليهم بقولها: (إنه من الحماقة أن نتحدى التفسير الموروث للمسلمين للفظ «أمي» كما أنه لا يوجد في المصادر الأولى أي ذكر عن قدرة محمد ﷺ على الكتابة والقراءة، وحينما كان يحتاج لإرسال خطاب يمليه على أشخاص مثل علي - ﷺ - الذي كان ملماً بالقراءة والكتابة، ولو كان صحيحاً أن محمداً ﷺ قد أخفى قدرته على الكتابة والقراءة طيلة حياته لكانت تلك خدعة كبرى، وخلافاً لكون ذلك منافياً لطبيعته ﷺ^(١)).

(١) كارين أرمسترونج «محمد ﷺ» ص ١٣٦ ترجمة فاطمة نصر ود. محمد عناني ط ٢ سطور ١٩٩٨م.

وقد أفحمت كارين أرمسترونج مخالفيها من المغالطين في تفسير أمية الرسول ﷺ، ومع كثرة استشهادها بالآيات القرآنية، نرجح أنها فهمت معاني الآيات التي نعتت ﷺ بالأمية، كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوثًا عِنْدَهُمْ فِي الْوَرْدَةِ وَالْأَنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ ذَلَّلُوا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ لُحْمٌ وَأَرْجُلٌ أَتَى اللَّهُ الْفَلَاحَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْدَادٍ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

= ور بما اطلعت على تفسير الإمام الطبري أو غيره من المفسرين.

= قال الإمام الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ﴾ [البقرة: ٧٨] «الأمي» عند العرب: هو الذي لا يكتب.

قال أبو جعفر «وأرى أنه قيل للأمي «أمي» نسبة له بأنه لا يكتب إلى «أمه» لأن الكتاب كان في الرجال دون النساء، فُنُسب من لا يكتب ولا يخط من الرجال - إلى أمه - في جهله بالكتابة دون أبيه. «تفسير الطبري» جامع البيان في تأويل القرآن» ج ١ ص ٤١٧ ط دار الكتب العلمية - بيروت ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: ١٥٧] هو نبيكم ﷺ كان أمياً لا يكتب. «نفسه ج ٦ ص ٨٤.

وقال الشيخ رشيد رضا «النبي الأمي نسبة إلى الأم، والمراد به الذي لا يقرأ ولا يكتب» السيد محمد رشيد رضا «تفسير القرآن الحكيم - الشهير بتفسير المنار - ج ٩ ص ٢١٦ ط ٤ دار المنار بمصر ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م.

وقد اتخذ الطبيب الفرنسي المهتدي للإسلام - مورييس بوكاي - من أمية الرسول ﷺ دليلاً قطعياً على أن القرآن الكريم هو كلام الله ﷻ، وذلك أثناء مقارنته بين مسألتني الخلق والطوفان - كما وردتا بالتواتر والقرآن الكريم وخلص من دراسته إلى القول بعدم اتفاق العلم مع أقوال التواتر، بينما رأى اتفاقاً كاملاً بين أقوال القرآن الخاصة بنفس المسائل وبين العلم الحديث، ثم قال: (ومن ذلك يمكن ملاحظة الفروق التي تجعل بالدقة أحد النصين مقبولاً علمياً في العصر الحديث على حين تجعل الآخر غير مقبول) - مورييس بوكاي «القرآن الكريم والتواتر والإنجيل والعلم - دراسة الكتب المقدمة في ضوء المعارف الحديثة ص ١٤٩ ط ٤ دار المعارف بمصر ٢٠٠٦ م.

وفي نهاية بحثه يدحض فرض الذين يرون في محمد ﷺ مؤلفاً للقرآن، ويتساءل متعجباً=



رابعاً: الفيلسوف الفرنسي والأديب الشهير فولتير.

وهناك أيضاً حالة خاصة يعبر عنها الفيلسوف الفرنسي والأديب الشهير فولتير تستحق العناية والاهتمام من جانب الباحثين، إذ مما يلفت النظر، أنه بعد تنحيه عن أقواله الأولى المتسرعة عن الإسلام والرسول ﷺ - ظلت المؤلفات في الغرب تردد كلماته السابقة، أي قبل تحوله إلى مرحلة تصحيح المفاهيم، وها هي آراؤه الأخيرة، وفحواها أن القرآن لا يزال في واقع الأمر يشتهر إلى اليوم بأنه الكتاب الأكثر تميزاً وسمواً، لقد ألصقنا بالقرآن ما لا نهاية له من السخافات التي لم تكن به على الإطلاق.

ثم فند الشدة المزعومة في معاملة النساء بقوله: (كان يكفي قراءة السورتين الثانية والرابعة من القرآن حتى يهتدي الناس إلى الحق).

ودفاعاً عما يُنسب للرسول ﷺ قال: (كما أننا لا نستطيع أن ندينه على عقيدته في الإله الواحد، فهذه هي كلمات السورة رقم ١١٢ تقول: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١-٤]،

= ومستبعداً هذا الفرض تماماً، (كيف يمكن لإنسان - كان في بداية أمره أمياً... أن يصرح بحقائق ذات طابع علمي لم يكن في مقدور أي إنسان في ذلك العصر أن يكونها!!؟ نفسه

ص ١٥٠.

إنني أقول: إن هذه الكلمات أخضعت له الشرق أكثر مما فعل سيفه، وفي كلمة موجزة، فإن شريعته صالحة، وعقيدته تدعو إلى الإعجاب به^(١).

ومن أقواله: (إن مؤلفينا لم يجدوا صعوبة تذكر في جعلنا نساءنا تقف في صفهم لقد أقنعوهن بأن محمداً لم يعتبرهن ضمن الحيوانات الذكية، وأنهن جميعاً إماء وفق شريعة القرآن.. ومن الواضح أن كل هذا كذب وبطلان اعتقدوا فيه بكل قوة أيها الجهلة الأغبياء الذي خدعهم جهلة آخرون، إذ أقنعوكم بأن الديانة المحمدية ديانة شهوانية ولذات جسدية، بينما هي ليست شيئاً من ذلك)^(٢).

(١) القاموس الفلسفي لفولتير - المجلد السابع، نقلاً عن اللواء أحمد عبد الوهاب في كتابه «الإسلام في الفكر الغربي - دين ودولة وحضارة» ص ٥٤ / ٥٣ / ٥٠ مكتبة التراث الإسلامي بالقاهرة ١٩٩٣ م، وقد أساء «فولتير» إساءة بالغة للرسول ﷺ في مسرحية شهيرة بعنوان «التعصب أو محمد النبي ﷺ» عُرضت لأول مرة في مدينة ليل بفرنسا سنة ١٧٤١ م ثم تراجع رويداً رويداً عن أباطيله في الإسلام ونبيه ﷺ، ونعته بكل أوصاف التمجيد والإكبار.

(٢) لواء أحمد عبد الوهاب «الإسلام في الفكر الغربي» ص ١٣٢ ويذكر أن مسرحيته كانت تعبر عما كان سائداً في أوروبا حين عرضها آنذاك، ولا يزال في أغلبه إلى الآن ص ٨٩.



مقتطفات من مواقف بعض علماء الغرب الملتزمين بالمنهجية العلمية في
دراساتهم الإسلامية:

ونورد فيما يلي آراء بعض العلماء الذين تحرروا من التعصب الذميم وسمح
لهم الاطلاع الواسع على مصادر الإسلام إصدار الحكم الصائب بخلاف آراء
أغلب المستشرقين التي تشهد على نقص الاطلاع على المستوي التاريخي العلمي
ولا حجة لهم، إذ تقول أرمسترونج الباحثة في الأديان: (إننا نعرف عن
محمد ﷺ أكثر مما نعرف عن مؤسس أي دين من الأديان الرئيسية الأخرى وأن
دراسة حياته يمكن أن تهبط إدراكاً عميقاً ومهماً لطبيعة التجربة الدينية)^(١).

وإزاء طغيان الصورة المزيفة التي كونها النصارى للرسول ﷺ وتعرضه
للتجريح قرر الدكتور ميغيل إيرناندت الأستاذ بجامعة مدريد في بحث له
بعنوان «ال جذور الاجتماعية والسياسية للصورة المزيفة التي كونتها المسيحية عن
النبي ﷺ» كان قد قدمه للمؤتمر الثاني للحوار الإسلامي المسيحي الذي عقد في
قرطبة بأسبانيا عام ١٩٧٧ قرر فيه بقوله: «لا يوجد صاحب دعوة تعرض
للتجريح والإهانة ظلماً على مدى التاريخ مثل محمد ﷺ» إن الأفكار حول
الإسلام والمسلمين ونبيه محمد ﷺ استمرت تسودها الخرافة حتى نهاية

(١) كارين أرمسترونج «محمد ﷺ» ص ٢٤.

القرن الثاني عشر الميلادي. ولم يمنع الاحتكاك المباشر بين الطائفتين من انتشار هذه الخرافات^(١).

وكتب برنارد لويس عن الإسلام يقول: «أرسل الله الملك جبريل ليملي القرآن على محمد ﷺ بهذا يكمل القرآن سلسلة الوحي التي سبقت إلى أنبياء اليهود وإلى عيسى ومن ثم يكون محمد ﷺ أعظم الأنبياء وخاتمهم ويكون القرآن هو «الكتاب» الأخير وبمقارنته رسالة النبي ﷺ برسالات الأنبياء قبله، خلص إلى القول: (ولقد كان الأنبياء الكثيرون الموحدون وتلاميذهم الذي شاركوا في هذا الصراع قبل محمد ﷺ كانوا جميعاً مسلمين. وتدل كلمة الإسلام على الدين الحق الذي دعا إليه كل المرسلين الذين اختارهم الله)^(٢).

ونفس المنهج اتبعه مارسيل بوازار فقرر أن محمداً ﷺ جاء بالرسالة الخاتمة مصححاً انحرافات البشرية.

قال مارسيل بوازار - وهو أستاذ جامعة سويسري - (إن شرائع متنوعة عرف الله بها الناس عن طريق أنبياء مختارين ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] إلا أن

(١) لواء / أحمد عبد الوهاب «الإسلام في الفكر الغربي» ص ١٢ مكتبة التراث الإسلامي بالقاهرة ١٩٩٣ م.

(٢) نفسه ص ٤٦ / ٤٥.



تلك الأمم لم تلتزم دائماً بالشريعة التي جعلها الله لكل منهم، على الرغم من النذر التي جاءتهم فجاء محمد ﷺ يحمل الرسالة النهائية التي أعدت لتصحيح الأخطاء أو التحريفات التي لحقت بما سبق من وحي، وليكمل نهائياً نقل الشريعة الإلهية إلى الناس^(١).

ومن مؤلفي الإفرنج الذي أقرروا بنبوة محمد ﷺ إدوارد مونتيه - مدرس اللغات الشرقية في جامعة جنيف - فقد قال في مقدمة ترجمته للقرآن: (كان محمد ﷺ نبياً صادقاً، كما كان أنبياء بني إسرائيل في القديم، كان مثلهم يؤتى رؤيا ويوحى إليه وكانت العقيدة الدينية وفكرة وجود الألوهية متمكنتين في أولئك الأنبياء أسلافه).

العالم الأمريكي: مايكل هارت.

كذلك أقر العالم الأمريكي مايكل هارت - وهو عالم فلكي رياضي، يعمل في هيئة الفضاء الأمريكية - أقر بنبوة محمد ﷺ حينما وازن بين رسالته ودوره وبين دور عيسى ﷺ فقال: (إن الرسول محمداً ﷺ قد كان دوره أخطر وأعظم في نشر الإسلام وتدعيمه وإرساء قواعد شريعته أكثر مما كان لعيسى ﷺ في

(١) نفسه ص ٨٥ / ٨٤.

الديانة النصرانية، وعلى الرغم من أن عيسى عليه السلام هو المسئول عن مبادئ الأخلاق في النصرانية، غير أن القديس (بولس) هو الذي أرسى أصول الشريعة النصرانية، وهو أيضاً المسئول عن كتابة الكثير مما جاء في كتب (العهد الجديد).

أما الرسول ﷺ فهو المسئول الأول والأوحد عن إرساء قواعد الإسلام وأصول الشريعة والسلوك الاجتماعي والأخلاقي وأصول المعاملات بين الناس في حياتهم الدينية والدنيوية. كما أن القرآن الكريم قد نزل عليه وحده. وفي القرآن الكريم وجد المسلمون كل ما يحتاجون إليه في دنياهم وآخرتهم.

والقرآن الكريم نزل على الرسول ﷺ كاملاً. وسجلت آياته وهو ما يزال حياً. وكان تسجيلاً في منتهى الدقة، فلم يتغير منه حرف واحد. وليس في النصرانية شيء مثل ذلك.

فلا يوجد كتاب واحد محكم دقيق لتعاليم النصرانية يشبه القرآن الكريم، وكان أثر القرآن الكريم على الناس بالغ العمق ولذلك كان أثر محمد ﷺ على الإسلام أكثر وأعمق من الأثر الذي تركه عيسى عليه السلام على الديانة النصرانية^(١).

(١) مايكل هارت «محمد ﷺ أعظم الخالدين» ص ١٠ ترجمة أنيس منصور ط نهضة مصر



ونأتي أخيراً بنص اعتراف أحد أعدائه ﷺ الذي اضطر إلى الإقرار بالحقيقة فقد نقل «سيل» في مقدمة ترجمة القرآن عن «هميس» النصراني عدو محمد ﷺ ومنكر رسالته في الصفحة السادسة طبعة ١٨٥٠ ما يأتي في صفة النبي ﷺ: (إنه كان حسن الوجه وذكياً وكانت طريقته مرضية، وكان الإحسان إلى المساكين من شيمته، وكان يعامل الكل بخلق حسن، وكان شجاعاً على الأعداء. وكان يعظم الله تعظيماً كبيراً، وكان يشدد على المفترين الذي يرمون الأبرياء وكذا الزناة والقتلة، وأهل الفضول والطامعين وشهود الزور، وكانت كثرة وعظه في الصبر والجود «صلة الرحم والإحسان وتعظيم الأبوين وتوقيرهم وتكريمهم وكان عابداً مرتاضاً حتى الغاية»^(١).

(١) عبد الرحمن العيسوي «لماذا أنا مسلم» ص ٨٤/٨٣ مكتبة وهبة بالقاهرة رجب ١٤٠١هـ

مايو ١٩٨١م.

ابيض



الخاتمة

يتبين لنا من العرض المختصر لأراء أولئك الغربيين المنصفين أن تقديرهم للرسول ﷺ مبني على أمرين: أحدهما قراءة واعية لسيرته ﷺ، فإن استخدام العقل الفطري بميزانه السوي، ومعرفة أخلاقه ﷺ ورسالته وجهاده الذي قلب أحوال العرب رأساً على عقب، أدى إلى إقرارهم بصدق نبوته ﷺ.

هذا التحول المذهل الذي أطلقت عليه الكاتبة الإيطالية د/ لورا فاجليري (النقلة الهائلة التي انتقل العرب بها من الجاهلية إلى الحضارة) بسماتها العقيدية والتشريعية والاجتماعية والسياسية والأخلاقية. هذا التحول اتخذته الشاعر الألماني الشهير «جوته» أيضاً برهاناً على صدق نبوة النبي ﷺ فبدراساته لشعراء العرب كنموذج اتضح له أنهم كانوا كذلك قبل محمد ﷺ بكثير، ولكنه عندما ظهر بينهم ودعاهم إلى دينه وتحداهم أن يأتوا بمثل القرآن واستطاع ان يهديهم للإيمان بهذه المعجزة اللغوية، إنما غير في الواقع من أخلاقهم وعاداتهم كما غير من شاعريتهم، فالإيمان بالله الواحد الأحد وبأنبيائه ورسله، والتسليم بمشيئته والإذعان لأمره، وانتظار يوم الحساب، والرحمة بالفقراء والإحسان إلى

المساكين أصبحت هي طابعهم الجديد^(١).

الأمر الثاني: وبإمكاننا «أيضاً» أن نرجح تأثرهم بمارتن لوتر «توفي ١٥٤٦م» الذي رفض اتهامات رجال الكنيسة الباطلة للرسول ﷺ وإطلاعه على ترجمة القرآن (فإنه من المأثور عنه أنه كان يعرف القرآن الكريم معرفة جيدة، وله كتابات علمية تدل على مدى اهتمامه وتأثره به، وكان معروفاً بعداوته لرجال الكنيسة حتى قال: (أولى أن نكون تحت حكم الأتراك من أن نكون تحت حكم الباباوات.. وأن المسيح الدجال الحقيقي في الواقع ليس محمداً ﷺ، بل البابا في روما... وأن كنيسة روما هي كنيسة الشيطان)^(٢).

أما دوافع أعداء الإسلام ورسوله ﷺ فليس من الصعوبة معرفتها إذ سبق للقرآن الكريم أن أفاض اللثام عنها، في مثل قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا

(١) كاتارينا مومزن «جوته ١٧٤٩هـ - ١٨٣٢م» والعالم العربي ص ٣٩ ترجمة د/ عدنان عباس علي - مراجعة د/ عبد الغفار مكاوي عالم المعرفة ١٩٤ الكويت رمضان ١٤١٥هـ فبراير ١٩٩٥م.

(٢) د. السيد محمد الشاهد «رحلة الفكر الإسلامي من التأثير إلى التأزم» ص ١٠٠ بتصرف ط دار المنتخب العربي بيروت ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، وقد اهتمته الكنيسة بأنه يريد أن يقيم مملكة محمد ﷺ بدلاً من مملكة عيسى عليه السلام وأن بعض رفاقه قد أسلموا - ص ١٧٢.



تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴿[البقرة: ١٠٩].

ويري الشيخ رشيد رضا أن الحسد هو الدافع كما ورد في هذه الآية وأن (حسدهم لم يكن عن شبهة دينية أو غيره على حق يعتقدونه، وإنما هو خبث النفوس وفساد الأخلاق والجمود على الباطل وإن ظهر لصاحبه الحق، ولذلك قفاه بقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩] أي بالآيات التي جاء بها النبي ﷺ وبانطباق ما يحفظون من بشارات كتبهم بنبي آخر الزمان عليه ﷺ).^(١)

كذلك الإصرار على كتمان الدلائل الدالة على صحة نبوة الرسول ﷺ ودينه. قال الرازي: (إنه تعالى لما حكى عن اليهود شبهاً طاعنة في نبوة محمد ﷺ وأجاب عنها، أتبعه بهذه الآية وذلك لأنه تعالى أوجب عليهم في التوراة والإنجيل على أمة موسى وعيسى ﷺ أن يشرحوا ما في هذين الكتابين من الدلائل الدالة على صحة دينه وصدق نبوته ورسالته، والمراد منه التعجب من حالهم، كأنه قيل: كيف يليق بكم إيراد الطعن في نبوته ودينه مع أن كتبكم ناطقة ودالة على أنه يجب عليكم ذكر الدلائل الدالة على صحته ونبوته ودينه؟)^(٢).

(١) ج ١ ص ٤٢ تفسير المنار.

(٢) تفسير المنار ج ٤ ص ٢٧٨ ويبدو أن الإصرار على الكتمان ظل متوارثاً بين الأجيال إذ ما ورد في الآيات القرآنية مازال متحققاً في عصرنا الحاضر كما تحقق في عصر النبي ﷺ.

الوصية المقترحة:

تعريف الشعوب غير المسلمة بقارات أمريكا وأوروبا وآسيا وأفريقيا بأصول الإسلام بعقائده وشرائعه وقيمه الأخلاقية، وذلك بشكل إعلامي موسع بتخصيص قنوات فضائية باللغات الأجنبية «الإنجليزية، الفرنسية، الروسية، اليابانية، الصينية» لتحقيق غرضين:

الأول:

بيان إمكان تطبيقه في الحياة المعاصرة بدورها المتشعبة في السياسة والاقتصاد ونظم التربية والتعليم والعلاقات بين الأفراد والأمم، وهو ما تحقق بالفعل لنحو ثمانية قرون باعتراف أحد علماء فرنسا إذ يقول: «ونحن مدينون للمسلمين بكل محامد حضارتنا في العلم والفن والصناعة، مع أننا نزعم اليوم أن لنا حق السيطرة على جميع الشعوب العريقة في الفضائل، وحسبها أنها كانت مثال الكمال البشري في مدة ثمانية قرون، بينما كنا يومئذ مثال الهمجية^(١)، مع الاستناد إلى بعض دراسات علماء الغرب المنصفين المتحررين الصدق

(١) أنور الجندي «الإسلام في غزوة جديدة للفكر الإنساني» ص ٦٩ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية / القاهرة ١٣٨٤ هـ ١٩٦٤ م وهو قول هنري دي شامبيون مدير «ريفوياد لمنتر» الفرنسي.



والموضوعية في دراساتهم عن الحضارة الإسلامية» وأقترح الاستفادة من مواقف الشخصيات التي قدمناها بالبحث كنماذج.

والغرض الثاني:

الرد على الشبهات والاتهامات التي يكيلها الإعلام الغربي للإسلام وتفنيدها بمنهج علمي موثق استناداً إلى الأدلة العقلية والوقائع التاريخية الصحيحة.

ونرشح التوسع في استخدام منهج شيخ الإسلام المقترح لمخاطبة أهل الكتاب، كما أسلفنا في البحث.
وبالله التوفيق،

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم،،



قائمة المراجع

- (١) ابن تيمية «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» ج ٣ ص ٢٩٦ قدم له وأشرف على طبعه علي السيد صبح المدني مطبعة المدني القاهرة رجب ١٣٨١ هـ - يناير ١٩٦٢ م.
- (٢) لواء أحمد عبد الوهاب «الإسلام في الفكر الغربي» ص ٩ مكتبة التراث الإسلامي ١٩٩٣ م.
- (٣) إكرام لمعي «الاختراق الصهيوني للمسيحية» دار الشروق ١٩٩١ م. ص ٧.
- (٤) أنور الجندي «الإسلام في غزوة جديدة للفكر الإنساني» ص ٩٠ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ١٣٨٤ هـ ١٩٦٤ م.
- (٥) توماس كارلايل «الأبطال» ص ١٣ ترجمة محمد السباعي مكتبة مصر بالفجالة - القاهرة ١٩٩٤ م.
- (٦) جيل كيل «ثأر الله - الحركات الأصولية في الديانات الثلاثة» ص ٥٩ ترجمة نصير - دار قرطبه - ليماسول ١٩٩٨ م.
- (٧) د/ جلال أمين «عصر التشهير بالعرب والمسلمين» دار الشروق بمصر ١٤٢٤ هـ ٢٠٠٤ م.

- (٨) رضا هلال «المسيح اليهودي ونهاية العالم» ص ٩ مكتبة الشروق ١٤٢١ هـ ٢٠٠٠ م. وللتوسع ينظر مقال بعنوان «خدعونا فقالوا إن الغرب تخلى عن دينه» بكتاب «المنهج السلفي.. لا الحداثة طريق النهضة» للدكتور / مصطفى حلمي دار العقيدة بمصر ١٤٢٧ هـ ٢٠٠٦ م.
- (٩) د/ عبد الودود شلبي «الإسلام والغرب ص ١٠٧ مكتبة الآداب بالقاهرة ١٤٢٤ هـ ٢٠٠٤ م.
- (١٠) د/ عبد الرحمن بدوي «دفاع عن محمد ﷺ ضد المتقسين من قدره» ص ٣ ترجمة كمال جاد الله ط الدار العالمية للكتب والنشر ١٩٩٩ م.
- (١١) عبد الرحمن العيسوي «لماذا أنا مسلم» ص ٨٤ / ٨٣ مكتبة وهبة بالقاهرة رجب ١٤٠١ هـ مايو ١٩٨١ م.
- (١٢) كارين أرمسترونج «محمد ﷺ» ص ١٨، ٣٦ ترجمة د/ فاطمة نصر ود/ محمد عناني.
- (١٣) كارين أرمسترونج «القدس، مدينة واحدة، عقائد ثلاث» ص ٣٦٩ ترجمة د. فاطمة نصر ود. محمد عناني مكتبة الأسرة ٢٠٠٩ م.
- (١٤) د/ لورا فاجليري «أستاذة بمعهد الدراسات الشرقية بميلانو» تفسير الإسلام ص ٢٤ / ٢٣ ترجمة أحمد أمين سلسلة الثقافة الإسلامية العدد ١٢ ١٣٧٩ هـ أكتوبر ١٩٥٩ م.
- (١٥) محمد عبد الله السمان «مقدمة كتاب» تفسير الإسلام للدكتورة لورا فاجليري (سلسلة الثقافة الإسلامية) العدد ١٢ ربيع الآخر ١٣٧٩ هـ أكتوبر ١٩٥٩ م.



- (١٦) د/ محمد عبد الله الشرقاوي «الاستشراق» ص ١٧٨ دار الفكر العربي بالقاهرة ١٩٩٣ م.
- (١٧) محمد لطفي جمعة «ثورة الإسلام وبطل الأنبياء ﷺ» ص ٥٥٠ مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨ م.
- (١٨) كارلا بل «الأبطال» ص ٦٧.
- (١٩) د. مراد هوفمان «الإسلام في الألفية الثالثة.. ديانة في صعود» ص ١٠١ مكتبة الشروق بمصر ٢٠٠١ م.
- (٢٠) مايكل هارت «محمد ﷺ أعظم الخالدين» ص ١٠ ترجمة أنيس منصور ط نهضة مصر ط ٩ سبتمبر ٢٠٠٨ م.



«دراسة تقويمية»

لآراء الغربيين في الإسلام ونبيه نبي الرحمة ﷺ

إعداد

إسماعيل بن غصاب بن سليمان العدوي

الأخصائي الشرعي في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر



المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

اللهم صلّ وسلم وبارك على عبدك ورسولك وصفيك وخيرتك من خلقك البشير النذير والسراج المنير، وعلى آله وأصحابه الأبرار الأخيار، وارض اللهم عنا معهم برحمتك يا عزيز يا غفار. أما بعد:

فإن من نعم الله - تعالى - علينا أن هدانا للإسلام ببعثة وإرسال خير الأنام محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي القرشي الذي دعا إلى عبادة الله - تعالى - وحده، وأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغى، وصبر وصابر في سبيل دعوته التي أمره الله بها، حتى أنجز له ربه ما وعده، وما كتب على يديه من انتشار الخير والرحمة والهدى، وسعد بذلك كل مؤمن، وصلحت أحوال المسلمين واستنارت عقولهم ومجتمعاتهم وقويت وصحت علومهم وأبدانهم، وأصاب الأمم الأخرى ما أصابها من هذا الخير

العظيم، الذي حفظه الله لنا وأوصله إلينا بفضلِهِ ورحمته، وبها هياهُ من حملته من العلماء العاملين، والحكام والأمراء القائمين به، أو الداعين إليه، أو المناصرين له ولأهله والحامين حوزته، والذابين عن حياضه، بما آتاهم الله إياه من علم، وقوة، وحكمةٍ من آثار النبوة.

حتى أكرمنا وجعلنا من أهله، وشرفنا وكلفنا بحمله، وتبليغ رسالته ودعوته، ليُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، من ظلمات الشرك والظلم والفحشاء إلى نور التوحيد والعدل والإحسان، وذلك ببيان الحق والهدى، وكشف الضلال والباطل.

ولذلك فإن من الواجب علينا القيام بمثل هذا المؤتمر الشريف، الذي به نقوم - إن شاء الله تعالى - بأداء بعض الواجب:

- ١ - تجاه خالقنا ورازقنا المنعم علينا بكل النعم.
- ٢ - وتجاه نبينا وحبينا محمد ﷺ الذي هدانا الله به وجعلنا خير الأمم.
- ٣ - وتجاه أمته أمة الإجابة، تعريفاً لها بفضلِهِ، وما ينبغي عليها من معرفة واجب حقه، ونصرته وتعزيره وتوقيره، وحفاظاً على إيمانها به وبرسالته.
- ٤ - وتجاه أمته أمة الدعوة تعليمياً لجاهلهم، ليتحرر من رق العبودية لغير الله، وليتحرر من قيد الأوهام والأساطير التي حاكها بإحكام أعداء الإنسانية،



الذين رضوا لها بل خططوا لها أن ترتع في أوحال الشرك والخرافة، والابتزاز، تحت وطأة الإرهاب بسائر أنواعه، النفسية والبدنية والدينية والاجتماعية.

٥- وتحذيراً وإنذاراً لعالمهم، تذكيراً وتنبيهاً على ما ينبغي عليهم من اجتناب طريق الغواية والشقاء، وسلوك طريق الهداة السعداء، والقيام بالحق الذي علموه، واتباع الرسول الذي عرفوه، وتقديم الهدى على الهوى، وإيثار الآخرة على العاجلة، وتقديم محبة الله ورسوله على محبة كل شيء سواها.

إن إقامة مثل هذه المؤتمرات هو نوع من أنواع الدعوة إلى الله، وبيانٌ للتوحيد ودين الإسلام، وإبطالٌ لكيد الكائدين الذين يريدون للبشرية أن تبقى في ظلامها وهمجيتها وظلمها، ولذلك فإني أحمد الله - تعالى - إلى هذه الدولة المباركة وإلى هذه الجمعية المباركة على ما هداهم الله إليه من هذا المؤتمر العالمي، الذي يُفصِّحُ للعالم عن مدى الإساءة والظلم الذي تتعرض له البشرية، حين يتسلل البعض ليشوه أعظم صورة للرحمة والخير والهدى، وأعظم قدوة يقودها إلى كل خير وفضيلة، ويقودها إلى الإيمان بالله، والفوز برحمته ورضاه، في الدنيا والآخرة.

إن الإقدام على مثل هذه الافتراءات وهذا التشويه اعتداءٌ وجريمةٌ في حق الإسلام والمسلمين، وفي حق المنتسبين إلى الأديان السماوية المحرفة، وفي حق

سائر البشرية.

فأما كونه اعتداءً على الإسلام والمسلمين فهذا واضح؛ لأنه إبطال لدينهم الحق، وتكذيب لرسولهم الصدق، وأما كونه اعتداءً على المنتسبين للديانات السماوية؛ فذلك لأنه تكذيب بالرسول الذي أخبر به وبشرت به كتبهم، ومنع لأتباعها عن رؤيته ومعرفته، والفرح بظهوره، والفرح بمجيئه، والفرح باتباعه. وأما كونه اعتداءً على البشرية؛ فلأنه محاولة لصد البشرية وإبعاد البشرية عما جاء به رسول البشرية من الإسلام من الخير والهدى والسعادة والحضارة والمدنية والأمن والإيمان من عند المليك الرحيم الرحمن.

إن إقامة هذا المؤتمر ردُّ لهذا العدوان السافر ودفاع عن حق المسلمين واليهود والنصارى وسائر البشر في معرفة الرحمة والنور والهدى والخروج من الظلم والجهل والضلال الذي نشرته ألسنة وأيدي العابثين بعقول بني آدم وأعراضهم وأمواهم، وإني أحمد الله - تعالى - أن هداني ووفقني للمشاركة في هذا المؤتمر وذلك بتقديم دراسة حول موقف الغرب النصراني من دين الإسلام، ونبي الإسلام نبي الرحمة عليه الصلاة والسلام، وإن شاء الله تعالى ستكون هذه الدراسة حول النقاط التالية:

١ - تاريخ موقف الغرب النصراني من دين الإسلام، ونبي الإسلام نبي



الرحمة عليه الصلاة والسلام، العوامل - الأهداف - الأساليب.

٢ - عرض ونقد لأشهر تلك التهم والأكاذيب.

٣ - واجب المسلمين تجاه هذا الموقف الغربي، والطريقة الصحيحة للقيام

بهذا الواجب.

٤ - التوصيات.

أولاً

موقف الغرب النصراني من دين الإسلام،

ومن نبي الإسلام نبي الرحمة عليه الصلاة والسلام

كان النصراني وكذلك اليهود يتطلعون إلى خبر ظهور نبي ويتلمسونه، ولما أوشك ظهور النبي محمد ﷺ كان كثير منهم من علمائهم قد علم أنه قد أظل الزمان الذي يبعث فيه ذلك النبي الذي أخبرت به كتبهم، وبينت أوصافه كما في التوراة (العهد القديم) في سفر التثنية كما في سياق الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح («جاء الله من طور سينا» وبعضهم يقول تجلى الله من طور سينا «وأشرق من ساعير، واستعلن في جبال فاران».

قال كثير من العلماء - واللفظ لأبي محمد بن قتيبة - ليس بهذا خفاء على من تدبره ولا غموض؛ لأن مجيء الله من طور سينا إنزاله التوراة على موسى من طور سينا كالذي هو عند أهل الكتاب وعندنا، وكذلك يجب أن يكون إشراقه من ساعير إنزاله الإنجيل على المسيح وكان المسيح من ساعير أرض الخليل بقرية تدعى ناصرة وباسمها يسمى من اتبعه نصاري.

وكما وجب أن يكون إشراقه من ساعير بالمسيح، فكذلك يجب أن يكون



استعلانه من جبال فاران إنزاله القرآن على محمد ﷺ، وجبال فاران هي جبال مكة، وليس بين المسلمين وأهل الكتاب خلاف في أن فاران هي مكة...^(١).

وفي إنجيل برنابا «...وعليه فإني على يقين من أن من يبيعني يقتل باسمي؛ لأن الله سيصعدني من الأرض وسيغير منظر الخائن حتى يظنه كل أحد إياي، ومع ذلك فإنه لما يموت شر ميتة أمكث في ذلك العار زمناً طويلاً في العالم، ولكن متى جاء محمد رسول الله المقدس تزال عني هذه الوصمة، وسيفعل الله هذا؛ لأنني اعترفت بحقيقة مسيا الذي سيعطيني هذا الجزاء أي أن أعرف أني حي وأني بريء من وصمة تلك الميتة...»^(٢).

إلى غير ذلك من النصوص الكثيرة التي كانت وما زالت بين يدي أهل الكتاب كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ٥/ ١٩٩-٢٠٠، وانظر: سفر التثنية (٣٣/ ١-٣)، وانظر: منحة القريب المجيب في الرد على عباد الصليب لابن معمر ١/ ٢٧٩، ودراسات في اليهودية والمسيحية للأعظمي ص ٤٢٣، ودراسات في الديانة اليهودية والنصرانية د. سعود الخلف ص ٣٩١.

(٢) إنجيل برنابا الفصل الثاني عشر بعد المائة (١٤-١٨)، وانظر: دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند، الأعظمي ص ٤٤٨ وما بعدها.

وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَاَلَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ [الأعراف: ١٥٧].

إذا فلم تكن بعثة الرسول الكريم محمد ﷺ أمراً غريباً عليهم فماذا كان موقفهم منه؟ لا شك أن المتوقع أنهم سيسارعون إلى تصديقه واتباعه، كما كان اليهود يقولون للأوس والخزرج إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن، نقتلكم معه قتل عاد وإرم، وكان ذلك الحديث سبباً في إسلام رجال من الأنصار، وقد قالوا: «إنما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله - تعالى - وهداة؛ لما كنا نسمع من رجال اليهود، كنا أهل شرك أصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: إنه تقارب زمان نبي يبعث الآن، نقتلكم معه قتل عاد وإرم»^(١).

ولكن للأسف كان واقع الأمر على ضد ذلك. أما اليهود فتحكي قصتهم صفية بنت حبي بن أخطب كما في السيرة النبوية لابن هشام قالت: كنت أحب ولد أبي إليه وإلى عمي أبي ياسر، ولم ألقهما قط مع ولد لهما إلا أخذاًني

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤٩، وقال الألباني في صحيح السيرة النبوية ص ٥٧:



دونه. قالت: فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ونزل قبا في بني عمرو بن عوف، غدا عليه أبي حُيي بن أخطب وعمي أبو ياسر بن أخطب مغلسين. قالت: فلم يرجعا حتى كان مع غروب الشمس. فأتيا كالّين كسلانين ساقطين يمشيان الهويناء.

قالت: فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إليّ واحد منهما، مع ما بهما من الغم، وسمعت عمي (أبا ياسر) وهو يقول لأبي (حبي): أهو، هو؟ قال: نعم والله. قال: تعرفه وتثبته؟ قال: نعم. قال: فما في نفسك؟ قال: عداوته والله ما بقيت^(١).

وأما النصارى فيبين موقفهم القصة التي وقعت بين أبي سفيان و هرقل ملك الروم، التي رواها البخاري وفيها أن هرقل بعد ما سأل أبا سفيان عما سألته عنه قال للترجمان «قل له سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها. وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول؟ فذكرت أن لا، فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتي بقول قيل قبله. وسألتك هل كان من آبائه من ملك؟ فذكرت أن لا، قلت فلو كان من آبائه من

ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه. وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب؟ قبل أن يقول ما قال فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله. وسألتك أشرف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل. وسألتك أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم. وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل؟ فيه فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تحالط بشاشته القلوب. وسألتك هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر. وسألتك بما يأمركم؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه.

ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به دحية إلى عظيم بصرى فدفعه إلى هرقل فقرأه فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم



الأريسيين، ﴿يَأْهَلْ أَلِكْتَبِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَرُ إِلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]. قال أبو سفيان: فلما قال ما قال وفرغ من قراءة الكتاب كثر عنده الصخب وارتفعت الأصوات، وأخرجنا فقلت لأصحابي حين أخرجنا: لقد أمر أمر ابن أبي كبشة، إنه يخافه ملك بني الأصفر، فما زلت موقنا أنه سيظهر حتى أدخل الله علي الإسلام.

وكان ابن الناظور - صاحب إيلياء - وهرقل سُقْفًا على نصارى الشام، يحدث أن هرقل حين قدم إيلياء أصبح يوما خبيث النفس، فقال بعض بطارقه: قد استكرنا هيئتك، قال بن الناظور وكان هرقل حزاء ينظر في النجوم، فقال لهم حين سألوه: إني رأيت الليلة حين نظرت في النجوم ملك الحتان قد ظهر فمن يختن من هذه الأمة؟ قالوا ليس يختن إلا اليهود فلا يهمنك شأنهم واكتب إلى مداين ملكك فيقتلوا من فيهم من اليهود فبينما هم على أمرهم، أتى هرقلُ برجل أرسل به ملك غسان يخبر عن خبر رسول الله ﷺ، فلما استخبره هرقل قال اذهبوا فانظروا أختن هو أم لا؟ فنظروا إليه فحدثوه أنه مختن وسأله عن العرب فقال هم يختنون فقال هرقل هذا ملك هذه الأمة قد ظهر، ثم كتب هرقل إلى صاحب له برومية وكان نظيره في العلم، وسار هرقل إلى حمص فلم

يرم حمص حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأي هرقل على خروج النبي ﷺ، وأنه نبي، فأذن هرقل لعظماء الروم في دسكرة له بحمص ثم أمر بأبوابها فغلقت ثم اطلع فقال: يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي، فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غلقت، فلما رأى هرقل نفرتهم وأيس من الإيمان، قال: ردوهم علي، وقال: إني قلت مقالتي أنفاً أختبر بها شدتكم على دينكم فقد رأيت، فسجدوا له ورضوا عنه، فكان ذلك آخر شأن هرقل^(١).

إذاً لقد كان تعرف النصارى على الإسلام في وقت مبكر، ولكن كان موقفهم منه ومن نبي الإسلام نبي الرحمة محمد ﷺ موقفاً معرضاً عدائياً، يذكر بموقف اليهود لما جاءهم عيسى عليه الصلاة والسلام، وموقف كفار مكة ومشركي العرب لما جاءهم محمد ﷺ، ولم يكن سبب هذا الموقف العدائي من النصارى للإسلام والمسلمين بسبب سوء خلق في المسلمين، أو اعتداء أو ظلم من المسلمين لهم، فإن موقفهم السلبي أو العدائي كان قبل وجود أي احتكاك بينهم وبين المسلمين، سوى علمهم بحقيقة هذا الدين، وما يدعو إليه هذا الرسول من التوحيد والشرائع التي تخالف ما هم عليه من الشرك والظلم،

(١) رواه البخاري في صحيحه في كتاب بدء الوحي.



ولذلك لم يواجهوه بالحجة والبيان مما يدل على ضعفهم التام في هذا الجانب، ولكنهم لجأوا إلى مجرد التكذيب، والعناد والاستكبار، ثم محاولة التضليل للآخرين، ومحاولة التشويه، لتبقى تلك الشعوب تحت سيطرة واستنزاف ذلك الفريق الآثم الظالم.

لقد وصل أصحاب هذا التضليل إلى مرادهم مع بعض النصارى الذين لم يكونوا قادرين على الوقوف على حقيقة الأمر، ولذلك لم تكن هذه الأساليب مجدية أبداً مع الشعب النصراني الذي في الشام ومصر والمغرب العربي، بل إنَّ كل مكان وصل إليه حكم الإسلام دخل الناس فيه أفواجا؛ لما رأوا من عظمة الإسلام وصدقه وأحقيته وامتيازه عن سائر العقائد الأخرى الضالة، وما يتبعها من أحكام ظلمة جائرة إلا نزرًا يسيرًا ممن غلب عليهم الهوى والتعصب والعناد، وهؤلاء - أيضاً - لم يكن المسلمون ليَجبروهم على قبول الحق والتحرر من الباطل.

والمقصود أن موقف الغرب كان موقفاً عدائياً من بداية الأمر دافعه التعصب العقدي أو العنصري أو ما شابه ذلك قبل أن يكون سياسياً وقبل أن يكون شيء من الفتوحات الإسلامية^(١).

(١) انظر: تميز الأمة الإسلامية ٢٥٤/١، والخلفية التاريخية للاستشراق، محمد بركات البيهه =

إذاً فموقف الغرب من الإسلام منذ نشأته مشابه لموقف اليهود في المدينة من النبي محمد ﷺ، ومن قبول ما جاء به، وكذلك مشابه لموقف كفار قريش لما بُعث فيهم الرسول محمد ﷺ، وهو موقف النفور والعداء؛ وسببه إما الحسد، وإما التعصب للموروث عن الآباء والأجداد والتعصب لهم، وإما الركون إلى الدنيا وإيثار مطامعها وزخارفها أو إيثار المنصب والجاه وما شابه ذلك.

والقضية ترجع في الأساس إلى عدم الخضوع لله وقبول العقائد والفضائل والعدل الذي دعا إليه محمد ﷺ، وجاء به من عند الله، فرغب عنه هؤلاء رغبة في الشرك عن التوحيد ورغبة فيما هم عليه من الأخلاق والمكاسب، كالربا والزنا وشرب الخمر وأكل الخنزير عن أخلاق الإسلام وشرائع الإسلام التي تحرم الفواحش وتأمّر بالعفة والحياء والطهارة في البدن والقلب والمجتمع.

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا تَخَفُ عَنْهُمْ أَلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ ٨١ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا



تَهَوَّىٰ أَنْفُسُكُمْ أَسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِّقَا كَذَبْتُمْ وَفَرِّقَا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۖ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا أَشْتَرُوا بِهِمْ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَعْثْنَا إِيَّاهُمْ رَسُولًا مِّنْ قِبَلِ اللَّهِ مِنْ فَضْلِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَأْمِنُوا بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا وَيكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ ۚ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ [البقرة: ٨٦-٩١].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانُوا ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

وقال تعالى في ذكر أهل الجاهلية ومشابهمهم لمن قبلهم من أهل الكتاب:

﴿أَمْ ءَاتَيْنَهُم كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٨٦﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٨٧﴾ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٨٨﴾ قُلْ أُولَٰئِكَ جُنُتَكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاؤُكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٨٩﴾ فَاتَّقِمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الزخرف: ٢١-٢٥].

ولما اتخذ النصارى هذا الموقف العدائي والسلبى من دين الإسلام كان لابد لهم من تبرير هذا الموقف كما هو شأن سائر المكذبين للرسول، وليس في دين الإسلام ما يمكن أن يكون مبرراً لتركه أو الإعراض عنه فضلاً عن محاربته، ولذلك قاموا بعملية التشويه والكذب على دين الإسلام ونبي الإسلام محمد ﷺ.

ومن أقدم من يذكر عنه أنواع الكذب والتشويه والتضليل يوحنا الدمشقي، واسمه منصور بن سرجون المتوفى عام (١٣١ هـ الموافق ٧٤٩م)، وله مؤلفات في ذلك، منها: (محاورة مع مسلم) و (إرشادات النصارى في جدل المسلمين)، والهدف منها صرف النصارى عن الدخول في الإسلام، ويذكر بعض الباحثين أنه يعد ممهد الجادة للمستشرقين المعروفين بتحاملهم على الإسلام، فإن أكثر ما يزعمونه ويفترونه على الإسلام هو مما كان قد قاله ودونه قبلهم بما يزيد على ألف عام^(١).

(١) انظر: تاريخ العرب في الإسلام لجواد علي ص ٢٥، ٣٣، الاستشراق محمود حمدي زقزوق ص ٢٢، وانظر: تميز الأمة الإسلامية ١/ ٢٥٤، ٣٤٩، وانظر: التبشير والاستشراق أحقاد وحمالات على النبي محمد ﷺ وبلاد الإسلام المستشار، محمد عزت الطهطاوي ص ٤٦-٤٧، الحوار النصراني الإسلامي: تاريخه وأهدافه وغاياته والموقف الشرعي منه =



ومن ذلك القصة التي زعمها بين النبي ﷺ وزينب بنت جحش، وكدعواه أن محمداً ﷺ زعيم فرقة مسيحية مارقة، اطلع صاحبها على كتب العهد القديم واتصل بأتباع آريوس، وعنهم أظهر نحلته ودعوته^(١).

وذهب بعض الباحثين إلى أنه أول من استخدم وصف «السرازانيين» على المسلمين، ووصفهم بالمتشددين، وزعم أن الرسول ﷺ شخص مضلل من أتباع بدعة أريان وأنه تأثر بالنسطورية، وزعم أن القرآن نتاج لأحلام اليقظة، وزعم أن في الإسلام معاملة لا تليق بالنساء، من قبل المسلمين.

والمقصود أنه صور الإسلام كبدعة مسيحية منشقة مرتدة، ثم انتقلت هذه الصورة المشوهة من البيزنطيين إلى الأوربيين^(٢).

ومن ذلك العهد الغابر أخذت تكرر هذه الصورة المكذوبة المفتراة على الإسلام في عقل الغربيين البعيدين عن الإسلام، والذين لم يمكنهم الوقوف على

=د. محمد عبد الله السحيم.

(١) التبشير والاستشراق (للطهطاوي) ص ٤٦-٤٧.

(٢) دانييل ساهاسن «الشخصية العربية في الجدل المسيحي مع الإسلام»، الاجتهاد العدد ٢٨، (١٩٩٥) (ص ١٢٦-١٢٧)، وانظر- أيضاً: إلكسي جورافكسي «الإسلام والمسيحية» ترجمة خلف محمد الجراد (ص ٧٠-٧٥) نقلاً عن الإسلام في متخيل الغرب لمحمد نور الدين أفاية، وانظر: تميز الأمة الإسلامية ٢٥٤/١.

حقيقة الأمر وواقع الحال.

ولا تزال تكرر ويضاف إليها المزيد من الأكاذيب والتشويهات ويحاول المستشرقون - أهل الكنيسة وعلماء اللاهوت - ترسيخ هذه الصورة في عقل الرجل الغربي، ومن أمثلة ذلك

ما ذكره ثيوفاس المؤرخ البيزنطي الشهير في كتابه عن حياة محمد^(١)، و«ستوبرت»، و«أميل درمنغم»، في كتابه «حياة محمد»، و«كارل بروكلمان» في «تاريخ الشعوب الإسلامية»، وفي كتابه «تاريخ الأدب العربي» أقاويل متناثرة في ذلك، منها قوله: «ولا حاجة هنا إلى ذكر تاريخ دعوته التي ضاهى بها في مكة أسلوب الدعوة النصرانية، ولعله كان يعرف هذه الدعوة عن طريق المبشرين النساطرة»^(٢).

وهكذا (جولد زيهر) في كتابيه: العقيدة والشريعة، ومذاهب التفسير الإسلامي، حيث يقول عن الإسلام: (ليس إلا مزيجاً منتخباً من معارف وآراء دينية عرفها محمد بفضل اتصاله باليهودية والمسيحية) وإنه لم يأت بجديد^(٣).

(١) انظر: تميز الأمة الإسلامية ١ / ٣٥٠ وما بعدها.

(٢) تاريخ الأدب العربي ١ / ١٣٤ نقلاً عن تميز الأمة الإسلامية ١ / ٣٥٤.

(٣) العقيدة والشريعة جولد زيهر ص ١٢ نقلاً عن تميز الأمة الإسلامية ١ / ٣٥٦.



وقد وضع الدكتور إسحاق بن عبد الله السعدي في رسالته المميزة «تميز الأمة الإسلامية مع دراسة نقدية لموقف المستشرقين» كيف أنهم تواطؤوا على مر العصور الاستشراقية على تمرير هذا الكذب وترسيخ هذه الصورة المشوهة عن الإسلام و عن رسول الإسلام رسول الرحمة محمد ﷺ، حتى في هذا العصر الذي انتشرت فيه وسائل الإعلام والاتصالات مما يمكن طالب الحق من الوقوف عليه، ولكنهم لازالوا يصرون على تلك المغالطات والكذب المقصود، يقول: «ومما يدل على تعمد المنهج الاستشراقي الإصرار على ذلك هو ما ورد في دوائر المعارف، ومن أمثلة ذلك:

أ/ تقول دائرة المعارف الإسلامية تحت مادة (السامرة): (وما من أحد يشك في تعدد مصدر الأصول التي استقى محمد منها معارفه، وكثيراً ما جرى القول بتأثير اليهودية والنصرانية فيه....

ب/ وجاء في دائرة المعارف البريطانية: (إن صورة الله التي تتداخل فيها صفات القوة والعدل والرحمة ذات صلة بالتراث اليهودي والمسيحي، حيث استمدت منه بعد أن طرأ عليها بعض التعديلات، وكذلك تتصل بالوثنية التي كانت سائدة في شبه الجزيرة العربية).

ج/ وجاء في موسوعة الحضارة التي أصدرتها هيئة اليونسكو: (الإسلام

تركيب ملفق من اليهودية والنصرانية ورواسب الوثنية^(١)، ومع أن اليونسكو هيئة عالمية تشترك فيها كثير من الدول الإسلامية إلا أنها تستكتب في موسوعاتها وفيما يخص الإسلام والمسلمين وتاريخهم ونبههم نفرًا من المستشرقين الذين طفحت كتاباتهم بالتهم والتهجم على نبي الإسلام، وهذا يؤكد كما يقرر الدكتور إسحاق بن عبد الله السعدي استمرار المستشرقين في اجترار الروح الصليبية، ويؤكد - من جهة أخرى - استمرار اعتماد الغرب على خطابهم المقصود عن الإسلام والمسلمين واستمرار القصد إلى التشويه وإبقاء الصورة المشوهة عند الغربيين^(٢).

وقد أشار «محمد دكير» في مؤتمر التفاعل بين الحضارة العربية الإسلامية والحضارة الغربية المعقود في دمشق^(٣) إلى ما ذكره المستشرق (جوزيف رنيو) من التشويه والعداء المتأصل لدى الغرب عن الإسلام، وأنه بالإضافة إلى الحروب الصليبية الطويلة التي تزعمتها الكنيسة - وكانت من أكثر الحروب دموية بين الإسلام والمسيحية - لم يكن الإسلام في نظر الكنيسة سوى كفر وهرطقة

(١) تميز الأمة الإسلامية ١/ ٣٥٧.

(٢) انظر: تميز الأمة الإسلامية ١/ ٣٠٢.

(٣) (١١/ ٢٠٠٠).



ينشرها وثنون برابرة ومتوحشون، وهذا الموقف القديم أضاف له الاستشراق الكلاسيكي معطيات جديدة عند ما قدم مبررات أيدلوجية مزيفة لدعم وتبرير الهجمة والهيمنة الامبريالية الغربية على باقي الشعوب والحضارات انطلاقاً من الاعتقاد بالتفوق العرقي.

وقد ذكر ذلك - أيضاً - الدكتور حامد خليل مدير مركز الدراسات الإستراتيجية في دمشق في ذات المؤتمر حيث يقول «بالنسبة للفترة الأولى (أي العصور الوسطى) فالموقف من الإسلام كانت تحدده الكنيسة الرافضة للإسلام، باعتباره ديناً دموياً يمجّد العنف، ويدعو له وهو ضد العقلانية، وقبل ذلك كله فهو ليس سوى انحراف عقائدي وهرطقة، وقد ترسخت هذه الصورة في الذهن الأوروبي، وهذا ما أكدّه السيد هارليم ديسير (مختص في مجال التفاهم بين الأعراق والأديان) في مؤتمر استوكهولم سنة (١٩٩٥م) حين قال «إن هناك جبلاً من الكراهية والأفكار المسبقة لدى الأوروبيين». هذا الموقف استمر في العصور الحديثة بالنسبة للكنيسة. أما داخل الأوساط الفكرية العلمانية فقد تطورت النظرة إلى الإسلام، وظهرت بعض المواقف الإيجابية الجديدة من الإسلام وحضارته. لكن وبسبب الإمبريالية ظل الجهل بالإسلام والكراهية سائدين في الفكر والواقع الأوروبي. أما في الفترة المعاصرة فقد استمر العداء

واتخذ منطلقات ومظاهر جديدة؛ لأن الإسلام سيصبح العدو الجديد للغرب بدل الخطر الشيوعي، وقد صور الإعلام الغربي الأصولية الإسلامية باعتبارها خطراً يهدد مصالح الغرب وحضارته. لذلك فقد اتجهت هوليوود إلى تشويه صورة الإنسان العربي المسلم، فقد أنتجت منذ ١٩٨٥م قرابة ٧٠٠ فيلم قدمت فيها العربي المسلم باعتباره إرهابياً دمويّاً، مهووساً بالجنس ومصدراً للعنف والتهديد».

وفي كتاب جورج بوش (١٨٥٩م) «حياة محمد» من تلك التهم والتشويه والدس والافتراءات ما يظهر لكل مطالع مسلم أو منصف، ومن ذلك قوله عن المسلمين: إنهم جراد وعقارب وثعابين، وإن الرسول ﷺ دعيّ كذاب^(١). ويقول عن المسلمين الذين نشروا التوحيد والإسلام والأمن والإيمان في العالم: «وفرضوا عليهم (أي على النصاري) الادعاء المحمدي البغيض بدلاً من هذا الدين المقدس الإلهي الذي شوهوه»^(٢).

وفي الحقيقة، هذا هو عين ما يسمى بالإسقاط عند علماء النفس، وهي أن ينسب الإنسان عيوبه ونقائصه إلى غيره من الناس؛ تنزيهاً لنفسه. وهو المعبر عنه

(١) نقلاً عن كتاب الرد على كتاب جورج بوش، السيد حامد السيد علي ص ٢٠.

(٢) المصدر السابق ص ٥٠.



في المثل العربي «رمتني بدائها وانسلت».

وإن الدارس المتأمل لما افتراه المستشرقون والغرب على الإسلام ونبي الإسلام نبي الرحمة للعالمين محمد ﷺ يجد أنه كله من باب الإسقاط، وقد نبه إلى ذلك «مونتغمري واط» فذكر أن التشويه الذي تعرض له الإسلام من طرف «الأوروبيين» عبر عن حاجة ضرورية «للتعويض عن شعورهم بالنقص». أي: إن التعبئة المسيحية حين قرنت الإسلام بالظلام والمسيحية بالنور زرعت في وجدان المسيحي الشعور بضرورة الانتصار على النقص لهزم الظلام الإسلامي. إذ مهما كانت قوة المسلمين في هذه الحالة فإن «المسيحيين، من جهتهم ترسخت لديهم القناعة بتفوقهم بفضل دينهم»، ومن ثم فإن الصورة المشوهة للإسلام يتعين النظر إليها بأنها «إسقاط للجانب المظلم في الشخصية الأوروبية»^(١).

وقد ألف في بيان ذلك - أيضا - الدكتور شوقي أبو خليل كتابا رائعا سماه «الإسقاط»، ذكر فيه عشرين مسألة من المسائل الكبرى التي يحوم حولها الغرب والمستشرقون ليشوهوا دين الإسلام ونبي الإسلام نبي الرحمة للعالمين، وبين

(١) انظر: الإسلام في متخيل الغرب لمحمد نور الدين أفاية ص ٥-٦.

فيها جميعاً حقيقة الحال، وأن واقع أمرهم كقول القائل «رمتني بدائها وانسلت». وقد ذكر الدكتور شوقي أبو خليل في تصدير كتابه هذا بعض عباراتهم التي تفوح منها رائحة التعصب والكذب والتشويه والعداء البغيض، كقول وليم غلادستون (١٨٩٨ م) زعيم حزب الأحرار في معرض حديثه عن المسلم: (بأنه الإنسان الذي لا إنسانية فيه).

وهكذا يتناسى الغرب كل فضل الإسلام وفضائله، ويحددون حضارته ومدنيته، وإن كان المنصفون منهم يعترفون بذلك.

كما يقول سيديو: «لقد حاولنا أن نقلل من شأن العرب ولكن الحقيقة ناصعة يشع نورها من جميع الأرجاء، وليس من مفر أماننا إلا أن نرد لهم ما يستحقون من عدل إن عاجلاً أو آجلاً»^(١).

ومع تعدد وتردد هذه الاعترافات إلا أن الغرب ومفكره وقادته الدينيين وغيرهم مصرون على موقفهم العدائي، ومسلكتهم الإسقاطي، ودراساتهم البعيدة كل البعد عن الحقيقة العلمية والتجرد للحقائق، ولذلك يجب علينا أن نتنبه إلى هذه الحقيقة التي نبه إليها حتى بعض المستشرقين، يقول الدكتور

(١) الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين ص ٩-١٣.



شوقي: (نبه «دينية» إلى أن «الافتتان بالمستشرقين لا أساس له»، وهذا أمر طبيعي؛ لأنهم أساتذة فكر رفضوه، وعقيدة ألحدوا بها، وتاريخ حقدوا عليه، وحضارة يحرصون على إدانتها وهضمها حقها.

وهذا ما قاله رجاء غارودي: «لم يدرس الغرب الإسلام دراسة صحيحة في الجامعات الغربية، وربما كان هذا مقصودًا مع الأسف».

و «فردريك نيتشة» يقول عن رجال الكنيسة: «لا يخطئون فقط في كل جملة يقولونها، بل يكذبون، أي أنهم لم يعودوا أحرارًا في أن يكذبوا ببراءة أو بسبب الجهل»

ولذلك ألف الكاتب البريطاني «جان دوانبورت» كتاباً عنوانه «اعتذار لمحمد والقرآن» اعتذر فيه عن التصورات والأحكام التي كانت شائعة في الغرب حول نبي الإسلام والقرآن الكريم.

واللورد البريطاني المسلم (هدلي) يوضح: أن مدبجي وناسجي هذه الافتراءات لم يتعلموا حتى أول مبادئ دينهم، وإلا لما استطاعوا أن ينشروا في جميع أنحاء العالم تقارير، معروف لديهم أنها محض كذب واختلاق.

إن حرية الرأي عندهم أن تقول ما يرضي الكنيسة فقط وما يؤيد أكاذيبها وافتراءاتها فحينما ألف «برناردشوا» كتاباً عن محمد ﷺ منعته الكنيسة

من إصداره^(١).

وهكذا الكاتب والمفكر لاون تولستوي (١٨٢٨-١٩١٠م) لما رأى الحملة الظالمة على الإسلام ورسوله وشهد شهادة بالحق أصدر البابا قرارًا بحرمانه.

نعم لقد سلك بعض المستشرقين والمفكرين في الغرب - وهم قلة - طريق الإنصاف بحسب ما ظهر لهم، وأدلووا بعبارات المدح والثناء والشهادة بالكمال لدين الإسلام بأنه الدين الحق الصالح لكل زمان ومكان، الموفي بحاجات البشر القائم على العدل وتحقيق المصالح، وللرسول ﷺ بأنه لم يدع إلا إلى خير وحق وهدى، وشهدوا له بالكمال في هديه وشريعته، على اختلاف عباراتٍ لهم في ذلك، وتقصيرٍ في بعضها؛ يرجع إلى مبلغ علمهم وعقولهم، وتأثرهم بالواقع المحيط بهم، ولكن هؤلاء - مع قلتهم - لم يسلموا من حرب الغرب لهم، سواء حرب الكنيسة أو التوجهات السياسية.

يقول العلامة الشيخ أحمد بن حجر البوطامي في كتابه «الإسلام والرسول في نظر منصفى الشرق والغرب»: (ينقسم المنصفون من الغربيين وغيرهم إلى ثلاث طوائف:

(١) الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين ص ١٢-١٤.



أ- طائفة بعد دراستها الدين الإسلامي وسيرة الرسول استيقنت وأعلنت إسلامها.

ب- طائفة مع معرفتها بذلك كتبت إسلامها.

ج- طائفة اعترفت وكتبت مع بقائها على دينها أو إلحادها، معترفة بدين الإسلام وما فيه من المحاسن.

أما غير المنصفين ممن افتروا على دين الإسلام وقلبوا فضائله مثالب، فهم أكثر من المنصفين، وقد قيض الله بعض بني جلدتهم للرد عليهم ونقض كلامهم^(١).

ويذكر - أيضاً - أن هؤلاء المنصفين: (حجة لنا على الذين أصروا على كفرهم وإنكارهم نبوته ﷺ؛ حيث إن هؤلاء قد اعترفوا برسالته العامة، وأسلم كثير منهم بعد أن درسوا كثيراً، وأخذوا سنين وهم يبحثون عن سيرته وأخلاقه ﷺ وما أتى به من العقائد الحقّة، والشرائع النافعة التي فاقت جميع الشرائع السالفة، فضلاً عن الأديان الوضعية والقوانين البشرية، ولم يسلم منهم من أسلم أو اعترف برسالته وديانته الصحيحة الشاملة، الصالحة المصلحة تحت ضغط أو إكراه، بل نشأ هؤلاء في بيئة بعيدة عن ديار الإسلام، فمنهم من كان

(١) الإسلام والرسول في نظر منصفين الشرق والغرب (ص ٧).

يدين بالمسيحية أو اليهودية، ومنهم من لا يدين بدين، بل كانوا ملاحدة، ودرسوا في مدارس وجامعات أمصارهم، وكثير من كتبهم ودروسهم تزرع بالطعن في الإسلام ونبيه سيد الأنام، وتختلق له المثالب والمعائب. كما أن أخلاقهم وعاداتهم وسيرتهم تختلف كل الاختلاف عن أخلاق المسلمين وعاداتهم وسيرتهم، وبالرغم من كل ذلك؛ لأجل درسهم الإسلام والبحث عن حقيقته وعن نبيه الكريم، عرفوا حقيقة دين الإسلام ومحاسنه وعظمة الرسول ﷺ، فأنطقهم الله بالحق حتى اعترفوا للإسلام وللرسول وللقرآن بتلك الاعترافات الصريحة المنبئة عن عمق تفكيرهم ورسوخ علومهم وجرأتهم على قول الحق والمجاهرة به، متحلين بالعدل والإنصاف، تاركين سبيل التعصب والاعتساف^(١).

والسؤال الذي يتبادر إلى ذهن القارئ: لماذا كل هذا العداء والتشويه الكاذب والتحامل على الإسلام وعلى رسول الرحمة ونبي الهدى حتى ممن يتنسب إلى التحقيق العلمي والحرية؟ والجواب عن هذا السؤال يطول، ولكننا نختصر المقال فنقول: يرى المتأمل أن هذا الموقف يصدر من طائفتين:

(١) الإسلام والرسول في نظر منصفى الشرق والغرب (ص ١٢٣-١٢٤).



الأولى: قوم يجهلون أو يُجهَّلون حقيقة الحال.

والثانية: قوم وقفوا على حقيقة دين الإسلام وصفائه ونقائه وعرفوا حقيقة ما فيه من الحق والهدى وعرفوا صدق النبي محمد ﷺ، وعرفوا كذب ما هم عليه من التشويه لدين الإسلام ولنبي الإسلام وعرفوا ما في هذه الافتراءات من الظلم والعدوان ولكنهم لم يعترفوا بذلك ولم يتراجعوا عنه.

أما النوع الأول: فما إن ير النور ويقف على الحقائق حتى يعترف بها ويعتقد ها؛ لأنه ليس له هوى يدفعه إلى رد الحق ومدافعته، بل هو راغب في الخير وفي مصلحة نفسه متى ما بدت له، كما هو شأن كثير من الأمم التي ما إن اختلطت بأمة الإسلام ووقفت على ما عندها من نور الوحيين إلا أسلمت له وأذعن وأمنت بما أنزل الله على عبده ورسوله من البينات والهدى، كما هو الحال في نصارى الشام ومصر والمغرب العربي وجيوش المغول والتتر ووثني الهند والسند والفرس والترك وغيرهم.

ولما مُنِعَ الغربُ من الوقوف على هذه الحقائق بل عكس له الأمر، وشوه له جمال الإسلام وما فيه من الرحمة والهدى والحق بقي على كفره وعدائه وجهله وبقي على تصوره للحقائق على خلاف ما هي عليه، والذي تولى كبر هذه المكيدة هم الطائفة الثانية التي عرفت الحق ولم تجهل ما في دين الإسلام من الحقائق

والهدى والرحمة والحضارة والرقى لكن ما هو الأمر الذي صدها عن قبول الحق بعد معرفته والوقوف عليه، وأيضا لأجله صدت غيرها؟

لقد بين الله - تعالى - لنا ذلك في القرآن الكريم غاية البيان، حيث ذكر الأسباب التي منعت من عَرَفَ الحق عن التزامه ومحبته وطلبه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلٰٓئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا اِلَّا اِبْلٰسَ اَبٰى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكٰفِرِيْنَ ۝﴾ [البقرة: ٣٤].

وقال سبحانه: ﴿اِلَّا اِبْلٰسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكٰفِرِيْنَ ۝﴾ قَالَ يَتَّبِعِيسُ مَا مَنَعَكَ اَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِیْدَیْٓ اَسْتَكْبَرْتَ اَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِیْنَ ۝﴾ قَالَ اَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِیْ مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِیْنٍ ۝﴾ قَالَ فَاَخْرِجْ مِنْهَا فَاِنَّكَ رَجِیْمٌ ۝﴾ [ص: ٧٤-٧٧].
وقال سبحانه: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ اَلَّا تَسْجُدَ اِذْ اَمَرْتُكَ قَالَ اَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِیْ مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِیْنٍ ۝﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا یَكُوْنُ لَكَ اَنْ تَتَّكِبَ فِیْهَا فَاَخْرِجْ اِنَّكَ مِنَ الصّٰغِرِيْنَ ۝﴾ [الأعراف: ١٢-١٣].

وقال تعالى: ﴿تِلْكَ اَلْدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِیْنَ لَا یُرِیْدُوْنَ عُلُوًّا فِی الْاَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۝ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِیْنَ ۝﴾ [الفصص: ٨٣].

لقد تغلغت هذه الأسباب في النصارى حتى كانت النتيجة هي الكفر والصد عن الحق الذي عرفوه وشهدوا به. قال تعالى: ﴿قُلْ يٰٓاَهْلَ الْكِتٰبِ لِمَ



تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ۚ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ [آل عمران: ٩٩].

ومن صدهم هذا ما يقومون به من الكذب والتشويه لدين الإسلام ونبي الإسلام نبي الرحمة محمد ﷺ.

ولما كانت حربهم وعداوتهم لن تتوقف؛ بيّن الله تعالى للمؤمنين أنهم هم الغالبون، وأن هؤلاء لن ينالوا من المؤمنين مرادهم من إهلاكهم وإضلالهم، فقال تعالى:

﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ۖ وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلَوْكُمْ ۖ الْأَدْبَارُ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾^(١)
 ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ ۚ أَيْنَ مَا ثَقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحُبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَآءُ وَبَغَضٍ مِنَ اللَّهِ
 وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ۚ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ
 حَقٍّ ۚ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٢﴾ ۖ لَيْسُوا سَوَاءً ۚ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ
 آيَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ
 بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ۚ يُسِرُّوْنَ وَيُخْفِوْنَ فِي الْخَيْرِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤﴾
 وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٥﴾ ۚ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ
 عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٦﴾ مَثَلُ
 مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا

أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتَهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١١﴾ [آل عمران: ١١١-١١٧].

وأيضاً بين الله - سبحانه - للمؤمن سبب تلك العداوة وسبب هذه البغضاء والحروب المستمرة في قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبَآءً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾ [المائدة: ٥٨-٥٩].

والواجب على المؤمن أن يكون على بصيرة من أمره، وأن يعرف حقيقة الأمر والواقع كما بينه له ربه ومولاه، وأن يتبين ضلال من رفض الهدى واتباع الهوى، وأنه يبوء بشر منزلة وأساء حال ومال، كما قال تعالى:

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠].

ولذلك يجب عليه أن يحذر مكرهم وكيدهم وشرهم، وإن أظهروا له النصيح والإرشاد وحسن النية، والموافقة له على دينه، أو بعض دينه، فإنهم كاذبون حتى في ذلك، بل هم يحبون الشر والفساد ويسارعون فيه، ولذلك فهم لا يقبلون الحق، ولا يرتضونه، ولا يحبونه ولا يحبون أهله، بل يسعون في إهلاكهم وإضلالهم.



ولذلك حذر الله - تعالى - من الميل إليهم والثقة بهم واتخاذهم بطانة ومستشارين وحذر من مطلق موالاتهم، قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَتَأْتُمْ ءَوَّلَاءِ تُحِبُّوهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لِقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّا اللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمَسَسَكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّا اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران ١١٨-١٢٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿١٢١﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٢٢﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٥-٥٧].

ولخبت بواطنهم فإنهم لا يزدادون من ظهور الحق إلا سعيًا في الكفر وإصرارًا عليه، ولذلك فكلما أظهر المؤمن إيمانه وقوي الإسلام ازدادوا عداوة وحقداً وحرباً، قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ؕ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿١٢٣﴾ وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ

وَالْعَدُونَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعمَلُونَ ﴿٦٦﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبُّيُّونَ
وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٧﴾ وَقَالَتِ
الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ
وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أَتَزَلَّ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ
وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ كُلَّمَا أَوقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ
فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٨﴾ [المائدة: ٦١-٦٤].

إذاً يجب أن تعلم - أخي المسلم - أن الله قد حذرنا من الاستماع إليهم
وطاعتهم؛ لأن مآل ذلك هو أن يلقوا علينا هذه الشبه وهذا الكذب والتليس،
فقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أَوْتُوا أَلْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ
إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠].

فإن هذا هو غاية مقصدهم وهدفهم، وقد وهبنا الله - تعالى - أسباب
العصمة من ذلك، وهي التمسك بالقرآن؛ ولذلك يقول سبحانه: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ
وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ [آل عمران: ١٠١]، هذا خطاب
للصحابة، وأما من بعدهم فإن سنته فيهم قد حفظها الله من التحريف والضياع.
﴿وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللَّهِ﴾ أي: بما أنزل من البينات والهدى والقرآن والسنة
﴿فَقَدْ هَدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].



ثم يقول - تعالى - مؤكداً على التمسك بالإسلام، والحذر من الزيف عنه واتباع الأمم الهالكة المكذبة والإصغاء إليها: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ١٢٠ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ۚ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ عَذَابُ عَظِيمٍ ۝ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ۝ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۚ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ۝ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ۝ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۝ [آل عمران ١٠٢-١١٠].

فالواجب علينا أن نكون رسلاً للبشرية نوصل إليهم هذا الخير لا أن نتلقى عنهم ما يملونه علينا من الكذب والضلال والغى، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ۚ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

[آل عمران: ١١٠].

ثم إن الله - تعالى - يبين لأهل الكتاب ويأمرنا أن نبين لهم ما ينبغي عليهم من الإيمان وما ينالونه من الخير والسعادة إذا قبلوا الإيمان وأحبوه، فقال تعالى:

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ۚ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ * يَتَأَيُّهَا الرُّسُلُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ۚ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة: ٦٥-٦٧].

أخي القارئ الكريم: لقد بين لنا ربنا في كتابه الكريم بكل جلاء ووضوح معالم هذه الحرب وهذه العداوة وبين أسبابها وبين ما يجب على المؤمن حيال ذلك تجاه نفسه وتجاه أمته وتجاه أعداء الحقيقة والإيمان والوطن والمواطنين وأعداء أنفسهم وأهليهم وأمتهم والبشرية.

إذا فالسبب الأول لهذه الكراهية وهذا العداء وهذا التشويه والكذب والافتراء هو الحسد الذي سببه:

١ - الكبر والتعالي عن الحق إذا جاء من عند الآخرين.

٢ - وما يصاحب ذلك من طلب العلو في الأرض والإفساد فيها من تلك



الطائفة المتسلطة من رجال الكنيسة ورجال الدولة والحكم.

فالأول هو الذي يعبر عنه بالنظرة العرقية لدى الرجل الأبيض واعتقاده بالتفوق العنصري والثقافي على سائر الأعراق، وأنه ينبغي أن يبلغ رسالته الحضارية للآخرين من غير نظَرٍ بأي اعتبار لحضاراتهم^(١) مع التجاهل المطلق للإسلام والمسلمين^(٢) ورفض ما جاؤوا به من الحق.

والثاني هو ما يصاحب ذلك من الرغبة العارمة في بسط سلطان الكنيسة على المعمورة بأسرها جنباً إلى جنب مع التوسع الاستعماري للرجل الأبيض باعتبار أن الكنيسة بحسب ما يراها ومع ما يطرأ عليها من التعديلات هي جزء من حضارته أيضاً^(٣).

ولكن كيف يحارب الإسلام ويقتل أهله ويقا تل المسلمون وتحمل الأمة النصرانية وأمة الغرب تكاليف ذلك كله وتتجشم عناءه مع ما فيه من ذهاب

(١) انظر: مؤتمر التفاعل بين الحضارة العربية الإسلامية والحضارة الغربية والدور الأسباني،

الكاتب محمد يحيى المنشور في موقع www.kalema.net ص ١-٥، ص ١٥ وما بعدها.

(٢) انظر: تنصير العالم مناقشة لخطاب البابا يوحنا بولس الثاني، للدكتورة زينب عبد العزيز

ص ١٦-١٧، ١٨، ٣٦، وانظر: تميز الأمة الإسلامية ١/ ٢٦١، التناول على النبي ﷺ

وواجبات الأمة ص ١٠٥.

(٣) انظر: الحاشيتين السابقتين.

الأموال والأنفس وليس في الإسلام والمسلمين من السوء والخطر ما يستدعي كل تلك التضحيات بل الأمر على العكس من ذلك فهم يدعون الناس إلى التخلص من ظلم الحكام وظلم الرهبان وتسלט الكنيسة وخرافات المصادمة للعقل وللفطرة ولا يأكلون أموالهم ولا يصادمون حرياتهم لا عقولهم؟

إذاً فلتبرير ذلك المخطط الرهيب ولأجل الحيلولة بين الشعب الغربي ونور الإسلام إضافة إلى التخلص من الإسلام، كان لا بد من تلك الحملة الشعواء من الكذب والتشويه والإسقاط، ولذلك فقد كانت بدايات هذه الحملة مع بداية ظهور الإسلام واستمرت إبان الحروب الصليبية بقصد التهيئة لها وتبريرها، وأيضاً استمرت وزادت مع الحروب الصليبية وكلما أحسوا بقوة الإسلام وظهوره استمرت هذه الحملات والأكاذيب المشوهة.

وقد أقر بذلك حتى بعض مفكري الغرب، يقول «مونتغمري واط» إن أوروبا الوسيطية - لعله يقصد أوروبا في القرون الوسطى - أفرزت ظاهرتين لا يمكن لأي باحث جاد أن يتعامل معهما بلا مبالاة. تتمثل الأولى في الصورة الشائنة تماماً التي ولدتها أوروبا عن الإسلام، وتبرز الثانية في التجذر الهائل الذي تمكنت «الأيديولوجيا الصليبية» من ترسيخه في قلوب وعقول الأوروبيين عن الذات وعن الآخر.



وإذا كان الهدف المعلن للصليبيين تجلى في الدعوة إلى استعادة الأماكن المقدسة بالطرق العسكرية، فإنهم من أجل ذلك استثمروا كل الوسائل الكفيلة بتكوين متخيل جمعي يعلي من شأن الذات ويقدم الآخر في أشكال انتقاصية، شيطانية، تمنح لكل المنخرطين في الحركة العامة حوافز التعبئة والإيمان بعدوانيته وشراسته، لدرجة يصل فيها المحارب إلى خلق شعور لديه بأنه حين «يحارب ضد المسلمين، فإنه يحارب الظلام قصد إشاعة الأنوار»^(١).

ولقد قال «غاردنر»: «إن الحروب الصليبية لم تكن لإنقاذ القدس، إنها كانت لتدمير الإسلام»^(٢).

وقد لعبت الكنيسة في ذلك دورًا بارزًا لا سيما في القرون الوسطى حيث كان رجال الكنيسة وموظفوها هم الذين يمتلكون مفاتيح المعرفة ويتكفلون بتربية الشعوب وتوجيههم.

وفي المقابل فإن النصراني قد تعود أن يستسلم بعقله وبدنه لما تمليه الكنيسة

(١) الإسلام في متخيل الغرب، محمد نور الدين أقابة ص ٤.

(٢) انظر: «قادة الغرب يقولون...»، عبد الودود يوسف ص ٤١، وهذا الكتاب مع صغر حجمه إلا أنه مليء بذكر العبارات والمواقف الدالة على حقيقة الموقف الغربي من أمة الإسلام.

إذ إن من قواعد دينه وإيمانه التسليم المطلق والقبول التام لكل ما يقوله رجال الكنيسة؛ إذ أضفى رجال الكنيسة على أنفسهم صفات الألوهية والعصمة بل وحتى الربوبية بما منحوه لأنفسهم من امتلاك الرحمة والمغفرة أو الغضب والعذاب المعبر عنه بالحرمان، وبصكوك الغفران.

ومن هنا - أيضاً - نشأت الأدبيات التي تحمل هذه المشاعر الكنسية وساهمت هذه الأدبيات في تأصيل ذلك التصور المشوه عن الإسلام ونبي الإسلام نبي الرحمة وما يترتب عليه من الموقف العدائي والكرهية المتأصلة كما هو الحال في أنشودة «رولان» و«غورمون» و«إيزومبار» و«تتويج لويس» وفيها يقدم المسلم بأبشع صورة تجسد الشر والسحر والوثنية والعنف والدموية، وأنه خطر على البشر والحضارة كما هو مذهب الإسقاط الذي سبقت الإشارة إليه، إضافة إلى الحاجة الملحة لشحن المجتمع لحروب صليبية كما قرر المفكر الغربي (جان فلوري) في معرض تساؤله عن الأسباب الحقيقية التي دفعت المسيحيين إلى تحديد الإسلام بوصفه ديانة عنيفة، يلاحظ «جان فلوري» أن ذلك تم في وقت بدأت تظهر به المسيحية بوجه جديد للعدوان والغزو من خلال الظاهرة الصليبية. إذ في فترة كانت فيه على أرض الإسلام، ولاسيما في إسبانيا وفي «الأراضي المقدسة»، نسبة عالية من التسامح «النموذجي في زمنه» بين الديانات



الثلاث، عملت المؤسسة الكنسية على اختيار نهج العنف بتقديم صور شيطانية عن الإسلام قصد تحطيمه والحد من انتشاره، لدرجة أنه مع الزمن «نمت نوع من البرانويا من الخطر الذي يمثله المسلمون»، غير أن الأمر الجدير بتسجيله - في هذا السياق - يتمثل في المنعطف الكبير الذي عاشته المؤسسة الكنسية في القرنين العاشر والحادي عشر، حيث انتهت بعد صراع ومناقشة طويلين إلى اختيار العنف كعنصر مذهبي، «ذلك أن الحرب - والمحاربين بالنتيجة - اعتبرت منذ مدة طويلة، بوصفها مسألة مستنكرة في ذاتها، والعنف مستبعد لأنه خطيئة... وبتقديم الخصم في صور شيطانية تمكنت الكنيسة - وخصوصا المؤسسة البابوية - من تبرير الحروب حين تم إعلانها من طرف السلطات العمومية الشرعية وتبنتها للدفاع عن المؤسسات «الإلهية» المهددة... والنتيجة أن «الحروب العادلة» الحقيقية، ثم «الحروب المقدسة» كانت البابوية هي التي دعت إليها لضمان حمايتها الخاصة للمسيحية والتي توسعت شيئا فشيئا. هذا هو أصل سلام الرب والحركة الصليبية».

أصبحت الحرب شرعية في المذهب المسيحي الجديد، «بعد نقاش طويل ومؤلم» تخلل ذلك احتجاجات ومعارضات ضد استعمال العنف الذي دعت إليه وزكته الكنيسة، بل وقادته ضد الإسلام... لقد كانت الكنيسة في حاجة إلى

تضخيم العلاقة بين الإسلام والعنف للتغطية على التحول المذهبي الكبير الذي طرأ على الموقف المسيحي من الحرب.

ولذلك فقد لجأت الكنيسة إلى استخدام النصوص المقدسة عندها لتكريس هذه الفكرة كما فعل جورج بوش الجدد مؤخرًا - أيضاً - في محاولاته لتفسير بعض الفقرات من سفر دانيال ورؤيا يوحنا بأنها تشير إلى ظهور الإسلام وخطورته ووجوب محاربته ولو بنوع من التكلف بل بنوع من الإلغاز والتحريف لهذه الكتب المحرفة أصلاً^(١).

ومن الممارسات الدالة على ذلك أثناء الحروب الصليبية أن بطرك بيت المقدس خرج مع كثير من مشهوري الصليبيين وفرسانهم حين فتح صلاح الدين بيت المقدس ولبسوا السواد وأظهروا الحزن على ذهاب بيت المقدس في أيديهم، ودخلوا بلاد الإفرنج يطوفونها ويستنجدون بأهلها ويستجيرون بهم ويحثونهم على الأخذ بثأر بيت المقدس، وصوروا المسيح وأمامه صورة رجل عربي ينهال عليه ضرباً، وجعلوا الدماء تسيل على وجه المسيح وصدرة، وكتبوا في شرح هذه الصورة هذا المسيح يضربه محمد نبي المسلمين وقد

(١) انظر: الرد على كتاب جورج بوش ص ١٦٤-١٧٦.



جرحه وقتله»^(١).

ومن ذلك - أيضاً - أنهم صوروا قبر المسيح وصوروا عليه فارساً مسلماً يطؤه بحوافر جواده، وهو يبول عليه، وقد وزعوا هذه الصورة في أسواق بلادهم ومجامعها حيث كان القسس يحملونها ورؤوسهم مكشوفة وعليهم المسوح وهم ينادون بالويل والثبور^(٢).

وهذه التصرفات واضحة في القصد إلى تشويه صورة المسلمين ونبي الإسلام نبي الرحمة وغرس الحقد والعداء والكراهية في نفوس الغرب مع العلم أن صلاح الدين عفا عن جميع الأسرى بعد دخوله القدس بينما قاموا هم بأبشع صور القتل والتنكيل عند دخولهم القدس، وقبل ذلك وبعده في كل مكان يصلون إليه وكم غدروا ونقضوا العهود سواء مع صلاح الدين أو غيره.

وهكذا يستمر هذا العداء وهذا التشويه إلى هذه الأيام لا شيء سوى الرفض للإسلام والخوف من انتشاره؛ لأنه يحمل الحق الذي يمحو الباطل، ولأنه سيحرر الشعوب من الضلال والظلم الذي تريده تلك الطائفة المعادية

(١) الخلقية الثقافية لاتجاهات المستشرقين في دراسة شخصية الرسول والمنهل العدد السنوي

لعام ١٤٠٩ - عن كتاب تميز الأمة الإسلامية ص ٥٨، وانظر: لماذا يكرهونه ص ٣٣-٣٤.

(٢) انظر: قاسم السامرائي الاستشراق ص ٢٠-٢١ عن تميز الأمة الإسلامية ص ٢٥٩.

المعاندة، ولذلك عند ما لاحظ مفكروهم وكبرائهم انتشار الإسلام لاسيما في البلاد الغربية أطلق الإعلام الغربي صيحات النذير لتقرع آذان الغربيين وتستنهض جهودهم لإيقاف هذا الزحف ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

ومن ذلك ما جاء في النويز ويك وهي تحرض الأوربيين ضد الجاليات الإسلامية في (٢/ ١٩٢٩) فتصفهم بقولها: «إن المسلمين في أوربا يمثلون رأس حربة أيديولوجية عدوانية اقتحامية»، وهاهي «الواشنطن بوست» تنشر مقالا بعنوان «الإسلام العدو الأول للغرب»، ومعهد دراسات الشرق الأوسط الأمريكي ينظم الدراسات تحت عنوان الخطر الإسلامي وتهديده للحضارة الغربية^(١).

وتقول صحيفة «التايم الأمريكية» مهددة بخطر الجالية الإسلامية: «وستشرق شمس الإسلام من جديد ولكنها هذه المرة تعكس كل الحقائق الجغرافية فهي لا تشرق من الشرق كالعادة وإنما تشرق في هذه المرة من الغرب...»^(٢).

وذلك بالرغم من أن الواقع المعاصر ليس في صالح المسلمين فهم في

(١) انظر: «قادة الغرب يقولون...»، عبد الودود يوسف ص ١٤-١٥.

(٢) انظر: التطاول على النبي محمد ﷺ وواجبات الأمة نحوه ص ١١٢.



ضعف وتفرق، وقوة في أعدائهم وتسلب عليهم، ومع ذلك فهو في انتشار مستمر وقوي يخيف أعداء التوحيد والحق والفضائل التي يحملها الإسلام، ولذلك لا يزال المستشرقون يقومون بدور كبير في استمرار هذه المؤامرة على الإسلام وعلى شعوب الغرب وإذكاء نار الفتنة، كما كان لهم دور كبير في تأجيج الحروب الصليبية سابقاً؛ فعند التحقيق والنظر الدقيق نجد أن الحروب الصليبية جاءت إنفاذاً لقرارات أسهم في صنعها وتغذيتها الاستشراق اللاهوتي^(١).

وهكذا - أيضاً - الحركة الاستعمارية الجديدة فإنها تتسم بالعداوة للمسلمين ورغبتها الشديدة في السيطرة عليهم واستنزاف ثرواتهم واقتلاع الإسلام من قلوبهم وتنصيرهم، ولم تكن رؤيتهم الجديدة بعدما يسمى بعصر النهضة عندهم مختلفة عن الرؤية التي أفرزتها الحروب الصليبية، بل لم تكن تلك الحركة الاستعمارية إلا حملة جديدة من الحملات الصليبية السابقة.

بل ظهر في هذه المرحلة عند الغرب وقوي التوجه إلى حرب المسلمين ثقافياً حيث ثبت لديهم أنه لا يمكن السيطرة عليهم عسكرياً مما كان له أثر على ظهور الحركة الاستشراقية ظهوراً قوياً في سائر البلاد الغربية^(٢).

(١) انظر: تميز الأمة الإسلامية ١/ ٢٦٩.

(٢) انظر: الغارة على العالم الإسلامي ٧ وما بعدها، وتميز الأمة الإسلامية ١/ ٢٧١-٢٧٣.

وحاول المستشرقون أن يُظهروا للناس - من الموافق لهم أو المخالف لهم - أن أبحاثهم ودراساتهم أبحاثٌ ودراساتٌ علميةٌ نزيهةٌ، هدفها الوصول إلى الحقائق وإبرازها، بعيداً عن العواطف أو الموروثات؛ لتكون أعظم في تعبئة المشاعر ضد الإسلام ولتؤتي ثمارها المقصودة في تشويه الإسلام ورسول الإسلام ﷺ، ولكن الواقع أثبت كذبهم العريض في دعواهم النزاهة والموضوعية، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك، وإلى وجود بعض التصريحات أو المواقف من بعض المستشرقين شهدت بالحق مع العلم أن من أهم أسباب ظهورها هو ظهور المذهب العقلاني والتخلص من سلطة الكنيسة.

ومع تأصل وتجذر هذه النظرة العلمانية الإلحادية في المجتمع الأوروبي إلا أن أغلب الدراسات الاستشراقية لا زالت تسير على نفس الخط في محاربة الإسلام وتشويه صورته^(١).

والمقصود أن للحركة الاستشراقية دوراً بارزاً في مساندة الحركة الاستعمارية (الصليبية)، ووصولها إلى أهدافها سواء قبل الاستعمار أو أثناءه أو بعد خروجه، فللاستشراق دوره البارز في تحقيق أهداف الدول الغربية في السيطرة على المسلمين وإضعافهم وإخضاع الأمة الإسلامية للغرب وإذابة

(١) انظر: تميز الأمة الإسلامية ١/ ٢٨٠-٢٨٥، ٢٩٢-٢٩٤.



ذاتيتها وهويتها عن طريق بث تلك الشبه والضلالات المشككة في الدين وعقائده وأحكامه وآدابه والتشكيك في القرآن والسنة والطعن في النبي محمد ﷺ ولو بطريق خفية نتيجتها التخلص من الشريعة وعدم التمسك و الاعتداد بها، وتزيين الحضارة الغربية والمبادئ الغربية الضالة المخالفة لما رضىه الله وأحبه وأمر به.

وبذلك يتضح لنا أن أهداف الاستشراق هي ذاتها أهداف الكنيسة والدول الغربية والاستعمار إلا أنه يلبس لباس العلم والبحث النزيه كذباً وزوراً.

وخلاصة هذا المقام أن المستشرقين وإن ادعوا البحث العلمي النزيه إلا أنهم لم يلتزموا ذلك، بل كانت هذه مجرد دعوى لتحقيق مزيد من التضليل للشعوب الغربية؛ لاستمرار تجهيلهم بالإسلام وبعدهم عنه وتهيئتهم لمحاربته.

وكذلك استخدموا نفس السلاح لتشكيك المسلمين بدينهم وإخراجهم منه أو إضعافهم وبث الخلاف والشقاق بينهم وكل من خرج منهم عن هذه الأهداف وتكلم بشيء من الإنصاف لم يلق إلا التجاهل والكيد والعداء، ومن أمثلة ذلك ما تعرض له رجاء جارودي ومراد هوفمان من محاربة بل ومحكمة بدعوى أنه يقوم بالدعاية للإسلام^(١).

(١) انظر: صوت البلاد العدد ٣٤ ص ٤٢-٤٥ - مجلة النور العدد (١٠٦)، أجنحة المكر =

ومما تقدم يمكن أن نجمل العوامل التي أدت إلى هذا الموقف الغربي ونظرته إلى الإسلام ونبي الإسلام نبي الرحمة نظرة مشوهة خاطئة ظالمة بما يلي:

١ - الهوى والحسد والكبر الذي أدى إلى رفض الحق مع العلم به والاستمرار في الباطل مع العلم به أيضاً.

٢ - تقديم رجال السلطة الدينية والدنيوية الدنيا والمصالح الخاصة على الآخرة والمصالح العامة لشعوبهم النصرانية والغربية.

٣ - استخدام الكنيسة لسلطتها وإمكانيتها في شحن الغرب ضد الإسلام وتزوير الحقائق الإسلامية لتكريس هذا العداء القائم على هذه الصورة المشوهة والمغلوبة عن الإسلام ونبي الإسلام نبي الرحمة محمد ﷺ.

٤ - رغبة الساسة الغربيين في الهيمنة والسيطرة على العالم وفرض الحضارة الغربية بما تحمله من مفاهيم ومبادئ وأخلاق ولو كانت زائفة أو أثبتت فشلها وفسادها محلياً في الغرب وكذلك فرض النصرانية على العالم ولو لم تكن شيئاً مقنعاً ولكنه جزء من حضارة الرجل الغربي التي يجب أن تغطي على العالم

=الثلاثة، عبد الرحمن حبنكة ص ١٣١ بالنقل عن تميز الأمة الإسلامية ١/ ٢٩٢-٢٩٣،
وانظر: ١/ ٢٤٦-٢٤٧ و ٢٩٩- وما بعدها، وانظر: التبشير والاستشراق محمد عزت
الطهطاوي ص ٩٤-٩٥، ٩٨ وما بعدها، و ١٠٤ وما بعدها.



وهذا نابع من:

٥ - نظرة الرجل الغربي إلى نفسه نظرة إعجاب وغرور مع احتقار وازدراء للآخرين ولكل ما يملكون من حضارة وتراث بل وتجاهل لذلك كله ولأثره في حضارتهم.

٦ - دور المستشرقين الكاذب الذي لبس لبوس البحث العلمي الموضوعي المتجرد، ولكنه في الحقيقة لم يخرج عن طابعه ونشأته الحقيقية، وهدفه الأول وهو خدمة الكنيسة والهيمنة والسيطرة العسكرية الغربية، واستنزاف ثروات الأمم الأخرى.

ويمكن - أيضاً - أن نجمل الأهداف الغربية من تلك الحملات التشويهية والغرض من ترسيخ الصورة المغلوطة عن دين الإسلام ونبي الإسلام نبي الرحمة محمد ﷺ بما يلي:

١ - المحافظة على بقاء الكنيسة بالمحافظة على بقاء الأتباع المغرر بهم.

٢ - المحافظة على التمييز الغربي عن الآخرين، وإن كان تمييزاً بالخطأ والانحراف.

٣ - المحافظة على الحضارة الغربية وسماتها، وإن كانت قد أثبتت فشلها وعجزها عن جلب السعادة والرفي الحقيقي على مدى التاريخ.

- ٤ - الحد من انتشار الإسلام.
- ٥ - السعي في نشر النصرانية وتقوية التنصير.
- ٦ - إضعاف المسلمين وتشكيكهم في دينهم.
- ٧ - تهيئة الجو للتسلط العسكري الغربي على بلاد المسلمين واستنزاف ثرواتهم.
- ٨ - إشغال المسلمين بالدفاع عن أنفسهم عن الهجوم على الكنيسة والديانة النصرانية المحرفة.
- وأما الأساليب المستخدمة في هذا التشويه لدين الإسلام ونبي الإسلام نبي الرحمة محمد ﷺ فخلاصة القول: إن الغرب لم يدخر وسعاً ولا وسيلة يمكنه استغلالها في ذلك، وبما أن الهدف باطل وكذب؛ فالوسائل كلها كاذبة وآثمة وباطلة، ومن ذلك:
- ١ - إصاق التهم الكاذبة كدعوى إهانة الإسلام للمرأة.
- ٢ - لبس الحق بالباطل كدعوى أن الإسلام انتشر بالسيف، والمقصود أنه ليس له المصادقية التي تقنع الآخرين به.
- ٣ - قلب المحاسن إلى مساوئ، مثل اتهام الإسلام بأنه يحرم الخمر ويمنع الاختلاط ويُجرِّم الزنا ويقتل القاتل ويأمر بالمعروف وينهى المنكر، وزعم أن



ذلك نقصا.

٤ - استخدام الدعاية والترويج الكاذب، مثل نشر التصاوير الكاذبة كالذي فعله بطريك بيت المقدس وفعله غيره ولا يزالون يفعلونه ويوجد في كنائسهم^(١) من تلك الصور ما تقشعر له الأبدان ويندى له جبين الحقائق والتاريخ والحضارة.

٥ - نشر التهم والإشاعات.

٦ - استخدام الأشعار والأناشيد الشعبية والأدبيات لحمل هذه الأكاذيب وترويجها.

٧ - استخدام الدراسات الأكاديمية المغلوطة والتحليلات الموهومة؛ لإعطاء تلك التهم والأكاذيب مظهر الحقائق العلمية.

٨ - محاربة كل صوت يظهر الحقيقة ويتكلم بالحق ويبين كذبهم وإفكهم، فلا مجال ههنا بل لا وجود لما يسمى بالحرية أو الديمقراطية أو النزاهة والبحث العلمي.

٩ - السيطرة على وسائل الإعلام، بل وحتى على الأوساط العلمية

(١) كما في كنيسة «سان بيرونيو» في «بولونيا» في إيطاليا وغيرها من الكنائس، وانظر: لماذا

يكرهونه ص ٣٣-٣٤.

والأكاديمية بحيث لا يظهر فيها إلا ما يوافق هواهم وتوجههم.
١٠ - استخدام مسلك الإسقاط في تصوير الإسلام والمسلمين.



ثانياً

عرض ونقد لأهم تلك الأكاذيب المفتراة المختلفة

على نبي الإسلام نبي الرحمة محمد ﷺ

لقد حفظ الله نبينا محمداً عبد الله ورسوله ﷺ من كل سوء وكل نقص واصطفاه واجتباؤه وكمله وطهره، وقد شملت هذه الرعاية الإلهية هذا النبي الكريم في حياته وقبل حياته وفي بعثته وقبل بعثته وهكذا يبعثه ربه مقاماً محموداً، والله الأمر من قبل ومن بعد، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨].

فكان ﷺ أعظم الناس وأطهرهم نسباً وأحسنهم وأكرمهم خلقاً وأكملهم عبادة وأيسرهم شريعة.

شهد له بذلك أعظم شاهد وأكبره، الله جل جلاله وعظم سلطانه، وشهد بذلك كل من عرفه وعرف ما جاء به سواء ممن أحبه وآمن به واتبعه، أو ممن كفر به أو أبغضه أو أعرض عنه؛ لأن تلك الحقائق الكبيرة لا يمكن للعاقل أو المنصف أن يجحدها أو يكذب بها ولكن من أعماه الحقد وطمس الكبر على قلبه وعقله قد يُكذب بذلك بل ويفعل ما هو أعظم فيحاول أن يقلب الحقائق

ويعكس الواقع ويلبس الحق ثوب الباطل والباطل ثوب الحق كما قال تعالى في وصف هؤلاء: ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ۖ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ [القلم: ٥١-٥٢].

وقد قال سبحانه في أول السورة: ﴿ ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۚ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۚ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۚ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۚ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۚ بِأَبْصَارِكُمُ الْأَمْفُتُونَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ۚ فَلَا تَطْعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [القلم: ١-٨].

وهكذا قال أسلافهم - أيضاً - كما حكاه الله عنهم، قال تعالى: ﴿ الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانٍ مُبِينٍ ۚ رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ۚ ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمِ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۚ وَمَا أَهْلَكَنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ۚ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَعْجِرُونَ ۚ وَقَالُوا يَتَأْتِيَهَا الذِّى نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۚ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۚ مَا نُنْزِلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ ۚ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۚ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ۚ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ۚ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ۚ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ۚ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ۚ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ۚ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَرُنَا بَلْ



لَحْنُ قَوْمٍ مَّسْحُورُونَ ﴿[الحجر: ١-١٥].

وقال - أيضا - سبحانه: ﴿قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَ بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثُلَى ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ آتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ أَسْتَعْلَى ﴿[طه: ٦٣-٦٤].

ويقول فرعون - كما أخبر الله في كتابه -: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنَِّّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿[غافر: ٢٦].

وعلى مسلك أولئك المكذبين ومنهجهم في الكفر والتكذيب وقلب الحقائق سار المستشرقون وكبراء الغرب وقادتهم حتى عكسوا الحقائق وغيبوا عن شعوبهم المظلومة المقهورة؛ حتى حصلت بسببهم تلك الصورة المشوهة عن خير البشرية وأفضل البرية نبي الرحمة محمد ﷺ، وفيما يلي بيان بعض نتاج جهود الكنيسة والمستشرقين عبر التاريخ في إيصال الحقائق لأمتهم ومجتمعهم لنرى مدى مصداقيتهم وأمانتهم في ذلك.

أولاً: الطعن في نبوته ورسالته عليه الصلاة والسلام.

لا يزال الإنكار لنبوة النبي محمد ﷺ والطعن فيها وجحد وتجاهل دلائل نبوته التي لا تكاد تحصى لكثرتها، كما هو شأن كل من رفض الإيمان بالرسول من

عهد نوح - عليه الصلاة والسلام - إلى بعثة النبي الخاتم محمد ﷺ وحتى قيام الساعة، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥].

وقد تنوعت صور هذا الإنكار وهذه الطعون، فبعضهم يزعم أنه المسيح الدجال - كما قاله البابا - أينو شانويوس الثالث - (١٢١٩م)^(١).

وتارة بدعوى أنه تأثر بمذهب الآريين أو النسطوريين كما زعمه قديماً يوحنا الدمشقي^(٢).

وأحياناً بدعوى أنه دين وثني وأنه كان يدعو الناس إلى عبادته^(٣).

وجميع هؤلاء يصطدمون بما جاء به النبي محمد ﷺ من القرآن.

المعجز في لفظه ومعناه وما فيه من الإعجاز العلمي والإخبار بالمغيبات، ومن تلك الشرائع التي لم يكن لها نظير، وصلح عليها شأن العرب والمسلمين، وأُسست حضارة عظيمة لا تزال ممتدة مع قوة أعدائها وتسلطهم عليها بأنواع الحروب والهدم والتدوين.

(١) حاضر العالم الإسلامي ٨٣/١ نقلاً عن «الإسقاط» ص ١٩.

(٢) الإسلام في متخيل الغرب وانظر الرد على جورج بوش ص ٢٠ وانظر: التطاول على النبي

محمد ﷺ، وواجبات الأمة لمجموعة من المؤلفين ص ١٤٢.

(٣) انظر: تميز الأمة الإسلامية ص ٣٥١.



ولكنهم - أيضاً - يذهبون كل مذهب في تجاهل ذلك أو نسبته إلى النصرانية أو اليهودية أو القوانين الرومانية وشتان شتان بين الليل والنهار.

يقول كارل بروكلمان (١٩٥٦ م): «اقتبس النبي عن التوراة فكرة الخطيئة الأصلية وإنما ترجع معتقداته فيما يتعلق باليوم الآخر إلى مصادر يهودية، وهكذا تتصل بصورة غير مباشرة بمصادر فارسية وبابلية قديمة»^(١).

ويقول غوستاف لويون (١٩٣١ م): «إذا أرجعنا القرآن إلى أصوله أمكننا عد الإسلام صورة مختصرة عن النصرانية»^(٢).

وأصدر (إلياس المر) في لبنان سنة (١٩٨٥ م) كتاباً عنوانه: «الإسلام بدعة نصرانية».

وقد كان ريكسه الألماني - وهو من أكبر المستشرقين الألمان - بين كذبه في ذلك، ومجد الإسلام؛ لأنه كان يتكلم ويكتب ما يقتنع به، ولم يكن يكتب ما يرضي رجال الدين واللاهوتيين كما يفعل غيره أمثال بروكلمان ونولدكه من الأكاذيب والافتراءات على النبي محمد ﷺ، ولذلك يقول عنه (فوك): «لقد كان متهماً عند اللاهوتيين بأنه حر التفكير ولم يسايرهم في ادعائهم أن محمداً كان

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٧٠ نقلاً عن كتاب الإسقاط ص ٢٠.

(٢) حضارة العرب لغوستاف لويون ص ١٥٨، نقلاً عن كتاب الإسقاط ص ٢٠.

نبيا زائفا وغشاشا، وأن ديانتته خرافات مضحكة»؛ لذلك لم يحصل على منصب جامعي، وعين مدرسا في إحدى الثانويات وشارت ثائرة رجال الدين عندما اقترح لإدارة ثانوية، فنقل إلى متحف للنقود لا يرى أحدا ولا يراه أحد، لا يتصل بأحد ولا يتصل به أحد^(١).

ولك أن تعجب أشد العجب من كارل بروكلمان - مع سعة اطلاعه على تراث المسلمين وتاريخ المسلمين - حيث يقول: «ولسنا نملك بينة موثوقاً بها عن حياة النبي الأولى، إلا هذه الآيات القرآنية من سورة الضحى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۖ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۖ وَوَجَدَكَ عَابِلًا فَأَغْنَىٰ ۖ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۖ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۖ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾».

فأي كذب هذا وأي تجاهل لسيرة النبي محمد ﷺ؟ التي لم يعرف التاريخ كتابة وترجمة وتاريخاً وتدويناً أعظم مما حصل له عليه الصلاة والسلام، وفي ذلك من أخباره قبل نبوته وطفولته وشبابه الشيء الكثير، ولكنه عمى القلب والعصبية العنصرية وإرضاء رجال الدين ورجال اللاهوت الغربيين.

والمقصود أنه تم ترسيخ هذه الصورة في ذهن الغربي، واعتمد ذلك حتى من الجهات العلمية والمراكز البحثية والدينية، ولذلك صُور أنه مستحق لدخول

(١) كارل بروكلمان في الميزان (ص ٥-٦).



النار؛ لأجل ادعاءه النبوة ولغير ذلك مما ألصقه به رجال الكنيسة واللاهوت والمستشرقين حتى صوّرت في ذلك الصور على جدران بعض كنائسهم^(١).
ولا تزال خطاباتهم الدينية تنكر أو لا تعترف بنبوة النبي الرسول نبي الرحمة محمد ﷺ، ومن أمثلة ذلك خطاب البابا يوحنا بولس الثاني في أكتوبر عام ١٩٩٣م^(٢) وخطاب البابا بينديكت السادس عشر في ١٢ سبتمبر ٢٠٠٦ حيث يقول: «أرني ماذا قدم محمد من جديد؟ وسوف لن تجد إلا أمورًا شيطانية وغير إنسانية...»^(٣).

وقد كان هذا في جامعة (ريجينسرج) في ألمانيا أمام جمع من العلماء والمفكرين، وليت شعري هل بلغ بهم الجهل أو الحقد مبلغه فلم ينكر هذا البهتان عليه منهم أحد؟

ولا شك أن كل تلك المجازفات والإفك والبهتان ليس عليه أدنى شبهة دليل، وأدنى مطالعة في سيرة النبي محمد ﷺ أو دلائل نبوته تبطل كل هذه

(١) انظر: لماذا يكرهونه؟ د. باسم خفاجي ص ٣٣.

(٢) انظر: تنصير العالم مناقشة لخطاب البابا يوحنا بولس الثاني - الدكتورة زينب عبد العزيز (ص ٣٦).

(٣) انظر: لماذا يكرهونه ﷺ؟ ص ٣٩.

الأوهام، وقد قيض الله من يرد عليهم من بني جلدتهم وقد بين كل ذلك بتفاصيله الشيخ إسحاق بن عبد الله السعدي^(١) في كتابه المتميز: تميز الأمة الإسلامية^(٢).

ثانياً: اتهامهم النبي محمداً ﷺ بالعنف أو الإرهاب.

هذه الصورة - أيضاً - من الصور التي حاول الغرب إلصاقها بنبي الإسلام نبي الرحمة محمد ﷺ.

وهي - أيضاً - مما ورثوه عن القرون الوسطى، بل لا زالت تكرر في العقل الغربي منذ أكثر من ألف عام^(٣)، وأنه يدعو إلى العنف والقتل وسفك الدماء، وأنه ساحر وشرير ويزرع الفتن، وقد وجد هذا في الأدبيات الغربية وفي دعاوى مفكريهم ورجال الدين فيهم، كما تقدم.

والمقصود من ذلك هو الحيلولة بين الشعب الغربي وسلطة الحق الذي في دين الإسلام وأخلاقه الرفيعة ومبادئه السامية التي لا يملك العقل الصحيح إلا

(١) لم أقل (الدكتور) تمسكاً بتميز الأمة الإسلامية، والله الموفق.

(٢) انظر: تميز الأمة الإسلامية ص ٣٥٨ وما بعدها و ص ٤٤٤ وما بعدها.

(٣) لماذا يكرهونه؟ ص ٢٥ وما بعدها.



التسليم لها.

ومن صور ذلك التجاهل لتلك المعاني العظيمة والتحامل على دين الإسلام ما زعمه المستشرق الأمريكي (ماكدونالد) فأساء إلى نفسه إساءة عظيمة وأشار بذلك إلى جهله وتحامله وتجاهله وعصبيته المقيتة حيث يقول تحت مادة «الله» في دائرة المعارف الإسلامية منكرًا حتى احتمالية أن يكون من صفات الله في الإسلام صفة السلام فقال: «وفي أسمائه - أيضاً - السلام، وهذه الصفة لم ترد إلا في الآية ٢٣ في سورة الحشر. ومعناها شديد الغموض ونكاد نقطع بأنها لا تعني (السلم)، ويرى المفسرون أن معناها (السلامة) أي البراءة من النقائص والعيوب، وهو تفسير محتمل، وقد تكون هذه الصفة كلمة بقيت في ذاكرة محمد من العبارات التي تتلى في صلوات النصارى»^(١).

هكذا بكل وقاحة وصلافة وتجاهل لمعاني الرحمة في الإسلام وفي سيرة

النبي ﷺ.

أليس هو الذي قال لأهل مكة بعد أن أمضوا السنين الطوال في عدائه وقتاله وبعد أن ظهر عليهم قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»؟!

(١) انظر: لماذا يكرهونه؟ ص٢٧ - ٢٨.

إن الإسلام لم يشرع الجهاد؛ لأجل القتل وإنما لأجل أن يفسح المجال للعامة ليعرفوا دين الله الحق، ويمنع أمثال هؤلاء الكاذبين من الحيلولة دون وصول النور إلى قلوب الناس، فهذا وأمثاله من رجال الكنيسة ورجال السلطة يحولون دون أن يعرف الناس ربهم وخالقهم وهذا الكذب والظلم والجور لا بد أن يُمنع ولو بالقوة؛ لأنه ظلم وكذب وجور.

وقد اتفق العقلاء، بل والمجانين على استخدام القوة لردع الظالمين والكاذبين والآثمين.

فأي عيب على الإسلام؟ وهو يحاول أن ينقذ الخلق من ظلم أولئك النفر، وقد مر معنا كيف عرف هرقل صدق دعوة النبي محمد ﷺ وبين لرجال البلاط ورجال الدين؟ ولكنهم رفضوا الحق وأصروا على الكذب والظلم فوافقهم وضمن بملكه عن اتباع الرسول الحق. وهكذا فعل اليهود، ومع ذلك فإنهم متى ما قبلوا الحق وآمنوا به كانوا في غاية العزة والكرامة والأمن، فأي وحشية وإرهاب فيمن يدعوكم إلى الفضائل ويحفظكم ويحافظ عليكم، بل ويعصم دمكم وإن لم تقبل دعوته، ما لم تكن ظالماً الظلم الذي تستوجب معه العقوبة المينة؟! بل إن من صور التسامح مع الأعداء أن يعفو عنهم مع القدرة على إنزال العقوبة بهم كفعله عليه الصلاة والسلام - السابق الذكر - مع أهل مكة.



ولو كانوا صادقين ومنصفين لشهدوا على أنفسهم هم بالإرهاب والعنف والدموية؛ لما يفعلونه في النساء والأطفال والشيوخ في شتى بقاع الإسلام، وعلى مر التاريخ متى ما سنحت لهم الفرصة. وهذا ما يرفضه الإسلام ولا يقره أبداً. بل إن ما يفعلونه من إيذاء الحيوانات كالثيران واللعب بها وإسالة دمائها أمر يجرمه الإسلام أشد التحريم. فهل يعقلون ما في الإسلام وما دعا إليه نبي الإسلام من الرحمة؟! وهل يُنصفون؟! أم إنهم ما زالوا على طريقهم من الكذب والتشويه؟

للأسف هذا ما يؤيده حال أكثرهم:

يقول جيرى فالويل القسيس الانجيلي المعروف الداعية - صاحب البرامج التلفزيونية - يقول على شاشات التلفاز: «أنا أعتقد أن محمداً كان إرهابياً، لقد قرأت ما يكفي من المسلمين وغير المسلمين أنه كان رجل عنف ورجل حروب».

وهكذا - أيضاً - يقول بات روبرتسون: «إنه رجل متعصب إلى أقصى درجة، إنه كان لصاً وقاطع طريق...».

وهكذا يقول البابا بندكت السادس عشر: «أرني ماذا قدم محمد من جديد؟ وسوف لن تجد إلا أموراً شيطانية وغير إنسانية، مثل أوامره التي دعا

إليها بنشر الإيـان عن طريق السيف»^(١).

وهكذا يـلـو لهم أن يـلـبـوا الحقائق ويـلـطـوا بين الأمور، والأمر الذي يسترعي الانتباه أن البابا بيندكيت يقوم بهذا الاعتداء على نبي الإسلام ونبي الرحمة في كلمة له عن أهمية الحوار بين الثقافات والأديان، فأين يكون موقع الحوار مع من يفترى الكذب ويقلب الحقائق ويتجاهل التاريخ ولا يحترم حتى مشاعر الآخرين^(٢).

وينبغي أن نتنبه - هنا - إلى أن ما يرددونه من عبارة أن الإسلام انتشر بالسيف يقصدون به أن المسلمين أرغموا الناس على الدخول في الدين بحد السيف، أي أنهم يُخـيرون بين الإسلام أو القتل.

ويريدون أن يصلوا بذلك إلى أمرين، الأول أن المسلمين قتلة وسفاكين للدماء، والثاني أن الإسلام ليس فيه من الحقائق والواقعية والموضوعية ما يقنع الناس، ولذلك لا بد من إرغامهم على قبوله بالقوة.

وواقع المسلمين وتاريخهم يشهد بكذب هذا كله، ولكن هذا منهم على

(١) انظر: النقول السابقة في لماذا يكرهونه؟ ص ٣٦-٣٩، وانظر: التطاول على النبي محمد ﷺ

ص ١٣٨ وما بعدها.

(٢) انظر - إضافة إلى ما في الحاشية السابقة: التطاول على النبي محمد ﷺ ص ٩٧-٩٨.



طريقة الإسقاط التي أشرنا إليها.

وما يذكره المشاركون في المؤتمر من أخلاقه ﷺ وسيرته دليل واضح على مدى الكذب والتشويه الذي يقصد إليه هؤلاء، ودليل على ما يحملونه من العدااء السافر، الذي لا مبرر له إلا التعصب والعنصرية واتباع الهوى ورفض الهدى.

وخلاصة القول: إنه بفعل المستشرقين ورجال الكنيسة منذ القرون الوسطى وإلى العصر الحاضر الذي شاركت فيه - أو قامت فيه مقام الاستشراق - مراكز البحث^(١) أو الدراسات الأكاديمية في الجامعات، تكوّن ولا زال يُرسَخ في مُخيلة الغرب الصورة الكريهة المشوهة لرسول الإسلام ودين الإسلام، وأنه وثني مبتدع منشق ودعي كذاب، وأنه يدعو إلى الشر والإفساد والقتل والدمار، وأنهم أعداء للمجتمع والحضارة، وأنهم أهانوا المرأة، وهكذا سعوا في تشكيل الصورة التي يَنْفِرُ منها الغربي.

وسار على ذلك العامة والخاصة وبعضهم قد يكون جهل بعض ذلك وكثير ممن عرفوا الحق لم يتوقفوا عن معاداته والكذب عليه وتشويهه كما مر معنا أمثلة من ذلك.

(١) انظر: المستشرقون الجدد، دراسة في مراكز الأبحاث الغربية، للدكتور مصطفى عبد الغني.

ويؤكد ذلك جان فلوري بقوله: «إنه حتى ولو اطلعوا بالفعل على السلوك الحقيقي للنبي لأصدروا في حقه نفس الأحكام، ولا نتقصوا من صورته وحياته ورسالته - قلت وهذا هو ما حصل فعلاً - لأن المسألة تدخل في الأول والأخير ضمن صراع شامل كان يتعلق بالوجود المسيحي نفسه في حوض البحر الأوسط وجنوب أوروبا^(١). فالصور النمطية الانتقاصية والقذحية التي اتخذت من الإسلام موضوعاً لها حركتها الرغبة العارمة في تشكيل «رأي عام» مسيحي يُنفّر من الإسلام ويَشْمِزُّ من المسلمين^(٢).

(١) وهذا هو الذي منع رجال الدين والذين اجتمع بهم هرقل من الإسلام واتباع النبي الذي عرفوا صدقه، إنه استحباب الكفر على الإيمان واستحباب الدنيا على الآخرة والكبر والعناد الذي يهلك صاحبه في الدنيا والآخرة.

(٢) انظر: الإسلام في متخيل الغرب د. لمحمد نور الدين أفاية ص ١٥.



ثالثاً

واجب المسلمين تجاه هذا الموقف الغربي

إنَّ المسلم بما وفقه الله إليه من الهدى والخير ومعرفة الحق والقيام به عليه واجب عظيم أوجبه الله - تعالى - عليه، وعلى كل مسلم من ذلك الواجب بقدر ما يمكنه منه وعلى أهل العلم والحُكْم من ذلك العبء الأكبر والمسؤولية العظمى؛ لما أعطاهم الله إياه من القدرة والمسؤولية.

والواجب على المسلم حيال هذا الموقف يرجع إلى أمرين:

الأول: الانتصار للحق وللنبي محمد ﷺ نبي الرحمة.

والثاني: إنقاذ ذلك الشعب المغرر به الذي تُسلَّط على عقله وثقافته ومفاهيمه وتصوراتهِ وقلبت له الحقائق حتى صار يرى الظلام نوراً والنور ظلاماً والعفة عاراً والعار عادةً والشرك توحيداً والكفر إيماناً والخالق مخلوقاً والمخلوق خالقاً.

ويمكن أن نضيف أمراً ثالثاً، وهو:

حماية المجتمع المسلم وعوام وأطفال المسلمين من تلك الشبه التي صارت

تُصدَّرُ إلى بلاد المسلمين بل سرى بعضها بين أبناء المسلمين.

فأما ما يتعلق بالأمر الأول فهو بيان سيرته ﷺ وبيان صفاته وأخلاقه، وبيان شرائع الإسلام العادلة وعقائده الصافية، وإظهار هذه الحقائق على صورتها الصحيحة التي شوهاها دعاة الباطل وتتابعوا على ذلك عبر قرون طويلة، وكشف شبههم وتليساتهم.

ويجب أن يراعى - هاهنا - أمرٌ مهمٌ وهو البعد التام عما يكون مشاركة في نشر الشبه أو إحياء ما اندثر منها، أو الاستطراد في ذكرها مفصلة، بل يجب أن يختصر في ذكرها ويشار إليها إشارة ويُتوسع في الجواب عنها، وإبطالها وذكر الحق المضاد لها.

وفي المحيط الذي لم تنتشر هذه الشبهة أو تشتهر يكتفي الداعي بالتركيز على الحق المضاد لها وإظهاره حتى إذا ما وردت يوماً وردت على ما يبطلها من العلم فلم يكن لها أي أثر يذكر.

وأما ما يتعلق بدعوة أهل الكتاب إلى الإسلام وإنقاذهم من ذلك التمويه والتضليل فهو لا شك أمر مطلوب وواجب على المسلمين.

وقد جاءت النصوص الشرعية بما يدل على القواعد التي يجب أن يضعها المسلم أمام عينه أثناء قيامه بهذا الواجب دعوة أهل الكتاب. وبذلك يكون حرياً بالوصول إلى هدفه العظيم إن شاء الله تعالى.



ولعل من أهم هذه الأسس ما يأتي^(١):

أولاً: بيان الحق والدعوة إليه.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

خلافاً لما عليه البعض ممن يخوضون في ذلك في مؤتمرات الحوار؛ فإنهم لا يبينون الحق، بل يداهون فيه، وربما يستحون من ذكره، وأيضاً لا يقومون بالدعوة إليه إلا قليلاً.

ثانياً: إدراك السنن الإلهية في النفس والكون والحياة وتلافي الاصطدام بها.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨-١١٩].

وقال تعالى: ﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغْفِيلِينَ﴾

[يونس: ٢٩].

(١) هذه الأسس مقتبسة من كتاب «تميز الأمة الإسلامية» ٢/ ١١٥١-١١٥٧.

وقال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف ١٠٣].

ثالثاً: مناقشة الأديان والعقائد والملل والنحل والمذاهب المختلفة مناقشة

موضوعية نزيهة:

تكشف ما فيها من وجوه الزلل والزيف والبطلان وتبين الحق في

ذلك كله.

ومن الأمثلة على ذلك أن الله قد أشار إلى مقالة الملاحدة والذين ينكرون

البعث واليوم الآخر في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا

وَمَا يُمِلُّكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا هُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الحاشية: ٢٤].

وفي قوله -تعالى- حكاية عنهم: ﴿وَلَيْنَ أَطَعْتُم بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ

﴿١٥﴾ أَعِدُّوا أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْكُمْ تُحْزَرُونَ﴾ ﴿١٦﴾ هِيَاتَ هِيَاتَ

لِمَا تُوعَدُونَ ﴿١٧﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون:

٣٤-٣٧].

وعند تأمل هذا الطرح والمناقشة التي أعقبته تظهر عبارات «تعلمون»،

«تذكرون»، «تتقون»، وقد ذيلت بأسئلة لطيفة متدرجة من مقدمة إلى نتيجة،



وهي ترتقي بالفكر والوجدان وفيها احترام لعقلية المجادل والنزول معه إلى ما يعقله ويدركه وتذكيره بلوازم ذلك ثم السمو به إلى التقوى، وإيقاظ شعوره ووجدانه وهمته للزوم الحق والخير وتحذيره من مغبة الكذب على الله ووصفه بما هو منزّه عنه. حيث قال تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَتْ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٠-٩٢].

لعل في هذا الأسلوب وما أدى إليه من نتائج وأحكام صورة واضحة جلية على المنهج القرآني الجدلي، وما يتسم به من نزاهة وقوة في البيان والأصالة.

رابعاً: التزام الأدب والجدال بالتي هي أحسن.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، قال بعض المفسرين: «ينهى - تعالى - عن مجادلة أهل الكتاب إذا كانت عن غير بصيرة من المجادل، أو بغير قاعدة مرضية، وأن لا يجادلوا إلا بالتي هي أحسن، بحسن خلق ولطف ولين كلام، ودعوة إلى الحق وتحسينه ورد الباطل وتهجينه بأقرب طريق موصل لذلك، وأن لا يكون القصد

منها مجرد المجادلة والمغالبة، وحب العلو، بل يكون القصد بيان الحق وهداية الخلق^(١)، أما في تفسير قوله -تعالى-: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾، فقال: «إلا الذين ظلموا منهم من أهل الكتاب بأن ظهر من قصد المجادل منهم وحاله أنه لا إرادة له في الحق وإنما يجادل على وجه المشاغبة والمغالبة فهذا لا فائدة في جداله؛ لأن المقصود منها ضائع»^(٢).

خامساً: أخذ الحيطة والحذر من أهل الكتاب مع الالتزام بأداب المجادلة معهم والتنبه لما قد يلجأون إليه من:
أ- التحريف:

قال -تعالى-: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ خَلَّافُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].
ب- التلبيس وكتمان الحق:

قال -تعالى-: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١].

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ٩٢ / ٦.

(٢) المرجع السابق ٩٣ / ٦.



ج - المخادعة:

قال- تعالى:- ﴿ وَقَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكُفِّرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٢].

د - الحسد:

قال تعالى: ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وقال تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ۚ وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُم عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ۚ ﴾ [البقرة: ٢١٧].

هـ - التعصب لما هم عليه من الباطل:

قال تعالى: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هُدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۚ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة: ١٢٠].

و - تزكية النفس وادعاء التفوق:

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُرْسِي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ

فَتِيلًا ﴿[النساء: ٤٩].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصْرَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُ ۖ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ [المائدة: ١٨].

سادساً: النهي عن موالاتهم والإعلان لهم بأننا مسلمون:

قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

سابعاً: الإشادة بفئة من أهل الكتاب عرفت الحق فأمنت به وتعاطفت

معه:

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَزُهَبَانَا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [٨٣-٨٢].
وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ط
يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿[المائدة: ٨٢-٨٣].

هذه أهم أسس المنهج في المجادلة بعامة ومجادلة أهل الكتاب بخاصة، وقد طبقه الرسول ﷺ مع المجادلين ورسخه في الواقع وسار السلف الصالح



عليه، واهتم العلماء المسلمون - بتأثير مباشر من القرآن والسنة - اهتماماً بالغاً بدراسة أديان الأمم وعقائدها وطقوسها وعقدوا لذلك كتباً مفردة أو فصولاً مطولة في مصنفاتهم كابن حزم والجويني وابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية، والقرطبي، وابن خلدون، ثم برزت في العصر الحديث مؤلفات تعنى بهذا الجانب مثل مؤلفات رحمة الله بن خليل الهندي، وأبي زهرة وغيرهما.

التوصيات

ظهر من هذا البحث أن المكيدة التي عنها نشأ هذا الموقف الغريب في أشهر شخصية وأعظم وأظهر رجل في التاريخ هي مكيدة كبيرة وهي كذلك وهي - أيضاً - تعميقة في جذور التاريخ منذ أن بُعثَ عليه الصلاة والسلام، وواجه نور الحق ظلام الباطل.

ولذلك يجب:

١ - تعظيم وتكثير الجهود المبذولة لإظهار هذا الحق وكشف ذلك التشويه الباطل.

٢ - العناية باستغلال وسائل الإعلام جميعها لبيان هذا الحق وإيصاله إلى قلوب الناس جميعاً.

٣ - السعي الحثيث في تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها وتوسيع نطاق ذلك في العالم كله.

٤ - السعي في ترجمة ما يبين حقيقة النبي محمد ﷺ وسيرته وشريعته المطهرة وفضائلها وفضائل الإسلام وعقيدته الصافية إلى جميع اللغات، ولكن ينبغي التنبيه إلى أن هذه الترجمة ليست هي الأصل، بل الأصل تعليم الآخرين



اللغة العربية ولكنها حل مؤقت لحين الوصول إلى ذلك الهدف.

٥ - ترسيخ وتوسيع الاهتمام باللغة العربية وتعليمها في البلاد العربية والإسلامية؛ لأن الوصول إلى المصادر العربية هو الكفيل بكشف الشبه ورد الباطل الذي يموه به أولئك.

٦ - تقرير دلائل النبوة في المناهج الدراسية؛ لأن أي نقاش أو دخول في حوار مع غير المسلمين سيرجع في النهاية إلى بيان دلائل نبوته ومن ثمّ التسليم للحق الذي جاء به من عند الله أو الكفر والإباء وعدم ذلك، ولذلك يجب أن نتسلح جميعاً بمعرفة السيرة ودلائل النبوة.

٧ - إلزام المبتعثين إلى الخارج بدورات توضح من خلالها هذه الحقائق وما هي صورة المسلم في ذهن الغربي وأسباب ذلك الفهم المغلوط والأدلة على بطلانه فيكون بذلك كلّ طالبٍ مبتعث مساهماً في كشف هذا الباطل، ومساهماً في نصرّة النبي محمد ﷺ، ومساهماً في إنقاذ الغرب من هذا التضليل والتمويه، وبذلك - أيضاً - نحمي أبنائنا وفلذات أكبادنا من التأثير بتلك المفاهيم المكذوبة والدعايات المضللة.

٨ - دعوة الغرب إلى الحوار حول هذه المفاهيم المغلوطة حول الإسلام ونبي الإسلام وحضارة المسلمين ولكن بعد أن نعد العدة لبيان الحق وكشف

زيف الباطل، وبذلك نطل عليهم أهدافهم الاستعمارية التنصيرية من وراء عقد هذه الحوارات^(١).

٩ - التنبه على مسلكتهم الإسقاطي في جميع الأمور التي طعنوا فيها على الإسلام ونبي الإسلام محمد ﷺ.

١٠ - يجب عدم الوثوق والاعتبار بنتاج المستشرقين، ولا بتوصيات الخبراء الغربيين، ولا نتاج مراكز بحوثهم الدراسية فقد ثبت بالتجربة والبرهان كذبهم وتلاعبهم وقصدتهم إلى الدس والتشويه وإبعاد الأمة عن أسباب قوتها وعزتها والقصد إلى تذويب شخصيتها وذاتيتها؛ لتكون تبعاً لأمة الغرب وليعلو سلطان الكنيسة والشرك والفسق والتلثيث.

ومن ذلك:

أ/ توصياتهم بإقصاء اللغة العربية عن التعليم ودعوى أنها تعيق أو لا تناسب العلم الحديث أو لا داعي للاهتمام بها.

ب/ دعوتهم إلى الأخذ بالأحكام والمبادئ الغربية في الأخلاق والتربية والمنازعات، وأنها هي التي يحصل بها الرقي والحضارة ويلبسون ذلك لباس العلم والدراسات والتحليل وكله كذب وتمويه.

(١) ينظر البحث القيم المختصر «الحوار النصراني الإسلامي» للدكتور محمد عبد الله السحيم.



١١ - التركيز الشديد على تدريس العقيدة الإسلامية بكل تفاصيلها وبيان الفرق المخالفة والهالكة، وبيان الردود على معتقداتها الباطلة؛ لأن تلك المعتقدات كانت من أوسع زاد المستشرقين في تشكيكهم وتضليلهم.

إضافة إلى أنه لا يتمكن من أن يُحسِّن الردَّ عليهم إلا من تمسك بالعقيدة الصحيحة والفهم الصحيح لمنهج السلف الصالح والفقهاء الإسلامي الصحيح. ومن أمثلة ذلك أن كثيراً ممن ذهب يرد على دعواهم انتشار الإسلام بالسيف أخذ ينكر جهاد الطلب وهذا راجع إلى عدم فهمه لشبهتهم ومقصودهم منها، وعدم ضبطه للحكم الفقهي في هذه المسألة وعدم بناءه لأحكامه على منهج السلف في التلقي والاستدلال.

١٢ - التوسع في الكتابات حول الشبه التي صار لها رواج في بلاد المسلمين، وأثارها المستشرقون والكنيسة ضد الإسلام ونبى الإسلام محمد ﷺ.

١٣ - عقد مؤتمر خاص ببيان محاسن القرآن الكريم وموقف الغرب منه، وأثر ذلك على واقع وثقافة المسلمين المعاصرة.

والله - تعالى - أعلم وهو الهادي إلى صراطه المستقيم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

قائمة المراجع^(١)

- (١) أجنحة المكر الثلاثة، عبد الرحمن حبنكة(*).
- (٢) الاستشراق، قاسم السامرائي(*).
- (٣) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، محمود حمدي زقزوق، مكتبة الشروق الدولية، مصر، الطبعة الأولى ١٤٢٩ هـ.
- (٤) الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر، دمشق - سورية، دار الفكر المعاصر بيروت - لبنان، الإعادة الأولى ١٤١٩ - ١٩٩٨.
- (٥) الإسلام في متخيل الغرب لمحمد نور الدين أفاية، مقال منشور في شبكة المعلومات.
- (٦) الإسلام والمسيحية، إلکسي جورافکسي، ترجمة خلف محمد الجراد(*).
- (٧) الإسلام والرسول في نظر منصفی الشرق والغرب، الطبعة الثالثة، مكتبة الثقافة، الدوحة قطر.
- (٨) إنجيل برنابا، ترجمة الدكتور خليل سعادة، مكتبة ومطبعة محمد علي صبحي وأولاده.
- (٩) تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان(*).

(١) المصدر المعلم ب(*) تم النقل عنه بواسطة.



- (١٠) تاريخ الشعوب الإسلامية لكارل بروكلمان (*).
- (١١) تاريخ العرب في الإسلام جواد علي (*).
- (١٢) التبشير والاستشراق أحقاد وحملات على النبي محمد ﷺ وبلاد الإسلام، المستشار محمد عزت إسماعيل الطهطاوي، الزهراء للإعلام العربي، الطبعة الأولى ١٤١١-١٩٩١.
- (١٣) التطاول على النبي محمد ﷺ، وواجبات الأمة لمجموعة من المؤلفين، مجلة البيان.
- (١٤) تميز الأمة الإسلامية مع دراسة نقدية لموقف المستشرقين، د. إسحاق بن عبد الله السعدي، من مطبوعات جامعة أم القرى.
- (١٥) تنصير العالم مناقشة لخطاب البابا يوحنا بولس الثاني، الدكتورة زينب عبد العزيز، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤١٥-١٩٩٥.
- (١٦) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان السعدي، دار العاصمة الرياض الطبعة الأولى ١٤٢٣.
- (١٧) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لشيخ الإسلام أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق وتعليق: د. علي بن حسن بن ناصر، د. عبد العزيز إبراهيم العسكر، د. حمدان بن محمد الحمدان، ط. دار العاصمة للنشر والتوزيع المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية ١٤١٩-١٩٩٩.
- (١٨) حاضر العالم الإسلامي (*).
- (١٩) حضارة العرب (*).

- (٢٠) الحوار النصراني الإسلامي: تاريخه وأهدافه وغاياته والموقف الشرعي منه، بحث مقدم إلى ندوة الحوار مع الآخر في الفكر الإسلامي في كلية الشريعة بجامعة الشارقة، د. محمد عبد الله السحيم، ١٤٢٨-٢٠٠٧.
- (٢١) الخلفية التاريخية للاستشراق، محمد بركات البيه (ضمن مجلة المنهل العدد ٤٧١، ١٤٠٢ - العدد الخاص عن الاستشراق والمستشرقين).
- (٢٢) الخلفية الثقافية لاتجاهات المستشرقين في دراسة شخصية الرسول (ضمن مجلة المنهل العدد ٤٧١، ١٤٠٢ - العدد الخاص عن الاستشراق والمستشرقين).
- (٢٣) دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، د. سعود عبد العزيز الخلف، أضواء السلف، الطبعة الأولى ١٤٢٢-٢٠٠٢.
- (٢٤) دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند، د. محمد ضياء الرحمن الأعظمي، مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٢-٢٠٠١.
- (٢٥) الرد على كتاب جورج بوش «حياة محمد»، السيد حامد السيد علي، تقديم الأستاذ الدكتور عبد العظيم المطعني.
- (٢٦) سفر التثنية (*).
- (٢٧) السيرة النبوية لابن هشام، مطابع دار البيان، تحقيق وليد محمد سلامة.
- (٢٨) الشخصية العربية في الجدل المسيحي مع الإسلام، دانييل ساهاسن.
- (٢٩) صحيح البخاري.
- (٣٠) صحيح السيرة النبوية للعلامة ناصر الدين الألباني، المكتبة الإسلامية، الأردن، الطبعة الأولى ١٤٢١.

- (٣١) العقيدة والشريعة جولد زيهير (*).
- (٣٢) الغارة على العالم الإسلامي، «شاتيليه»، ترجمة مساعد اليافي ومحب الدين الخطيب.
- (٣٣) كارل بروكلمان في الميزان، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع دمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٨.
- (٣٤) لماذا يكرهونه؟ الأصول الفكرية لعلاقة الغرب بنبي الإسلام ﷺ، د. باسم خفاجي، كتاب البيان (٧٧) سلسلة تصدر من مجلة البيان، الطبعة الأولى ١٤٢٧-٢٠٠٦.
- (٣٥) مجلة الاجتهاد العدد ٢٨، (١٩٩٥) (*).
- (٣٦) مجلة المنهل العدد ٤٧١، ١٤٠٢ - العدد الخاص عن الاستشراق والمستشرقين (*).
- (٣٧) مجلة النور العدد (١٠٦) (*).
- (٣٨) مجلة صوت البلاد العدد ٣٤ (*).
- (٣٩) المستشرقون الجدد، دراسة في مراكز الأبحاث الغربية، د. مصطفى عبد الغني، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى ١٤٢٨-٢٠٠٧.
- (٤٠) منحة القريب المجيب في الرد على عباد الصليب، للشيخ عبد العزيز بن حمد بن ناصر بن معمر، تحقيق د. محمد بن عبد الله بن حمد السكاكر، الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية، ١٤١٩-١٩٩٩.
- (٤١) مؤتمر التفاعل بين الحضارة العربية الإسلامية والحضارة الغربية والدور الأسباني، الكاتب محمد يحيى، المنشور في موقع www.kalema.net.

ابيض



نبوة محمد ﷺ

في الاستشراق الفرنسي المعاصر

جاك لين شابي (أنموذجاً)

إعلاء

أ. د. عبد الحكيم فرحات

ابیض

المقدِّمة

هل نحن مقبلون على ثورة علمية في دراسة السيرة النبوية؟ كثيرا ما يردُّ هذا السؤال على المتابعين لما يعد من أبحاث في هذا المجال خلال العقود الأخيرة؛ حينما يرونها تتوسل برؤى منهجية تخرج عما أُلِف في العلوم الإسلامية التراثية، وتطمح إلى تفكيك المعتقد الإسلامي في النبوة المحمدية، وإعادة تركيب السيرة النيرة، ودراسة مقرراتها ومسلّماته دراسة نقدية، بعد أن استقرت في الوعي الإسلامي قرونا طويلة. وللأسف فأكثر هاتيك الدراسات تعد في مراكز غربية، ببريطانيا وأمريكا، وإسرائيل، وفرنسا، وهي من الكثرة بحيث أعدت لها فهارس عديدة^(١)، وهذا ما يثبت أن النبوة المحمدية قد صارت موضوعا خصبا لأبحاث الألفية الثالثة.

ورغم ذلك، فكثير من الباحثين المسلمين في عالمنا الإسلامي بعيدون كل البعد عن هاتيك الرؤى النقدية، لا يعرفون عنها شيئا، ولا عن رؤاها النقدية، ولا عن نتائجها المستجدة، ناهيك عن يرفض الاطلاع على ذلك جملة

(1) Rubin, Coll. «The Formation of the Classical Islamic World», vol. 3 et 4, Variorum, Ashgate, 1998, v. infra, p. 33).

وتفصيلاً، أو يدير لها ظهره لها بحجة أنها كفرٌ صراحٌ، لا يفلح صاحبه أبداً، وهذا ما يشكّل في نظري خطراً حقيقياً على معطيات السيرة النبوية، ويمس بمقررات النبوة المحمدية، ويشكك المسلمين في حلاوة إيمانهم، ويقف عائقاً أمام تقدم الدعوة الإسلامية، وهذا ما يبين أن الدراسات المحمدية في أزمة حقيقية يغذيها المسلم والمستشرق معاً؛ المسلم بعدم اطلاعه على ما جدّ من أبحاث ومناهج ورؤى نقدية، والمستشرقٌ بإلمامه بما يفتقده المسلم المعاصر، وتحيزه لرؤاه الوجودية والكونية، وهذا صلب الأزمة الحقيقية للدراسات المحمدية، التي تحتاج منّا تداركاً سريعاً، يقوم على الإيمان العميق، والامتلاك للنفس، والاطلاع على المناهج النقدية قديمها وحديثها، ونقد ما جدّ من طروحات علمية، ولن يخيب من يعمل بذلك أبداً.

ولا شكّ في أنّ الجامعات الفرنسية من أهمّ هاتيك المراكز الغربية، التي تصدّت في العشرينيات الأخيرة لدراسة النبوة المحمدية وكل ما لها صلة بها، ويأتي في طليعتها أبحاث المستشرقة الفرنسية جاكين شابي (Jacqueline Chabbi)، الأستاذة المحاضرة بجامعة باريس الثامنة (Université Paris 8) بفرنسا، اليهودية الأصل، التي أعدّت مقالات كثيرة حول الإسلام بالموسوعة الفرنسية الشهيرة، وألقت محاضرات عديدة حول الرسول ﷺ ونبوته، وألّفت

كتابين فيما يخص السيرة المحمدية، أولهما بعنوان: (ربّ القبائل، إسلام محمد) (١٩٩٨م)^(١)، وهو كتاب مستخلص من رسالتها المقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية سنة ١٩٩٢م، تحت إشراف المؤرخ اليهودي الشهير كلود كوهين (Claude Cohen)^(٢). والكتاب الثاني بعنوان مغرٍ ونبرة نابية^(٣): «القرآن المفكّك، صور توراتية في الجزيرة العربية» (Le Coran décrypte: Figures Bibliques en Arabie) (٢٠٠٨)^(٤)، سبرت فيه السيرة المحمدية والقرآن الكريم، وادّعت أن طريقتها هي الوحيدة التي تصلح لإعطاء صورة تاريخية وافية عن النبي ﷺ والقرآن الكريم^(٥).

لقد وظّفت في هذين الكتابين مناهج نقدية معاصرة، لم يعرفها التراث

(1) Jacqueline Chabbi, Le Seigneur des tribus. L'Islam de Mahomet, (Paris: Noësis, 1997).

(٢) هاشم صالح، الاستشراق وأرخنة التراث،

(<http://www.hadatha4syria.org/news.php?action=view&id=4365>)

(20/01/2010).

(٣) اتصلت بها مرارا للاستفسار فرفضت الرد، وعرضت عليها ترجمتها كتابها سيد القبائل إلى اللغة العربية، فلم ترد أيضا.

(4) Jacqueline Chabbi, Le Coran décrypte: Figures Bibliques en Arabie (France: ,Fayard, 2008).

(5) «une vision sociologiquement et historiquement plus vraisemblable», Ibid, Chabbi, Le Seigneur des tribus. L'Islam de Mahomet, p389,

الإسلامي من قبل، وأسست لنظريات دقيقة حول القرآن الكريم ونبوة الرسول ﷺ، تخالف ما استقر عليه البحث الإسلامي في السيرة المحمدية والعقيدة الإسلامية، إذ تدعي أن النبوة المحمدية صناعة إيديولوجية، وتقرر أن محمداً النبي ﷺ أسطورة عربية، وتمثل معرفي للثقافات القديمة، حاكتها الأذهان العربية، وكوّنتها الظروف الاجتماعية، ورعتها النظم السياسية، فإذا بمحمد الإنسان قد صار النبي الأسطورة، وأكدت أنه بعد بيانها (لا يمكننا بحال أن نرجع إلى الوراثة-تقصد معتقداتنا-، وإلا إلى الأسطورة)⁽¹⁾، وهذا جعلها تحتل مركز الصدارة في الاستشراق الفرنسي المعاصر، فترى الثناء الأكاديمي عليها متهاطلاً، وإذا بالجامعة الفرنسية تكرم جهودها بدرجة الدكتوراه، وإذا بالمستشرقين يتهافتون بالثناء على ما أحرزته؛ يقول المستشرق الفرنسي المعاصر أندريه كوكي (André Caquot)، في تقديمه لكتابه: (كتاب أرائته موجّهاً للعامة والمختصين في دراسة الإسلام، بما فيه من تحليلات وافية في النص، وتوضيحات دقيقة في الهوامش، وإضافات نفيسة في الملاحق)⁽²⁾، وقال فيه أيضاً: (كتاب مثالي، وظف طريقة مقارنة الأديان بنفس موضوعي، طريقة

(1) «Qu'on le sache, il n'est nul retour en arrière, sinon dans le mythe».

Ibid, p405.

(2) Ibid, p22.



لامبتذلة ولا وثوقية، وبحذر كبير جنبها الموضوعات الذاتية التي تصبو إلى ولوج نفس النبي ﷺ^(١)، وقال فيها أيضا: (لقد بينت أن الإسلام، الدين الأكثر تاريخية، وربما أكبر الأديان، ليس إلا أرضا ممنوعة على علم تاريخ الأديان)^(٢). كما أشاد -بأعمالها كثيرا- المفكر الحداثي الشهير محمد أركون وعدّها أنموذجا للبحث العلمي الجاد^(٣). وقد هلّل بجهودها الدكتور هاشم صالح، تلميذ محمد أركون، وعدّها تحديا حقيقيا للفكر الإسلامي، لا يجزؤ أحد على ترجمته^(٤)، يقول: (والكتاب كله ليس إلا محاولة راديكالية لأرّخنة الخطاب القرآني. من هنا أهميته وشحنه التحريرية الهائلة للعقود المقبلة من السنين. ولا أعتقد شخصياً أن ترجمته إلى اللغة العربية ممكنة حالياً؛ لأنّ الوعي الإسلامي غير مهياً لاستقباله أو تقبّله. مهما يكن من أمر فإنّ أبحاث الألمانى فان ايس والفرنسية جاكين شابي

(1) «Un livre exemplaire d'une saine méthode d'histoire des religions, ni irrévérencieuse ni dogmatique. Une grande prudence lui fait éviter les essais subjectifs visant à entrer dans l'âme du Prophète L'islam».Ibid.

(2) «L'islam, la plus historique peut-être des grandes religions, ne saurait être une terre interdite à l'histoire des religions».Ibid, p. 15

(٣) محمد أركون، الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، تر: هاشم صالح، (بيروت: دار الساقى، ٢٠٠٢)، ص ٤٤.

(٤) للعلم لقد تقدمت بطلب رسمي إلى الدكتورة لترجمة كتابها إلى العربية، فلم ترد، والله على ما نقول شهيد.

وسواهما من المستشرقين الأكاديميين قدمت لنا درساً بليغاً في إصباح الصبغة التاريخية على الفترة التأسيسية الأولى للإسلام^(١).

وقد قدمها الإعلام الفرنسي كأستاذة كبيرة مختصة في دراسة أصول الإسلام وشخص النبي الكريم ﷺ وفق المناهج والرؤى الجديدة، تلك التي تثير حفيظة المسلمين^(٢). ووصفتها بعض الدراسات الأكاديمية الفرنسية الجديدة بالسيدة الكبيرة (La grande Dame) تبجيلاً وتقديراً لأعمالها النقدية^(٣).

(١) هاشم صالح، الاستشراق وأرخنة التراث،

(<http://www.hadatha4syria.org/news.php?action=view&id=4365>)

(20/01/2010).

(2) Revue Science et avenir, La légende Mohométane, Janvier 2003 (<http://charlatans.info/mahomet.shtml#ref1>) (20/01/2010).

(3) (L'ouvrage très récent de Jacqueline Chabbi, Le Coran décrypté, Figures bibliques en Arabie est remarquable à plusieurs titres: il pointe sèchement toutes les lacunes et lâchetés qui défigurent le champ de l'islamologie actuelle consacrée aux origines du phénomène musulman; il assène des vérités scientifiques avec une fraîche brutalité et ose remettre en cause les bavardages imbéciles produits par des décennies de non-travail de recherche. Il faut lire cette grande dame quand elle interdit fermement aux érudits cléricaux d'empiéter sur le champ des recherches); Groupe de chercheurs scientifiques, Documents sur l' Islam, p7 (<http://www.islam-documents.org/0.html#footnote77>) (20/01/2010).

واعتذر عن السباب الوارد فيه، ولكن لا بد منه للاطلاع على ما يفكرون فيه. ولفكاهة

فقط، فقد اتصلت بأصحاب الكتاب للتساؤل حول بعض القضايا، فحذرنى من=

وإن الباحث الموضوعي ليتساءل عن سبب رفض الباحثة في كتابها لمقررات العقيدة الإسلامية ومرويات السيرة المحمدية، أهو النبوة ودلائلها؟ أم المناهج الحديثة؟ أم ثمة شيء آخر وراء هاتيك الأقوال النقدية؟ ورغم جدّة نظريات هذه المستشرقة، واحتفاء النقاد والمستشرقين بها إلا أنها لم تلق اهتماماً يذكر بين نقادنا المسلمين، ولا أعرف أحداً منهم اشتغل بتتبع كتاباتها ونقد ما فيها، والله أعلم.

ومن هنا، فقد تبلورت إشكالية هذه المداخلة التي تصبو إلى تحليل أعمال المستشرقة جاكين شابي، تبصر بحقيقة رؤيتها النقدية، وتكشف عن عدتها المنهجية، وتقيم نتائجها النقدية، باستخدام منهج تحليلي نقدي تارة، ومقارن تارة أخرى، وسأبرز نتائج السبر في المباحث التالية:

(١) أزمة الدراسات المحمدية وضرورة إعادة التأسيس.

(٢) جاكين شابي: قراءة في المنهج المقترح.

(٣) مشروع تفكيك صورة النبي ﷺ.

(٤) النبي التاريخي، قراءة أنثربولوجية نقدية.

وهذا ما سأفصله بعون الله العليّ فيما يلي من بحث:

=المسلمين ومما يمكن أن يلحقوه بي من أذى!!!

المبحث الأول

أزمة الدراسات المحمدية، قراءة في العوائق

تؤكد جاكين شابي أن الدراسات الإسلامية تعيش حالة من التسيج العقدي والتخلف النقدي، تمنعها من استكمال ثورتها النقدية والتاريخية^(١)، وتجعلها تنتظر ثورة علمية حقيقة تحررها، حتى تنفتح مغاليقها وتعمق نتائج بحثها، يكون لها بالغ الأثر في فهم الذات والتاريخ والمعتقد الإسلامي^(٢)، على غرار ما حدث لليهودية والمسيحية، اللتين قطعتا أشواطاً من النقد والتجديد طوعاً أحياناً، وكرهاً أحياناً أخرى^(٣).

ويتبدى من خلال أعمال جاكين شابي أن للدراسات المحمدية عوائق عديدة، (تواجه من يريد الوصول إلى دراسة مرحلة تاريخية قديمة العديد من العقبات، كما لو أن الوقت المنقضي بين عصر المؤرخ والعصر الماضي الذي يريد

(١) من حوار مع المؤلفة على هذا الموقع:

L'islam n'a pas accompli sa révolution critique et historique 'Jacqueline' Chabbi, Une approche Historico-critique, de l'Islam des origines, (www.clio.fr/bibliotheque/une_approche_historico-critique_de_lislam_des_origines.asp) (20/01/2010)

(2) Ibid.

(3) Chabbi, Le Seigneur des tribus. L'Islam de Mahomet, p15.



دراسته يمنع من اكتشاف ما وقع^(١)، وأهم هذه العقبات: الوثائق المعتمدة، والباحثون المشتغلون بهذا المجال، والتفسيرات المتوارثة؛ ولكلٍ دورٌ في تأسيس تخلف هذا المجال المعرفي وتعميق تدهوره النقدي، وإن كان العنصر الأول، الوثائق المعتمدة، غائر الأثر يصعب تداركه؛ إذ إن أكبر مشكلة تواجه من يتصدى للدراسات المحمدية قلة الوثائق العلمية التي يمكن اعتمادها في هذا المجال من البحث، فمعلوم أنّ النبي ﷺ (٥٧٠-٦٣٢) كما تؤكد جاكولين شابي لم يترك سجلا مكتوبا، ولا وجادات أثرية، تثبت وجوده بسوالم الأيام، وتبصر بعقيدته، وتبين سمات دعوته، وما بين أيدينا من كتابات ووثائق لا يمكن الركون إليه في نظرها، ولا الاطمئنان إلى ما فيه^(٢)؛ بل ومن السّداجة قبوله^(٣)، إذ لا تعدو في نظرها عن أن تكون روايات في الأصل، اعترافا ما يعترى الثقافة الشّفهية من نسيان وتغيّر وتحوير وابتداع، سيما في أول القرن الهجري الأول، حيث كان الناس يتواصلون بالمشافهة والرواية لا التدوين والكتابة، وهذا ما يضعف في نظرها قيمة الأحاديث النبوية، والمرويات الإسلامية عموما، وكل ما

-
- (1) Jacqueline Chabbi, Une approche Historico-critique, de l'Islam des origines, (www.clio.fr/bibliotheque/une_approche_historico-critique_de_lislam_des_origines.asp) (20/01/2010).
 - (2) Ibid.
 - (3) Ibid.

تبلور عنهما من كتابات وتأريخات، ويُوجها إلى نقد علمي جاد^(١).

ولهذه الأسباب، لا يمكن في نظر جاكين شابي التّعويل على النص القرآني الكريم في تحقيق السيرة المحمدية، ولا على مصادر السنة النبوية الشريفة، إذ قد بقيا ردحا من الزمن من غير تدوين، تتناقلهما أجيال عن أخرى مشافهة لا غير^(٢). ورغم أنّ التقليد الإسلامي يبرزُ النبي الأكرم ﷺ كمؤسسٍ للإسلام، مُملٍ للنص القرآني على كتابه، راوٍ للأحاديث، وأمرٍ بتدوينه على قطع من الجلد والفخار، وأوراق النخيل، وعظام الكتف من الإبل، ومع ذلك تؤكد جاكين شابي أن روايات الكتابة غير موثوقة، والصحيح في نظرها أنها قد بقيا ردحا من الزمن ينقلان مشافهة، ولم يصيرا كتابا يتلى إلا في مرحلة متأخرة عما يروى في التقليد الإسلامي، في عهد بني أمية على وجه الدقة، حيث أمروا بجمع القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة مما علق بذاكرات الحفاظ، ومما تلقوه مباشرة أو بوساطة، وأخضعوهما لتنسيقات ولتعديلات كثيرة، حورت نصوص الحديث، ومست بحركات الإملاء القرآني وحروفه، وطالت محتواه الكريم أيضا^(٣)؛ بغية

(1) Chabbi, Le Seigneur des tribus. L'Islam de Mahomet, p29-32.

(2) Ibid, p22.

(3) كما تروي العديد من كتب التقليد الإسلامي، راجع مثلا: جلال الدين السيوطي، الإنقان



تأسيس مشروع إقامة المملكة الأموية الجديدة (Nouvelle empire)، وبسط نفوذها على بقاع من العالم باسم الإيديولوجيا الإسلامية، وهذا ما جعلها تطلق على هذه النسخة المعدة من القرآن، اسم الفولجاتا القرآنية (La Vulgate)، مستعيرة الاسم الذي أطلقه القديس جيروم (Saint Jerome) على نسخة الكتاب المقدس التي تولى جمعها من النسخ المتداولة في عصره، لما راعه ما بينها من اختلاف، فهب لتداركه بالمقارنة بين النسخ الموجودة، والترجيح بين بعضها البعض^(١)، وهذا ما يبين أن القرآن الحالي في نظر جاكين شابي هو قرآن الأمويين لا قرآن محمد الشّفيّ، ولا يعدو عن أن يكون نسخة منقحة من النسخ المتداولة في عصر بني أمية، ومسكين هو المسلم الذي يتعبد بالقرآن والسنة على أنها قرآن النبي ﷺ وسنته، بينما هما في الحقيقة قرآن وسنة الأمويين لا غير^(٢).

ولست سيرة النبي ﷺ في نظر جاكين شابي بأحسن حالا من القرآن والمرويات الإسلامية، إذ إنّ أول سيرة قد دونت بعد وفاة النبي ﷺ بأكثر من قرن من الزمن، ووازاها تدوين السنة النبوية، الذي انتهى بالمدونات الحديثة الشهيرة، وهذا ما يثير في نظرها احتمال تغيير الرواة، وحضور الذاتية، وفرضية

-
- (1) P.M. Bogaert, La Bible latine des origines au Moyen Age. Aperçu historique, état des questions, Revue théologique de Louvain, 19, 1988, 137-159.
- (2) Chabbi, Le Seigneur des tribus. L'Islam de Mahomet, p81-175.

الابتداع والاختراع، وكل ذلك في نظرها ثابت ومتعين في القرنين التاليين للبعثة المحمدية اللذين تجردا لبلورة تفاصيل أصول الإسلام بدقة، وإعادة بنائه بناء وهميا (Fictif)»^(١)، بما يخدم الظروف السياسية الجديدة للدولة الأموية، ولذلك تراها تقول: (من السذاجة قبول ما جاء في هاتيك الروايات والتسليم بما فيها)^(٢)، الأمر الذي يقف عثرة أمام الباحثين؛ إذ كيف يستقيم بحث ولا وثائق مكتوبة؟ وكيف تبين رسومه ولا أثار علمية؟ إن ذلك لأمر بعيد المنال^(٣).

ونتيجةً لكل ما سبق، فإن جاكين شابي تؤكد أن المصادر الحالية للسيرة النبوية لا يمكن التسليم بها، ولا يمكن التعامل معها كمصادر أساسية في الدراسات المحمدية؛ فهي لا تعكس الواقع التاريخي بقدر ما تعكس تصورات واضعيها عن النبوة المحمدية^(٤).

- (1) «Ce n'est qu'avec l'empire des Omeyyades (661-750) que la religion de Mahomet a basculé dans un autre monde dans lequel l'écriture est devenue prédominante. Le Coran a alors été mis par écrit, certainement à partir de fragments d'oralité conservés dans les mémoires. Dans les siècles suivants, la tradition islamique a couvert d'un luxe de détails les origines de l'islam et reconstitué un passé... fictif!», Ibid;p85.
- (2) Ibid,p 90-175.
- (3) Jacqueline Chabbi, une approche Historico-critique, de l'Islam des origines, (www.clio.fr/bibliotheque/une_approche_historico-critique_de_lislam_des_origines.asp) (20/01/2010).
- (4) Ibid.

والمعتقدات والتفسيرات الإسلامية المتوارثة هي ثاني العقبات التي تفعل فعلها في تأزيم الدراسات المحمدية، وتقتضي من الباحث حيلة كبيرة في التعامل معها؛ إذ (أكبر مشكلة تواجه المؤرخ أن لا يترك التاريخ المقدس يحتل مجال البحث التاريخي، ولا شك في أنه ليس من السهل دائماً مقاومة الضغوطات المحيطة، وعدم عبور المرآة لاكتشاف الذات، وهذا ما يوجب أن نكون على حذر من الافتتان بالموضوع)^(١)؛ فزخرفها يخدع الخبير ناهيك عن المبتدئ؛ تقول جاكين شابي: (حينما ترتبط ثقافة بدين حي مثل الإسلام، فلا شك في وجود عقبات أخرى، عقبات معتقد العصر الحاضر، والذي يعد هو الآخر مجرد وجهة نظر حول أحداث الماضي، سيما ما تعلق بمرحلة نشأة الدين)^(٢)، كما تقول: (إن الإسلام تراث ثقافي عظيم، ومجموعة من التفسيرات المتعاقبة، والتي تشكل بعضاً من العقبات، وكل تفسير دليل وشاهد على تصورات عصره، وهذا ما

-
- (1) Le gros problème de l'historien est alors de ne pas laisser «l'histoire sainte» occuper le champ de la problématique historique. Il n'est pas toujours simple de résister à la pression ambiante et de ne pas traverser le miroir. Il faut alors se garder de trop de fascination pour son sujet. À défaut de cela, on finit par s'identifier à lui sans même s'en apercevoir, Ibid.
 - (2) «Lorsqu'une culture se rattache à une religion vivante comme l'islam, il existe encore d'autres obstacles. Ils sont ceux de la croyance au présent qui a évidemment un point de vue sur son passé et surtout sur la période de ses origines», Ibid.

يوجب أن نعرفها فحسب، لا أن نعتقد أنها تعطينا الأسئلة وأجوبتها؛ إن الماضي من منظور تاريخي لا يتحدث إلينا عبر القرون، إنه يكلم نفسه فقط، ولا تعد النصوص المحفوظة إلا صدى له^(١).

ولما كانت الوثائق بهذه الرداءة، والتفسيرات بمثل هذه الزخرفة، تفترض الباحثة شرطين فيمن يريد خوض غمار هذا المجال، عليه يستطيع تجاوز هذه العقبات، وهما: التحرر النقدي الذي يجنبه الذاتية والشطط، والتكوين العلمي الخاص الذي يؤهله لفتح أغلاق هذه الدراسات وتحليل وثائقها، وهذا عينه ما تراه جاكين شابي مفتقدا في جل باحثي هذا المجال، مسلمين كانوا أم ومستشرقين على حد السواء، فلا غرابة أن صاروا فاعلين في تأزيم الدراسات المحمدية بضعفهم وحيفهم وتحيزهم وشططهم، فقد تعامل النقاد المسلمون مع هاتيك المصادر كأتم مصادُر منزلة موثوقة، ودججوها بسياجات دوغماتية^(٢)،

(1) «Pour l'islam, est en même temps une grande tradition culturelle, les interprétations successives font partie de ces obstacles. Mais, en même temps, chacune sert de repère et de témoin de son époque. Il faut simplement les reconnaître pour ce qu'elles sont, en elles-mêmes, et ne pas croire qu'elles nous apportent les questions et les réponses. D'un point de vue historique, le passé ne nous parle pas par-delà les siècles. Il se parle à lui-même, et les textes conservés nous en donnent un écho».Ibid.

(٢) عادة ما تترجم الدوغماتية (Dogmatisme) بالعقائدية، والوثوقية، ويراد بها اعتقاد=



ظنا منهم أنّ القرآن الحالي هو قرآن النبي ﷺ المنزل، لما (أقنعهم بأسلوبه واتساقه العجيب، أنه وحي إلهي التنزيل، حوى الحقيقة التاريخية التي لا عوج فيها أبد الدهور، وصار عقيدة مدججة بسيّجات ودوغماتية، تحول بينها وبين أي نقد^(١)، كما ظنوا أن السنة النبوية المعروفة أقواله ﷺ حقيقة، وأن السيرة العطرة المشهورة تاريخه ﷺ الفعلي، بينما الحقيقة غير ذلك، فضلا عن أن ما وظفوه من مناهج لا يعدو عن أن يكون طرقا تمجيدية وغير تاريخية، بعيدة كل

=امتلاك الحقيقة المطلقة من غير استناد إلى براهين يقينية، ورفض رأي الآخر من غير حجة، وقطع بأن ما حصله من معارف لا يقبل النقد ولا النقاش ولا التغيير، وهذا ما يجعلها تكافئ التعصب، وتعادل ثقافة الانغلاق والتسلط، وتعادي فتح قنوات الحوار، وتؤسس لازدراء الآخر وتخوينه، وعدم احترام حقه في الاختلاف، وهذا ما يثبت أنها طريقة تفكير تضفي على ما اعتقد الباحث قداسة وتنأى به عن فحص أسسه، وتحليل أدلته، علما أنها يمكن أن تصير في الممارسة ادعاءً وسبابا يلحقه أحدهم بالآخر إذا لم يقتنع بما عنده، وهذاديدن كثير من الباحثين.

أما السياج الدوغماتي، فهو تركيب من سياج ودوغماتية، وهو اصطلاح ابتكره محمد أركون، يشير به إلى حالة من سجن نفسه داخل عقائد إيمانية، يعدها صحيحة مطلقة، ويحكم على ما عداها بالبطلان المطلق. (محمد أركون، قضايا في نقد العقل الديني، ص ٤٩-٥٠).

- (1) Jacqueline Chabbi, une approche Historico-critique, de l'Islam des origines, (www.clio.fr/bibliotheque/une_approche_historico-critique_de_lislam_des_origines.asp) (20/01/2010).

البعد عن العلمية^(١).

ولكل ذلك لا تقبل جاكليين شابّي إجماعات الأمة الإسلامية حول القرآن الكريم، ولا مقررات العقيدة الإسلامية حول النبوة المحمدية، ولا روايات السير الإسلامية حول تفاصيل الحياة الأحمدية، لفقدانها لأساس علمي رصين؛ ولذلك تعدّها ضرباً من السذاجة العلمية، التي ينبغي أن ينأى عنها البحث العلمي، مقتفية في ذلك خطى بعض المستشرقين والمشتغلين بالدراسات المحمدية في فرنسا، كمحمّد أركون، ويوسف شلحت، وكلود كوهين، وغيرهم.

وليس حال المستشرقين في نظر جاكليين شابّي بأحسن حالاً من النقاد المسلمين، إذ جلهم هواة بعيدون عن مفهوم التخصص العلمي الدقيق، فليس لهم التكوين العلميّ الكافي؛ تجد فيهم المؤرخ، والفيلسوف، والنحوي، والأديب، ورجالات الاستعمار، وغير ذلك^(٢)، ولذلك تراهم (لحد الآن، قد تركوا أنفسهم عرضة للتأثر بالنصوص الإسلامية، على الرغم مما فيها من العجائية)^(٣). وساروا على خطى النقاد المسلمين في التسليم لتلك المصادر الإسلامية، والوثوق بما فيها من معلومات تاريخية، وهذا ما أَرَمَ الدّراسات المحمّدية في نظر جاكليين شابّي،

(1) Ibid and Chabbi, Le Seigneur des tribus. L'Islam de Mahomet, p81-175.

(2) Ibid.

(3) Ibid.



وما زال يؤزّمها دهرًا طويلاً^(١).

ولقد وفقت جاكين شابي في تشخيص وجود أزمة في الدراسات المحمدية والدراسات الإسلامية عموماً، وأخفقت في ضبط أسبابها؛ إذ هي في نظري، ناشئة عن ركود الدراسات الإسلامية في جل الجامعات الإسلامية ودخولها في التكرار والاجترار، وجعل أكثرها بالمناهج المعاصرة، وظهور فئة من الباحثين الحداثيين المتسلحين بالمناهج المعاصرة والفاقرين للرؤية والمعرفة الإسلاميتين، وهذا ما أنشأ خطابين مختلفين، الأول تقليدي غير واع بما يجري في العصر، والثاني في قلبه شيء، تمرس بالمناهج المعاصرة، ونسي أو تناسى أن ينظر في مناهج نقادنا الأوائل، الأمر الذي يحتاج في نظري إلى تكوين جديد في الجامعات الإسلامية، يستطيع أن يرتفع بمستوى طلابها كي يقوم بواجب الشهادة الشرعية في هذا العصر.

(1) Chabbi, Le Seigneur des tribus. L'Islam de Mahomet, p22.

المبحث الثاني

جاكلين شاببي: قراءة في المنهج المقترح

تقترح جاكلين شاببي لتجاوز أزمة الدراسات المحمّدية في غياب الأدلة الأثرية، تأسيس دراسات علمية جديدة، تنهض بدراسة أصول الإسلام ومعتقداته في سياقاتها التاريخية، تقوم بما يقوم به المرمّم مع الصور القديمة، إذ تراه يقدم على لوحة فنية تكسوها ألوان زاهية، يفحصها وينبشها وينقشها، كي يصل إلى ألوانها الأصلية، ومثلها السيرة تماما⁽¹⁾.

إن جاكلين شاببي تريد أن تنظر في المعتقدات الزاهية التي يراها المسلمون في شخص محمد ﷺ، تحقق فيها وتنظر، حتى تعثر على ملامحه الحقيقية، تلك التي غارت بين ركام الأدب التمجيدي الإسلامي⁽²⁾، وهذا ما جعلها تعيب على النقاد المسلمين تخوفهم من اعتماد النقد التاريخي، على العكس من اللاهوتيين المسيحيين واليهود الذي فتحوا معتقدهم لتساؤلات العقلانيين طوعا وكرها⁽³⁾.

(1) Jacqueline Chabbi, une approche Historico-critique, de l'Islam des origines, (www.clio.fr/bibliotheque/une_approche_historico-critique_de_lislam_des_origines.asp) (20/01/2010).

(2) Ibid.

(3) Ibid.



ولقد أوضحت جاكليين شابي في تحذيرها الذي صدرت به كتابها، أنّ هدفها هو (إعادة قراءة النصوص الإسلامية، وإخضاعها لمعايير النقد التاريخي، وما تقترحه العلوم الإنسانية من أدوات، وإزاحة هالة التقديس التي يضفيها المسلمون على رسول الله ﷺ)، ليصير إنسانا مرة أخرى كما كان ذات مرة، ولذلك تصرّح أنها (تُؤنِّسَ محمد)^(١)؟ اعتمادا على منهج مركبٍ من المنهج الأنثربولوجي^(٢) (Approche anthropologique)، والمنهج التاريخي النقدي (Une approche historico-critique) لدراسة النبوة المحمدية وأصول الإسلام في سياقها الثقافي الاجتماعي، بوصفها قضية مركبة صعبة التناول، وتلج على ضرورة استخدام الأنثروبولوجيا في دراسة هذا الموضوع، وترى فيها المنهج الأصح لمثل هذه القضايا، والمنهج الوحيد الذي يعطينا المفاتيح اللازمة لاكتشاف الثقافات الأخرى والمراحل الفكرية وتطور المذاهب

(1) «J'ai humanisé Mahomet».Ibid.

(٢) المراد بالمنهج الأنثروبولوجي المنهج الذي يوظفه علم الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) في تحليل الثقافات الإنسانية تحليلا كلياً، يحيط بمختلف الجوانب الإنسانية، النفسية والبيولوجية والبيئية والاجتماعية، والثقافية، وغيرها، بواسطة العديد من طرق البحث، منها البحث الميداني، والبحث التاريخي، والبحث المقارن، والبحث المعرفي، وغيرها، ولتراجع المصادر المختصة لمعرفة المزيد.

المختلفة، دون انبهار بها ولا ازدراء؛ تقول: (في الحقيقة، الطريقة الوحيدة لفهم شخصية محمد ﷺ)، هي تطبيق معايير الطريقة الأنثروبولوجية، ووضعه [أي الرسول ﷺ] في سياقه الاجتماعي الحقيقي، لا في سياق يبالغ في تقدير الظاهرة الدينية^(١)، وذلك بإعادة وضع النبوة المحمدية والقرآن الكريم في سياقها التاريخي^(٢) (mise en contexte)، ودراستهما في سياق التلقي الأول، السياق القبلي الذي توجه إليه الخطاب القرآني أولاً، وقراءتهما في ظرفهما التاريخي^(٣)، وهذا ما تسميه قراءة المشهد (lecture du paysage)؛ أي المشهد التاريخي الذي ظهر فيه الإسلام، وما كان عليه إبان سنة ٦١٠م، ساعة الوحي إلى النبي ﷺ؛ في تلك الصحراء العربية، البدوية القبلية، الوثنية النائية، والتي صارت فيما بعد مركزاً للإسلام، فتراها تحقق في سمات المجتمع العربي آنذاك، ومؤسساته الدينية والثقافية والاجتماعية والسياسية، كما تظهر من الكتابات المعاصرة للوحي أو التالية له مباشرة، لا كما تصوّرها الكتابات الإسلامية

- (1) «En effet, le seul moyen de comprendre le personnage, c'est de lui appliquer une grille de lecture anthropologique. De le remettre dans son contexte social réel, et non dans un contexte ou le fait religieux est surestimé. », Ibid, and Chabbi, Le Seigneur des tribus. L'islam de Mahome, p 19-20.
- (2) Chabbi, Le Seigneur des tribus. L'islam de Mahome), p 19-20.
- (3) Ibid, p 22.



اللاحقة، تقتفي كل ما يروى من أساطير ذهبية، وتكشف عوارها، ولا معقولها التاريخي^(١).

وهذا ما يبيّن أن مشروع جاكين شابي مشروع تاريخي وأثنوبولوجي في الآن ذاته؛ يفكك النصوص المقدسة الإسلامية من الداخل بمنهجية وأمانة علمية (كما تدعي)، ويضعها في سياقها التاريخي بما فيه من إشارات تاريخية إلى الأسماء والحوادث والآثار والمؤسسات والأفكار والرموز، ويثير حولها العديد من الأسئلة الأثنوبولوجية، بالبحث عن المفاهيم والمؤسسات الاجتماعية، كالدين والدولة والمجتمع والقبيلة، والخيال، والمقدس والطبيعة والعقل، والرموز، وغيرها^(٢)، ولذلك قال الباحث الفرنسي كرستيان روبن (Christian Robin) (في هذا الكتاب-أي كتاب رب القبائل، إسلام محمد-، تحاول جاكين شابي أن تبحث كمؤرخة، دون أن تهمل الفوائد التي يمكن للطريقة الأثنوبولوجية أن تسديها)^(٣).

وترى جاكين شابي أن هذا المنهج خطير جدا على الخطاب الإسلامي فيما

(1) Ibid.

(2) Ibid.

(3) Dans cet ouvrage, Jacqueline Chabbi veut faire œuvre d'historienne, sans négliger les enrichissements qu'apporte la démarche anthropologique, Christian Robin, Chabbi Jacqueline:: le seigneur des tribus, in BCAI 18(2002), 15.

يخص الدراسات المحمدية^(١)، بقيامه على مبدأ التحرر الذي يؤمن بأنه (ليس للمؤرخ أن يُعطي درسا لعالم الدين حتى لو كان عليه أن يدرس نمط تفكيره ومذهبه، ولا أن يتلقى منه درسا تحت أي سلطة، يمكن أن تمنع من طرح أسئلة معينة)^(٢)، واشتغاله في مجالات معرفية مدججة بمواقف عقديّة مسبقة، ونظم سياسية حافظة. وما أثرناه يبين أن جاكلين شابي تحاول أن تقوم بإعادة اكتشاف ما حجب على الناس قرونا طويلة، ورد الاعتبار للكلمة المحاصرة والمقوضة، وإثبات تلثم الأنظمة الحاكمة بعباءات دينية، تبريرا لاتجاهاتها السياسية،

(١) وقد تابعها في ذلك هاشم صالح كعادته، فهو يصفق لكل طاعن، يقول: (ولا أعتقد شخصياً أن ترجمته إلى اللغة العربية ممكنة حالياً؛ لأنّ الوعي الإسلامي غير مهياً لاستقباله أو تقبله. مهما يكن من أمر فإنّ أبحاث الألماني فان ايس والفرنسية جاكلين شابي وسواهما من المستشرقين الأكاديميين قدمت لنا درساً بليغاً في إصباغ الصبغة التاريخية على الفترة التأسيسية الأولى للإسلام). راجع: هاشم صالح، الاستشراق وأرخنة التراث،

<http://www.hadatha4syria.org/news.php?action=view&id=4365>
(20/01/2010).

(2) Un historien n'a pas de leçon à donner à un théologien, même s'il doit à l'évidence étudier son mode de pensée et sa doctrine. Bien entendu, il n'a pas non plus à recevoir de leçon de lui, en vertu d'un quelconque principe d'autorité qui interdirait de poser certaines questions), Jacqueline Chabbi, une approche Historico-critique, de l'Islam des origines, (www.clio.fr/bibliotheque/une_approche_historico-critique_de_lislam_des_origines.asp) (20/01/2010).

وتأسيسا لسيطرتها الغاشمة على حياة الناس والشعوب الإسلامية خلال
الفترات التاريخية المتعاقبة^(١).

ولقد وظّفت جاكين شابي في تحليلها للنبوة المحمدية والسيرة الشريفة
العديد من طرق التحليل الأنثروبولوجية، التي لا يارسها الفكر الإسلامي
المعاصر إلا قليلا، كالطريقة التاريخية لتحليل البيئة الجاهلية والسيرة المحمديّة،
وطريقة الفيلولوجيا^(٢)، لتحليل العديد من الألفاظ القرآنية، والطريقة المقارنة
لدراسة العقائد والشرائع، وطريقة أسماء المواقع (Toponomie)، واعتمدت
العديد من المفاهيم الأنثروبولوجية كنماذج تحليل لدراسة السيرة النبوية
الشريفة؛ أهمها الذاكرة الاجتماعية (mémoire social)، والمخيال الاجتماعي
(Imagination sociale)، بوصفها أداتين فاعلتين لفهم تكوّن ثقافة مجتمع،
وإدراك كيفية تفاعلها مع تاريخ ذاتها، ومع الثقافات الأخرى^(٣).

(1) Ibid.

(٢) عادة ما تترجم الفيلولوجيا بفقه اللغة، ويراد بها تتبع تاريخ وأصول الكلمات شكلا
ومعنى، ودراسة النصوص دراسة تاريخية مقارنة، والنظر في تاريخ دلالتها المختلفة، وإعادة
تشكيل اللغات المنقرضة والميتة، اعتمادا على التاريخ والمقارنة، بالاستعانة بمختلف العلوم
اللغوية والأدبية، وللإستزادة، تراجع المصادر المختصة. (راجع:

(http://en.wikipedia.org/wiki/Philology) (٢٠١٠-٤-٥)

(3) Chabbi, Le Seigneur des tribus. L'islam de Mahomet, p1-22.

وظهرت تطبيقات هذا المنهج في كتاب جاكين شابي بعنوان: «محمد، رب القبائل» (Mohamet, seigneur des tribus)، بأقسامه الأربعة، أولها: «القرآن ووسطه الأصلي» (Le Coran et son milieu d'origine)^(١)، يليه قسم بعنوان: «بناء الماضي، النصوص المروية والنصوص الأخرى» (La construction du passé, textes d'après et d'alentour)^(٢)، ثم قسم ثالث بعنوان: «محمد المتنكر له» (Le prophète dénié)^(٣)، ثم قسم رابع أخير بعنوان: «صراعات وطقوس» (Des combats et des rites)^(٤)، لتصل بعد ذلك إلى خاتمة^(٥).

ولقد خصصت جاكين شابي القسم الأول من كتابها: «القرآن ووسطه الأصلي» (Le Coran et son milieu d'origine)^(٦)، لإعادة دراسة سيرة النبي ﷺ في فضاء الحياة «espace de vie»، تناولت في فصلين متتالين: «الفضاء المكّي» «L'espace Mekkois»، و«وضعية القرآن [الكريم]» «Le statut du Coran»، حللت فيهما فيها «القرآن [الكريم] ووسطه

(1) Ibid, p. 29-79.

(2) Ibid, p. 81-175.

(3) Ibid, p. 177-273.

(4) Ibid, p. 275-387.

(5) Ibid, p. 389-411.

(6) Ibid, p. 29-79.

الأصلي» **«Le Coran et son milieu d'origine»** ، وبيّنت كيف أن النبوة المحمدية والنص القرآني قد تبلورتا في وسط ثقافي، تهيمن فيه الصحراء، وتتسم فيه الثقافة بالانغلاق والانعزال^(١).

وفي القسم الثاني من كتابها المشار إليه: «بناء الماضي، النصوص المروية والنصوص الأخرى» **«La construction du passé. Textes d'après et d'alentour»**^(٢) حاولت جاكين شابي اكتشاف الطبقة الأولى من التقاليد الإسلامية، وإثبات أن عملية إعادة بناء الواقع الإسلامي الماضي، تمت في مرحلة الإسلام الإمبريالي (تقصد الأمويين) (**P'islam impérial**)، وذلك عبر ثلاثة فصول: خصصت الأول منها لدراسة النصوص المؤسسة للسيرة المحمدية: النص القرآني والأحاديث النبوية والسيرة الشريفة، وكذا الإسرائيليّات^(٣) **«Les récits des fils d'Israël»** ، كما خصّصت فصلين آخرين لدراسة انتقال المعرفة الإسلامية من طور المشافهة إلى طور الكتابة، وتتبع أثر ذلك على الفكر الإسلامي، عنونت الأول منهما: «من الكلام إلى الكتابة، القضايا التاريخية» **«De la parole à l'écriture. Les enjeux historiographiques»**

(1) Ibid, p. 31-32.

(2) Ibid, p. 81-175.

(3) Ibid, p. 96.

والثاني: «**Textes d'histoire**» سياقات الخلافة «**sacrée et contextes califaux**» واعتمدت في تحقيق ذلك على انتقاء أمثلة من نصوص الفكر الإسلامي المتعاقبة، تقتفي مضامينها وتحلل آلياتها؛ كي تبرز دورها في إعادة بناء الخيال الاجتماعي الإسلامي حول حقيقة الإسلام وأصل النص القرآني ونبوة محمد ﷺ.

وفي القسم الثالث: «محمد المتنكر له» (**Le prophète dénié**)^(١)، اهتمت جاكلين شابي بتتبع خصوصيات صورة النبي المكية «**La figure mekkoise de Mahomet**» وميزت بين ثلاثة تطورات: صورة الممسوس «**Les djinns dépossédés**»، وصورة الموعود بالملائكة الموعودين والمخدول بالحلفاء «**Anges promus, alliés déchus**»، ثم صورة الحرب الكلامية بين النبي ﷺ وقريش «**La guerre des mots, Mahomet et Quraysh**».

وفي القسم الرابع: القتال والطقوس «**Des combats et des rites**»^(٢)، قامت جاكلين شابي بتحليل السيادة القبلية «**La seigneurie tribale**»، والتفكيك الأنثروبولوجي لزيارة الحجر الأسود «**La visite au bétyle**».

(1) Ibid, p. 177-273.

(2) Ibid, p. 275-387.



والحج «Le grand pèlerinage» .

وفي الأخير جعلت خاتمتها خطابا حول منهج دراسة الإسلام، وأكدت أن
طريقتها هي الوحيدة التي تصلح لإعطاء صورة اجتماعية وتاريخية أقرب ما
تكون من الواقع^(١). فهل حققت ذلك فعلا؟ نترك الجواب للمباحث التالية:

(1) «une vision sociologiquement et historiquement plus vraisemblable»,
Ibid, 389.

المبحث الثالث

مشروع تفكيك صورة النبي ﷺ

من النبي محمد ﷺ؟ تحيب جاكين شابي: إن صورة محمد ﷺ، التي نعرفها الآن قد تبلورت عبر تراكمات معرفية متتالية، وتحت ضغوطات سياسية وثقافية متوالية، حتى صارت على ما هي عليه الآن، وهذا ما يبدي أن الصورة الحالية للنبي ﷺ في تصور جاكين شابي لا تمثل صورة النبي التاريخية بقدر ما تمثل تصور المسلمين عنه. إنها تركيب معرفي شديد التعقيد، تغيب فيه شخصية النبي الحقيقية تحت ركام من الطبقات المعرفية المكدسة المضافة عبر العصور، ولذلك تحتاج من الباحث تنقياً دقيقاً ونفساً متأنياً، حتى يستطيع الكشف عن هاتيك الطبقات، ويفحصها واحدة واحدة، ويسبر خصائصها، ويحدد تاريخها التكويني، وحينئذ ستظهر صورة النبي التاريخي الذي عاش في قبائل البلاد العربية، وستجلى ملامحه الغائرة تحت الأنقاض، تضاهي في ذلك عمل المنقب في الطبقات الجيولوجية؛ إذ تراه يقدم على مغارة غاب بابها، فيبدأ في التنقيب والبحث حتى يجد بابها الأصلي، ثم ينبش وينقب حتى يلج الباب، وثمة سيعرف ما بالمغارة. ولذلك كثيراً ما تجد جاكين شابي تستخدم مفاهيم



جيولوجية في التحليل من باب المضاهاة ذاتها، وتذكرنا بجهود المرحوم الدكتور عبد الوهاب المسيري ومنهجه الجيولوجي في دراسة اليهودية بموسوعته الشهيرة حول اليهود واليهودية.

وللبحث في طبقات المعرفة الإسلامية حول النبي ﷺ تدعو جاكين شابي إلى ضرورة قراءة النصوص في ضوء العلوم الإنسانية، وتوثيقها في ضوء ما استجد من معلومات حول القرآن الكريم، للبحث عن النبي التاريخي والتنقيب في المعرفة الإسلامية، على غرار ما هو موجود في الدراسات اليهودية والمسيحية من بحث حول موسى التاريخي، والمسيح التاريخي.

وتميز جاكين شابي في تنقيها بين أربع صور للنبي ﷺ على الأقل، وهي:

(١) صورة السير النبوية.

(٢) صورة الحديث النبوي الشريف.

(٣) صورة القرآن الكتابي.

(٤) صورة القرآن الشفهي.

وسأتناولها كما يلي:

١. صورة السير النبوية الشريفة:

الصورة التي ترسمها كتب السير النبوية لشخص النبي الكريم ﷺ،

وتشحذها في ذهن المسلم التقليدي، أيا كانت فرقة. صورة تقدم محمد ﷺ كسليل الأنبياء إبراهيم وإسماعيل عليهما الإسلام، أنبأ الله بجبريل، وآتاه من المعجزات الشيء الكثير، سيما القرآن الذي تحدى به العرب، رسالته شاملة للعالمين، تلك الصورة التي تعدها جاكين شابي أجمل من تكون من أن تكون حقيقة^(١). بدأت تبلور بعد قرن من وفاة النبي ﷺ، معتمدة على الروايات العجائية، ثم دونت فإذا هي نصوص تحوي صوراً ثابتة عن الشخصية المحمدية، تستند إلى ذهنية عجائية ومنطق إيماني ومواقف مسلمة، وتفتقد الأنسنة (التعامل مع النبي ﷺ كإنسان)، والأرخنة (البحث عن الأصول التاريخية) والتسيق (الوضع في سياق)، وجل ما أنتجه الفكر الإسلامي المعاصر في نظرها هو امتداد أمين لهذه النظرة التبجيلية^(٢). وهي تشيد هنا بموقف المعتزلة من السنة النبوية، مع أن موقفهم يباين موقفها^(٣)، ومهمة مشروعها هي هتك زخارف هذه الصورة والكشف عن دجلها، وإرجاعها إلى الإنسانية والتاريخية

(1) Ibid, p29-79.

(2) «Jacqueline Chabbi, Une approche Historico-critique, de l'Islam des origines, (www.clio.fr/bibliotheque/une_approche_historico-critique_de_lislam_des_origines.asp) (20/01/2010).

(3) «Ce furent les partisans de la double référence au Coran et aux hadiths qui l'emporteront, vraisemblablement dans la mesure où ils semblaient apporter réponse à tout, sans débat excessif», Chabbi, Le Coran décrypte: Figures Bibliques en Arabie, p 35.



والسياقية مرة أخرى.

٢. صورة الحديث النبوي الشريف:

تلك الصورة المبنية في المدونات الحديثة، التي تصف النبي ﷺ، وتُخبر عن أصله، وتروي أقواله وأفعاله، تبلورت تحت إشراف المملكة الجديدة (nouvelle empire)، حيث دخل الإسلام عهد الكتابة، فشرع في تدوين السنة النبوية مما بقي راسخاً في ذاكرة الحفاظ^(١). وتعد جاكين شابي هذه الصورة أفضل حالا من صورة السير، وأقرب ما يكون إلى الصورة الحقيقية للنبي محمد ﷺ، ومع ذلك لم تسلم في نظرها من سمات صورة السير النبوية، فقد بدأت معرفة شفوية، ثم صارت كتابة بإشراف الحكم الأموي بعد أن اعتراها التحوير والتغيير والتبديل والكذب والتسييس، فتراها عكست ثقافة ناقليها وواضعيها من عجائبية، وسذاجة تحليلية، ونظرة تبجيلية، وأطماع توسعية، وهذا جعل المعتزلة يرفضونها ذات يوم ويعدونها معرفة دخيلة منتحلة، بما عندهم من فهم تنويري على حد قول جاكين شابي^(٢).

٣. صورة النص القرآني الكتابي:

وهي الصورة الثالثة التي يعثر عليها تنقيب جاكين شابي، وتراها أقرب ما

(1) Ibid.

(2) Ibid.

تكون من الحقيقة والواقع التاريخي، تقول: (يمكن الاعتقاد أن النص القرآني ينتمي إلى طبقة سردية، يمكن عدها الأقدم على سبيل الإجمال، والأقرب إلى الأصل العربي السليم)^(١)، وتقصد بها صورته في المصحف العثماني؛ إذ إن جاكين شابي، اعتمادا على أبحاث معاصرين، منهم فرانسوا ديبوش (François Deroche)، وألفرد لويس (Alfred Louis)، تؤكد أن النص القرآني لم يدون في عهد رسول الله ﷺ، ولم يعرف التدوين إلا في مرحلة متأخرة عما يروى في التقليد الإسلامي، تقول في ذلك: (يظهر أن النص القرآني قد ثبت بسرعة، وربما في نهاية القرن الأول الهجري (السابع الميلادي)؛ أي تقريبا ثلاثة أرباع قرن بعد وفاة محمد ﷺ)، وربما لاحقا بكل تأكيد، كما تؤكد التقاليد الإسلامية)^(٢)؛ أي أنه لم يصير كتابا إلا في عصر الأمويين، حين صارت الكتابة رائجة، فإذا به يجمع من صدور الحفاظ، ويخضع لتغييرات وتعديلات تلبي أطماع المملكة الجديدة^(٣). ويظهر النبي ﷺ في هذه الصورة كرسول جاء بدين عالمي جديد لكل الناس أينما كانوا^(٤)، وسنعود لنقد رأيها لاحقا.

- (1) «On peut penser cependant que c'est le texte du Coran qui appartient à la couche narrative globalement la plus ancienne et la plus proche du substrat proprement arabe», Ibid, p 35.
- (2) Ibid, p33.
- (3) Ibid, p33-35.
- (4) Ibid.

٤. صورة القرآن الشفهي:

وتقصد بها جاكين شابي النص القرآني قبل تدوينه، تميزا له عن القرآن الكتابي الذي صار متداولاً بعد ذلك؛ إذ القرآن الكريم في نظرها لم يدون إلا بعد وفاة النبي ﷺ بثلاثة أرباع قرن على أقل تقدير، ظل فيها ينتقل مشافهة، وهذا ما عرضه للتحويل، والتغيير، والتسويق، وأعطاه معاني جديدة، لم يُردّها السياق الأول^(١). ولذلك ترى جاكين شابي أن النص القرآني الحالي نسخة معدلة من القرآن الأول، وخضع لتعديلات متكررة، أهمها ما وقع تحت رعاية الدولة الأموية^(٢).

وللتمييز بين القرآنين الكتابي والشفهي، تعتمد جاكين شابي على مدونة المصحف العثماني، وتحاول أن تضعها في سياقها الذي ظهرت فيه (**Mise en contexte**)^(٣)، تقصد سياق الصحراء والبيئة القرشية، لتعيد قراءة النص القرآني من جديد، وتحاول أن تكشف العناصر الغائرة تحت كل الصور النبوية السابقة، التي تميز ملامح محمد ﷺ الإنسان، لا النبي كما يعرضه الفكر الإسلامي^(٤)، وتلك أكبر معضلة تواجه الباحث في هذا المجال^(٥).

-
- (1) Chabbi, Le Seigneur des tribus. L'islam de Mahomet, p19-20.
 - (2) Ibid.
 - (3) Ibid.
 - (4) Ibid.
 - (5) «L'énigme demeure donc, jusqu'à nouvel ordre, des conditions précises de la mise par écrit du Coran même si les raisons qui firent

ويمكن تلخيص تصورات جاكين شابي حول الصور المحمدية في البيان

التالي:

٤	السير النبوية
٣	الحديث النبوي
٢	القرآن الكتابي
١	القرآن الشفهي

ملخص صور النبي في رؤية جاكين شابي

وننبه هنا إلى أن اللون القاتم يشير إلى مدى بعد الصورة عن الحقيقة التاريخية، على العكس من اللون الأبيض، وسنفرد المبحث التالي لتحليل هذه الصور الشريفة.

وننبه هنا إلى أن جاكين شابي قد جانبت الصواب في التمييز بين الصور المحمدية الأربع، واعتمادها على الطعن في توثيق المصحف الشريف والسنة النبوية، وادعاء تأثرهما بالأنظمة السياسية الحاكمة، والتشكيك في كل النصوص الإسلامية حول القرآن الكريم والسنة النبوية، والانسحاب مع النظرة

aboutir le processus ont une chance de s'expliquer dans le contexte impérial ommeyade face à Byzance», Chabbi, Le Coran décrypte: Figures Bibliques en Arabie, p 35.



الاستشرافية المعاصرة في إنكار التدوين النبوي للقرآن الكريم، إذ تقول: (ويظهر أن النص القرآني قد ثبت بسرعة، وربما في نهاية القرن الأول الهجري (السابع الميلادي)؛ أي تقريبا ثلاثة أرباع قرن بعد وفاة محمد ﷺ)، وربما لاحقا بكل تأكيد، كما تؤكد التقاليد الإسلامية^(١)، وحجتها هنا الانتقاء غير المبرر علميا، لتأكيد تغيير القرآن وتحريفه^(٢)، فتراها كعادة المستشرقين تركن إلى ما يروى من اختلاف مصاحف الصحابة، والتهويل بحادثة إحراق الخليفة عثمان رضي الله عنه للمصاحف المعروفة، اعتمادا على دراسات فرانسوا ديبوش (François Deroche)، وألفرد لويس (Alfred Louis)، وقبلهما آرثر جفري (Arthur Jeffery)، ممن جمعوا الاختلافات المنسوبة إلى المصاحف الفردية لبعض الصحابة، أمثال: ابن مسعود، وأبي بن كعب، وعلي بن أبي طالب، وابن عباس، وأبي موسى الأشعري، وحفصة، وأنس بن مالك، وزيد بن ثابت، وغيرهم، وكذا الاختلافات المنسوبة إلى بعض مصاحف التابعين، واعتمادهم الأحاد والشاذ، والضعيف والمنقطع، والمتروك والمكذوب والموضوع، جمعوها

(1) «Pourtant, si le texte du Coran paraît assez vite stabilisé, probablement à la fin du 1er siècle musulman (VIIe s. apr. J.-C.) soit environ trois quarts de siècle après la mort présumée de Mahomet et, certainement plus tard, en tous cas, que l'affirme la tradition musulmane»f, p33.

(2) Encyclopédie de l'Islam , 2ème édition 1985 (5/405).

من مختلف المصادر الإسلامية القديمة، سيما الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، وكتاب المصاحف لابن أبي داود، وتفسير الطبري المشهور. وإذا بها-أي جاكليين شابي- تتخذ مما ورد فيها من روايات متعارضة حول جمع القرآن الكريم مدخلا للتشكيك حول التدوين النبوي للقرآن الكريم، وتدوينات الصحابة له، وتدعي تأخر التدوين، وتميز بين القرآنين الكتابي والشفهي، وتؤكد كتابة وتحريف بني أمية للقرآن الكريم^(١)، غير معيرة الاهتمام إلى أن جل جامعي هذه الروايات قد رويوا كل ما بلغهم من أخبار ذات صلة بجمع القرآن وأخبار اختلاف مصاحف الصحابة دون تصحيح، تاركين أمر ذلك إلى القارئ المحقق، وهذا أمر لا يماري فيه مدقق، وعلى المنكر البرهان. ورغم أن الروايات التي عولت عليها جاكليين شابي ضعيفة ومنقطعة، تراها تركن إليها معرصة عما بين أيدينا من روايات متواترة حول تدوينات القرآن الكريم المختلفة، التدوين النبوي^(٢)، والتدوين البكري، والتدوين العثماني، وانتشاره في الآفاق انتشارا يحيل تحريفه وتغييره، وإجماع الصحابة من بعد على صحة الجمع القرآني وتلقيهم له بالقبول والعناية^(٣)،

(١) جلال الدين السيوطي، الإتقان ١/ ١٦٤.

(٢) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن، حديث رقم ٤٩٨٦.

(٣) د. ليب السعيد: الجمع الصوتي الأول للقرآن، طبعة دار المعارف بالقاهرة ١٩٧٨ =

ومن بعدهم الأمة الإسلامية ومختلف الفرق الإسلامية، وأعلام المسلمين النقاد، فضلا عن القواعد الدقيقة التي وضعها الجهابذة الأعلام لنقل النص القرآني والسنة النبوية الشريفة، وتفادي التمايز بين الروايات المتعارضة كتابية كانت أم شفوية، فلم يبق بعد ذلك كما يظهر إلا الادعاء^(١).

ولا تختلف جاكين شابي في رؤيتها النقدية عما يقرره المفكر الحداثي محمد أركون، ولا عن المستشرق ولش (Welch) كاتب مادة (القرآن) في دائرة المعارف الإسلامية في طبعتها الجديدة^(٢)، للتشكيك فيما هو قطعي ومتواتر، وتداوله ملايين النسخ من المصاحف المطبوعة والمخطوطة في مختلف بقاع العالم. تراها تشكك فيما حفظه المسلمون بأسانيدهم عن ظهر قلب بالسند المتصل إلى رسول الله ﷺ، وهذا ما يجعلنا نرفض رأي جاكين شابي جملة وتفصيلا، وندير ظهورنا لتمييزها بين القرآنيين، الشفهي والكتابي، فليس هنالك إلا الكتاب، فقد تقرر في الروايات المتواترة أن رسول الله ﷺ قد أمر بتدوين النص القرآن، وعنه نقلت المجموع الأخرى، فكيف يصح بعد هذا ادعاء وجود قرآن شفهي تلاه آخر

=ص ٣٢٣.

(١) المصدر السابق.

(2) Encyclopédie de l'Islam, art ((Quran)).T 5 p: 410.

كتابي؟! كما لا نسلم لها وصف القرآن بالفولجاتا (Vulgate)، ذلك الاسم اللاتيني الذي أطلقه القديس جيروم على النسخة التي تولى تحبيرها وجمعها من نسخ الكتاب المقدس ثم ترجمتها، لعدم التناسب الذي يميز المقابلة والإطلاق، ولا نرى ذلك إلا من قبيل إسقاط المفاهيم المسيحية على مجال البحث القرآني والمحمدي، وتلك نقيصة ينبغي للباحث الجاد أن ينأى عنها ويتورع.

ولا شك في أن تقارير جاكين شابي حول تدوين السنة الشريفة ودور السياسة في تفعيلها قد جانبها الصواب كثيرا، وتكشف أنها لم تطلع على تاريخ تدوين الحديث، ولا على الجهود الفردية المبذولة التي تصدت لخدمة السنة، رحلة وجمعا وتدوينا ونقدا، معرضين عن أعراض الدنيا، ناهيك عن أبواب السلاطين وخدمة الملوك وسياسات الدول، ولا على ما قاساه أهل الحديث مع جلاد الحكام، فكيف يصح ادعاء أنهم خدام السياسات؟!.

تقرر كل ذلك وتعرض عن محصلات النقد عند علماء الحديث، وما أنجزوه من مناهج نقدية تخدم هذا الغرض، ومبادئ أرسوها لنقد المعارف بشتى أنواعها: الشفهية، والكتابية، كمبدأ العدالة، ومبدأ الاعتبار، ومبدأ المشاركة (حفظ المرويات المنقولة حتى نستطيع الثبوت من أمرها مرة أخرى، ونقيم الحجة على المدعي)، ومبدأ الترجيح، وغيرها كثير لا يسمح به هذا المقال، ويقوم حجة



على علمية ما أنتجوا وصدق ما نقلوا، ودونك الواقع فانظر، محدث كابن حزم بالأندلس يروي الأحاديث ذاتها التي يرويها البخاري بأذربيجان، فلو كذبوا هل يعقل أن يحصل بينهم وفاق؟؟ ودونك التاريخ فاعتبر، ذهب دول وخبت أوار سياسات، والحديث واحد، أليس ذلك دليل على صحة النقل وضبط الرواة، أليس ذلك حجة على تقول المدعي بلا برهان؟!

وبعد ما أثبتنا تهافت التمييز بين القرآنين، الكتابي والشفهي، وأقمنا الحجة على صحة نقل النص القرآني، وثبوت تدوينه في عهد النبي ﷺ وتواتره تواترا يحيل تحريفه واحتمال تغييره إبان الحكم الأموي، وتصدي المحدثين لنقل أحاديث النبي ﷺ نقلا آمينا، مراعين في ذلك خصوصيات المعرفة الشفهية واحتمال الخطأ فيها، قبل أن يلتفت إليها المحدثون، الأمر الذي يجعل الركون إلى تصحيحاتهم في كثير من الأحاديث أمرا لازما.

إذا تقرر هذا، تبين خطأ التمييز بين صور النبي ﷺ في المصادر الثلاثة المذكورة أعلاه: القرآن الشفهي، والقرآن الكتابي، والحديث النبوي.

أما صورة النبي ﷺ في مصادر السير المحمدية، فهي وإن جمعت الغث والسمين من الروايات - ولا أعرف كتاب سيرة محل إجماع بين النقاد المسلمين -، ومع ذلك فلا تكاد تختلف في مجملها عما في الصور الثلاث الأخرى كما تدعي

جاكلين شابي.

وبعد هذا وذلك، يتأكد أن في تمييز جاكلين شابي بين الصور الأربع
تعسف، لا يستند إلى أصل الأدلة، ولا إلى قوي الحجج، وليس للأنثروبولوجيا
هنا حق في التفرد بالأحكام، لأنها حينها تتعامل مع واقع تاريخي تصير تاريخا ذا
تحليل أنثروبولوجي، وهذا ما يلزمه أن يقيم الحجة التاريخية بالاستناد إلى المصادر
الموثوقة لا التخمينية، ويحتم عليه الالتزام بأساليب النقد العلمي لا الظني، وإلا
لأدلى كل بدلوه ما شاء! فأين هي تلك المصادر الثابتة؟ وأين هي القواعد
المحررة؟ ألم تر أن جاكلين شابي قد أقدمت على تحليل وثائق القرآن الكريم
والسيرة النبوية، فاعتمدت الغث من الأدلة، وراحت تبني عليها تحليلاتها
الأنثروبولوجية، فهل يغني ذلك شيئا؟ أليس ما بني على باطل باطلا كما قال
علماءنا النقاد!



المبحث الرابع

النبي التاريخي: قراءة أنثربولوجية نقدية

بيّنا أن جاكين شابي تؤكد أن الصورة الحالية للنبي ﷺ هي صناعة إيديولوجية سياسية لا أكثر، تبلورت على يدي سدنة وسلاطين الدولة الأموية، ولم تلبث أن تمخضت عنها العديد من النصوص الرسمية، بما في ذلك القرآن الكريم ونصوص السنة النبوية، ولذلك ترى أن مهمة استخراج صورة النبي ﷺ التاريخية من بين ذلك الركام المعرفي شاقة للغاية، وتحتاج إلى مزيدٍ من المعرفة بشروط كتابة القرآن الكريم، وسياسة الدولة الأموية، وعلاقاتها مع الإمبراطورية البيزنطية^(١). ولتحقيق ذلك تعيد قراءة الوحي والنصوص الإسلامية، وتحلل ألفاظها في إطار سياق تلقيها، وهذا ما تسميه بالتسويق «mise en contexte»^(٢)، وتحاول أن تخضعها لطرق النقد التاريخي التي تقترحها العلوم الإنسانية الجديدة^(٣).

ولذلك، فقد قامت جاكين بتحليل فضاء حياة النبي ﷺ «espace de vie»،

(1) Chabbi, Le Coran décrypte: Figures Bibliques en Arabie, p 35.

(2) Chabbi, Le Seigneur des tribus. L'islam de Mahomet, p. 19-20.

(3) Ibid.

وتتبع القرآن الكريم ووسطه الأصلي «Le Coran et son milieu d'origine»، وأكدت أن القيام بإجراءات التحليل الأنثروبولوجي التاريخي للبيئة العربية «les procédés d'analyse de l'anthropologie historique» التي ظهرت فيها النبوة المحمدية، وأوحى فيها النص القرآني، يبين أنها كانت تعيش حياة قاسية للغاية، تهيمن فيها الصحراء على كل شيء، وتتجلى فيها العزلة الاجتماعية عن باقي الحضارات الإنسانية، وتبدو فيها أسمى مظاهر الانغلاق الثقافي^(١)، وتتربع فيها أواصر النظام القبلي، وهذا ما أوحى لجاكولين شابي أن تصف كل ما في هذا البيئة بالقبلية، فتراها تقول المجتمع القبلي «Société tribale»، والسلطة القبلية «pouvoir tribal»^(٢)، والمعرفة القبلية «savoir tribal»^(٣)، وعرب القبائل «arabe des tribus»^(٤)، والسياق القبلي «contexte tribal»^(٥)، والخرافات القبلية «légendes tribales»^(٦)، والحكاية القبلية «anecdote tribale»^(٧)، والتاريخ القبلي «histoire tribale»^(٨)،

(1) Chabbi, Le Coran décrypte: Figures Bibliques en Arabie, p 31-32.

(2) Chabbi, Le Seigneur des tribus. L'islam de Mahomet, p 134.

(3) Ibid, p 133.

(4) Ibid, p 135.

(5) Ibid, p 137.

(6) Ibid, p 162.

(7) Ibid, p 163.

(8) Ibid, p 163.

والذاكرة القبلية «*mémoire tribale*»^(١)، والقرآن القبلي «*Coran tribal*»^(٢)، والإسلام القبلي «*islam tribal*»^(٣)، تقول ذلك دون أن توضح معنى القبيلة، رغم أنها كلمة مفتاح في بحثها، بنت عليها كل مفاصل كتابها، وجعلتها مدار جل تحليلاتها كما أشرنا آنفاً، وعاودت تفسير القرآن في ضوءها كما سنرى، وهذا ما يوقع القارئ في حيرة من أمر توظيفها، كيف يتم ذلك في بحث أكاديمي، ولا يتحرر اللفظ تحريراً يرفع اللبس والتأويل.

ويبدو من السياقات المشار إليها أنها تعني بالقبلي هنا البدو «*nomade*»، كما يظهر في العديد من الصفحات^(٤)، وذلك ما يبيّن بعد الباحثة عن الصواب، إذ إن مكة المكرمة آنذاك مدينة حضرية بالمعنى الأنثربولوجي، وانظر لما يقوله كبير مؤرخي الجزيرة العربية، الدكتور جواد علي: (يقسم أهل الأخبار قريشاً إلى: قريش البطاح، وقريش الظواهر، [...])، ويبدو من وصف أهل الأخبار لقريش البطاح، أنهم إنما سُمّوا بالبطاح لأنهم دخلوا مع قصي البطاح، فأقاموا هناك. فهم مستقرون حضر، وقد أقاموا في بيوت، مهما كانت فإنها مستقرة، وقد انصرفوا إلى التجارة وخدمة البيت، فصاروا أصحاب مال وغنى، وملكوا

(1) Ibid, p 165.

(2) Ibid, p 406.

(3) Ibid, p 407.

(4) Ibid, p 123, 280; 419, p. 577-578.

الأملاك في خارج مكة، ولا سيّما الطائف، كما ملكوا الإبل، وقد تركوا رعيها للأعراب. وعرفوا أيضا بقريش الضبّ للزومهم الحرم. وأما قريش الطواهر، فهم الساكنون خارج مكة في أطرافها، وكانوا على ما يبدو من وصف أهل الأخبار لهم أعراباً، أي إنهم لم يبلغوا مبلغ قريش البطاح في الاستقرار وفي اتخاذ بيوت من مدر. وكانوا يفخرون على قريش مكة بأنهم أصحاب قتال، وأنهم يقاتلون عنهم وعن البيت. ولكنهم كانوا دون «قريش البطاح» في التحضر وفي الغنى والسيادة والجاه، لأنهم أعراب فقراء، لم يكن لهم عمل يعيشون منه غير الرعي. وكانوا دونهم في مستوى المعيشة بكثير وفي الواجهة بين القبائل. ومع اشتراكهم وقريش البطاح في النسب، ودفاعهم عنهم أيام الشدة والخطر^(١). ويقول ﷺ أيضاً في وصف حال مكة: (وقد تمكنت مكة في نهاية القرن السادس، وبفضل نشاط قريش المذكور من القيام بأعمال هامة، صيرتها من أهم المراكز المرموقة في العربية الغربية في التجارة، وفي إقراض المال للمحتاج إليه. كما تمكنت من تنظيم أمورها الداخلية ومن تحسين شؤون المدينة، واتخاذ بيوت مناسبة لائقة لأن تكون بيوت أغنياء زاروا العالم الخارجي ورأوا ما في بيوت

(١) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، (بيروت، دار الحداثة للطباعة والنشر،



أغنيائه من ترف وبذخ وخدم وإسراف^(١)، فمكة قريش ليست بدوية كما يستتج من جاكين شابي، وهذا ما يثبت أنها أبعدت كثيرا في تحليلاتها النقدية، ولم توفق في تمثل أدوات الأنثربولوجية التحليلية في وصف البيئة المحمدية.

وتبعا لذلك، تستتج جاكين شابي أن الفترة التي بعث فيها النبي ﷺ والتي تليها، فترة يسودها المنطق العجائي، وتقوم على الثقافة الشفهية، شأنها شأن الثقافة البدوية، ولا تلتفت هنا لما روي من تدوين للقرآن الكريم، ولا للذين يعرفون القراءة في قريش، ولا لعلم بعض الصحابة بالقراءة والكتابة وإلمامهم ببعض اللغات كما هو معروف، لأن الثقافة كما تزعم بدوية لا تسمح بذلك^(٢)، ولم يتغير الوضع في نظرها حتى خرج الإسلام من وطنه الأصلي إلى باقي ربوع الدنيا بغية الفتح، لتأسيس المجتمع الإمبريالي المعقد **«une société impériale complexe»**^(٣)، فعرف الكتابة آنئذ، وصار حضارة كتابية (نسبة

(١) المصدر السابق، ص ٤٠٥.

- (2) Chabbi, Le Seigneur des tribus. L'islam de Mahomet, p 177.
(3) L'histoire de cette période demeure entièrement à écrire de ce point de vue. L'entreprise est d'autant plus difficile que, dans la société d'origine de l'islam, l'oralité l'emportait sur l'écriture. C'est seulement lorsque l'islam fut sorti de son milieu originel, à la faveur de la conquête du Proche et du Moyen-Orient, de l'Égypte, du Maghreb et du monde iranien, qu'il devint civilisation d'écriture, à la faveur aussi de la construction d'une société impériale complexe. Ibid.

للكتابة هنا) «civilisation d'écriture»^(١).

وأيا كان، ففي هذا الوسط الطبيعي الثقافي وجد النبي ﷺ وترعرع، لا تماري في ذلك جل الدراسات الاستشراقية، كما لا تماري في (حدوث شيء بين مكة [المكرمة] والمدينة [المنورة] في بداية القرن السابع الميلادي، عندما تجاوزت القبائل العربية حدود بيئتها التقليدية، حيث ولد الإسلام حوالي ٦٣٢م)^(٢)، وحيث كان النبي ﷺ قد توفي، اعتمادا على ما ورد في الروايات الإسلامية، وعلى عدم ورود ذكره في سجلات الدول والإمبراطوريات التي دخلت تحت حكم المسلمين تدريجيا^(٣)، وإلا فإنه لا قيمة للروايات الإسلامية.

وتذكر جاكين شابي أن قبيلة النبي ﷺ - بني هاشم - إحدى بطون قريش، كانت تتولى الحفاظ على البيت العتيق، وإدارة الحج المحلي، وهذا ما جعل وضعهم الاجتماعي المالي يتدهور كثيرا، مقارنة مع غيرها من القبائل القرشية التي أثرت من تجارات القوافل^(٤). تؤكد ذلك جاكين شابي، رغم أن

(1) Ibid.

(2) «Il s'est passé quelque-chose entre La Mecque et Médine au début du VII^e siècle. Lorsque les tribus arabes font irruption hors des limites de leur habitat traditionnel, vers 632, l'islam est né. », p179.

(3) Chabbi, Le Coran décrypte: Figures Bibliques en Arabie, p43.

(4) Ibid.

النصوص وافية على اشتغال بني هاشم بالتجارة أيضاً^(١). ولا يخفى أنها تريد هنا أن تثبت للدعوة المحمدية جذوراً قبلية وأبعاداً اقتصادية، وهذا ما يتناقض مع خطاب الدعوة الإسلامية، ألم تر أنه لم يجعل لبني هاشم خصوصية إلا المودة في القربى كما معروف؟!

ويظهر من تحليل جاكين شابي، أن الدعوة المحمدية لم تكن واضحة المعالم في ذهن صاحبها ﷺ، ولا فكر في أن يكون نبياً، وإنما هو القدر الذي صيّرهُ كذلك؛ فلم يدع ﷺ في البدء أنه نبي ولا رسول، وإنما «نذيرٌ» لقبيلته، «ملهمٌ» **«Avertisseur tribal inspiré»** استئناساً بما ورد في سورة المدثر وغيرها، و«صاحبٌ» لهم (تقصد لقريش) من أصلاهم، استناداً لورود ذلك في سورتي التكويد (آية ٢٢) والنجم (آية ٢)، وهذا ما يعني في نظرها أن فكرة النبوة لم تتبلور في ذهن النبي ﷺ آنذاك، فضلاً عن فكرة الرسالة^(٢)، وبذلك تجعل الدعوة المحمدية في العهد المكي الأول امتداداً طبيعياً لمعتقدات قريش لا أكثر، وما عداها من المعاني فدخل عليها في مراحل تالية كما سنرى.

(١) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٤، ص ٤٠٧-٤٠٨.

(2) «Nul n'est avertisseur en son pays ? L'adage qui se dit habituellement des prophètes pourrait s'appliquer parfaitement à cette surdit  collective de la tribu mekkoise. « Chabbi, Le Coran d crypte: Figures Bibliques en Arabie, p156.

وعمدة جاكين شابي هنا كما رأينا ورود كلمتي «الصاحب» و«الندير» في القرآن الكريم الأول، ولا يسلم لها ذلك بحال، ألم تعلم أنها قد وردت في السور المكية والمدنية معاً، فقد ذكرت في سورة البقرة (آية ١١٩) على سبيل المثال، وانظر في المصحف وحقق؛ لتتأكد أن فكرة النبوة ماثلة في السور المكية لا كما تزعم، ودونك سورة الطارق (آية ٧) فقد وردت فيها كلمة «النبي»، كما وردت في سورة الأحقاف (آية ٢١)، وسورة المطففين (آية ١١) وغيرها كثير. كما وردت كلمة «رسول» في القرآن المكي، في سورة التكويد (آية ١٩)، وسورة المزمل (آية ١٥)، وسورة الحاقة (آية ٤٠)، وغيرها كثير، وهذا ما يبين أن قولها تحكم لا يمت إلى الاستقراء المتأني بشيء.

والعجيب في تحليل شابي أنها اعتمدت كلمة «صاحب» الواردة في سورتي التكويد والنجم للدلالة على أنه لم يوصف بالنبي، مع أنه قد ورد في السورتين ما يثبتها، فقد قال تعالى في التكويد: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ (آية ١٩)، وقال في النجم: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۚ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (آية ٢-٤)، فاستدلت بـ«الصاحب» وتركت «الوحي»، فكيف غفلت عنها؟! وما كان ينبغي أن تسلك هذا المسلك في الإثبات! كان يجب عليها الاستقراء التام للقرآن المكي ومعانيه، ودراسة ألفاظه دراسة دلالية تعالقية؛ إذ



اللفظة تحمل من المعنى في سياق غير ما تحمله في سياق آخر، وقد أبدع توشيهيكو إيزوتسو في تحليل لغة القرآن، سيبا في كتابه: «الله والإنسان في القرآن، علم دلالة الرؤية الكونية للعالم»^(١)، فهو مثال يحتذى في الدقة والأمانة العلمية، وفي تحقيق مثل هاته المسائل الدلالية، وإن كانت له بعض الهنات، لا يتسع المقام لذكرها.

وتذكر جاكليين شابي أن نصوص العهد المكي تبين أن النبي ﷺ لما شرع في دعوة قومه تلقوه بالرفض والنبد، واتهموه بمس الجن، لما رواه لهم من اتصال بالسما^(٢)، وهذا ما يعني في نظرها وفي نظر كثير من الحداثيين العرب أن قريش قد عرفت حاله واستطاعت تصنيفه^(٣)، ولا نسلّم لهم استنتاجهم ألبتة؛ ألم تعلم أن قريش قد اتهمت النبي ﷺ بأمور كثيرة مشهورة، فقالوا: شاعر، وقالوا به جنّة، وقالوا ساحر، وقال مجنون، وقالوا ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة، وقالوا أساطير الأولين، فلم تُذكر بعضها وتترك بعضها؟!، مع أنه ثبت بالتجميع ما لا يتثبت بالتفريق. إن ذكر جميع التهم جنباً لجنب يؤكد أن قريش احتارت في

(١) طوشيهيكو إيزوتسو، الله والإنسان في القرآن، علم دلالة الرؤية الكونية للعالم، تر هلال

محمد الجهاد، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٧).

(2) Chabbi, Le Coran décrypte: Figures Bibliques en Arabie, p156.

(٣) على سبيل المثال عبد الله إبراهيم، التلقي والسياقات الثقافية، (لبنان-الجزائر: منشورات

الاختلاف، ٢٠٠٣).

تصنيف حالة النبي ﷺ، ولم تجد لها تأويلاً مقبولاً بغيرها.

ولم تكن دعوة النبي ﷺ في هذه المرحلة كما تدعي جاكين شابي إلا إنذاراً لقبيلته من شر وشيك^(١)، ومن المرجح في نظرها أن (هذا الرجل -أي النبي ﷺ- كان يدعو الناس إلى إله واحد، كالذي يوجد بين اليهود والنصارى، ويتمنى استعادة قيم التضامن الاجتماعي بين ظهرائي قبيلته، التي أثرى بعض رجالها كثيراً)^(٢)، فدعاهم إلى نبذ القبليّة، والتحلل من الغنى الفاحش، وتحرير المرأة^(٣)، واتباع ملّة الآباء^(٤)، فرفضوا خطابه، وما اتبعه إلا قليل، ولم يلبثوا أن دخلوا معه في صراع طويل ومواجهة عنيفة^(٥)، وتفسر جاكين

- (1) «Le discours qui est tenu par Mahomet se définit d'emblée comme étant d'«avertissement» (indhâr). Il s'agit de prévenir la tribu d'un danger imminent», Chabbi, Le Coran décrypte: Figures Bibliques en Arabie, p35.
- (2) «Il est probable que cet homme, qui prêchait pour un dieu unique tel qu'il existait déjà chez les juifs et les chrétiens, souhaitait rétablir des valeurs de solidarité dans sa tribu, dont certains membres s'étaient trop enrichis, Ibid.
- (3) Ibid, p156.
- (4) «Ainsi, la démarche initiale de Mahomet s'est-elle opposée sur ce plan, de façon frontale, aux réflexes culturels des hommes de son monde. Contre son innovation inouïe, le texte coranique rappelle comme en écho la doctrine des hommes de la tribu: «[C'est] la voie suivie par nos pères [et nulle autre qu'il faut suivre] Coran» Ibid, p316.
- (5) Ibid.



شابي ذلك بطبيعة القبلي الفظة^(١)، ومهما يكن فقد انتهت مواجهته بهجرته إلى المدينة المنورة^(٢).

وقد جانبت جاكين شابي الصواب في تحديد مضمون الدعوة المكية، ودونك السور المكية، لتعلم ما فيها من عقائد؛ ألوهية، وملائكة، ونبوة، وكتب منزلة، وبعث، وشرائع، وأنبياء، احتفى بها القرآن المكي، حتى صار مشهورا بين النقاد أن كل سورة فيها قصص الأنبياء فهي مكية، ومع ذلك فالباحثة لا ترى في النبي ﷺ إلا مصلحا في دين قبيلته لا أكثر، وأنى لها ذلك؟!

وتبين جاكين شابي أن النبي ﷺ لما هاجر إلى المدينة المنورة ألقى شهرته قد سبقت إليها، فلجأ عند بعض القبائل، ولم يلبث أن دخل عالم السياسة، فأسس كونفدرالية قبلية (**confédération tribale**)، تجمع قبائل العرب تحت راية واحدة، ودعا القبائل والبدو إلى دخول في عهد مع ربه^(٣)، إذ تبين له أنها تتدين بأديان متقاربة، فقد كانوا جميعهم يعتقدون في إله واحد، يسمونه ربا، وقوة مذكورة أو مؤنثة للحماية والتعويض، لها صلة بالأراضي القبلية المملوكة، ويتخذون لها بيتا كالكعبات، والحجارة المقدسة كالحجر الأسود مثلا، فأراد

(1) Ibid.
(2) Ibid.
(3) Ibid.

النبي ﷺ في زعمها أن يوحد كلمتها تحت عبادة ربٍّ واحدٍ، وكعبةٍ واحدةٍ، وحجارة مقدسة واحدة^(١)، ودليلها أن العرب قد أطلقت كلمة الرِّبَّة (مؤنثة رب) على الأصنام، كاللات والعزى، واتخذت لها كعبات مختلفة، تضع فيها أصنامها المقدسة^(٢). وقد أبعدت جاكين شابي هنا كثيراً، فما عرف عن العرب أنها سمت اللات والعزى ومناة الثالثة ربات^(٣)، فمن أين لها هذا؟ ولا توجد وثيقة قديمة واحدة تثبت ذلك^(٤)، وهذا ما يبين أنها تبعد في التخمين والتقول.

وأيا كان، فإن جاكين شابي تؤكد أن النبي ﷺ دعا القبائل إلى الإسلام ديناً واحداً، والله رباً واحداً، وإلى الكعبة بيتاً مقدساً واحداً، وإلى الحجر الأسود (حجارة مقدسة واحدة، ليوحدهم على كلمة واحدة ودين واحد، وليصير الله - رب النبي ﷺ - رب القبائل، وتتأول قوله تعالى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على أن المراد به رب القبائل، لا رب العوالم كما هو شائع في كتب التفسير، ودليلها الوضع في السياق الثقافي القبلي، الذي يبدي أن العالمين بمعنى العوالم لا يعني للبدو شيئاً إلا القبائل، وهذا ما جعلها تدعي أن معنى العالمين

(1) Ibid, p44; 222.

(2) Ibid.

(3) Christian Robin, Filles de Dieu» de Saba' à La Mecque: réflexions sur l'agencement des panthéons dans, l'Arabie ancienne, Semitica, 50, 2000, p. 113-192.

(4) Ibid.



هنا هو القبائل^(١)، ولذلك فقد عنونت به كتابها: (رب القبائل، إسلام محمد)، تريد برب القبائل رب العالمين، معرضة عما تقرر في كتب التفسير، ونائية عما تحرر من طرق نقدية تصلح لتحقيق دلالة اللفظ، كالتفسير بالمأثور، وعلم الدلالة، والسياقات، إلا فإن لفظة العالمين قد وردت في القرآن الكريم (٧٣) مرة، (٤٢) مرة منها بالإضافة إلى رب، و(٣١) منها في سياقات أخرى، لا يستقيم فيها معنى القبائل، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿سَلِّمْ عَلَىٰ نُوحٍ فِي آلِهَائِهِمْ﴾، وسياقات وردت في إطار حديثها عن الأنبياء الآخرين. وبعد هذا وذاك، كيف يصح لجاكولين شابي أن تدعي أن القرشي ضيق الأفق، لا يعرف من العوالم إلا القبائل، ألم يعرف الحبشة والفرس؟ ألم يهاجر إلى الشام والعراق؟ ألم يعرف إماء من الروم والهند؟ ألم يسمع عن عالم الجن والغول؟ وكلها سياقات لا تعلق لها بالقبائل.

وبالطريقة نفسها، طريقة الوضع في السياق (Mise en contexte)، أعادت تفسير الإسلام بدين القبائل، كما أعادت قراءة الكلمات الأساسية للمعجم الإسلامي، كالله، والنبي، والبيت (الكعبة)، معتمدة على توظيف فقه

(1) «elle ne signifiait rien dans une société de tribus qui n'avait aucun moyen de se représenter «des mondes» différents du sien», Chabbi, Le Seigneur des tribus. L'islam de Mahomet, p 645.

اللغة (فيلوجيا)^(١) بطريقة تاريخية تخمينية، تلك الطريقة التي أكد معاصرها، توشيهيكو إيزوتسو، أنها لا تفيدك إلا الظن في أغلب أحوالها، ولا تصلح لتحقيق مثل هذه المسائل تحقيقا علميا، ولذلك فقد اقترح أن نستند إلى طريقة علم الدلالة ومناهجه، وبنى عليها كتابه المشهور: «الله والإنسان في القرآن، علم دلالة الرؤية الكونية للعالم»، بين فيه الفرق الشاسع بين دلالة هذه الألفاظ في المعجم القرآني ودلالاتها في السياق العربي الجاهلي^(٢)، وبصر فيه بعقم مسلك جاكين شابي ومن ينتهج نهجها، وصحح فيها كثيرا من تحليلات تراثنا الإسلامي، وهو كتاب جدير بالثمين.

ويظهر من كل هذا، أن جاكين شابي تريد أن تنزع القداسة عن سيرة النبي ﷺ كلها، وتؤنسّه مرة أخرى، وتُصوره كمصلح اجتماعي، حاول أن يحقق أسطورة، دعا قبيلته إلى دين آبائها أولا، ثم دعا القبائل العربية الأخرى إلى التوحيد على دين آبائه، ليصير الله ربه رب العالمين «seigneur des tribus»، أي رب القبائل كما فسرتها الباحثة، وعلى ذلك تحمل العديد من الشرائع الإسلامية، كالحج مثلا، فنجدها تفسره جمعا بين الحجّين الذين سادا في بيئة

(١) سبق التعريف بها.

(٢) توشيهيكو، الله والإنسان في القرآن، علم دلالة الرؤية الكونية للعالم، ص ٢٩-٥٠.

العرب، ارتآه النبي ﷺ ليُلملم شمل القبائل العربية، وهذا ما يجعل الحج مشروعاً سياسياً أكثر مما هو مشروع ديني، وتقليداً جاهلياً أكثر مما هو تشريع إسلامي بحت^(١).

ويتجلى هنا جيداً أن جاكين شابي قد قرأت أحكام الشريعة وأحداث السيرة النبوية - صلى الله على صاحبها - قراءة سياسية حائفة، إذ الدعوة الإسلامية كما تفيد نصوص القرآن المكي لم تقتصر على قبيلته ﷺ، تراها تعاملت مع الإنسان مطلقاً، ودعته إلى مفاهيم لا تجد فيها مكاناً للقبلية، فدونك الألوهية، والخلق والبعث، والمسؤولية، والقضاء والقدر، وعالمية الدعوة، ودونك المعجم القرآني المكي، حَقَّق فيه، وانظر، هل تجد فيه إثارة للقبليّة. وعيب الباحثة هنا أنها وظفت منهج فقه اللغة بطريقة تخمينية، وأعرضت عن التحليل الدلالي المعمق، كما فعل توشيهيكو في كتابه المشار إليه آنفاً، وأعلامنا النقاد من قبل.

وترجع جاكين شابي انتشار الإسلام، إلى كثرة غارات النبي ﷺ المكللة بالانتصارات الباهرة، فقد جلبت له أتباعاً كثيراً من مختلف القبائل، استطاع

(1) Chabbi, Une approche Historico-critique, de l'Islam des origines, (www.clio.fr/bibliotheque/une_approche_historico-critique_de_lislam_des_origines.asp) (20/01/2010).

بحنكته أن يلملم شملها تحت لواء واحد، لواء رب العالمين^(١). كأن المسألة نصر في الحروب فقط، لا تعلق له بالدين ألبتة. ولا أستطيع أن أفهم جاكين شابي في ضوء طريقتها، كيف استطاع النبي ﷺ، وهو المهاجر الضعيف المجبر، أن يجمع القبائل على كلمة واحدة بين عشية وضحاها، ويفرض عليها من الأحكام الشرعية الشيء الكثير، أليس ذلك دليل على خصوصية لهذا الدين وخطابه؟ لم لم تجتمع القبائل العربية المشتتة دهرا طويلا حتى جاء النبي ﷺ، فجمعهم على كلمة الإخلاص والتقوى، وهم البدو المغلقون دهورا طويلا كما تصفهم جاكين شابي؟ ما الذي غير حال البدوي المنعزل، فصار حضريا يؤمن بقيم الجماعة؟ أليس هذا اختزال ينبغي أن ينأى عنه البحث العلمي الجاد، سيما في درس الأنثربولوجيا الذي ينشد النظرة الكلية في التحليل.

وتؤكد جاكين شابي أن النبي ﷺ أراد أن يلحق بوحدة القبائل العربية القبائل اليهودية، فتبنى إرثهم وصورهم التوراتية، وأخبار أنبيائهم، وعرض عليهم دعوته في المدينة المنورة فرفضوا^(٢)، فصار يعاملهم كمنحرفين، أضاعوا كلمة الله الأصلية تحريفا وتبيلا، وهذا ما عرضهم لتحريض قرآني وتحامل نبوي، وتشريد سياسي، واضطهاد في وقت لاحق، ومحاولة تجاوزهم بالدعوة

(1) Ibid.

(2) Ibid.



للتمسك بالفكرة الإبراهيمية، وبعد ذلك بكثير، ادعى المسلمون أن النبي محمد ﷺ من أتباع إبراهيم ﷺ^(١).

ويظهر هنا أن جاكين شابي، لم تستطع أن تتحرر من ثقافتها اليهودية، ولا من تحيزها مع بني دينها، ألم تر أنها تشكك في كل ما ترويهِ الروايات الإسلامية وكتب التاريخ المشهورة عن علاقة اليهود بالنبي ﷺ، وما جرى بينهما؟! وما كان ينبغي لها أمام الكم الهائل من الروايات المشهورة المؤيدة. وبالمقابل فقد ادعت أن النبي ﷺ تولى أنبياء اليهود إرضاء لهم، مع أن المقارنة بين النصوص القرآنية واليهودية تثبت التباين بينهما، فلا قصص القرآن الكريم تشبه قصص التوراة، ولا العقيدة العقيدة، ودونك قصة آدم ؑ، انظر مسارها في النص القرآني، ثم عجب على التوراة، هل تجد بينهما شبيها، فكيف تدعي مع ذلك المجاملة؟! وحق في آيات الذكر الحكيم، تجد نقد القرآن لليهود ظاهرا من بداية العهد المكّي؛ فلو تولاهم لاسترضاهم، والحال غير هذا، إن ذلك دليل على بطلان ادعاء المجاملة والاسترضاء.

ولقد أبعدت جاكين شابي في دعواها تولى النبي ﷺ إبراهيم في المدينة عقب رفض اليهود الدخول في دينه، رغم توفر العديد من الحجج القوية على

(1) Ibid.

فساد ذلك، ألم تعلم أن قصة إبراهيم عليه السلام قد وردت في القرآن المكي كنموذج للاحتذاء، وسورة الأنعام (آية ١٠٨، ١٦١)، وسورة يوسف (آية ٣٨)، وسورة إبراهيم بكاملها، وما ورد في سورة البقرة من تول له يسير على النسق نفسه، فلا تحوّر في الخطاب، بل توضيح ومزيد بيان، وهذا ما يبين عدم مراعاة جاكليين شابي لتاريخ النزول القرآني، ولا لقواعد تحليله، فكيف تتدعي بعد ذلك العلمية؟ وكيف تتوقع بعد ذلك أن يحظى كلامها بالترحاب.

الختام

﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

إلى أي حد يمكن أن نقول إن جاكين شابي قد وفقت في بحثها؟ لقد ألفت جاكين شابي كتابها بلغة راقية، وطريقة في التحرير مدهشة، اتسمت بالخصائص التالية:

١. تكمن أهمية جاكين شابي في تجاوزها ما هو مألوف في مناهج جامعاتنا الإسلامية، ومحاولة تقديم دراسة أكاديمية جديدة، تقرأ السيرة النبوية الشريفة قراءة أنثربولوجية، مجارية في ذلك الاتجاه الاستشراقي العام الذي صار يحتفي بهذه القراءة على حساب باقي القراءات النقدية، كالتحليل اللساني والنقد الدلالي والبحث الموضوعي والدرس المقارن للنص القرآني، لأمر في نفوسهم.
٢. وظفت جاكين شابي منهجا مركبا في تحليلها السيرة المحمدية، وتسلحت بالعديد من العلوم الإنسانية، من آثار وتاريخ وعلم نفس واجتماع وأنثربولوجيا، وارتوت من مناهجها ومفاهيمها النقدية التي أشرنا إلى بعضها في غضون هذا البحث، وهي ميزة لها، لا يوازيها في ذلك أحد إلا محمد أركون.

وبالمقابل فقد أهملت العلوم الإسلامية الأصيلة من غير تبرير يستحق الذكر، فلا تكاد تجد توظيفا لعلوم القرآن الكريم، ولا لعلوم الحديث الشريف في تأريخ النصوص وفرز الروايات، ولا لمناهج الأصول في تحليل الدلالات والنصوص، كما يتبدى ذلك في توثيقها للنص القرآني، وما كان ينبغي لها أن تعزف عنها، سيما في مثل هذه الموضوعات، فهي علوم أثبتت معقوليتها وأصالتها النقدية.

٣. استخدمت جاكين شابي طريقة فقه اللغة (التحليل الفيلولوجي) في دراسة سيرة النبي ﷺ، وجعلتها أساسا للعديد من استنتاجاتها النقدية، كتحليلاتها العجيبة لكل من: رب العالمين، والإسلام، والله ﷻ، واعتمدت على ما سمته بالتسييق (الوضع في السياق) (**Mise en contexte**)، ولا تعدو تطبيقاتها عن أن تكون قراءات ظنية تخمينية، لا تقوم على أساس من النقل، ولا على بيان من الاستقراء، كما ألمحنا في أثناء هذا البحث.

٤. تبين لنا إتقان جاكين للأثر بولوجيا التاريخية، واتضح قصورها في تطبيق مفاهيمها النقدية، كما رأينا في تحليلها لطبيعة المجتمع المكي، وفي تحريرها للشفهي والكتابي من القرآن الكريم، وفي تمييزها بين الصور المحمدية المتعددة، وفي توثيقها للعديد من القضايا النبوية، وهذا ما كان له أثر كبير على قيمة نتائجها النقدية.



٥. اتضح لنا قصور جاكليين شابي في استقراء العديد من القضايا القرآنية، ومن ذلك ما أُلصقته من خصائص بالقرآن المكّي، كنفيتها لوجود الفكرة الإبراهيمية فيه، وادعائها وجود تطور عقدي في الوحي المكّي، وخطئها في تغير الموقف المحمدي من اليهود، وغيرها من المسائل التي تطعن في مصداقية الباحثة، وقيمتها النقدية؛ إذ مثل هذه الأخطاء لا تغتفر في دراسة أكاديمية، وتشكك في نزاهتها العلمية.

٦. ظهر أن الباحثة ادعت، بناء على روايات ضعيفة، أن القرآن الكتابي غير القرآن الشفهي، وأن الدولة الأموية طوعت القرآن الشفهي خدمة لأطماعها السياسية، وبيننا خطئها وضعف أدلتها، وخضوعها للنظريات الاستشراقية دون ترو، وكان يمكن لها أن تتجاوز كل ذلك لو تريثت في نقد وثائقها وتخريجها تخريجا علميا.

٧. أقمنا الحجة على أن مستندات جاكليين شابي في التأسيس لنظرية أسطورة النبوة المحمدية لا تقوم على أدلة محررة علميا، وأثبتنا حيفها وتحاملها في بحثها الأكاديمي، وبيننا بالبرهان تحيزها العلمي مع بني دينها، اليهود، ويمكننا أن نتساءل عن خلفيات اعتماد هذا البحث وإجازته، أهو التحيز المقيت، أم هو تدني مستوى الدراسات الإسلامية في الجامعات الفرنسية؟ وما سبب تهويل

المفكرين الحداثيين في الغرب والشرق بأمر الباحثة وخطورة نتائجها، أهو التواصي باللغو في النبوة والقرآن الكريم الذي أشار إليه من قبل الذكر الحكيم، أم هو القصور العلمي في مناهج تحقيق النصوص الإسلامية؟ ولعل في هذا ما يثبت أن المشكلة ليست في النقد الأنثربولوجي للسيرة النبوية، بقدر ما هي في الباحثة، لنجد أنفسنا مرة أخرى أمام مظاهر أزمة الدراسات المحمدية المعاصرة التي أشرنا إليها في أثناء هذا البحث.

ولقد كان يمكنها أن تبذع في تحليلها الأنثربولوجي للسيرة النبوية، لو أحسنت توظيف العلوم الإسلامية في توثيق النصوص وتحليلها، وأفادت من علم الدلالة واللسانيات في تحليلها النص القرآني، ونهلت من مقارنة الأديان في عقد المقارنات بين القرآن الكريم والتوراة، وبين الإسلام والديانات الجاهلية، لوفعلت لأفادت ولأجادت، إذ العلوم تكمل بعضها بعضا، وتؤتي الصورة كاملة، فليس العيب في البحث بل العيب أن تأتي بقلب غير سليم، ولن يفلح ﴿إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

وبعد كل هذا أعترف بأن ما عرضته في هذا البحث ليس كافيا لنقد كل ما ذكرته الباحثة جاكين شابي حول سيرة المصطفى ﷺ، وما زالت تحتاج لمزيد من التتبع والنقد، علّ الله العلي يوفق لإصدار كتاب - في القريب - حول جهود

هذه الناقدة والمعاصرين في الجامعات الفرنسية.

وأخيرا لا يفوتني أن أنبه إلى ضرورة الاشتغال بهذه المجالات العلمية الجديدة، والتمكن من رؤاها النقدية، والإلمام بمناهجها وأدواتها التحليلية، فنحن في حاجة ماسة إلى العلم بأنثربولوجيا البيئة العربية القديمة، وأنثربولوجيا السيرة المحمدية، ولسانيات الخطاب القرآني الكريم والحديث النبوي الشريف وسيميائياتهما، وغيرها من المباحث الجديدة، لنكون على بصيرة مما عندنا، وعلى علم بما يكتب حولنا، وقادرين على النهوض بالشهادة الشرعية على عصرنا؛ فإما أن نملاً هذا الفراغ المعرفي على بصيرة، وإما أن يملأه غيرنا على جهل وحيرة، ناهيك عما يكيد لنا جملة وتفصيلاً.

لقد صارت هذه المجالات والمناهج علوماً ومناهج إسلامية بالضرورة، يحتاجها المتخصص في أصول الدين كمنهاج لوعي الذات والإسلام، والذود عنه، أحببنا أم كرهنا، فأين المتخصصون في هذه المجالات؟ وأين مراكزها في الجامعات الإسلامية؟ وأين مقرراتها في أقسام أصول الدين؟ وأين مجلاتها العلمية؟ وأين دراساتها العليا؟ إنها مهمة كل من يدعي محبة رسول الله ﷺ وآله، والله الحمد من قبل ومن بعد.

قائمة المراجع

أولاً: الدراسات الأجنبية:

- (1) Encyclopédie de l'Islam, 2ème édition 1985.
- (2) Jacqueline Chabbi, Le Seigneur des tribus. L'Islam de Mahomet, (Paris: Noësis, 1997)
- (3) Jacqueline Chabbi, Le Coran décrypte: Figures Bibliques en Arabie (France: Fayard, 2008)
- (4) Rubin, Coll. «The Formation of the Classical Islamic World», vol. 3 et 4, Variorum, Ashgate, 1998).
- (5) P.M. Bogaert, La Bible latine des origines au Moyen Age. Aperçu historique, état des questions, Revue théologique de Louvain, 19, (1988)

ثانياً: الدراسات العربية:

- (٦) ابن سعد، الطبقات.
- (٧) جلال، الدين السيوطي، الإنشقاق في علوم القرآن، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ٢، ٢٠٠٣).
- (٨) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، (بيروت، دار الحداثة للطباعة والنشر، ط ٢، ١٩٩٥).
- (٩) لبيب السعيد: الجمع الصوتي الأول للقرآن، (القاهرة: طبعة دار المعارف، ١٩٧٨).
- (١٠) محمد أركون، الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، تر: هاشم صالح، (بيروت: دار الساقى، ط ١، ٢٠٠٢).

(١١) —، قضايا في نقد العقل الديني، تر: هاشم صالح، (بيروت: دار الطليعة، ط١، ٢٠٠١).

(١٢) محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح.

(١٣) عبد الله إبراهيم، التلقي والسياقات الثقافية، (لبنان-الجزائر: منشورات الاختلاف، ط١، ٢٠٠٣).

(١٤) طوشييهيكو إيزوتسو، الله والإنسان في القرآن، علم دلالة الرؤية الكونية للعالم، تر هلال محمد الجهاد، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ٢٠٠٧).

ثانياً: مواقع الانترنت:

(١٥) هاشم صالح، الاستشراق وأرخنة التراث،

(<http://www.hadatha4syria.org/news.php?action=view&id=4365>)
(20/01/2010)

(16) Groupe de chercheurs scientifiques, Documents sur l'Islam,
(<http://www.islam-documents.org/0.html#footnote77> p7)
(20/01/2010)

(17) Jacqueline Chabbi, Une approche Historico-critique, de
l'Islam des origines,
www.clio.fr/bibliotheque/une_approche_historico-critique_de_lislam_des_origines.asp
(20/01/2010)

(18) Revue Science et avenir, La légende Mohométane, Janvier
2003
(<http://charlatans.info/mahomet.shtml#ref1>)(20/01/2010)



صلة رسالة النبي ﷺ برسالة إخوانه الأنبياء عليهم السلام من خلال السنة النبوية

إعداد

د. عبد الله بن عبد العزيز الفالح

الأستاذ المساعد في كلية الحديث الشريف

في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

ابيض



المقدمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، المبعوث رحمة للعالمين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن الله فطر الخلق على الدين الحق: عبادته وحده سبحانه لا شريك له، وأراد من عباده ذلك، فمنهم من بقي على فطرته، واتبع ما جاءه من دين ربه بوساطة أنبيائه ورسله، ومنهم من اجتالته الشياطين وأغوته، فترك الدين الذي فطر عليه، وأشرك بالله غيره.

وكان من رحمة الله بالعباد أن يرسل إليهم من يردهم عن غيهم، ويرشدهم إلى دين ربهم، الذي فطرهم عليه وأرادهم منه، ولا سيما إذا طال العهد، وبعد الناس عن زمن النبوة، فإنه يعظم الجهل، ويقع الشرك، وتشتد الحاجة إلى بعثة الرسل.

وما زال الأمر كذلك، نبياً بعد نبي، حتى بعث الله خاتم الأنبياء وأفضلهم محمداً ﷺ، بما بعث به الأنبياء قبله من إقامة الدين الخالص لله، ونبذ الشرك

وأهله، وكانت بعثته ﷺ مصدقةً لبشارات الأنبياء قبله به، ومصححة لشرائع الأنبياء التي حرفت وبدلت، وانقلب التوحيد فيها شركاً، والحق باطلاً.

وكان من رسالته ﷺ ودينه الذي بعث به: الإيمان بالأنبياء السابقين، وتعظيمهم، وتصديق رسالاتهم جميعاً، وعدم التفريق في الإيمان بينهم.

ولما كانت رسالته ﷺ متصلة برسالة من قبله من الأنبياء، في الصفة والغاية والشرعية التي جاءوا بها، صار من المهم توضيح ذلك، وبيانه بأدلته، لما فيه من تثبيت المؤمنين، بصدق ما جاء به خاتم الأنبياء والمرسلين، وإرشاد للضالين الذين يفرقون في الإيمان بين الأنبياء، فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، وإقامة للحجة على المعاندين الطاعنين في نبوة سيد المرسلين.

ولتحقيق هذه الأغراض أحببت أن أجمع ما يدل على ما تقدم مما يوضح صلة رسالته ﷺ برسالة إخوانه من الأنبياء والمرسلين من آيات القرآن الكريم، وصحيح السنة النبوية، وفق المنهج التالي:

١ - جمعت المادة العلمية للبحث من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وكلام أهل العلم من كل ما تيسر الوقوف عليه من المصادر والمراجع، ولا سيما كتب الحديث الشريف، وأهمها الكتب الستة، واستعنت بالكتب الجامعة لمتون الأحاديث كجامع الأصول، ومجمع الزوائد، وكنز العمال.



٢- أكثر من الاستدلال بالآيات الكريمة، بحيث صارت في بعض المباحث أكثر من الأحاديث، مع أنه كان مقصودي الأعظم في هذا البحث هو الأحاديث النبوية، وذلك راجع إلى أن باب النبوات قد بسطت أدلته في القرآن لأهميته، وعظم الحاجة إلى بيانه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وبالجملة فتقرير النبوات من القرآن أعظم من أن يشرح في هذا المقام، إذ ذلك هو عماد الدين، وأصل الدعوة النبوية، وينبوع كل خير، وجماع كل هدي)^(١).

٣- عنيت بما ثبت من الأحاديث، واستبعدت ما ضعف واشتد ضعفه، إلا أنني ذكرت في مواضع من البحث بعض الأحاديث الضعيفة منبهاً على ضعفها إما لشهرتها أو لأن ما جاء فيها يعضده مجموع ما جاء في القرآن والسنة والآثار.

٤- خرجت الأحاديث من مصادرها، وبينت درجتها، وحاولت الاختصار ما أمكن، ومتى ما وجدت من سبقني في تخريج الأحاديث المختلف فيها اكتفيت بالعزو إليه.

أفدت من كلام أهل العلم المبثوث في كتب شروح الحديث، وكتب العقائد، وما وقفت عليه من الكتب المعاصرة التي لها تعلق بموضوع البحث.

(١) شرح الأصبهانية ص ٦٩٢.

خطة البحث:

يتكون البحث من مقدمة، وتمهيد، وثلاثة فصول، وخاتمة.

- التمهيد: وفيه تعريف مختصر بالنبوة والأنبياء.
 - الفصل الأول: اتفاق الأنبياء في الصفات والأحوال، وأصول الشرائع.
- وفيه مبحثان:

○ المبحث الأول: اتفاق الأنبياء في الصفات والأحوال، وفيه ثلاثة مطالب:

- المطلب الأول: اتفاق الأنبياء في الصفات الشخصية.
 - المطلب الثاني: اتفاقهم في الصفات النبوية.
 - المطلب الثالث: اتفاقهم في حال الرسالة ومآلها.
- المبحث الثاني: اتفاق الأنبياء في أصول الشرائع، وفيه ثلاثة مطالب:

- المطلب الأول: اتفاقهم على الأمر بالتوحيد.
- المطلب الثاني: اتفاقهم على الأمر بمكارم الأخلاق وجميل الصفات.
- المطلب الثالث: اتفاقهم في أصول العبادات.



• الفصل الثاني: تقديم النبي ﷺ على إخوانه من الأنبياء في الفضل

والتشريع، وفيه أربعة مباحث:

- المبحث الأول: ثبوت فضله ﷺ على سائر الأنبياء.
- المبحث الثاني: نهيه ﷺ عن تفضيله على الأنبياء، وبيان الحكمة في ذلك.

○ المبحث الثالث: فضل أمته ﷺ على سائر الأمم.

○ المبحث الرابع: فضل شريعته على جميع الشرائع.

• الفصل الثالث: ذكر الأنبياء للنبي ﷺ، وذكره ﷺ لهم، وفيه

مبحثان:

- المبحث الأول: علمهم ﷺ ببعثته، وتبشيرهم به.
- المبحث الثاني: ذكره ﷺ للأنبياء قبله، وفيه ثلاثة مطالب:
 - المطلب الأول: أمره ﷺ بالإيمان بهم.
 - المطلب الثاني: ذكره ﷺ لفضائلهم وقصصهم وبيان الحكمة في ذلك.

▪ المطلب الثالث: لقاءه ﷺ بهم.

• الخاتمة:

هذا، وإني معترف بقصور المادة العلمية في هذا البحث بالنسبة لما يستحقه من بسط في الأدلة، وشرح لأحوال الأنبياء وصفاتهم، وتوضيح تفصيلي لكثير من المسائل ووجوه الاستدلال، وهذه الأمر من أهم الصعوبات التي واجهتني في هذا البحث اللطيف الذي حاولت فيه الاختصار قدر المستطاع، والاقتصار على المقصود دون إطناب في العبارة، والتجنب للحشو من الكلام، والاكتفاء بسوق الأدلة إذا كانت دلالتها ظاهرة.

وإني لأرجو أن يكون هذا البحث الذي أقدمه لمؤتمر نبي الرحمة: محمد ﷺ منطلقاً لبحوث أخرى في كل مسألة من مسائله ومباحثه، فإنّ كلاً منها يستحق أن يفرد ببحث مستقل، ولا سيما إذا اعتني ببيان ما في كتب أهل الكتاب مما يصدق ما جاء في الكتاب والسنة من صفة الأنبياء وأحوالهم وشرائعهم، وأخيراً، أسأل الله ﷻ أن لا يحرمني أجر المجتهد في هذا البحث، وأن يخلص نيتي، وأن ينفع بهذا البحث كاتبه وقارئه، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



التمهيد

وفيه تعريف مختصر بالنبوة والأنبياء

الحاجة إلى الرسل:

تفضل الله سبحانه على الخلق بأن أرسل إليهم الأنبياء والرسل، تعريفاً لهم بما ينفعهم في دنياهم وأخراهم، وعقول الخلق لا يمكن أن تهتدي لذلك كله بنفسها، ولا سيما في معرفة الطريق الموصلة إلى رضى الله وجنته، والطريق المؤدي بصاحبه إلى سخط الله ونقمته، ومن ذلك: معرفة الرب سبحانه وتوحيده، وأسمائه وصفاته، وأمره ونهيه، وصفة عبادته، وثوابه وعقابه، وصنيعه في أوليائه وأعدائه، والسعادة والفلاح موقوفة على معرفة ذلك، ولا سبيل إلى معرفتها إلا عن طريق الرسل^(١).

الغاية من إرسال الرسل.

الرسل وسائط وسفراء بين الله وعباده لتعريفهم ما ينفعهم وما يضرهم، وتكميل ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم، فكانت الغاية من إرسال الرسل

(١) للاستزادة يراجع: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٩٣/١٩، ومفتاح دار السعادة

١١٦-١١٧، ولوامع الأنوار للسفاريني ٢/٢٥٦ و ٢/٢٦٠.

هداية الناس لتوحيد الله وعبادته، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطُّغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، ويكون ذلك بتبليغهم شرع الله ووحيه، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ يَلْغِ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢]، ومنه تبشيرهم بالجنة وإنذارهم النار، وبذلك تقوم الحجة على العباد، وينقطع عذرهم بأنهم لم يعرفوا ما يجب عليهم فعله، قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لَعَلَّ يُكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

تعريف النبوة والرسالة.

النبوة لغةً: مشتقة إما من النبأ، وهو الخبر، والنبوة إخبار عن الله ﷻ.
أو من النباوة والنبوة وهي العلو والارتفاع، والنبوة كذلك رفعة وشرف على جميع الخلق.
أو من النبي بلا همز، وهو الطريق، والنبوة دلالة على الطريق الموصلة إلى الله (١).

(١) يراجع: لسان العرب مادة (نبأ) ٦/ ٤٣١٥، ومعجم مقاييس اللغة مادة (نبو، نبأ)

والرسالة لغةً: مشتقة إما من الرّسل، وهو الانبعاث على تّودة.
أو مشتقة من الرّسل وهو التابع، فيكون معنى الرسول الذي يتابع أخبار
من بعثه^(١).

وأما النبوة اصطلاحاً: عرفها ابن عقيل بأنها: (واسطة بين الله وبين خلقه
في الأفعال والتروك المتضمنة لمصالح المكلفين)^(٢)، وعرفها الحليني بأنها: (خبر
خاص يكرم الله ﷻ به أحداً من عباده، فيميزه عن غيره بإيجائه إليه، ويوقفه به
على شريعته بما فيها من أمر ونهي، ووعظ وإرشاد، ووعد ووعد)^(٣)، وقال
القرطبي: (أن يطلع الله من يشاء من خلقه على ما يشاء من أحكامه ووحيه إما
بالمشافهة، وإما بواسطة ملك، أو بإلقاء في القلب)^(٤).

وأما الرسالة فتزيد على النبوة بأن فيها الأمر بتبليغ ما أوحى إلى النبي، وهذا
على التعريف الأشهر للنبي والرسول، وفيه نظر؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ

(١) المفردات مادة (رسل) ص ٣٥٢-٣٥٣، ولسان العرب مادة (رسل) ٣/ ١٦٤٥.

(٢) نقله شيخ الإسلام ابن تيمية في شرح الأصبهانية ص ٧٠٧.

(٣) المنهاج للحليمي ١/ ٢٥٥، وقال: (فإن انضاف إلى هذا التوقيف أمرٌ بتبليغه للناس
ودعائهم إليه كان نبياً رسولاً، وإن أُلقي إليه ليعمل به في خاصته، ولم يؤمر بتبليغه والدعاء
إليه كان نبياً)، ونقله البيهقي وأقرّه في شعب الإيمان ١/ ٢٨٠.

(٤) المفهم ٦/ ١٧.

قَبْلَكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ [الحج: ٥٢] يقتضي أن النبي مأمور بالتبليغ أيضاً.

والخلاف في هذه المسألة مشهور^(١).

ومن أحسن ما ذكر في الفرق بين النبي والرسول: أن الرسول هو المبعوث إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة الله، وأما النبي فهو مرسل إلى قوم مؤمنين يأمرهم بما يعرفون أنه حق، وهو مرسل بشريعة من قبله، وهذا هو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية^(٢).

والنبوة والرسالة فضل من الله يختص بهما من يشاء من عباده، يصطفيهما بوحيه ليبلغوا ما أَرَادَهُ سبحانه لعباده، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، وقال لموسى: ﴿وَأَنَا آخَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ [طه: ١٣]. وعليه؛ فإنهما لا ينالان بكسب العبد وفعله، كاجتهاده في تهذيب نفسه، وتصفية خلقه، بل هي محض اصطفاء واختيار من ربنا سبحانه^(٣).

(١) انظر في هذه المسألة: الشفا للقاضي عياض ١/ ٢٥١، والمفهم للقرطبي ٦/ ١٨٥، وشرح العقيدة الطحاوية ص ١٥٥، ولوامع الأنوار البهية ٢/ ٢٦٥، والتعريفات الاعتقادية ص ١٨٠ و ٣١٤.

(٢) النبوات ٢/ ٧١٤-٧١٨.

(٣) انظر: لوامع الأنوار البهية ٢/ ٢٦٧.



عدد الرسل:

ذكر الله سبحانه في كتابه خمسة وعشرين نبياً ورسولاً، ثمانية عشر منهم
مذكورون في قوله سبحانه: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ^٤ نَرْفَعُ
دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ^٥ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ^٦﴾ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ^٧ كُلًّا هَدَيْنَا^٨
وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ^٩ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ^{١٠} دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ^{١١}
وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ^{١٢} وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ^{١٣} كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ^{١٤}
﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا^{١٥} وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٣-
٨٦]، والسبعة الباقون المذكورون في آيات متفرقة في عدة سور، وهم: آدم،
وإدريس، وهود، وصالح، وشعيب، وذو الكفل، ومحمد ﷺ.

وهم ليسوا محصورين بهؤلاء، بل أهم أكثر من ذلك، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ
أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِّنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ^{١٦}﴾
[غافر: ٧٨].

وورد في أحاديث أن عدة الرسل: ثلاث مائة وبضعة^(١) عشر رسولاً،
وعدة الأنبياء مائة ألف وعشرون ألفاً^(٢)، وأشهر ما ورد فيه حديث أبي ذر -وهو

(١) وفي كثير من طرق أحاديث الباب تعيينها بثلاثة عشر، وفي بعضها: خمسة عشر.

(٢) وفي بعضها: أربعة وعشرون ألفاً.

حديث طويل له طرق -، وموضع الشاهد منه قوله: «قلت: يا رسول الله، كم الأنبياء؟ قال: مائة ألف وعشرون ألفاً. قلت: يا رسول الله، كم الرسل من ذلك؟ قال: ثلاث مائة وثلاثة عشر جمًّا غفيراً. قال: قلت يا رسول الله، من كان أولهم؟ قال: آدم. قلت: يا رسول الله، أنبي مرسل؟ قال: نعم، خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وكلمه قبلاً، ثم قال: يا أبا ذر، أربعة سريانيون: آدم، وشيث، وأخنوخ وهو إدريس، وهو أول من خط بالقلم، ونوح، وأربعة من العرب: هود، وشعيب، وصالح، ونبيك محمد ﷺ. قلت: يا رسول الله، كم كتاباً أنزله الله؟ قال: مائة كتاب وأربعة كتب، أنزل على شيث خمسون صحيفة، وأنزل على أخنوخ ثلاثون صحيفة، وأنزل على إبراهيم عشر صحائف، وأنزل على موسى قبل التوراة عشر صحائف، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والقرآن...» الحديث، وهو حديث ضعيف، وأكثر طرقه ضعيفة جداً^(١).

(١) أخرجه مطولاً ابن حبان في صحيحه ٦٧ / ٢ رقم (٣٦١)، وفي المجروحين ١ / ١٣٠، وأبو نعيم في الحلية ١ / ١٦٦ من طريق إبراهيم بن هشام الغساني عن أبيه عن جده عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر في حديث طويل، وهذا إسناد ضعيف جداً، إبراهيم بن هشام كذبه أبو حاتم -انظر: الجرح والتعديل ٢ / ١٤٢-، وأبو زرعة -انظر: ميزان الاعتدال ١ / ٧٣-.

وله طرق أخرى فيها موضع الشاهد -وهو عدد الأنبياء - لكنها ضعيفة جداً، ولذا لا =



وأجود ما ورد في الباب حديث أبي أمامة، وهو حديث مختصر، فيه عدة الرسل فقط، وذلك فيما أخرجه ابن البخري الرزاز^(١) -ومن طريقه ابن عساكر^(٢) - من حديث أبي أمامة رضي الله عنه: «أن رجلاً قال: يا رسول الله، أنبيأ كان آدم؟ قال: نعم، مكلم. قال: كم بينه وبين نوح؟ قال: عشرة قرون. قال: يا رسول الله، كم كانت الرسل؟ قال: ثلاثمائة وخمسة عشر»^(٣).

=يتقوى بها، ومن أهل العلم من حسنه باعتبار طرق أخرى لم يرد فيها عدد الأنبياء، وللتوسع في تخريجه يراجع السلسلة الصحيحة (٢٦٦٨) والضعيفة (٦٠٩٠)، ومسند أحمد حاشية المحقق طبعة الرسالة ٤٣٢/٣٥، والروض البسام في تخريج فوائد تمام ٤/٢٤٣.

(١) مجموع مصنفات ابن البخري ص ٤٧٨.

(٢) تاريخ دمشق ٧/٤٤٦.

(٣) وإسناد ابن البخري قال: حدثنا عبد الكريم بن الهيثم الديرعاقولي: ثنا أبو توبة -يعني الربع بن نافع- ثنا معاوية بن سلام عن زيد بن سلام أنه سمع أبا سلام يقول حدثني أبو أمامة فذكره، قال الشيخ الألباني: (هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات كلهم ثقات رجال مسلم، غير الديرعاقولي، وهو ثقة ثبت كما قال الخطيب في تاريخه). السلسلة الصحيحة (٢٦٦٨).

قلت: ولم ينفرد به، بل تابعه أحمد بن خلد، أخرجه الطبراني في الكبير (٧٥٤٥) والأوسط (٤٠٣)، قال الهيثمي: (ورجاله رجال الصحيح غير أحمد بن خلد الحلبي وهو ثقة). مجمع الزوائد ٨/٢١٠.

وهذا لا ينافي الآية، لأن المنفي في الآية هو التفصيل، والثابت هو الإجمال^(١)، أو أن المذكورين في الحديث هم ممن قص الله عليه، أو أنه قص عليه الكل بعد نزول تلك الآية^(٢).

=ولذا لا يشكل عليه عدم ذكر أبي حاتم الرازي ومحمد بن عبد الملك بن زنجويه والدارمي في روايتهم للحديث عن أبي توبة زيادة عدد الرسل، ورواية أبي حاتم أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٢٦٩٦/٨ وابن منده في التوحيد (٥٣٨)، ورواية ابن زنجويه أخرجه ابن حبان ٦٩/١٤ رقم (٦١٩٠) قال ابن كثير عن رواية ابن حبان: (هذا على شرط مسلم ولم يخرجاه) البداية والنهاية ٩٤/١، ورواية الدرامي في الرد على الجهمية له ص ١٦٦. ويؤكد ثبوت الزيادة أن إبراهيم بن إسماعيل القارئ رواه عن الدارمي فذكر فيه الزيادة، وإبراهيم أثنى عليه الحاكم وقال: (كان من الصالحين) وقال: (سمع المسند الكبير من عثمان الدارمي)، أخرجه من طريقه الحاكم في المستدرک ٢/٢٦٢، وعنه البيهقي في الأسماء والصفات ١/٥١٧ وابن عساكر في تاريخ دمشق ٧/٤٤٦.

(١) مرقاة المفاتيح ١/١٤١.

(٢) الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمي ص ١٨٠.



الفصل الأول

اتفاق الأنبياء في الصفات والأحوال، وأصول الشرائع

وفيه مبحثان:

- **المبحث الأول: اتفاق الأنبياء في الصفات والأحوال.**
- **المبحث الثاني: اتفاق الأنبياء في أصول الشرائع.**

اييض



تمهيد

الأنبياء صفوة الله ﷻ من خلقه، اختارهم الله سبحانه، وجعل فيهم من الصفات ما يعينهم على أداء رسالتهم، فهم في أعلى كمالات النوع الإنساني، وهم صفوة البشر، وخير الناس، لكمال صفاتهم الخلقية والخلقية، قال القرطبي: (النبوة لم يخلق الله بها إلا أكمل خلقه، وأبعدهم عن النقائص، ثم إنه لما شرفهم بالنبوة حصلت لهم بذلك على جميع نوعهم الخصوصية، فلما كانت النبوة لا يخلق الله بها إلا من حصلت له خصال الكمال أطلق على تلك الخصال: نبوة)^(١).

وكان من الحكمة في ذلك أن يستجيب لهم الناس، ويدعنوا لهم، فالإنسان بطبعه يستجيب ويدعن لمن هو أعلى منه قدراً وشأناً.



المبحث الأول

اتفاق الأنبياء في الصفات والأحوال

وفيه ثلاثة مطالب:

- **المطلب الأول: اتفاق الأنبياء في الصفات الشخصية.**
- **المطلب الثاني: اتفاهم في الصفات النبوية.**
- **المطلب الثالث: اتفاهم في حال الرسالة ومآلها.**

ایض

المطلب الأول

اتفاق الأنبياء في الصفات الشخصية

والمراد بالصفات الشخصية هي الصفات التي توافرت في الأنبياء والرسل ﷺ قبل تكليفهم من ربنا سبحانه بتبليغ رسالته، وهذه الصفات بعضها قدري كوني محض، كشراف النسب، وحسن الخلق، وبعضها مكتسب، كحسن الخلق، وكلا النوعين مبين لوجه اصطفاء الله لهم، قال سبحانه: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وهي أيضاً كاشفة للناس حقيقة صدق الرسول بما علموه من صفات الرسل السابقين، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وقال: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩] (البدع من كل شيء المبدأ، أي: ما أنا بأول رسول، قد بعث الله قبلي كثيراً من الرسل)^(١).

وجماع القول في صفات الرسل أنهم بشر كُمل، ليس فيهم ما يعيبهم في خَلْقِهِمْ أو خُلُقِهِمْ أو عقلهم أو نسبهم أو غير ذلك مما يكون نقيصة عند الناس، فيؤثر في استجابة الناس لهم، ويكون مدخلاً للطعن فيهم.

(١) فتح القدير للشوكاني ٥/ ١٥.

أما كونهم من البشر، فهو أمر ظاهر، منصوص عليه في آيات عدة، قال تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١].

وكونهم من البشر لطف من الله بعباده أن كان الرسول من جنسهم؛ ليفقهوا ويفهموا عنه؛ لتمكنهم من مكالمته ومخاطبته ومشاهدته، وجعله مثلهم يأكل ويشرب ويتزوج وينسى ويخاف ليلم الاقتداء به في كل ذلك، ولو بعث إلى البشر رسولاً من الملائكة لما استطاعوا مواجهته ولا الأخذ عنه^(١)، قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠].

وبذلك يعلم أيضاً أنهم بشر، ليس لهم من صفات الربوبية شيء، فهم يخافون، وتضيق صدورهم، ويمرضون، ويخطئون وينسون، ويموتون، قال تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾

(١) انظر: تفسير ابن كثير ١٢١/٥.



[المائدة: ٧٥]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَلَا يَنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨].

وأما صفات كما لهم فمن أهمها:

(١) الذكورة.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وهذا قول أكثر أهل العلم^(١)، لقوله في الآية: ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾، ومن الحكمة في ذلك: (علو مرتبة الذكورة على الأنوثة، مع طلب عدم الاشتغال مع النساء المطلوب للدعوة، ولكن النفوس مائلة في

(١) وحكي الإجماع عليه. انظر: الجواب الصحيح ٣٤٩/٢، ولا يصح نفي الخلاف فمن أهل العلم من أثبت النبوة لبعض النساء كمریم، وأم موسى، وسارة امرأة الخليل ونحوهم، لما ورد في بعض الآيات من الإخبار بأن الله أوحى إليهم، ويحملون الآية على الرسل، وأما الأنبياء فلا يشملهم لفظ الآية، وهو قول مرجوح، يراجع لمناقشته: تفسير ابن كثير ٤/٤٢٢، فتح الباري ٦/٤٤٧، ٦/٤٧٣، لوامع الأنوار البهية ٢/٢٦٥، الرسل والرسالات ص ٨٤.

ذواتهن بحسب الطبع، فيغفلون عن مقالهن^(١).

٢) شرف النسب.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «سئل رسول الله ﷺ: من أكرم الناس؟ قال: أنقاهم الله. قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: فأكرم الناس: يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله». متفق عليه^(٢)، وأخرجه الترمذي بلفظ: «إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم» قال: «ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف ثم جاءني الرسول أجبت»، ثم قرأ: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٥٠]، قال: «ورحمة الله على لوط إن كان ليأوي إلى ركن شديد، إذ قال: ﴿لَوْ أَنِّي لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْءَاوَيْتُ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠]، فما بعث الله من بعده نبياً إلا في ذروة من قومه» ثم أخرجه من وجه آخر بلفظ: «ثروة»، وقال: هذا أصح^(٣).

(١) لوامع الأنوار البهية ٢/ ٢٦٧.

(٢) أخرجه البخاري كتاب أحاديث الأنبياء باب قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٍ لِّلسَّابِقِينَ﴾ ٦/ ٤١٧ رقم (٣٣٨٣)، ومسلم في كتاب الفضائل باب من فضائل يوسف ﷺ ٤/ ١٨٤٦ رقم (٢٣٧٨).

(٣) أخرجه الترمذي كتاب تفسير القرآن باب «ومن سورة يوسف» ٥/ ٢٩٣ رقم (٣١١٦)=



=من طريق الفضل بن موسى عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة مرفوعاً، ثم أسنده من طريق عبدة وعبد الرحيم عن محمد بن عمرو باللفظ الثاني، وقال: «قال محمد بن عمرو: الثروة: الكثرة والمنعة» ثم قال الترمذي: (وهذا أصح من رواية الفضل بن موسى، وهذا حديث حسن)، ووجه ترجيح لفظ: (ثروة) بالثاء المثلثة أنه رواية الأكثر عن محمد بن عمرو، منهم: عبدة وعبد الرحيم بن سليمان كما تقدم عند الترمذي، ومحمد بن بشر عند أحمد ٢/ ٣٣٢ رقم (٨٣٩٢) وابن حبان ١٤/ ٨٧ رقم (٦٢٠٧)، وحامد بن سلمة عند أحمد ٢/ ٣٨٤ رقم (٨٩٧٨) والحاكم ٢/ ٥٦١، وعبد الوهاب عند البزار ١٤/ ٣٠٦ رقم (٧٩٣٤)، وخالد عند مسدد في مسنده -انظر: إتحاف الخيرة المهرة ٦/ ٤٧٥-، ومحمد بن خالد الوهبي عند تمام في الفوائد ٤/ ٢٥٤، ومحمد بن كثير وسليمان بن بلال عند ابن جرير في تفسيره ١٥/ ٤٢٠، وأبو أسامة في تاريخ دمشق ٥٠/ ٣١٢، ولم أقف على من تابع على الفضل بن موسى على روايته، ويؤيد رواية الأكثر الزيادة التي عزاها الحافظ في الفتح ٦/ ٤١٦ لابن مردويه: (ألم تر إلى قول قوم شعيب: ولولا رهطك لرجمناك)، والرهط العشيرة الذين يتقوى بهم، وفي لفظ عند أحمد (١٠٩٠٣) من رواية حماد: (منعة من قومه). وقوله: (فما بعث الله نبياً...) زيادة زادها محمد بن عمرو، وهو صدوق له أوهام، إلا أن هذه الزيادة يشهد لها القرآن والسنة وآثار السلف، ومنها ما لم يتقدم ذكره:

- قوله تعالى في قصة شعيب على لسان قومه: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْتَكَ﴾ [هود: ٩١].

- حديث أنس مرفوعاً: «نحن أحق بالشك من إبراهيم، إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُنْخِئُ الْمَوْتَى﴾ قَالَ أُولَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَئِنْ لَيُطَمِّئَنَّ عَلَيَّ» [البقرة: ٢٦٠]، ويرحم الله يوسف، لو لبثت في السجن، يعني ما لبث يوسف، ثم أتاني الداعي لأجبت، ويرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد، وما بعث الله نبياً من بعده إلا في ثروة من قومه» أخرجه ابن الأعرابي في=

ومعنى ذُرْوَة -بضم الذال وكسرها-: أي: أعلى نسب قومه، وأما الثروة: فهي هنا: العز والمنعة لكثرة العشيرة^(١).

والرسل بعد نوح ﷺ كلهم من ذريته، وكلهم بعد إبراهيم من ذرية إبراهيم ﷺ، فنسب الأنبياء أشرف نسب وأعلاه.

=المعجم رقم (١٨٤١)، وفي سننه ابن أبي أويس ووالده فيها كلام من جهة حفظها، وقد تفردا به من هذا الوجه فيما وقفت عليه، وفيه أيضاً انقطاع: الزهري لم يسمع من أنس.
- أثر ابن عباس: «ما بعث الله نبياً بعد لوط إلا في عزٍّ من قومه»، أخرجه سعيد بن منصور في سننه ٣٥٨/٥، وفي سننه أبو سعد البقال، وهو ضعيف.
- قول قتادة: «لم يبعث الله نبياً إلا في ثروة من قومه بعد لوط، بعث الله محمداً في ثروة من قومه، وقال قوم شعيب: ﴿وَلَوْلَا زَهْطُكَ لَرَجَمْتَكَ﴾». أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٣٥١/٢ عن معمر عنه.

- وفي الباب أيضاً حديث ابن عباس في الصحيح في قصة أبي سفيان مع هرقل، وفيه قول هرقل للترجمان: «قل له: سألتك عن نسبه؛ فذكرت أنه فيكم ذو نسب؛ فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها»، وسيأتي تحريجه.

- ما أخرجه ابن سعد في الطبقات ٢٥/١ عن قتادة: قال: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال: «إن الله إذا أراد أن يبعث نبياً نظر إلى خير أهل الأرض قبيلةً، فيبعث خيرها رجلاً»، وهذا مرسل أو معضل.

(١) انظر: النهاية لابن الأثير ٢١٠/١، وتحفة الأحوذى ٥٢٠/٨.



وأما نبينا محمد ﷺ فشرف نسبه أشهر من أن يذكر، ولقد اصطفاه الله خياراً من خيار، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] قُرئت بفتح الفاء، من النفاسة، أي: من أشرفكم وأعزكم^(١).

وعن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»^(٢).

٣) كمال الخلقة.

فالله سبحانه برأهم ونزههم من النقائص والعيوب التي تنفر عنها الطباع، كالبرص والجذام، أو التي يتعايب بها الناس، أو تحول دون تبليغهم الرسالة، كالعور والعرج والبكم، ولئلا يكون لأعداء الرسل عليهم مدخل للطعن فيهم،

(١) البحر المحيط لأبي حيان ١٢١/٥.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل باب فضل نسب النبي ﷺ ١٧٨٢/٤ رقم (٢٢٧٦)، وأخرجه الترمذي في كتاب المناقب باب في فضل النبي ﷺ ٥٨٣/٥ رقم (٣٦٠٥) وأحمد ١٠٧/٤ رقم (١٦٩٨٧) بزيادة في أوله هي قوله: «إن الله ﷻ اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل»، قال الترمذي: (حديث حسن صحيح)، وفي إسنادهما محمد بن مصعب القرقيساني وهو كثير الغلط، وأفرانه ممن رواه عن الأوزاعي لم يذكروا هذه الزيادة.

قال القرطبي: (ولذلك لم يُسمع أنه كان في الأنبياء والرسل مَنْ خلقه الله تعالى أعمى، ولا أعور، ولا أقطع، ولا أبرص، ولا أجذم، ولا غير ذلك من العيوب والآفات التي تكون نقصاً ووصماً يوجب لمن اتصف بها شيئاً وذماً، ومن تصفح أخبارهم وعلم أحوالهم على ذلك على القطع)^(١).

وحاول أعداء الأنبياء قديماً وحديثاً تشويه صورة الأنبياء باتهامهم بما ليس فيهم، فتولى الله الدفاع عنهم، وبرأهم من ذلك، وبعث نبينا محمداً ﷺ مكدباً لهذه الافتراءات، ومبيناً صفة إخوانه الأنبياء الحقّة الدالة على صدق رسالتهم جميعاً.

ومن ذلك ما فعله اليهود مع موسى ﷺ فيما أخبر به نبينا محمد ﷺ إذ قال: «إن موسى كان رجلاً حياً، سِتيراً، لا يرى من جلده شيء استحياء منه»^(٢).

(١) المفهم ١٨٩/٦.

(٢) وستر العورات من صفات الأنبياء، وقارن هذا بما حصل لنبينا محمد ﷺ أخرجه الشيخان عن جابر بن عبد الله ﷺ أنه حدث أن رسول الله ﷺ كان ينقل معهم الحجارة للكعبة، وعليه إزاره، فقال له العباس عمه: «يا ابن أخي، لو حللت إزارك، فجعلت على منكبيك دون الحجارة»، قال: «فحلّه، فجعلته على منكبيه، فسقط مغشياً عليه، فما رئي بعد ذلك عرياناً ﷺ». صحيح البخاري كتاب الصلاة باب كراهية التعري في الصلاة وغيرها ٤٧٤/١ رقم (٣٦٤)، وصحيح مسلم كتاب الحيض باب الاعتناء بحفظ العورة =

فآذاه من آذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده إما برص، وإما أذرة^(١)، وإما آفة، وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى، فخلا يوماً وحده، فوضع ثيابه على الحجر، ثم اغتسل فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه، وطلب الحجر فجعل يقول: «ثوبي حجر، ثوبي حجر»، حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل، فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله، وأبرأه مما يقولون، وقام الحجر، فأخذ ثوبه فلبسه، وطفق بالحجر ضرباً بعصاه، فوالله إن بالحجر لندباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً، فذلك قوله: ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ [الأحزاب: ٦٩]^(٢)، فدللت الآية والحديث على تحريم أذية الأنبياء بنسبتهم إلى ما يعيبهم، وأن الله مبرئهم من ذلك. قال ابن حجر في شرحه لهذا الحديث: (فيه أن الأنبياء في خَلْقِهِمْ وَخُلُقِهِمْ في غاية الكمال، وأن من نسب نبياً إلى نقص في خلقته فقد آذاه،

= ٢٦٧ / ١ رقم (٣٤٠).

(١) بضم الهمزة وسكون الدال على المشهور - وحكي في ضبطه غير ذلك -: نفخ في الخصيتين.

انظر: إرشاد الساري ٣٩١ / ٧.

(٢) أخرجه البخاري كتاب أحاديث الأنبياء ٤٣٦ / ٦ رقم (٣٤٠٤)، واللفظ له، ومسلم كتاب

الحیض باب جواز الاغتسال عرياناً في الخلوة ٢٦٧ / ١ رقم (٣٣٩) من حديث أبي هريرة.

ويخشى على فاعله من الكفر^(١).

وقد وصف نبينا محمد ﷺ الأنبياء حين عرضوا عليه ورآهم في الإسراء بأكمل وصف وأحسن خلق، فقال ﷺ: «عرض علي الأنبياء؛ فإذا موسى ضَرْبٌ من الرجال، كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى ابن مريم ﷺ، فإذا أقرب من رأيت به شبهاً عروة بن مسعود، ورأيت إبراهيم -صلوات الله عليه-، فإذا أقرب من رأيت به شبهاً صاحبكم، يعني نفسه» الحديث أخرجه مسلم من حديث جابر^(٢). ووصف عيسى ﷺ حين رآه في منامه عند الكعبة بقوله: «فرأيت رجلاً آدم، كأحسن ما أنت راء من آدم الرجال، له لمة كأحسن ما أنت

(١) فتح الباري ٦/ ٤٣٨، وقال القاضي عياض في الشفا ٢/ ٣٠٢: (وحكم من سب سائر أنبياء الله تعالى وملائكة واستخف بهم، أو كذبهم فيما أتوا به، أو أنكرهم وجحدهم حكم نبينا ﷺ)، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في الصارم المسلول ٣/ ١٠٤٨: (و الحكم في سب سائر الأنبياء كالحكم في سب نبينا، فمن سب نبياً مسمى باسمه من الأنبياء المعروفين كال المذكورين في القرآن، أو موصوفا بالنبوة- مثل أن يذكر حديثاً أن نبياً فعل كذا، أو قال كذا، فيسب ذلك القائل، أو الفاعل، مع العلم بأنه نبي، وإن لم يعلم من هو، أو يسب نوع الأنبياء على الإطلاق- فالحكم في هذا كما تقدم، لأن الإيمان بهم واجب عموماً، وواجب الإيمان خصوصاً بمن قصه الله علينا في كتابه، وسبهم كفر وردة إن كان من مسلم، ومحاربة إن كان من ذمي).

(٢) صحيح مسلم كتاب الإيمان باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات ١/ ١٥٣ رقم (١٦٧).



راءٍ من اللحم، قد رجّلها، فهي تقطر ماءً... فسألت: من هذا؟ ف قيل: هذا هو المسيح بن مريم^(١).

وكان ﷺ من أجمل الناس وأحسنهم، شبهه من رآه بالشمس، والقمر، لحسن صورته، ووفور هيئته، وتفصيل صفته ﷺ مبسوطه في كتب السيرة والشئال، قال الصحابي الجليل البراء بن عازب: «كان رسول الله ﷺ رجلاً مربوعاً بعيد ما بين المنكبين، عظيم الجمّة إلى شحمة أذنيه، عليه حلّة حمراء، ما رأيت شيئاً قط أحسن منه ﷺ» متفق عليه^(٢)، ووصفه أنس رضي الله عنه بأنه حسن الوجه، وقال: «لم أر بعده ولا قبله مثله». أخرجه البخاري^(٣).

-
- (١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان باب ذكر المسيح ابن مريم ١٥٤ / ١ رقم (١٦٩).
ومما ورد في هذا المعنى قول أنس: «ما بعث الله نبياً إلا حسن الوجه، حسن الصوت، وكان نبيكم ﷺ أحسنهم وجهاً، وأحسنهم صوتاً» أخرجه ابن عدي في الكامل ٨٣٨ / ٢، وأبو بكر الشافعي في الغيلانيات ٥٤٦ / ١، وفي إسناده حسام بن مصكّ، قال ابن حجر: (ضعيف يكاد يترك)، وأخرجه الترمذي في الشئال رقم (٣٠٣) من هذا الوجه من قول قتادة، وهو الصواب كما قال الدارقطني في العلل ١٥٩ / ١٢.
- (٢) صحيح البخاري كتاب اللباس باب الجعد ٣٥٦ / ١٠ رقم (٥٩٠١)، وصحيح مسلم كتاب الفضائل باب في صفة النبي ﷺ ١٨١٨ / ٤ رقم (٢٣٣٧).
- (٣) صحيح البخاري ٣٥٧ / ١٠ رقم (٥٩٠٧).

واختص النبي ﷺ بوصف خَلْقِي دال على نبوته، كان أهل الكتاب يعرفون نبوته به، وأسلم بعضهم عند رؤيته، وهي خاتم النبوة الذي بين كتفيه، وفيه أحاديث كثيرة، وذكر القرطبي أنه يؤخذ من مجموعها أنه كان نتوءاً قائماً أحمر تحت كتفه الأيسر، قدره إذا قُلِّل: بيضة الحمامة، وإذا كُثِّر: جمع اليد^(١).

٤) وفور العقل، وحسن الخلق.

وفي القرآن والسنة الثناء العاطر على رسل الله باتصافهم بذلك، ومن أمثلته في القرآن: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١]، قال القرطبي: (أي: قبل النبوة)^(٢)، وقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥]، وفي موسى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنْ آسْتَجَرْتَ الْقَوَى الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، وقال: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ [الأحزاب: ٦٩]، وفي قصة يوسف المذكورة في القرآن شواهد لعفته وقوته وأمانته، وحاز نبينا محمد ﷺ من ذلك أعلى الأوصاف وأكملها بحيث شهد له ربنا سبحانه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وسئلت عائشة رضي الله عنها عن خلقه ﷺ فقالت: «كان خلقه القرآن»^(٣)، قال ابن كثير: (ومعنى هذا

(١) المفهم ١٠٣/٦، وانظر: فتح الباري ٥٦١/٦.

(٢) تفسير القرطبي ٢٩٦/١١.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب جامع صلاة الليل ٥١٢/١.



أنه ﷺ صار امتثال القرآن، أمراً ونهياً، سجية له، وخلقاً تطبَّعه، وترك طبعه الجبلي، فمهما أمره القرآن فعله، ومهما نهاه عنه تركه، هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم، من الحياء والكرم والشجاعة، والصفح والحلم، وكل خلق جميل^(١). قلت: وقول عائشة رضي الله عنها يقتضي أن كل خلق كريم وصف به الأنبياء في القرآن فهو من أخلاق النبي ﷺ.

وأخلاق النبي ﷺ الفاضلة وشماله الكريمة كثيرة صنفت فيها كتب كثيرة^(٢)، وكان كرم خلقه ﷺ سبباً في إسلام كثير ممن عاداه وآذاه.

قال القاضي عياض واصفاً حسن خلقه ﷺ: (وكان فيما ذكره المحققون مجبولاً عليها في أصل خلقته، وأول فطرته، لم تحصل له باكتساب، ولا رياضة، إلا بجلود إلهي، وخصوصية ربانية، وهكذا لسائر الأنبياء، ومن طالع سيرهم منذ صباهم حقق ذلك، كما عُرف من حال عيسى وموسى ويحيى وسليمان وغيرهم

رقم (٧٤٦).

(١) تفسير ابن كثير ٨/ ١٨٩.

(٢) ومن أهم ما صنف فيها كتاب الشئال للإمام الترمذي، وكتاب أخلاق النبي ﷺ لأبي الشيخ الأصبهاني وهو مطبوع في خمس مجلدات، ومن الكتب المعاصرة: نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم مطبوع في اثني عشر مجلداً، وفيه توسع بذكر فضائل تلك الأخلاق.

ﷺ، بل غرزت فيهم هذه الأخلاق في الجبل، وأودعوا العلم والحكمة في الفطرة^(١).

وقال أبو نعيم: (إن الأحسن في سير الملوك، والأحمد في حكمهم أنهم لا يرسلون مبلغاً عنهم إلا الأفضل، المستقل بأثقال الرسالة)، ثم قال: (فالله الحكيم لا يختار للرسالة إلا المتقدم على المبعوث إليهم، المزين بكل المناقب، ولهذا لم يوجد نبي قط به عاهة في بدنه، أو اختلاط في عقله، أو دناءة في نسبه، أو رداءة في خلقه، وإليه رجع قوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤])^(٢).

وتتبع الصفات الفاضلة التي كان عليها الرسل الكرام أمر يطول^(٣)، ولا

(١) الشفا ٩٧ / ١.

(٢) دلائل النبوة ص ٣٤.

(٣) ذكر الشيخ عبد العزيز السدحان في رسالته النافعة: «من أخلاق الأنبياء» عشرين خلقاً من أخلاقهم، وذكر أدلتها من الكتاب والسنة، فليراجعها من أراد الاستزادة، ومما ذكره من الصفات: (خشيتهم لله ﷻ، أديهم مع الله، تركهم الانتقام لأنفسهم، شكرهم لله، مسارعهم في الخيرات، وفاؤهم بالعهد، بر الوالدين، حرصهم على أولادهم وأهلهم ووالديهم، تحملهم لأسئلة الناس، ورعهم وحذرهم من القول على الله بلا علم، إكرام الضيف، رحمتهم بأقوامهم، لزومهم ﷺ لما يأمرون به، استمرار دعوتهم للمخالف، استمرار عنايتهم بمن تبعهم، تحملهم أذية أقوامهم، عدم شتماتهم بالعصاة إذا عوقبوا، =



تجد في ما ورد في القرآن والسنة من قصص الأنبياء والرسل أن أقوامهم قد عابوهم بشيء من القبائح أو الرذائل مع شدة عداوتهم، بل قال قوم صالح: ﴿قَالُوا يَنْصَلِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ [هود: ٦٢] أي: نرجو أن تكون سيداً^(١)، وقال قوم شعيب: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]^(٢)، ولكني أذكر بعض صفاتهم الحميدة، وهي تدل على باقي الصفات، فمنها:

(١) الأمانة، وهي من أعظم الصفات، لأنه لا يمكن تبليغ الرسالة على وجهها إلا بالأمانة، وقد أخبر الله عن رسله: نوح وهود وصالح ولوط وشعيب أنهم قالوا لأقوامهم: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء: ١٠٧، ١٢٥، ١٤٣، ١٦٢،

=حرصهم على البعد عن أسباب الجهالة، حرصهم على التزود من العلم، عظيم ثقتهم بالله ﷻ، ومن تأمل سيرة الأنبياء واشتراكهم في هذه الصفات جزم بأنهم يصدرون من مورد واحد، ويبتدون بهدي واحد، وأنهم إخوة يشبه بعضهم بعضاً في الصفات والشرائع، وأن رسالة خاتمهم امتداد لرسالتهم وتصحيح لما نسب لها من تحريف وباطل.

(١) تفسير الجلالين ص ٢٢٨، وقال السعدي: (أي: قد كنا نرجوك ونؤمل فيك العقل والنفع، وهذا شهادة منهم لنبيهم صالح: أنه ما زال معروفاً بمكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم، وأنه من خيار قومه). تيسير الكريم الرحمن ص ٤٣٢.

(٢) انظر: تفسير القرطبي ٨٧/٩، وفي الآية قول آخر وهو أنهم قالوا ذلك على جهة الاستهزاء، والقول الأول أوجه، وأما القول الثاني فمحملة على سيأتي من أن من عادة الصادين عن دعوة الرسل الطعن فيهم بالسفه والجنون كذباً وبهتاناً، وستأتي الإشارة إلى ذلك.

[١٧٨]، وقال الملك ليوسف: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤]، وفي حديث سعد بن أبي وقاص لما قالوا للنبي ﷺ: «ما ندري يا رسول الله ما في نفسك، ألا أوامأت إلينا بعينك؟» قال: «إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين»^(١)، قال الخطابي: (معنى خائنة الأعين: أن يضمر بقلبه غير ما يظهره للناس فإذا كف بلسانه وأوماً بعينه إلى خلاف ذلك فقد خان، وكان ظهور تلك الخيانة من قبل عينيه فسميت خائنة الأعين)^(٢).

وكان نبينا محمد ﷺ معروفاً بالأمانة قبل أن يبعث بحيث كان يسمونه: «الأمين»^(٣)، وفي حديث أم سلمة في هجرة الحبشة أن جعفرأ قال للنجاشي ملك الحبشة: «حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه»^(٤).

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٤٣٥٩) والنسائي (٤٠٦٧)، والبيهقي ٨٥ / ١٠، وسنده حسن

بشواهده، انظرها في كشف الغمة ص ٢٢٥-٢٢٦.

(٢) معالم السنن ٢ / ٢٨٧.

(٣) أسنده ابن إسحاق ٢ / ٨٨ في سيرته، وفي سنده جهالة وانقطاع، لكن له شواهد عدة تؤكد

ثبوته انظرها في السيرة النبوية الصحيحة ١ / ١١٦، وصحيح السيرة النبوية ١ / ١٨١

و ٣١٢ / ١.

(٤) أخرجه أحمد ١ / ٢٠٢ رقم (١٧٤٠) من طريق ابن إسحاق عن الزهري عن أبي بكر بن

عبد الرحمن عن أم سلمة، وهذا إسناد حسن، وهو في السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٣٥٧ =



(٢) الصبر، وهو من الصفات الملازمة للأنبياء، لأنهم أشد الناس بلاءً، ومن أعظم ما يبتلون به أذى أقوامهم لهم، قال سبحانه: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]^(١)، وقال: ﴿وَاسْمَعْ عِلَّ وَإِذْ رِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥]، وقال عن أيوب: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤]، وهكذا في آيات كثيرة، وهكذا كان نبينا محمد ﷺ فقد صبر

=من طريق ابن إسحاق، وأخرجه من هذا الوجه أيضاً: أبو نعيم في الحلية ١/ ١١٥، والبيهقي في دلائل النبوة ٢/ ٣٠١.

(١) ومن أهل العلم من يجعل من بيانية، فيكون المقصود بأولي العزم جميع الرسل، قال ابن زيد: (كل الرسل كانوا أولي عزم، لم يبعث الله نبياً إلا كان ذا عزم وحزم ورأي وكمال عقل، وإنما أدخلت من للتجنيس لا للتبعض كما يقال: اشترت أكسية من الخبز، وأردية من البز). انظر: تفسير ابن كثير ٧/ ٣٠٥، ولوامع الأنوار ٢/ ٢٩٩.

وفي الباب حديث عائشة ؓ قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «يا عائشة، إن الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد، يا عائشة، إن الله لم يرض من أولي العزم إلا بالصبر على مكروهاها، والصبر عن محبوبها، فلم يرض إلا أن كلفني ما كلفهم، فقال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وإني والله لا بد لي من طاعته، والله لأصبرن كما صبروا، ولأجهدن كما جهدوا، ولا قوة إلا بالله»، أخرجه ابن أبي حاتم -انظر: تفسير ابن كثير ٧/ ٣٠٥ وعنه أبو الشيخ في أخلاق النبي ﷺ ٤/ ١٨٢-، والبغوي في شرح السنة ١٤/ ٢٤٧ كلهم من طريق مجالد بن سعيد عن الشعبي عن مسروق به، ومجالد بن سعيد ضعيف.

على الأذى الشديد المستمر من قومه رجاء هدايتهم، حتى شجوه يوم أحد وكسروا رباعيته وحاولوا قتله، وسألته عائشة رضي الله عنها فقالت: «يا رسول الله، هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ فقال: لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال^(١)، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب^(٢)، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت، فإذا فيها جبريل، فناداني، فقال: إن الله ﷻ قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال، لتأمره بما شئت فيهم، قال: فناداني ملك الجبال، وسلم علي، ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك، لتأمرني بأمر، فما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال له رسول الله ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً^(٣).

(١) اسم رجل من أكابر أهل الطائف، من ثقيف. انظر فتح الباري ٦/ ٣١٥.

(٢) قرن الثعالب: هو قرن المنازل، وهو ميقات أهل نجد، وهو على مرحلتين من مكة، وهو موضع معروف. انظر: شرح مسلم للنووي ١٢/ ١٥٥.

(٣) أخرجه البخاري كتاب بدء الخلق باب إذا قال أحدكم آمين... ٦/ ٣١٢ رقم (٣٢٣١)، =



وصفة الصبر صفة ملازمة للأنبياء، يقتدي المتأخر منهم بالمتقدم، ويتعزى بها حين يرى أذى قومه، ولما أودى ﷺ تذكر حال أخيه موسى ﷺ فقال: «يرحم الله موسى، لقد أودى بأكثر من هذا فصبر»^(١).

(٣) الشفقة والرحمة، بحيث كان الأنبياء ﷺ يرأفون بأقوامهم، ويخافون عليهم من عذاب الله، ويبدلون غاية جهدهم في هدايتهم، ويصبرون على أذاهم، رحمة بهم، وشفقة عليهم، مكث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم ويرجو نجاتهم من النار، ولما علم إبراهيم بنزول العذاب على قوم لوط أشفق على من آمن منهم، ولا سيما لوط ﷺ فصار يجادل الملائكة في ذلك، قال سبحانه مخبراً عن هذه القصة: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [٧٦] إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٧﴾ يَتَّبِعُهُمُ الْغَايَةُ أَعْرَضَ عَنْ هَٰذَا ﴿٧٨﴾ [هود: ٧٤-٧٦]، وعن عبد الله بن مسعود قال: «كأني أنظر إلى النبي ﷺ يحكي

=ومسلم في كتاب الجهاد والسير باب اشتداد غضب الله على من قتله رسول الله ﷺ
٣/ ١٤٢٠ رقم (١٧٩٥).

(١) أخرجه البخاري كتاب فرض الخمس باب ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلف قلوبهم وغيرهم من الخمس وغيره ٦/ ٢٥١ رقم (٣١٥٠) ومسلم كتاب الزكاة باب إعطاء المؤلف قلوبهم ٢/ ٧٣٩ رقم (١٠٦٢).

نبياً من الأنبياء ضربه قومه، فأدموه، وهو يمسح الدم عن وجهه، ويقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»^(١).

وكان من كمال شفقة النبي ﷺ بأمة وعنايته بمصالحهم أن آخر دعوته لأمة إلى يوم القيامة، وهو أهم وقت يحتاجون فيه إلى هذه الدعوة^(٢)، وتعجل كل نبي دعوته، كما ثبت في حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «لكل نبي دعوة مستجابة، وإنني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي في الآخرة»، أخرجه الشيخان، وفي لفظ لمسلم: «فتعجل كل نبي دعوته»^(٣).

وفي سيرته ﷺ عبر ومواقف تشهد لعظيم عطفه على الناس، ورحمته بهم، وحرصه على هدايتهم، وهو ما لا يكون لبشر غيره، وأعظم ما يبين ذلك شهادة ربنا سبحانه له بذلك، وجعلها سبباً من موجبات إرساله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ

(١) أخرجه البخاري كتاب أحاديث الأنبياء باب حديث الغار ٥١٤ / ٦ رقم (٣٤٧٧)، ومسلم كتاب الجهاد والسير باب غزوة أحد ١٤١٧ / ٣ رقم (١٧٩٢).

(٢) انظر: شرح مسلم للنووي ٣ / ٧٥.

(٣) صحيح البخاري كتاب الدعوات باب لكل نبي دعوة مستجابة ٩٦ / ١١ رقم (٦٣٠٤)، وصحيح مسلم كتاب الإيمان باب اختباء النبي ﷺ دعوة الشفاعة لأمة ١ / ١٨٩ رقم (١٩٩).



مَنْ أَنْفُسَكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿

[التوبة: ١٢٨] (١).

٤) العفة، وهي من خير ما يتمدح به، وضدها الفحشاء شر ما يذم به، وهي من أخلاق الأنبياء جميعاً، وقص الله علينا قصة النبي يوسف ﷺ مفصلة، ومن أبرز معالمها تعففه التام وهو شاب مع قوة الداعي لما راودته امرأة العزيز خالياً فقال: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَقْوَايَ﴾ [يوسف: ٢٣]، وهكذا كانت سيرة الأنبياء جميعاً.

بل حفظ الله زوجاتهم من أن يقعن في فاحشة، وفهم بعضهم من قوله تعالى عن امرأة نوح وامرأة لوط: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠] فهما باطلاً، وهو أنه الخيانة في الفراش، قال ابن كثير: (أي: خانتاهما في الدين فلم تتبعاهما فيه، وليس المراد أنها كانتا على فاحشة، حاشا وكلا؛ فإن الله لا يُقَدَّرُ على نبي قط أن تبغي

(١) ورد في حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: (إنما أنا رحمة مهداة)، وهو حديث مشهور، ولم أذكره لضعفه، لأن الراجح فيه الإرسال، وهو اختيار البخاري فيما نقله الترمذي في العلل ص ٣٦٩، والدارقطني في العلل ١٠/١٠٥، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٩٠)، ولم يذكر ﷺ إعلال البخاري والدارقطني، والظاهر أنه لم يطلع عليه، وأما معنى الحديث فهو ثابت بالآية.

امراته، كما قال ابن عباس وغيره من أئمة السلف والخلف: «ما بغت امرأة نبي قط»^(١)، ومن قال خلاف ذلك فقد أخطأ خطأ كبيراً، قال الله تعالى في قصة الإفك لما أنزل براءة أم المؤمنين عائشة بنت الصديق زوج الرسول ﷺ حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، فعاتب الله المؤمنين، وأنّب وزجر، ووعظ وحذّر، وقال فيها قال: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥-١٦] أي: سبحانك أن تكون زوجة نبيك بهذه المثابة^(٢).

وكما عصم الله زوجة نبينا محمد ﷺ من هذه القبائح والمعائب، فقد حفظ الله سارة امرأة إبراهيم عليه السلام حين أرادها بسوء جبار من الجبابرة فحفظها الله منه، وذلك فيما قصه علينا نبينا محمد ﷺ^(٣).

(١) تراجع الآثار الواردة عن السلف في هذا المعنى: تفسير ابن جرير ٣٤٣/١٥ و٢٣/٤٩٨، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة ١٤٣٧/٨، والدر المنثور ٧٧/٨.

(٢) البداية والنهاية ٤٢٢/١.

(٣) أخرج البخاري كتاب البيوع باب شراء المملوك من الحربي وهبته وعتقه ٤/٤١٠ رقم (٢٢١٧)، ومسلم كتاب الفضائل باب من فضائل إبراهيم الخليل عليه السلام ٤/١٨٤٠ رقم =

ويوجد في كتب أهل الكتاب نسبة بعض الفواحش لبعض الأنبياء أو لزوجاتهم، وهو كذب وافتراء، ففي التوراة المحرّفة الموجودة بأيدي اليهود اتهم إبراهيم أنه تاجر بزوجه، وقدمها للملك، وفيها أن لوطاً سكر وزنى بابتتيه، وفيها أن داود عشق جارتة وزنى بها ودبر قتل زوجها، وغير ذلك من الأباطيل التي يشهد القرآن والسنة بكذبها، وتشهد العقول والفطر السليمة باستحالتها^(١).

وإنما ينسب ذلك للأنبياء من هو عدو مبغض لهم، ويريد أن يصد الناس عن دعوتهم، كما فعل ذلك خصوم الأنبياء في عصورهم باتهامهم في عقولهم، مع أنهم أكمل الناس عقلاً وحكمة ورشداً، وإنما يفعلون ذلك عندما تعجزهم الحيلة في رد ما جاءت به الرسل، وقد أخبر سبحانه أن هذه طريقة جميع خصوم الرسل، قال سبحانه: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢]، وقال عن نبينا محمد ﷺ: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ٢].

= (٢٣٧١).

(١) انظر نهاذج لذلك في كتاب الكتب السماوية وشروط صحتها ص ٢٧٥-٢٨٢، والرسل والرسالات ص ١٠٥.

قلت: وشتان ما بين الصفة السيئة المنسوبة للأنبياء في الأناجيل والتوراة التي بأيدي اليهود والنصارى، وبين صفة الأنبياء الحقّة الفاضلة التي وردت عن النبي ﷺ.

والخلاصة أنه ﷺ وإخوانه من الأنبياء قد حازوا من مكارم الأخلاق وجميل الخصال أفضلها وأعلاها، وهي من دلائل صدقهم، وعلامات نبوتهم، ولذا لما ابتدأ الوحي على النبي ﷺ، وجاءه الملك، وراعه ذلك، أخبر زوجه خديجة بنت خويلد ﷺ، وكانت ممن كمل عقلهنّ، فقالت: «كلا، والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق» متفق عليه^(١)، فجزمت بأن الله لا يخزيه، لما علم من سنة الله: أنّ من جبلة الله على الأخلاق المحمودة، ونزّهه عن الأخلاق المذمومة، فإنه لا يخزيه^(٢).

(١) صحيح البخاري كتاب بدء الوحي باب كيف بدأ الوحي إلى رسول الله ﷺ ١ / ٢٢ رقم (٣)، وصحيح مسلم كتاب الإيمان باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ١ / ١٣٩ رقم (١٦٠).

(٢) انظر: شرح الأصفهانية ص ٥٤٨.



المطلب الثاني

اتفاقهم في الصفات النبوية

والصفات النبوية هي صفات آتاها الله الأنبياء مع نبوتهم، واختصوا بها عن سائر الناس.

ومن الحكمة في منحهم إياها: الإعانة على تبليغ الدعوة والرسالة، ومنها: تمييز الأنبياء عن غيرهم من المدعين الكاذبين، ومنها: فضائل أكرمهم الله جزاءً على أعمالهم، وغير ذلك.

ومن هذه الصفات التي يشترك فيها الأنبياء جميعاً:

(١) تنزل الوحي عليهم.

وهو من لوازم الرسالة ومقتضياتها، لأن الرسول مبلغ عن الله أمره ونهيه، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣]، وصفة الوحي أعظم صفات الأنبياء التي تميزهم عن سائر البشر^(١)، قال سبحانه:

(١) والمراد بالوحي هنا هو ما يكون الله ورسله المتضمن تبليغهم كلامه وأوامره ونواهيه وشرعه، وللوحي إطلاق آخر عام بمعنى الإعلام، وهذا يكون لغير الأنبياء كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ [المائدة: ١١١]، وللاستزادة ينظر: =

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠]، وبهذا علم ورقة بن نوفل نبوة النبي ﷺ حين أخبره بنزول جبريل عليه، فقال ورقة: «هذا الناموس الذي كان يأتي موسى» متفق عليه^(١).

والوحي مراتب عدة منها: النفث في الروح وهو الإلهام، ورؤيا المنام، والتكليم بواسطة الملك، وتكليم الله له من وراء حجاب، وغير ذلك، واجتمعت جميع مراتب الوحي لنبينا محمد ﷺ^(٢).

٢) الإخبار بالمغيبات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (ومن لوازم النبي التي لا بد منها: الإخبار عن الغيب الذي أنبأه الله به، فإن من لم يخبر عن غيب لا يكون نبياً)^(٣)، قلت: ومصدق ذلك قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن أَرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٧].

=مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٣٩٧/١٢ وما بعدها.

(١) صحيح البخاري كتاب بدء الوحي باب بدء الوحي ٢٢/١ رقم (٣)، وصحيح مسلم

كتاب الإيذان باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ١٣٩/١ رقم (١٦٠).

(٢) انظر: زاد المعاد ٨٧/١.

(٣) شرح الأصبهانية ص ٦٨١.

وإنما يخبر عن الغيب الذي نبأه الله به، وأمره أن يبلغه قومه، ومن ذلك الخبر عن الله وأسمائه وصفاته، ووعدته ووعيدته، وما يكون يوم القيامة من العرض والحساب والجنة والنار.

٣) التأييد بالآيات والمعجزات.

والآيات: (هي الأدلة والعلامات المستلزمة لصدقهم)^(١). قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقال ﷺ: «ما من نبي من الأنبياء إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ»^(٢)، والناظر في آيات ومعجزات الأنبياء يجد أنها تناسب الوقت والقوم الذين بعث إليهم، فلما كان السحر فاشياً في وقت موسى آتاه العصا التي تنقلب حية تسعى، ولما كان التطبب كثيراً في وقت عيسى آتاه الله إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، ولما كان شأن العرب التفاخر بالفصاحة والبيان في زمن النبي ﷺ آتاه الله القرآن المعجز بلفظه ومعناه، وتحداهم أن يأتوا بآية مثله فعجزوا،

(١) انظر: النبوات ١/٢١٣ و١/٥١٢.

(٢) أخرجه البخاري كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب قول النبي ﷺ: «بعثت بجوامع الكلم» ١٣/٢٤٧ رقم (٧٢٧٤)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ ١/١٣٤ رقم (١٥٢).

قال شيخ الإسلام: (والقرآن مما يعلم الناس - عربهم وعجمهم - أنه لم يوجد له نظير، مع حرص العرب وغير العرب على معارضته، فلفظه آية، ونظمه آية، وإخباره بالغيوب آية، وأمره ونهيه آية، ووعدته ووعيده آية، وجلالته وعظمته وسلطانه على القلوب آية، وإذا ترجم بغير العربي كانت معانيه آية، كل ذلك لا يوجد له نظير في العالم)^(١)، وهو أعظم آيات النبي ﷺ، وإلا فقد أيدته الله بآيات ومعجزات كثيرة، قال البيهقي: (وأما المصطفى نبينا محمد ﷺ خاتم النبيين - صلوات الله عليهم، وعلى آله الطيبين، وصحبه أجمعين - فإنه أكثر الرسل آيات وبيانات، وذكر بعض أهل العلم أن أعلام نبوته تبلغ ألفاً)^(٢).

٤) كونهم من أقوامهم، وعلى لغتهم.

وهو من عظيم منة الله، ليتم التبليغ والبيان على أكمل وجه، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، وعن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يبعث الله ﷻ نبياً إلا بلغه قومه»^(٣)، وكذا كان

(١) النبوات ٢/ ٥١٦.

(٢) شعب الإيمان ١/ ٢٨٤.

(٣) أخرجه أحمد ٥/ ١٥٨ رقم (٢١٤١٠) من طريق مجاهد عن أبي ذر، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٤٣: (ورجاله رجال الصحيح، إلا أن مجاهداً لم يسمع من أبي ذر)، قلت: الآية =



خاتم النبيين محمد ﷺ، قال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِ رُسُلًا مِنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢]، واختص نبينا محمد ﷺ بأنه وإن كان من قومه الذين بُعث إليهم، فقد أرسل إلى الناس عامة.

٥) العصمة من الخطأ والسهو والكتان فيما يبلغونه عن الله ﷻ.

قال تعالى: ﴿يَأْتِيَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فالأنبياء -صلوات الله عليهم- معصومون فيما يخبرون به عن الله سبحانه، وفي تبليغ رسالاته باتفاق الأمة، ولهذا وجب الإتيان بكل ما أوتوه)^(١)، وهم أيضاً معصومون عن كبائر الذنوب، وعن كل ما يخل ويطعن بهم من العادات والقبائح كما تقدمت الإشارة إليه.

٦) تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم.

ففي حديث أنس عن ليلة أسري بالنبي ﷺ من مسجد الكعبة «جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه، وهو نائم في المسجد الحرام، فقال أولهم: أيهم هو؟

=تدل على صحة معناه، وانظر السلسلة الصحيحة للألباني (٣٥٦١).

(١) مجموع الفتاوى ٢٨٩/١٠، ونقل الإجماع أيضاً القاضي عياض في الشفا ١٤٤/٢.

فقال أوسطهم: هو خيرهم، وقال آخرهم: خذوا خيرهم، فكانت تلك، فلم يرمهم حتى جاءوا ليلة أخرى، فيها يرى قلبه، والنبي ﷺ نائمة عيناه، ولا ينام قلبه، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم، فتولاه جبريل ثم عرج به إلى السماء». أخرجه البخاري^(١).

وتعليل امتناع النوم على قلبه لأجل أن يعي الوحي الذي يأتيه في نومه، ورؤيا الأنبياء وحي^(٢)، وهو دالٌّ على تيقظهم؛ لأنه إذا كان هذا حالهم في النوم، فاليقظة من باب أولى.

(٧) سياسة أمهم، بالقيام على أمورهم، وتدبير ما يصلحهم.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه الأنبياء، وإنه لا نبي بعدي»^(٣)، قال ابن الأثير: (أي:

(١) صحيح البخاري كتاب المناقب باب كان النبي ﷺ تنام عينه ولا ينام قلبه ٥٧٩/٦ رقم (٣٥٦٩).

(٢) فيض القدير للمناوي ٢١٦/٥.

(٣) أخرجه البخاري كتاب أحاديث الأنبياء باب ما ذكر عن بني إسرائيل ٤٩٥/٦ رقم (٣٤٥٥)، ومسلم كتاب الإمارة باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول ١٤٧١/٣ رقم (١٨٤٢).



تتولى أمورهم كما تفعل الأمراء والولاة بالرعية، والسياسة: القيام على الشيء بما يصلحه^(١).

وأعد الله الأنبياء لذلك وهياهم بكمالهم في جميع صفاتهم، ثم برعايتهم للغنم، فإنه ما بعث الله نبياً إلا ورعى الغنم كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم». فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: نعم، كنت أرهاها على قراريط^(٢) لأهل مكة» أخرجه البخاري^(٣).

وفي حديث عبدة بن حزن^(٤) قال: افتخر أصحاب الإبل والغنم عند النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «بُعْثَ دَاوُدَ عليه السلام وهو راعي غنم، وبُعْثَ مُوسَى وهو راعي غنم، وبُعْثَ أَنَا، وَأَنَا أُرْعَى غَنَمًا لِأَهْلِ بَحْيَا^(٥)»^(٦).

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر ٢ / ٤٢١.

(٢) جمع قيراط، وهو جزء من الدينار أو الدرهم. انظر: فتح الباري ٤ / ٤٤١.

(٣) صحيح البخاري كتاب الإجارة باب رعي الغنم على قراريط ٤ / ٤٤١ رقم (٢٢٦٢).

(٤) وقع في بعض أسانيد الحديث: (بشر بن حزن)، قال أبو حاتم الرازي: (هذا خطأ، إنما هو عبدة بن حزن). العلل لابن أبي حاتم (٢٥٤٦).

(٥) موضع معروف بمكة.

(٦) أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده (١٤٠٧) بإسناد صحيح، ومن طريق الطيالسي =

قال ابن حجر رحمه الله: (قال العلماء: الحكمة في إلهام الأنبياء من رعي الغنم قبل النبوة أن يحصل لهم التمرن برعيها على ما يكلفونه من القيام بأمر أمتهم، ولأن في مخالطتها ما يحصل لهم الحلم والشفقة؛ لأنهم إذا صبروا على رعيها، وجمعها بعد تفرقها في المرعى، ونقلها من مسرح إلى مسرح، ودفع عدوها من سبع وغيره كالسارق، وعلموا اختلاف طباعها، وشدة تفرقها مع ضعفها، واحتياجها إلى المعاهدة، ألفوا من ذلك الصبر على الأمة، وعرفوا اختلاف طباعها، وتفاوت عقولها، فجبروا كسرهما، ورفقوا بضعيفها، وأحسنوا التعاهد لها، فيكون تحملهم لمشقة ذلك أسهل مما لو كلفوا القيام بذلك من أول وهلة؛ لما يحصل لهم من التدريج على ذلك برعي الغنم)، ثم قال: (وفي ذكر النبي ﷺ لذلك بعد أن علم كونه أكرم الخلق على الله ما كان عليه من عظيم التواضع لربه، والتصريح بمرتبة عليه وعلى إخوانه من الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء)^(١).

= أخرجه: البخاري في التاريخ الكبير ١١٣/٦، والبيهقي في دلائل النبوة ١٣٤/٢، وأخرجه أيضاً: النسائي في الكبرى (١١٢٦٢).

(١) فتح الباري ٤/٤٤١، وللاستزادة في بيان الحكمة من رعي الأنبياء للغنم انظر: شرح البخاري لابن بطلان ٣٨٦/٦، واختيار الأولى لابن رجب ص ٩٥ (مطبوع ضمن الجامع المنتخب من رسائل الحافظ ابن رجب).

والأنبياء في رعاية أمهم كالوالد لولده، يعلمه ويربيه ويدله على ما ينفعه، فالنبي للأمة بمنزلة الوالد، والأمة له كالأبناء والبنات، ولذا قال لوط لقومه في القصة المعروفة: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨]، يرشدهم إلى نسائهم^(١)، وفي القراءة التفسيرية المروية عن ابن عباس وأبي: ﴿الْنَبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦] قرأ: {وهو أبُّ لهم}، وفي حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم»^(٢).

٨) دلالتهم أمهم على خير ما يعلمونه لهم، وتحذيرهم من شر ما يعلمونه. وهذا من حكمة الرسالة ومقتضياتها وواجباتها؛ فإن الرسل بعثوا لسوق العباد لما ينفعهم ودفعهم عما يضرهم في دنياهم وآخرتهم، عن عبد الله بن عمرو ابن العاص أن النبي ﷺ قال: «إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم» أخرجه مسلم^(٣).

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٣٧.

(٢) تفسير ابن كثير ٦/ ٣٨١.

(٣) أخرجه أبو داود (٨)، والنسائي (٤٠) وابن ماجه (٣١٣) وأحمد ٢/ ٢٤٧ رقم (٧٣٦٨) بإسناد حسن، وللتوسع في تحريجه يراجع تعليق محققي المسند.

(٤) صحيح مسلم كتاب الإمارة باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء ٣/ ١٤٧١ رقم (١٨٤٤).

قال الحسن: (لم يبعث الله نبياً إلا وهو يحذر من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة). ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [طه: ٤٨].

ومن ذلك أنهم جميعاً أُنذروا أقوامهم من الدجال، ففي الصحيحين من حديث ابن عمر أن النبي ﷺ ذكر الدجال فقال: «إني أُنذركموه، وما من نبي إلا قد أُنذره قومه، لقد أُنذره قومه، ولكن سأقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي لقومه: تعلمون أنه أعور، وإن الله ليس بأعور»^(١).

قال ابن كثير عن نوح عليه السلام: (حتى إنه حذّر قومه المسيح الدجال، وإن كان لا يتوقع خروجه في زمانهم حذراً عليهم وشفقة ورحمة بهم)^(٢). ولم يدع رسولنا ﷺ شيئاً فيه نفع وخير إلا دلّ الأمة عليه، ولا شيئاً فيه ضرر إلا حذر الأمة منه^(٣)، قال الصحابي الجليل أبو ذر: «تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في الهواء إلا وهو يذكرنا منه علماً، قال: فقال ﷺ: ما

(١) صحيح البخاري كتاب الجهاد باب كيف يعرض الإسلام على الصبي ١٧٢/٦ رقم (٣٠٥٧)، ومسلم في كتاب الفتن وأشرط الساعة باب ذكر ابن صياد ٢٢٤٥/٤ رقم (١٦٩).

(٢) البداية والنهاية ١/٢٥٩.

(٣) لابن القيم كلام مفيد في هذه المسألة انظره في إعلام الموقعين ٤/٣٧٦.



بقي شيء يقرب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بين لكم^(١).

وقال سلمان رضي الله عنه: (قال لنا المشركون: إني أرى صاحبكم يعلمكم، حتى يعلمكم الخراءة. فقال: أجل، إنه نهانا أن يستنجي أحدنا بيمينه، أو يستقبل القبلة، ونهى عن الروث والعظام، وقال: لا يستنجي أحدكم بدون ثلاثة أحجار)^(٢).

٩) أنهم لا يورثون، وما تركوه فهو صدقة.

ففي حديث عائشة عن أبيها أبي بكر رضي الله عنه: إن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث، ما تركنا صدقة»^(٣).

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٦٤٧)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٨٠٣).

(٢) صحيح مسلم كتاب الطهارة باب الاستطابة ١/ ٢٢٤ رقم (٢٦٢).

(٣) صحيح البخاري كتاب فرض الخمس باب فرض الخمس ٦/ ١٩٧ رقم (٣٠٩٣)، وصحيح مسلم كتاب الجهاد والسير باب حكم الفبيء ٣/ ١٣٨٠ رقم (١٧٥٩)، وأخرجه النسائي في الكبرى ٦/ ٩٨ رقم (٦٢٧٥) من حديث عمر بلفظ: «إننا معشر الأنبياء لا نورث، ما تركنا فهو صدقة»، قال الحافظ ابن حجر: (وإسناده على شرط مسلم). التلخيص الحبير ٣/ ٢١٨.

ولا ينافي هذا قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ [النمل: ١٦]، لأنه ليس المراد بها وراثة المال، بل وراثة الملك والنبوة، فكلاهما ملك نبي، ولو كان المراد وراثة المال لم يخص سليمان=

قال ابن القيم: (وهذا -والله أعلم- هو السر في كونه لم يورث هو والأنبياء، قطعاً لهذه الشبهة، لئلا يظنّ المبطل أن الأنبياء طلبوا جمع الدنيا لأولادهم وورثتهم كما يفعله الإنسان من زهده في نفسه، وتوريثه ماله لولده وذريته فصانهم الله من ذلك، ومنعهم من توريث ورثتهم شيئاً من المال، لئلا تتطرق التهمة إلى حجج الله ورسوله، فلا يبقى في نبوتهم ورسالتهم شبهة أصلاً^(١)).

وهكذا وقع لبنينا ﷺ، فإنه لما قبض أقام الله الخليفة الراشد أبا بكر رضي الله عنه، فأخبر الناس بما سمعه من رسول الله ﷺ، ونفذ ذلك الحكم، فلم يرثه ﷺ أحد.

(١٠) يرون مقعدهم من الجنة قبل الموت، ويخبرون عند ذلك.

فعن عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ وهو صحيح يقول: إنه لم يقبض نبي قط حتى يرى مقعده من الجنة، ثم يحيا -أو يخير- فلما اشتكى وحضره القبض، ورأسه على فخذ عائشة، غشي عليه، فلما أفاق شخص بصره نحو سقف البيت، ثم قال: اللهم في الرفيق الأعلى، فقلت: إذا لا يختارنا، فعرفت أنه حديثه الذي كان يحدثنا وهو صحيح». متفق عليه^(٢).

= وحده من سائر أولاد داود. انظر: تفسير ابن كثير ٦/ ١٨٢.

(١) بدائع الفوائد ٣/ ١١٦٨، وانظر للفائدة مفتاح دار السعادة ١/ ٦٧.

(٢) صحيح البخاري كتاب المغازي باب مرض النبي ﷺ ووفاته ٨/ ١٣٦ رقم (٤٤٣٧)=

(١١) لكل نبي دعوة مستجابة في أمته.

وتقدم ذكر الحديث الوارد في ذلك عند ذكر صفة الشفقة والرحمة.

(١٢) دفنهم في المكان الذي يموتون فيه.

وفيه حديث أبي بكر رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما قبض الله نبياً

إلا في الموضع الذي يحب أن يدفن فيه» قال: «ادفنيه في موضع فراشه»^(١).

(١٣) حرم الله على الأرض أن تأكل أجسادهم.

ففي حديث أوس بن أوس أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ﻻ يأكل حرم على

الأرض أجساد الأنبياء»^(٢).

=واللفظ له، ومسلم كتاب فضائل الصحابة باب في فضل عائشة رضي الله عنها ٤/ ١٨٩٣ رقم

(٢٤٤٤).

(١) أخرجه الترمذي (١٠١٨) وفي الشرائع (٣٧٢)، وفي سننه عبد الرحمن المليكي ضعيف،

لكن له شواهد عدة تقويه انظرها في كشف الغمة ص ٢٤٩.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (١٠٤٧)، والنسائي (١٣٧٤)، وابن ماجه (١٠٨٥) وأحمد ٨/ ٤

كلهم من طريق حسين الجعفي عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن أبي الأشعث الصنعاني

عن أوس بن أوس فذكره مطولاً في فضل الجمعة والصلاة على النبي ﷺ، وهذه الإسناد

رجاله ثقات، وفي هذا الإسناد علة لا تقدر في صحته بينها ابن القيم في جلاء الأفهام

ص ١٥٠ وأجاب عنها.

(١٤) أحياء في قبورهم (يصلون).

دَلَّ على ذلك حديث أنس أن النبي ﷺ قال: «الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون»^(١)، وفي حديثه الآخر أن رسول الله ﷺ قال: «أتيت على موسى ليلة أسري بي عند الكتيب الأحمر، وهو قائم يصلي في قبره»^(٢)، وصلاة الأنبياء في قبورهم ليست من أعمال التكليف التي يطلب لها الثواب، بل هم يتمتعون بها ويتنعمون كما يتنعم أهل الجنة بالتسبيح^(٣).

وليعلم أنه لا يراد بحياة الأنبياء في قبورهم الحياة الدنيوية المعهودة التي تقوم فيها الروح بالبدن وتدبره وتصرفه، ويحتاج معها إلى الطعام والشراب واللباس والنكاح وغير ذلك، بل حياتهم عليهم الصلاة والسلام في قبورهم حياة برزخية مخالفة للحياة الدنيا، وهي حياة لا نعرف حقيقتها، وأما حياتهم الدنيوية فقد لحقهم جميعاً فيها الموت كسائر البشر سوى عيسى فإنه رفعه الله

(١) أخرجه البزار في مسنده (٦٨٨٨) وأبو يعلى الموصلي في مسنده (٣٤٢٥)، وإسناده صحيح، وانظر تمام تخريجه في تعليق محققي الكتاب، والسلسلة الصحيحة (٦٢١).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الفضائل باب من فضائل موسى ﷺ ١٨٤٥ / ٤ رقم (٢٣٧٥).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى ٤ / ٣٣٠.



إليه، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]^(١).

(١) يراجع في تفصيل ذلك وأدلته: الصارم المنكي ص ٢٢٣ وما بعدها، والصواعق المرسلة الشهابية لابن سحان ١/٢، ومقدمة تحقيق حياة الأنبياء في قبورهم للدكتور أحمد الغامدي.

المطلب الثالث

اتفاقهم في حال الرسالة ومآلها

اقتضت حكمة الله البالغة أن يكون طريق دعوة الرسل محفوفاً بالابتلاء والامتحان، بل هم أشد الناس بلاءً كما ورد في حديث سعد بن أبي وقاص قال: «قلت: يا رسول الله، أي الناس أشدُّ بلاءً؟ فقال: الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأُمثَل فالأُمثَل، يتلى الرجل على حسب دينه» الحديث^(١).

ومن أعظم ما يبتلون به أعداء من الجن والإنس، يؤذونهم ويتربصون بهم، ويتهمونهم بما ليس فيهم، ويصدون الناس عن دعوتهم، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًّا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُخَكِّمُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ۞ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ۞ وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٤٠٢٣)، وأحمد ١٧٢ / ١ رقم (١٤٨١) بإسناد

حسن، وله شواهد انظرها في فتح الباري ١٠ / ١١١، وكشف الغمة ص ٢٣٩.



إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿[الحج: ٥٢-٥٤] وفي هذه الآية بيان الحكمة في ذلك، وهي تمييز الناس بالابتلاء والامتحان ليعلم الصادق حقاً، والمؤمن صدقاً، وفيه أيضاً تثبيت المؤمنين بدفع شبه المعاندين وإبطال كيد الكافرين.

وسنة الله في الأنبياء والرسل أنه ينصرهم تارة، ويبتليهم تارة أخرى، لينالوا درجة الشكر والصبر، وفي أسئلة هرقل ملك الروم -وهي تدل على معرفته بجنس الرسالات وما اتفقت عليه الرسل - كيف الحرب بينكم وبينه، فقلتم: إنها دول، يدال علينا مرة، وندال عليه الأخرى قال: «وكذلك الرسل تبلى وتكون العاقبة لها».

وفي الابتلاء حكمٌ أخرى: كتمييز المؤمن من غيره، فإنهم إذا كانوا دائماً منصورين لم يظهر وليهم وعدوهم، إذ الجميع يظهر الموالاة، فإذا غلبوا ظهر عدوهم، ومنه تمحيص المؤمنين ومحق الكافرين وغير ذلك^(١).

ويكثر الضعفاء في المتبعين للرسول في ابتداء دعوتهم، قال الله تعالى حكاية عن قوم نوح: ﴿قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]، وقال تعالى في قصة صالح: ﴿قَالَ أَمْلَأْ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِمَنْ آمَنَ

(١) انظر: شرح الأصبهانية ص ٥٥٥.

مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنْ صَاحِبًا مُرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ ﴿[الأعراف: ٧٥]، وفي قصة شعيب: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعُوبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨]، وهكذا كان الحال في دعوة محمد ﷺ؛ فكان الغالب على السابقين من المؤمنين: الضعفاء، وهي علامة من علامات الرسل، استدل بها هرقل على نبوته، فإنه سأل أبا سفيان ومن معه من قريش: (أضعفاء الناس يتبعونه أم أشرافهم؟ فذكروا أن الضعفاء اتبعوه، قال هرقل: وهم أتباع الرسل)^(١).

ومن ذلك أن الله ﷻ ينصر رسله، ويظهرهم على أقوامهم، وينتقم من المجرمين المكذابين المعاندين، وهو ظاهر في جميع قصص الأنبياء، وهو من آيات صدق دعوتهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاتَّقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، وقال سبحانه: ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٢-١٠٣]، ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾

(١) انظر: شرح الأصبهانية ص ٥٥٢.



[يوسف: ١١٠]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (يذكر الله تعالى قصص رسله، ومن آمن بهم، وما حصل لهم من النصر والسعادة وحسن العاقبة، وقصص من كفر بهم وكذبهم، وما حصل لهم من البلاء والعذاب وسوء العاقبة، وهذا من أعظم الأدلة والبراهين على صدق الرسل وبرهم، وكذب من خالفهم وفجوره)^(١).

وقال ابن سعدي: (ولهذا إذا ذكر تعالى قصص الرسل مع أمم المطيعين والعاصين، وأخبر عن عقوبات العاصين ونجاة الرسل ومن تبعهم، قال عقب كل قصة: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٦٧، ١٠٣، ١٢١، ١٣٩، ١٥٨، ١٧٤، ١٩٠] أي: لعبرة يعتبر بها المعتبرون)^(٢).

ونصرة الأنبياء على أممهم تكون تارة بإهلاك الأمم وإنجاء الرسل وأتباعهم، كقوم نوح وهود وصالح وشعيب ولوط وموسى، وتارة بظهورهم عليهم بالحجة والعلم، وبالقدرة حيث يذل المكذبين، وينصرهم عليهم)^(٣).

ومن حال الرسل أيضاً: حفظ الله لهم، وعصمتهم من أن يقتلهم أقوامهم، أو ينالوهم بسوء عند مناظرتهم ومحاجتهم لمكذبيهم، وبذلك تحدى

(١) شرح الأصبهانية ص ٥٦٥.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ١٢٤.

(٣) انظر: النبوات ١/ ٢٠٥-٢٠٩.

الأنبياء أقوامهم كنوح وإبراهيم وهود^(١)، وحفظ الله نبينا محمداً ﷺ حتى نصره عليهم، على الرغم من شدة كيدهم ومحاولتهم قتله بشتى الوسائل، وهو معروف في سيرته ﷺ، وأنزل الله سبحانه في ذلك: ﴿يَأْيُهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، قال ابن كثير: (أي: بلغ أنت رسالتي، وأنا حافظك وناصرك ومؤيدك على أعدائك ومظفرك بهم، فلا تخف ولا تحزن، فلن يصل أحد منهم إليك بسوء يؤذيك)^(٢).

وخلاصة الأمر في هذا المبحث:

أن الله سبحانه خصّ نبينا محمداً ﷺ بخاصة الأنبياء والرسول من قبله من كمال الصفات وجميل الخصال، وما من صفة ثبتت عن من قبله فقد نال منها ﷺ أعلى درجاتها، وأدرك أعلى مقاماتها، وأن حال دعوته شابهت حال دعوة الأنبياء قبله في الابتلاء والامتحان، وفي نصره الله وتأييده، وهذا يؤدي إلى العلم الضروري الذي لا يندفع بصدق رسالته، فمن علم حال الأطباء ثم رأى أبقراط مثلاً لم يشك أنه منهم، ومن علم النحاة ثم رأى سيبويه لم يشك أنه منهم، ومن علم حال الأنبياء وصفاتهم وسيرتهم لم يشك أن محمداً ﷺ منهم.

(١) انظر: البداية والنهاية ١/ ٢٩٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٣/ ١٥١.



وبذلك شهد المنصفون قديماً وحديثاً، وأسلم الجهم الغفير بسبب ذلك، ومن أحسن ما يبين ذلك ما وقع من هرقل ملك الروم وهو على دين النصارى من أسئلة لوفد قريش تدل على أنه سلك هذا المسلك، وهو مقارنة صفة النبي ﷺ وأحواله بصفات الأنبياء قبله وأحوالهم، وذلك فيما أخرجه الشيخان من حديث ابن عباس عن أبي سفيان رضي الله عنه إذ أخبر بقصة وفوده قبل إسلامه على هرقل، وهو حديث طويل فيه سؤال هرقل لأبي سفيان أسئلة عن النبي ﷺ تدل على معرفته بحال الرسل السابقين، وأجابه أبو سفيان بما علم، فقال هرقل لترجمانه:

(قل له: إني سألتك عن حسبه، فزعمت أنه فيكم ذو حسب، وكذلك الرسل تبعث في أحساب قومها.

وسألتك هل كان في آبائه ملك؟ فزعمت أن لا، فقلت: لو كان من آبائه ملك قلت: رجل يطلب ملك آبائه.

وسألتك عن أتباعه أضعفائهم أم أشرفهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل.

وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فزعمت أن لا، فقد عرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس، ثم يذهب فيكذب على الله.

وسألتك هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخله سخطه له؟ فزعمت

أن لا، وكذلك الإيمان إذا خالط بشاشة القلوب.

وسألتك هل يزيدون أو ينقصون؟ فزعمت أنهم يزيدون، وكذلك الإيمان

حتى يتم.

وسألتك هل قاتلتموه؟ فزعمت أنكم قد قاتلتموه، فتكون الحرب بينكم

وبينه سجالاً، ينال منكم، وتنالون منه، وكذلك الرسل تبلى، ثم تكون لهم العاقبة.

وسألتك هل يغدر؟ فزعمت أنه لا يغدر، وكذلك الرسل لا تغدر.

وسألتك هل قال هذا القول أحد قبله؟ فزعمت أن لا، فقلت: لو قال هذا

القول أحد قبله، قلت: رجل ائتم بقول قيل قبله.

قال: ثم قال: بم يأمركم؟ قلت: يأمرنا بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف.

قال: إن يكن ما تقول فيه حقاً؛ فإنه نبي، وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن

أظنه منكم، ولو أني أعلم أني أخلص إليه لأحببت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت

عن قدميه، وليلبغن ملكه ما تحت قدمي^(١).

(١) أخرجه البخاري كتاب تفسير القرآن باب ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ﴾ ٨ / ٢١٤

رقم (٤٥٥٣)، ومسلم كتاب الجهاد والسير باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوهُ إلى

الإسلام ٣ / ١٣٩٣ رقم (١٧٧٣).



المبحث الثاني انفاق الانبياء في أصول الشرائع

وفيه ثلاثة مطالب:

- **المطلب الأول: اتفاقهم في الأمر بالتوحيد.**
- **المطلب الثاني: اتفاقهم في الأمر بمكارم الأخلاق وجميل الصفات.**
- **المطلب الثالث: اتفاقهم في أصول العبادات.**

ایض

المطلب الأول

اتفاقهم في الأمر بالتوحيد

عبادة الله وحده، والاستسلام له، وقصده سبحانه بكل أنواع العبادات والقربات، هي الغاية من خلق الخلق، ولتحقيقها أرسل الرسل يعرفون الناس بها، ويدعونهم إليها، فصار ما يدعو إليه الأنبياء واحداً، وهو إقامة التوحيد، ونبد الشرك.

وفي ذلك وقعت الخصومة بين الأنبياء وأقوامهم؛ لأن الإقرار بربوبية الله وخلقهم للعالم وملكه للناس مركز في فطر الناس، مجبولون على الاعتراف به، وإنما الاختلاف في صرف شيء من أنواع العبادة لغير الله، وقد دل على ما تقدم النصوص إجمالاً وتفصيلاً.

أما الإجمال فقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ [الشورى: ١٣]، قال ابن كثير: (والدين الذي جاءت به الرسل كلهم هو: عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا

أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿[الأنبياء: ٢٥]﴾^(١).

وأمر الله نبينا محمداً ﷺ أن يتبع ملة أبيه إبراهيم، ثم بينها بأنها التوحيد، فقال: ﴿ثُمَّ أُوحِيَآ إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

وأما التفصيل فهو ظاهر في سير الأنبياء المذكورة في القرآن والسنة، ففي سورة الأعراف أخبر سبحانه أن كل نبي يقول لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥]، وفي نبأ إبراهيم قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠]، ثم ذكر أن إبراهيم وصى بها بنيه، وهما النبيان إسماعيل وإسحاق، وذكر سبحانه أن يعقوب وصى بها بنيه، ومنهم يوسف عليه السلام، وفي قصة يوسف ذكر سبحانه قول يوسف: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [يوسف: ٣٨].

وصار الأنبياء بهذا الاعتبار - وهو اتفاقهم في أصول الدين - إخوة، فهم وإن اختلفوا في الزمان وتفصيل الشرائع، فهم متفقون في أصل ما يدعون إليه، وهو التوحيد، وفي حديث الإسراء كان الأنبياء يرحبون بالنبي ﷺ بقولهم:

(١) تفسير ابن كثير ١/ ١٩٤.



(مرحباً بالأخ الصالح، والنبي الصالح)^(١)، وفي حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد»^(٢)، وفي لفظ: «أبناء علات»، والعلات -بفتح المهملة- الضرائر، وأولاد العلات: بنو الرجل من نسوة شتى^(٣)، شبه النبي ﷺ دين الأنبياء الذين اتفقوا عليه من التوحيد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، والإيمان به، وبملائكته وكتبه ورسله، ولقائه بالآب الواحد؛ لاشتراكهم جميعاً فيه، وهو الدين الذي شرعه الله لأنبيائه كلهم، وهذا هو دين الإسلام الذي أخبر الله أنه دين أنبيائه ورسله من أولهم نوح إلى خاتمهم محمد ﷺ، فهو بمنزلة الآب الواحد، وأما شرائع الأعمال والمأمورات فقد تختلف، فهي بمنزلة الأمهات الشتى، فإن لقاح تلك الأمهات من أبٍ واحد، كما أن مادة تلك الشرائع المختلفة من دين واحد متفق عليه^(٤).

(١) سيأتي حديث الإسراء في مبحث خاص.

(٢) أخرجه البخاري كتاب أحاديث الأنبياء باب قول الله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ ٤٧٨/٦

رقم (٣٤٤٣)، ومسلم كتاب الفضائل باب فضائل عيسى ﷺ ١٨٣٧/٤ رقم (٢٣٦٥).

(٣) الصحاح ١٧٧٣/٥، وفتح الباري ٤٨٩/٦.

(٤) بدائع الفوائد ١٦١١/٣.

واتفاق الأنبياء في الاعتقاد وأصل الدين معنى من معاني التصديق الذي وصف به غير واحد من الأنبياء في القرآن، فإن مجيء النبي المتأخر بمثل ما جاء به المتقدم دليل على صدق المتقدم، قال تعالى في قصة عيسى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيَّنَّ يَدَيِّ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ [آل عمران: ٥٠]، وقال سبحانه مخاطباً أهل الكتاب في عهد نبينا محمد ﷺ ومن بعدهم: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ [النساء: ٤٧].

قال الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله: (وبهذا يُعلم أن التوحيد هو دين العالم بأسره من آدم إلى آخر نفس منقوسة من هذا الأمة)، ثم قال: (والدين بهذا الاعتبار هو: «دين الإسلام» بمعناه العام، وهو: إسلام الوجه لله، وطاعته، وعبادته وحده، والبراءة من الشرك، والإيمان بالنبوات، والمبدأ، والمعاد. ولو حدة الدين بهذا الاعتبار في دعوة جميع الأنبياء والمرسلين، وحد - سبحانه -: «الصراط» و«السبيل» في جميع آيات القرآن الكريم.

وهذا الدين «دين الإسلام» بهذا - أي باعتبار: وحدته العامة، وتوحد صراطه، وسبيله - هو الذي ذكره الله في آيات من كتابه عن أنبيائه: نوح، وإبراهيم، وبنيه، ويوسف الصديق، وموسى، ودعوة نبي الله سليمان، وجواب ملكة سبأ، وعن الحواريين، وعن سحرة فرعون، وعن فرعون حين أدركه الغرق.



ودين الإسلام بهذا الاعتبار: هو دين جميع الأنبياء والمرسلين وملتهم، بل إن إسلام كل نبي ورسول يكون سابقاً لأمته، وهو محل بعثته إلى أمته، وما يتبع ذلك من شريعته^(١).

وكلما بعد العهد بالنبوة، وطال الأمد، وخفت آثار النبوة، دخل التحريف في الدين المنسوب إلى الأنبياء، وأدخل في الدين ما ليس منه، حتى ربما انقلب التوحيد شركاً، فيرسل الله حينئذ نبياً آخر مصداقاً ومبيناً الدين الحق الذي كان عليه الأنبياء قبله، ولقد بعث نبينا محمد ﷺ وما يكاد يوجد على دين الأنبياء الحق - وهو التوحيد الخالص - أحد، فوضح الله به دينه الحق الذي بعث به جميع الرسل، وطهره من أدناس الشرك والضلالة، ولما فتح الله على رسوله مكة، أخرجوا من البيت صورة إبراهيم وإسماعيل في أيديهما الأزام، فقال رسول الله ﷺ: «قاتلهم الله، أما والله لقد علموا أنهم لم يستقسما بها قط»^(٢).

ولم يشرع الله سبحانه لنبي أن يعبد غير الله ألبتة، قال سبحانه: ﴿وَسَأَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥].
وبهذا يُعلم أن كل ما ينقل عن الأنبياء المتقدمين مما يناقض ما جاء به النبي

(١) الإبطال لنظرية الخلط بين الأديان للشيخ بكر أبو زيد رحمه الله ص ٤٨-٥٢.

(٢) صحيح البخاري كتاب الحج باب من كبر في نواحي الكعبة ٣/ ٤٦٨ رقم (١٦٠١).

ﷺ فهو خطأ وباطل، ولا سيما ما يقع في نسخ التوراة والأنجيل التي ثبت تحريفها وتغييرها، ورد الله سبحانه كثيراً من اعتقاداتهم الباطلة التي نسبوها كذباً وزوراً للدين الأنبياء، قال سبحانه: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١].

وأهل الكتاب مترددون في صحة ما في كتبهم، حائرون تائهون، نسخ مختلفة، وترجمات متناقضة، واختلاف واضطراب، ليس بأيديهم دليل تطمئن النفس إلى صحته، وإنما تقليد من سبقهم بغير حجة ولا برهان صحيح، قال سبحانه: ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ [الشورى: ١٤].

ويلتحق بما تقدم اتفاق الأنبياء فيما أخبروا به عن الله وأسمائه وصفاته، وعن أمور المعاد والقيامة وما يقع فيها من العرض والحساب وصفة الجنة والنار، ولا شك أنهم متفقون في ذلك، فإن المخبر لهم واحد، وهو ربنا سبحانه، ويبين ذلك قصة اليهودي الذي أراد أن يمتحن النبي ﷺ، وذلك فيما أخرجه مسلم من حديث ثوبان في قصة اليهودي الذي جاء ممتحناً للنبي ﷺ، «فقال اليهودي: جئت أسألك. فقال له رسول الله ﷺ: أينفعك شيء إن حدثتك؟ قال: أسمع بأذني، فنكت رسول الله ﷺ بعود معه، فقال: سل، فقال اليهودي:



أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات؟ فقال رسول الله ﷺ: هم في الظلمة دون الجسر، قال: فمن أول الناس إجازة؟ قال: فقراء المهاجرين. قال اليهودي: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ قال: زيادة كبد النون. قال: فما غذاؤهم على إثرها؟ قال: ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها. قال: فما شراهم عليه؟ قال: من عين فيها تسمى سلسيلاً. قال: صدقت. قال: وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبي أو رجل أو رجلان. قال: ينفعك إن حدثتك؟ قال: أسمع بأذني. قال: جئت أسألك عن الولد. قال: ماء الرجل أبيض، وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا، فعلا مني الرجل مني المرأة أذكرا بإذن الله، وإذا علا مني المرأة مني الرجل آثنا بإذن الله، قال اليهودي: لقد صدقت، وإنك لنبي^(١).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الحيض باب بيان صفة مني الرجل والمرأة وأن الولد مخلوق من مائهما ٢٥٢/١ رقم (٣١٥).

المطلب الثاني

اتفاقهم على الأمر بمكارم الأخلاق وجميل الصفات

تتفق العقول والفطر السوية على تفضيل الأخلاق الحسنة، ومدح فاعلها، وأنها سبيل للرفعة والعلو، وعلى ذم الأخلاق السيئة، وذم المتصف بها، وأنها موجبة للذل، واحتقار الخلق، ورسالات الأنبياء إنما جاءت لتأخذ بأيدي الناس لمعالي الأمور، وعوالي الرتب، فلا غرو أن تأتي جميعاً بكل خلق كريم، وتنهى عن كل وصف ذميم.

والأحاديث الواردة في الأمر بإحسان الخلق للناس جميعاً، وذكر فضائل ذلك، ووعد من صنع ذلك بالجنة، أحاديث كثيرة جداً، وهي من ميزات هذه الشريعة، وميزات المؤمنين بها، ولقد دخل الإسلام في أقطار كثيرة بسبب ما رُئي من حسن خلق المسلمين وإحسانهم إلى الخلق، وهذه أيضاً علامة على صدق مرسلها، ولهذا قال بعض الأعراب -وقد سئل بماذا عرفت أن محمداً رسول الله- فقال: ما أمر بشيء فقال العقل: ليت نهى عنه، ولا نهى عن شيء فقال العقل: ليت أمر به^(١).

(١) مفتاح دار السعادة ١١٧/٢.



وكذا كانت شرائع الأنبياء السابقين، قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَنًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣] فهذه الأنواع الأربعة حرمها الله سبحانه تحريماً مطلقاً، لم يُبيح منها شيئاً لأحد من الخلق، ولا في حال من الأحوال^(١).

فالعفاف واجتناب الفواحش مثلاً مأمور بهما في شرائع الأنبياء كلهم، ومن اقترب شيئاً منها توعّد بالعقوبة الدنيوية والأخروية، ففي الإسلام يعاقب الزاني المحصن برجمه بالحجارة حتى الموت، وهذا الحكم أيضاً موجود في التوراة، أخرج الشيخان من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: «أتى النبي ﷺ برجل وامرأة من اليهود قد زنيا، فقال لليهود: ما تصنعون بهما؟، قالوا: نُسَخِّم وجوههما، ونخزيهما. قال: فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين. فجاءوا، فقالوا الرجل ممن يرضون: يا أعور، اقرأ، فقرأ حتى انتهى إلى موضع منها، فوضع يده عليه، قال: ارفع يدك. فرفع يده فإذا فيه آية الرجم تلوح، فقال: يا محمد إن عليهما الرجم، ولكننا نكأته بيننا، فأمر بهما، فرجما» الحديث^(٢).

(١) الجواب الصحيح ٦/ ٣٣.

(٢) صحيح البخاري كتاب التوحيد باب ما يجوز من تفسير التوراة من كتب الله بالعربية وغيرها ٥١٦/ ١٣ رقم (٧٥٤٣)، وصحيح مسلم كتاب الحدود باب رجم اليهود أهل =

والأمر بالعدل وتحريم البغى متفق عليه في شرائع الأنبياء، فإن الله سبحانه أقام السموات والأرض على العدل، وأراد شرعاً أن يقوم الناس بالعدل، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، والقسط: العدل، وشرع سبحانه القصاص في شريعتنا لإقامة العدل، وهو موجود في التوراة: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥].

ومن البغى: الربا؛ فإنه أكل لمال الناس بغير حق، قال تعالى عن اليهود: ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ هُبُوا عَنْهُ﴾ [النساء: ١٦١]^(١).

=الذمة في الزنى ١٣٢٦/٣ رقم (١٦٩٩).

والرجم موجود في نسخة التوراة الموجودة بأيديهم حالياً، ففي سفر التثنية ٢٢/٢٢-٢٣ ما نصه: (إذا كانت فتاة عذراء مخطوبة لرجل، فوجدوها رجل في المدينة واضطجع معها، فأخرجوهما كليهما إلى باب تلك المدينة، وارجموهما بالحجارة حتى يموتا، الفتاة من أجل أنها لم تصرخ في المدينة، والرجل من أجل أنه أذل امرأة صاحبه، فتشزع الشر من وسطك).
والنقل بواسطة بحث هل العهد القديم كلام الله لـ د. منقذ السقار.

(١) وهو محرم في كتب اليهود والنصارى التي بأيديهم، وفي ذلك مؤلفات خاصة مثل: الشرائع السماوية تحرم الربا لـ د. القاضي برهون.



ومن الأخلاق التي جاء النص النبوي على أنها من دين الأنبياء: الحياء، قال ﷺ: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت»^(١)، قال ابن حجر: (قوله: «من كلام النبوة» أي: مما اتفق عليه الأنبياء، أي: أنه مما ندب إليه جميع الأنبياء، ولم ينسخ فيما نسخ من شرائعهم، لأنه أمر أطبقت عليه العقول)^(٢).

والإحسان إلى الناس ولا سيما الأقربين من دين الأنبياء جميعاً، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة: ٨٣].

والحاصل أن الأنبياء متفقون على الدعوة للخصال الكريمة، والنهي عن ضد ذلك، وهو أمرٌ ظاهر.

(١) صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء ٥١٥/٦ رقم (٣٤٨٣).

(٢) فتح الباري ٥٢٣/٦.

المطلب الثالث

اتفاقهم في أصول العبادات

شرائع الأنبياء متشابهة في الجملة، متفقة في أصولها، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]. قال ابن رجب: (ومعنى ذلك: أن دين الأنبياء كلهم دين واحد، وهو الإسلام العام المشتمل على الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وعلى توحيد الله وإخلاص الدين له، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ ❶ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٤-٥] ❷).

وإنما يقع الاختلاف في تفاصيل الأوامر والنواهي؛ فهي تناسب حال كل قوم وزمانهم ❸ كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]،

(١) فتح الباري ١/ ١٧.

(٢) وهذا يحصل في الشريعة الواحدة، كما في شريعتنا، فإن الله يشرع أمراً لحكمة، ثم ينسخ ذلك لحكمة أخرى.



والشريعة هي الشريعة، والمنهاج: الطريق البين الواضح، قال قتادة: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شَرْعَةً وَمِنْهَا جَا﴾ يقول: سبيلا وسُنَّة، والسنن مختلفة: للتوراة شريعة، وللإنجيل شريعة، وللقرآن شريعة، يحلُّ الله فيها ما يشاء، ويحرِّم ما يشاء بلاءً، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، ولكن الدين الواحد الذي لا يقبل غيره: التوحيد والإخلاصُ لله، الذي جاءت به الرسل^(١).

فأركان الإسلام الخمسة متفق عليها في الشرائع كلها من جهة الأمر بها على جهة الإجمال.

فالشهادتان هما التوحيد، وتقدم بيان اتفاق شرائع الأنبياء على ذلك. والصلاة والزكاة تقدم في آية سورة البينة أن أهل الكتاب أمروا بهما، وفي سورة الأنبياء بعد ذكر إبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣]، وأخبر سبحانه عن إبراهيم: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: ٤٠]، وقال سبحانه عن إسماعيل: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ [مريم: ٥٥]، والآيات في هذا كثيرة.

(١) تفسير ابن جرير ١٠/ ٣٨٤-٣٨٥.

وفي حديث الإسراء في قصة فرض الصلاة طلب موسى ﷺ من محمد ﷺ أن يراجع ربه في فرض الخمسين صلاة، وقال: «فلم يزل يردده موسى إلى ربه حتى صارت إلى خمس صلوات، ثم احتبسه موسى عند الخمس فقال: يا محمد، والله لقد راودت بني إسرائيل قومي على أدنى من هذا فضعفوا فتركوه»^(١)، قال ابن حجر: (وأما قوله: «أدنى» فالمراد به أقل، وقد وقع في رواية يزيد بن أبي مالك عن أنس في تفسير ابن مردويه تعيين ذلك، ولفظه: فرض على بني إسرائيل صلاتان فما قاموا بهما)^(٢).

وفي حديث عبد الله بن عمرو: «أن سليمان ﷺ سأل الله ﷻ حين فرغ من بناء بيت المقدس أن لا يأتيه أحد لا ينهزه إلا الصلاة فيه: أن يخرج من خطيئته كيوم ولدته أمه»^(٣).

وفي حديث عبد الله بن عمرو أيضاً قال: قال لي رسول الله ﷺ: «أحب الصيام إلى الله صيام داود، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه» متفق عليه^(٤)، وهذا

(١) صحيح البخاري كتاب التوحيد باب «وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا» رقم (٧٥١٧).

(٢) فتح الباري ٤٨٦/١٣.

(٣) أخرجه النسائي (٦٩٣) وأحمد ١٧٦/٢ رقم (٦٦٤٤) بإسناد صحيح.

(٤) صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء باب أحب الصلاة إلى الله صلاة داود ٤٥٥/٦ =



الحديث يدل أيضاً على أن الصوم كان مفروضاً على الأنبياء السابقين، وهذا نص عليه القرآن، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

والحج كذلك، فإن الله أمر نبيه إبراهيم أن يؤذن في الناس بالحج بعد بناءه البيت، وأرسل جبريل ليريه المناسك، روى أبو الطفيل عن ابن عباس قال: «إن إبراهيم ﷺ لما أرى المناسك عرض له شيطان عند المسعى فسابقه، فسبقه إبراهيم ﷺ، ثم انطلق به جبريل ﷺ حتى أتى به منى، فقال له: مناخ الناس هذا، ثم انتهى إلى جمرة العقبة، فعرض له يعني الشيطان، فرماه بسبع حصيات، حتى ذهب، ثم أتى به جمعاً، فقال: هذا المشعر الحرام، ثم أتى به عرفة، فقال: هذه عرفة، قال ابن عباس: أتدري لم سميت عرفة؟ قال: لا. قال: لأن جبريل ﷺ قال له: أعرفت؟ قال ابن عباس: أتدري كيف كانت التلبية؟ قلت: وكيف

=رقم (٣٤٢٠)، وصحيح مسلم كتاب الصيام باب النهي عن صوم الدهر ٨١٢/٢ رقم (١١٥٩).

وورد في حديث ضعيف أن نوحاً صام الدهر، أخرجه ابن ماجه (١٧١٤) والطبراني في الكبير كما في المجمع ٣/ ١٩٨ والبيهقي في شعب الإيمان (٣٨٤٦)، قال المنذري في الترغيب والترهيب: (رواه الطبراني في الكبير والبيهقي، وفي إسنادهما أبو فراس، لم أقف فيه على جرح ولا تعديل، ولا أراه يعرف).

كانت التلبية؟ قال: إن إبراهيم عليه السلام لما أمر أن يؤذن في الناس بالحج أمرت الجبال فخفضت رؤوسها، ورفعت له القرى، فأذن في الناس بالحج^(١).

فهذا الأثر يدل على أن أهم مناسك الحج كانت مشروعة في دين إبراهيم عليه السلام أيضاً، وأبناؤه الأنبياء سائرون على هديه وطريقته، وهذا له شواهد كثيرة لا يتسع المقام لاستيفائها^(٢)، ومن أصرحها مع جودة الإسناد ما جاء عن ابن عباس أنه قال: «لقد سلك فجّ الروحاء سبعون نبياً حجاجاً، عليهم ثياب الصوف، ولقد صلى في مسجد الخيف سبعون نبياً^(٣)».

وأصح منه ما ورد من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ لما مرّ بوادي الأزرق قال: «كأني أنظر إلى موسى عليه السلام واضعاً إصبعه في أذنه، له جوار إلى الله بالتلبية، ماراً بهذا الوادي»، ولما جاء ثنية هرشى قال: «كأني أنظر إلى يونس عليه السلام

(١) أخرجه الطيالسي (٢٨٢٠) - ومن طريقه البيهقي في السنن ١٥٣/٥ - وأحمد ٢٩٧/١ رقم (٢٧٠٧)، والطبراني في الكبير (١٠٦٢٨) وغيرهم بإسناد حسن، وله شواهد تقويه.

(٢) انظرها في شعب الإيثار ٥/٤٥٧-٤٦٠، وتحقيق فوائد المتقي لزوائد البوصيري (كتاب الحج) ص ٧٧٦ رسالة دكتوراه.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک ٢/٥٩٨ - وعنه البيهقي في السنن ١٧٦/٥ - ورجاله موثقون إلا أن فيه ابن إسحاق مدلس، وقد عنعن، لكنه ينجر بشواهد.



على ناقة حمراء، عليه جبة صوف وخطام ناقته خلبة، ماراً بهذا الوادي ملياً^(١).
 وورد في حديث علي رضي الله عنه: «أكثر دعائي ودعاء الأنبياء قبلي بعرفة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير...»
 الحديث^(٢).

وهكذا الحكم في بقية أصول العبادات في الإسلام، كالجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونسك الذبائح^(٣).

(١) أخرجه مسلم كتاب الإيمان ١/ ١٥٢ رقم (١٦٦)، وظاهر قوله ﷺ: «كأنني أنظر» أنه لم يرههم رؤيا عين، وإنما أوحى إليه حالهم وما كان منهم على وجه التحقيق، فصار يقينه كالمشاهدة، وفي المسألة أقوال أخرى منها: أنه ﷺ أرى حالهم ومثلوا له في حال حياتهم، ومنها أنها رؤيا منام، ومنها أنهم يعملون ذلك وهم في قبورهم، كما ورد في الحديث الآخر أن النبي ﷺ مر بموسى وهو قائم يصلي في قبره، والوجهان الأخيران لا يقتضيان أنهم حجوا في شريعتهم، ولهذا السبب أخرت الاستدلال بهذا الحديث لاحتماله، ولشرح الحديث يراجع إكمال المعلم للقاضي عياض ١/ ٥١٦.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٢٠) والطبراني في الدعاء (١٦٠٢/٢)، وابن خزيمة ٤/ ٢٦٤، والبيهقي ٥/ ١١٧ وغيرهم بإسناد ضعيف، فيه موسى بن عبيدة الربذي ضعيف، وأخوه عبد الله لم يدرك علياً، لكن للحديث شواهد عدة تقويه انظرها في السلسلة الصحيحة (١٥٠٣)، وتحقيق فوائد المنتقى ص ٣٤٨ وص ٦٧٧.

(٣) ولعلهم أن دين الإسلام ناسخ الأديان السابقة، وأن ما جاء فيها من الحق فقد أتى به =

وهذا يدل على أن العبادات الكبرى في الإسلام كانت مشروعة على الأنبياء السابقين إجمالاً، ولكنها ربما اختلفت في الهيئة والكيفية والوقت، قال شيخ الإسلام: (إذا تدبرت القرآن والتوراة وجدتهما يتفقان في عامة المقاصد الكلية، من التوحيد، والنبوات، والأعمال الكلية، وسائر الأسماء والصفات، من كان له علم بهذا علم علماً ضرورياً ما قاله النجاشي: «إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة»، وما قاله ورقة بن نوفل: «إن هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى»^(١).

ومن فوائد ذلك: أنه إذا عُلِمَ اتحاد الرسل في أصول الشرائع الكلية مع تباعد أزمانهم عُلِمَ صدقهم فيما أخبروا به عن الله، حيث أخبر محمد ﷺ بمثل ما أخبر به موسى ﷺ من غير تواطؤ أو اتفاق.

ومن فوائده أنه آية على نبوة محمد ﷺ، حيث أخبر بمثل ما أخبرت به الأنبياء من غير تعلم من بشر، وهذه الأمور هي من الغيب، قال تعالى: ﴿تِلْكَ

=الإسلام وزيادة، ولا يجوز العمل بشيء منها على أنه من دين الحق، لأنه منسوخ، وإنما يعمل به لأنه جاء به دين الإسلام، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

(١) شرح الأصبهانية ص ٦٨٧.



مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ
الْعَقِيبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ [هود: ٤٩].

وهذا يتبين مطابقة دعوة النبي ﷺ لدعوة الأنبياء قبله في أصول الدين العامة، وهذا دليل صدقه، وأن الله أرسله وبعثه بما بعث به الأنبياء قبله، فإنه كان نبياً أمياً لا يقرأ ولا يكتب، فمن أين له أن يعلم ذلك إلا بوحي من الله سبحانه؟!.

وهذا المسلك - أعني مقارنة ما جاء به النبي ﷺ بما جاء به الأنبياء قبله - سلكه النجاشي ملك الحبشة، فإنه سأل الصحابة الذين هاجروا إليه عنه، فتكلم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: (أيها الملك؛ كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، يأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك؛ حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، قال: فعددت عليه أمور

الإسلام، فصدقناه وآمنّا به، واتبعناه على ما جاء به، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئاً، وحرّمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا، وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله... إلى أن قال: فقال له النجاشي هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ قالت: فقال له جعفر: نعم. فقال له النجاشي: فاقرأه علي، فقرأ عليه صدرّاً من ﴿كَهَيَّعَ﴾ [مريم: ١]، قالت: فبكى والله النجاشي حتى أخضل لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال النجاشي: «إن هذا والله والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة»^(١)، ولا يسع من عرف ما جاء به الأنبياء السابقون إلا أن يقول مثل قوله، ويؤمن بشريعة النبي ﷺ كما آمن.

قال شيخ الإسلام: (فالنبي الثاني يعلم صدقه بأمور منها:

إخبار النبي الأول به، كما بشر بنينا محمد عليه أفضل الصلاة وأكمل السلام الأنبياء قبله، وكذلك بشر بالمسيح الأنبياء قبله.

وتارة يعلم صدقه بأن يأتي بمثل ما أتوا به من الخبر والأمر؛ فإن الكذاب الفاجر لا يتصور أن يكون في أخباره وأوامره موافقاً للأنبياء، بل لا بد أن يخالفهم في الأصول الكلية التي اتفق عليها الأنبياء كالتوحيد والنبوت والمعاد،

(١) تقدم تخريجه عند الكلام على صفة الأمانة.



===== صلة رسالة النبي ﷺ برسالة إخوانه الأنبياء ﷺ من خلال السنة النبوية =====

كما أن القاضي الجاهل أو الظالم لا بد أن يخالف سنة القضاة العالمين العادلين، وكذلك المفتي الجاهل أو الكاذب، والطبيب الكاذب، أو الجاهل، فإن كل هؤلاء لا بد أن يتبين كذبهم أو جهلهم بمخالفتهم لما مضت به سنة أهل العلم والصدق^(١).

وليعلم أن اتفاقه ﷺ مع إخوانه من الأنبياء في عموم الصفات وأصول الشرائع لا يقتضي التساوي والتماثل، بل خصه ربه سبحانه بصفات استحق بها ﷺ أن يكون أفضل الأنبياء وخاتمهم، وخص أمته وشريعته بمزايا وفضائل لا توجد في الأمم السابقة وستأتي الإشارة إلى شيء منها.

(١) شرح الأصبهانية ص ٦٨٤-٦٨٥.



الفصل الثاني

نقدية النبي ﷺ على إخوانه من الأنبياء في الفضل والنشريع

وفيه أربعة مباحث:

- المبحث الأول: ثبوت فضله ﷺ على سائر الأنبياء.
- المبحث الثاني: نهيه ﷺ عن تفضيله على الأنبياء، وبيان الحكمة في ذلك.
- المبحث الثالث: فضل أمته ﷺ على سائر الأمم.
- المبحث الرابع: فضل شريعته على جميع الشرائع.

ایض

المبحث الأول

ثبوت فضله ﷺ على سائر الأنبياء

فضل الأنبياء على جميع الخلق أمر ظاهرٌ متفق عليه بين أهل العلم في الشرائع كلها^(١)، والأنبياء والرسل فيما بينهم متفاضلون في الخلق والخلق والكتاب والشرعة، قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْ كَلَمِ اللَّهِ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥]، وأفضلهم أولو العزم، وأفضل أولي العزم الخليلان: إبراهيم ومحمد ﷺ، وأفضلهما محمد ﷺ، فهو أفضل الأنبياء بل الخلق أجمعين، وما تفرق من صفات الفضل في الأنبياء اجتمعت فيه ﷺ، وورد في نصوص كثيرة التنصيص على ذلك، وبيان وجه التفضيل فمنها:

١ - ختمه لرسالات الأنبياء. قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقال ﷺ: «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١١/٢٢١.

اللبننة؟ قال: فأنا اللبننة، وأنا خاتم النبيين» متفق عليه من حديث أبي هريرة^(١).
ومعنى ختم النبوة بنبوته ﷺ: أنه لا تُبتدأ نبوة، ولا تشرع شريعة بعد
نبوته، وشرعته^(٢).

٢ - الفضائل الست المذكورة في حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ:
«فُضِّلَتْ على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت
لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأرسلت إلى الخلق كافة،
وختم بي النبيون» رواه مسلم^(٣).

٣ - الفضائل الواردة في حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا
سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول
مُشَفِّع^(٤)»^(٥)، والتنصيب على السيادة دليل على التفضيل؛ لأن السيد هو الذي

(١) صحيح البخاري كتاب المناقب باب خاتم النبيين ٥٥٨/٦ رقم (٣٥٣٥)، ومسلم كتاب

الفضائل باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين ١٧٩١/٤ رقم (٢٢٨٦).

(٢) انظر: لوامع الأنوار ٢/٢٧٧.

(٣) صحيح مسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة ١/٣٧١ رقم (٥٢٣).

(٤) أي: أول من تجاب شفاعته. شرح مسلم للنووي ١٥/٣٧.

(٥) صحيح مسلم كتاب الفضائل باب تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق ٤/١٧٨٢ رقم



يفوق قومه، وخصَّ يوم القيامة بالذكر؛ لظهور سؤدده في ذلك المقام لكل أحد من غير منازعة، بخلاف الدنيا فقد نازعه فيه ملوك الكفار وزعماء المشركين، وهذا قريب من قوله تعالى: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ^ط﴾ [غافر: ١٦]، أو من يضاف إليه مجازاً، فانقطع كل ذلك في الآخرة^(١).

٤ - الفضائل الواردة في حديث الإسراء والمعراج من إمامته للأنبياء، ثم استبشارهم به في كل سماء يأتيها، ومناجاته ربه في الموضع الأعلى، وغير ذلك من الفضائل المذكورة في الحديث.

٥ - أكثر الأنبياء تبعاً، وفي حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة»، وفي لفظ: «لم يُصدّق نبي من الأنبياء ما صدقت، وإن من الأنبياء نبياً ما يصدقه من أمته إلا رجل واحد»^(٢).

ومن فضائله: أخذ الميثاق بالإيمان به على جميع الأنبياء قبله، ومنها: فضل شريعته التي أرسل بها، ومنها: فضل أمته، وسيأتي الكلام على هذه الفضائل الثلاث في المباحث التالية.

(١) انظر: إكمال المعلم ٢٣٧/٧، وشرح مسلم للنووي ٣٧/١٥.

(٢) أخرجه الإمام مسلم كتاب الإيمان باب قول النبي ﷺ: «أنا أول الناس يشفع يوم القيامة» ١٨٨/١ رقم (١٩٦).

ومن فضائله ﷺ: القرآن الكريم، كلام الله، الذي أعجز أهل الفصاحة والبلاغة أن يأتوا بآية مثله، والذي تكفل الله بحفظه إلى قيام الساعة، ومنها: المقام المحمود الذي وعده به ربه، وهو الشفاعة العظمى، ومنها: الوسيلة، وهي منزلة في الجنة، ومنها: الكوثر، وهو نهر في الجنة، وغير ذلك من الفضائل.

وقد ذكر الحافظ ابن حجر جملة من الأحاديث المشتملة على الخصال التي اختص بها نبينا محمد ﷺ عن سائر الأنبياء، ثم قال: (قلت فينتظم بهذا سبع عشرة خصلة، ويمكن أن يوجد أكثر من ذلك لمن أمعن التتبع)، قال: (وقد ذكر أبو سعيد النيسابوري في كتاب شرف المصطفى أن عدد الذي اختص به نبينا ﷺ عن الأنبياء ستون خصلة)^(١).

وإخباره ﷺ عن فضائله ليس من باب الفخر الذي يراد به الاستعلاء، بل هو على جهة الامتثال لأمر ربه بالتحدث بنعمه عليه في قوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، وعلى جهة الامتثال لأمر ربه بتبليغ ما أوحى إليه في قوله: ﴿يَتَأْتِيَكَ الرَّسُولُ بِلَغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ط﴾ [المائدة: ٦٧]^(٢).

(١) فتح الباري ١/ ٤٣٩.

(٢) انظر: شرح مسلم للنووي ١٥/ ٣٧.



المبحث الثاني

نهيه ﷺ عن تفضيله على الأنبياء، وبيان الحكمة في ذلك

ومع ثبوت فضله ﷺ على سائر الأنبياء والبشر، فقد ورد عنه في أحاديث نهيه ﷺ عن تفضيله على إخوانه من الأنبياء أو نفيه للتفضيل، ومنها:

(١) حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «استب رجل من المسلمين، ورجل من اليهود، فقال المسلم: والذي اصطفى محمداً ﷺ على العالمين في قسم يقسم به، فقال اليهودي: والذي اصطفى موسى على العالمين، فرفع المسلم عند ذلك يده، فلطم اليهودي، فذهب اليهودي إلى النبي ﷺ، فأخبره الذي كان من أمره وأمر المسلم، فقال: لا تخبروني على موسى؛ فإن الناس يصعقون، فأكون أول من يفيق، فإذا موسى باطش بجانب العرش، فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلي، أو كان ممن استثنى الله» متفق عليه^(١)، وفي لفظ عندهما: «لا تفضلوا بين أنبياء الله»، وفي لفظ عند مسلم: «ولا أقول إن أحداً أفضل من يونس بن متى عليه السلام»، وبمعناه حديث أبي سعيد الخدري.

(١) صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء باب وفاة موسى ٤٤١/٦ رقم (٣٤٠٨)، وصحيح مسلم كتاب الفضائل باب من فضائل موسى عليه السلام ١٨٤٣/٤ رقم (٢٣٧٣).

(٢) حديث ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «ما ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى» متفق عليه^(١)، وهو مروي عن جماعة من الصحابة كابن مسعود وأبي هريرة وعبد الله بن جعفر وغيرهم.

(٣) عن أنس بن مالك قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال له: يا خير البرية، فقال رسول الله ﷺ: «ذاك إبراهيم خليل الله» أخرجه مسلم^(٢). وهذا النهي يعارض في الظاهر ما تقدم من إخباره ﷺ أنه أفضل الأنبياء، وهو محمول عند أهل العلم على أوجه:

- أ/ أن النهي كان قبل علم النبي ﷺ بتفضيله على جميع الأنبياء.
- ب/ أن النهي محمله على تواضعه ﷺ، وأدبه مع إخوانه الأنبياء.
- ج/ أن النهي في مجادلة في أهل الكتاب كما وقع في حديث أبي هريرة، لأن المخايرة إذا وقعت بين أهل دينين لا يؤمن أن يخرج أحدهما إلى الازدراء بالآخر، فيفضي إلى الكفر.

(١) صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء باب قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ يُوسُفُ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ٤٥٠/٦ رقم (٣٤١٣)، وصحيح مسلم كتاب الفضائل باب في ذكر يونس عليه السلام ١٨٤٦/٤ رقم (٢٣٧٧).

(٢) صحيح مسلم كتاب الفضائل باب من فضائل إبراهيم عليه السلام ١٨٣٩/٤ رقم (٢٣٦٩).



د/ أن المنهي عن تعيين المفضل، أما تفضيل بعضهم على بعض في الجمل فلا بأس به.

هـ/ أن المنهي عنه التفضيل من جهة النبوة التي هي خصلة واحدة لا تفاضل فيها كقوله تعالى: ﴿لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وإنما التفاضل في الخصاص والمحن ونحوها.

و/ أن المنهي عنه هو التفضيل الذي يؤدي إلى الخصومة والفتنة، ويدل عليه سبب ورود حديث أبي هريرة وأبي سعيد.

ز/ أن المنهي عنه هو التفضيل الذي يؤدي إلى توهم النقص في المفضل أو الغض منه أو الإضرار به، ويؤيده التنصيص على يونس عليه السلام، فإنه يخشى على من سمع قصته أن يقع في نفسه تنقيص له^(١).

والأوجه الثلاثة الأخيرة هي أحسن ما وجه به الحديث، وأحسنها آخرها، قال الخطابي: (معنى هذا: ترك التخيير بينهم على وجه الإضرار ببعضهم؛ فإنه ربما

(١) انظر هذه المسألة في: المنهاج للحلي ١١٧/٢، والشفا ٢٢٥/١، وشرح مسلم للنووي ٣٨/١٥، وشرح الطحاوية لابن أبي العز ١٥٨، وفتح الباري لابن حجر ٤٤٦/٦ و٤٥٢/٦، واللفظ المكرم للخيزري ٨٦/٢، ومباحث المفاضلة في الاعتقاد ص ١٦٠ - ١٦٦، وفي الكتاب الأخير مناقشات مفيدة في هذه المسألة.

أدى ذلك إلى فساد الاعتقاد فيهم، والإخلال بالواجب من حقوقهم وبفرض الإيمان بهم، وليس معناه: أن يعتقد التسوية بينهم في درجاتهم، فإن الله سبحانه قد أخبر أنه قد فاضل بينهم^(١)، وهذا هو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية^(٢).

(١) معالم السنن ٥/ ٥٢.

(٢) مجموع الفتاوى ١٤/ ٤٣٦.

المبحث الثالث

فضل أمته ﷺ على سائر الأمم

أمة النبي ﷺ خير الأمم وأرفعها درجة ومنزلة عند الله، وهي وإن تأخرت زمناً فقد سبقت فضلاً وقدرًا، فقد سبقت الأمم بفضل نبيها الذي هو سيد الأولين والآخرين، وفاقت الأمم بفضل شريعته خير الشرائع وأكملها وأيسرها، وفاقت الأمم بكمال إيمانها، فإنها آمنت بالأنبياء السابقين جميعاً على الوجه الصحيح، ولم تفرق بين أحد منهم، وآمنت بخاتمهم محمد ﷺ، ولا شك أن الإيمان يزيد بزيادة المؤمن به.

ومما ورد من النصوص في فضل هذه الأمة:

١- قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ

عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

٢- قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، أي:

عدولاً خياراً، وهم وسط عدول في اعتقاداتهم وأعمالهم بين الأمم، ومن ذلك وسطيتهم في باب الأنبياء والرسل، فهم وسط بين اليهود الجافين الذين قتلوا الأنبياء والمرسلين، وبين النصارى الغالين الضالين، الذين جعلوا للأنبياء

صفات رب العالمين.

٣- حديث ابن مسعود قال: قال لنا رسول الله ﷺ: «أما ترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟ قال: فكبرنا، ثم قال: أما ترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟ قال: فكبرنا، ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة، وسأخبركم عن ذلك، ما المسلمون في الكفار إلا كشعرة بيضاء في ثور أسود أو كشعرة سوداء في ثور أبيض» متفق عليه^(١) وثبت في حديث الإسراء أن موسى عليه السلام بكى غبطة له ﷺ، وأسفاً على ما فاتته من مرتبته، ففي الصحيح: «فلما تجاوزت بكى -يعني موسى عليه السلام-، قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاماً بُعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي»^(٢).

٤- حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، ونحن أول من يدخل الجنة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا،

(١) أخرجه البخاري كتاب الرقاق باب الحشر ١١/ ٣٧٨ رقم (٦٥٢٨)، ومسلم في صحيحه

كتاب الإيمان باب كون هذه الأمة نصف أهل الجنة ١/ ٢٠٠ رقم (٢٢١).

(٢) أخرجه البخاري كتاب المناقب باب صفة النبي ﷺ ٧/ ٢٠١ رقم (٣٨٨٧)،

وصحيح مسلم كتاب الإيمان باب الإسراء برسول الله ﷺ ١/ ١٤٩ رقم (١٦٤) من

حديث أنس.



وأوتيناه من بعدهم، فاختلفوا فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق، فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه، هدانا الله له، قال: يوم الجمعة، فاليوم لنا، وغدا لليهود، وبعد غد للنصارى» متفق عليه^(١).

٥ - حديث معاوية بن حيدة أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إنكم تتمون سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله»^(٢).

٦ - حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس، أوتي أهل التوراة التوراة، فعملوا حتى إذا انتصف النهار عجزوا، فأعطوا قيراطاً قيراطاً، ثم أوتي أهل الإنجيل الإنجيل، فعملوا إلى صلاة العصر، ثم عجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً، ثم أوتينا القرآن، فعملنا إلى غروب الشمس، فأعطينا قيراطين قيراطين، فقال أهل الكتابين: أي ربنا أعطيت هؤلاء قيراطين قيراطين، وأعطينا قيراطاً

(١) صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء باب ٦ / ٥١٥ رقم (٣٤٨٦)، وصحيح مسلم

كتاب الجمعة باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة ٢ / ٥٨٤ رقم (٨٥٥).

(٢) أخرجه أحمد ٤ / ٤٤٧ رقم (٢٠٠١١)، والنسائي في الكبرى (١١٣٦٧) والطبراني في

الكبير ١٩ / رقم (١٠٣٦) وغيرهم من طريق حكيم بن معاوية عن أبيه، وإسناده حسن، حكيم صدوق.

قيراطاً، ونحن كنا أكثر عملاً، قال: قال الله ﷻ: هل ظلمتكم من أجركم من شيء؟ قالوا: لا. قال: «فهو فضلي أوتيته من أشياء» أخرجه البخاري^(١).

(١) صحيح البخاري كتاب مواقيت الصلاة باب من أدرك ركعة من العصر قبل الغروب ٣٨ / ٢ رقم (٥٥٧).

وأرى من المناسب هنا أن أشير إلى أنه ورد في إنجيل متى معنى هذا المثل المضروب في الحديث، نقله صاحب كتاب إظهار الحق ١١٧٧ / ٤، وهذا دليل واضح للنصارى على صحة رسالة النبي ﷺ من جهتين: الأولى التبشير به وبأتمته الذين يسبقون من تقدمهم في الأجر، والثانية: اتفاق هذا الخبر مع ما أخبر به نبينا ﷺ، وهذا يؤكد للنصارى أنه نبي يوحى إليه بما أوحى إلى الأنبياء قبله كعيسى ﷺ.

المبحث الرابع

فضل شريعته على جميع الشرائع

وبيان ذلك من أوجه منها:

(١) عمومها.

رسالة النبي ﷺ عامة للناس جميعاً، لا يختص بها قوم دون قوم، أو جنس دون جنس، فهو مرسل للعرب والعجم، والأبيض والأسود والأحمر، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال: ﴿قُلْ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وفي حديث جابر المتقدم: «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة»، وفي رواية: «بعثت إلى الأحمر والأسود»^(١).

وكان الأنبياء قبله يرسلون إلى أقوامهم خاصة، ويتكرر في القرآن في قصص الأنبياء التنبيه على ذلك بقوله: ﴿إِلَى قَوْمِهِ﴾. وإذا ثبت عموم رسالته فإنه لا يسع أحداً علم بشريعته ﷺ إلا الإذعان لها، والإيمان والعمل بما فيها.

(١) صحيح مسلم (٥٢١)، وتقدم تخريج الحديث.

ومن ادعى من أهل الكتاب بأنه رسول للعرب خاصة، فقوله ظاهر البطلان؛ لأن من صدّق برسالته ﷺ، لزمه تصديقه في كل ما يخبر به، وقد قال ﷺ: إنه رسول للناس عامة^(١).

٢) نسخها لجميع ما قبلها من الشرائع.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»^(٢)، قال النووي: (فيه دلالة على نسخ الملل كلها برسالة نبينا محمد ﷺ)، وقال: (وإنما ذكر اليهودي والنصراني تنبيهاً على من سواهما، وذلك لأن اليهود والنصارى لهم كتاب، فإذا كان هذا شأنهم مع أن لهم كتاباً فغيرهم ممن لا كتاب له أولى، والله أعلم)^(٣).

قلت: ويؤكد ذلك ويوضحه، أن عيسى ﷺ ينزل في آخر الزمان حاكماً

(١) الجواب الصحيح ٢/ ٣٨-٤٢، وشرح الطحاوية لابن أبي العز ص ١٧٠.

(٢) صحيح مسلم كتاب الإيمان باب وجوب الإيمان برسالة النبي ﷺ ١/ ١٣٤ رقم (١٥٣).

(٣) شرح مسلم ٢/ ١٨٨.



===== صلوة رسالة النبي ﷺ برسالة إخوانه الأنبياء ﷺ من خلال السنة النبوية =====

بشريعته ﷺ، فيُنزل ويكسر الصليب الذي هو شعار دين النصرانية المحرفة، ويقتل الخنزير^(١).

فإذا كان عيسى ﷺ لا يسعه إلا إتباع شريعة محمد ﷺ، فإيمان أتباعه الذين يدعون الإيمان به وتعظيمه بالشريعة الخاتمة أوجب وأولى.

٣) بقاؤها إلى يوم القيامة ظاهرة على الحق، وبقاء كتابها.

ويدل لذلك حديث معاوية أن رسول الله ﷺ قال: «لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم، أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس» متفق عليه^(٢)، والظهور ظهور قوة وغلبة، وظهور حجة وبرهان.

ومما يعينها على ذلك بقاء كتابها القرآن الكريم محفوظاً بحفظ الله ﷻ له، قال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، ويلتحق به حفظ

(١) ثبت في حديث أبي هريرة في الصحيحين. صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء باب نزول عيسى بن مريم ﷺ ٦/ ٤٩٠ رقم (٣٤٤٨)، وصحيح مسلم كتاب الإيمان باب نزول عيسى بن مريم حاكماً بشريعة نبينا محمد ﷺ ١/ ١٣٥ رقم (١٥٥).

(٢) صحيح البخاري كتاب المناقب ٦/ ٦٣٢ رقم (٣٦٤١)، وصحيح مسلم كتاب الإمارة ٣/ ١٥٢٤ رقم (١٠٣٧).

السنة، فإن السنة شارحة للكتاب، ولا يتم العمل بالقرآن إلا بها.

وواقع الحال يشهد لحفظ الكتاب والسنة، بل الشريعة أجمع، فهي بأيدي الناس مصونة محفوظة، منقولة بالأسانيد الصحيحة الثابتة.

(٤) كماها، وهدايتها إلى ما لم يكن في الشرائع السابقة.

إذا كانت الشريعة عامة بالنسبة للمرسل إليهم، فهي عامة أيضاً بالنسبة إلى كل ما يحتاج إليه من خوطب به في أصول الدين وفروعه، فهي كافية شافية عامة لا تحوج إلى ما سواها، ولا يخرج نوع من أنواع الحق عما جاءت به^(١)، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وهذه الآية من أعظم ما نزل في المنة على أهل الإسلام؛ بإكمال الدين وإتمام الشريعة، ولذا قال أحد اليهود لعمر بن الخطاب: «يا أمير المؤمنين، آية في كتابكم تقرؤونها، لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً. قال: أي آية؟ قال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾. قال عمر: قد عرفنا ذلك اليوم، والمكان الذي نزل فيه على النبي ﷺ، وهو قائم بعرفة يوم الجمعة» متفق عليه^(٢).

(١) انظر: إعلام الموقعين ٤/ ٣٧٥.

(٢) صحيح البخاري كتاب الإيمان باب زيادة الإيمان ونقصانه ١/ ١٠٥ رقم (٤٥)، وصحيح =



ومن أوجه كمالها: هدايتها إلى أمور لم تهتد الأمم السابقة للحق فيها، ووفق الله هذه الأمة لها، ومن ذلك: يوم الجمعة، والقبلة ونحو ذلك، ومنه اختلاف اليهود والنصارى في نسبة إبراهيم لليهودية أو للنصرانية، والحق أنه حنيف موحد، واختلافهم في أمر عيسى بين الغلو في جعله إلهاً، وبين تنقصه وذمه، والحق الوسط الذي هديت إليه هذه الأمة^(١).

(٥) يسرها وبعدها عن الآصار والأغلال التي كانت على الأمم السابقة.

اليسر صفة ظاهرة في أحكام الشريعة، وليس فيها -بحمد الله- تكليف للعباد بما لا يطيقونه أو يشق عليه مشقة بالغة، وقد وصف النبي ﷺ الدين بأنه يسر^(٢)، فاليسر ملحوظ في جميع الأحكام الشرعية، وهو من حكم تشريعها، قال تعالى بعد ذكره لتشريع الصيام: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، بل هو مقصد عظيم من مقاصد الرسالة نفسها، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ

=مسلم كتاب التفسير ٤/ ٢٣١٢ رقم (٣٠١٧).

(١) انظر: منهاج السنة ٥/ ١٧٨-١٨٠.

(٢) أخرجه البخاري كتاب الإيمان باب الدين يسر ١/ ٩٣ رقم (٣٩) من حديث أبي هريرة.

وَيَنْهَهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴿١٥٧﴾ [الأعراف: ١٥٧]، أي: أنه جاء بالتييسير والسماحة، وقد كانت الأمم الذين كانوا من قبلنا في شرائعهم ضيق عليهم، فوسع الله على هذه الأمة أمورها، وسهلها لهم^(١).

وليعلم أن تقرير فضل شريعته على الشرائع السابقة يقتضي وجوب الإيمان بها وبنبيها، والعمل بأحكامها، والإذعان لها، وقد تقدمت الإشارة إلى شيء من ذلك، قال شيخ الإسلام: (ثم نبوة عين هذا النبي تكون ظاهرة؛ لأن الذي جاء به أكمل مما جاء به جميع الأنبياء، فمن أقر بجنس الأنبياء كان إقراره بنبوة محمد في غاية الظهور أبين مما أقر أن في الدنيا نحاة وأطباء وفقهاء، فإذا رأى نحو سيبويه وطب أبقرط وفقه الأئمة الأربعة ونحوهم كان إقراره بذلك من أبين الأمور، ولهذا كان من نازع من أهل الكتاب في نبوة محمد إما أن يكون لجهله بما جاء به، وهو الغالب على عامتهم، أو لعناده وهو حال طلاب الرياسة بالدين منهم)^(٢).

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٤٨٩/٣.

(٢) النبوات ٢٠٢/١.



الفصل الثالث

ذكر الأنبياء للنبي ﷺ، وذكره ﷺ لهم

وفيه مبحثان:

- المبحث الأول: علمهم ﷺ ببعثته، وتبشيرهم به.
- المبحث الثاني: ذكره ﷺ للأنبياء قبله.

ایض



المبحث الأول

علمهم ﷺ ببعثته ، وتبشيرهم به

من الأمور المقررة الثابتة أن الأنبياء جميعاً كانوا يعلمون ببعثته ﷺ بإخبار الله سبحانه لهم، وأنه أخذ الميثاق عليهم بأن يؤمنوا به وينصروه لو بعث وهم أحياء، قال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَضْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَضْنَا ۖ قَالَ فَآشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ۖ﴾ [آل عمران: ٨١]. قال ابن عباس وعلي وغيرهما من السلف: «ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق: لئن بعث محمدٌ وهو حي ليؤمنن به ولننصرنه»^(١)، وجاء في حديث الإسراء أن الأنبياء كانوا يقولون حين..... «أوحى إليه؟»^(٢)، وهذا فيه إشارة إلى أنهم كانوا يتحرون ببعثته.

وبلغ الأنبياء ﷺ هذا لأقوامهم، وأمروهم بالإيمان به إذا بعث، وهو مسطر في كتبهم التي أنزلها الله عليهم ليكون أبلغ في الحجة على المعاندين

(١) انظر: الجواب الصحيح ١٢٠/٢، وتفسير ابن كثير ٦٧/٢.

(٢) تقدم تخريج حديث الإسراء.

والجاحدين من أهل الكتاب، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، فدللت الآية على أن صفة الرسول مكتوبة عندهم أيضاً، وكان من أكثرهم تبشيراً به عيسى عليه السلام لقرب زمنه منه، قال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ﴾ [الصف: ٦].

وصفته ﷺ وعلاماته ودعوته وصفة أمته ووقت ومكان مخرجه موجودة في كتب الأنبياء، بشروا أمهم ببعثته، وأمروهم بمتابعتة، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم يعرفها علماءهم وأخبارهم^(١)، قال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ ءَايَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاتُؤُا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧]، وأخبر الله سبحانه أنهم يعرفون نبينا محمداً ﷺ كما يعرفون آبائهم، لوضوح صفته في كتبهم، وتكرر الإشارة إلى بعثته.

أخرج البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قيل له: «أخبرني عن

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٣/ ٤٨٣.



صفة رسول الله ﷺ في التوراة؟ قال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ، ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء؛ بأن يقولوا لا إله إلا الله، ويفتح بها أعينا عمياً، وآذانا صماً، وقلوباً غُلْفاً^(١).

وورد في كتب السنة والسير أخبار كثيرة عن الأحبار والرهبان، يخبرون ببعثته ﷺ، أو يذكرون صفته، مما في كتبهم، وهي كثيرة مذكورة في كتب دلائل النبوة والسير، وتقدم في هذا البحث ذكر قصة هرقل، والنجاشي، ومن ذلك ما ورد في قصة إسلام سلمان الفارسي رضي الله عنه، وهي قصة طويلة، وفيها: «أن راهب عمورية لما حضره الموت طلب منه سلمان أن يوصي به إلى أحد على دينه، فقال: أي بني، والله ما أعلمه أصبح على ما كنا عليه أحدٌ من الناس أمرك أن تأتيه، ولكن قد أظلك زمان نبي هو مبعوث بدين إبراهيم، يخرج بأرض العرب، مهاجراً إلى أرض بين حرتين، بينهما نخل، به علامات لا تخفى: يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوة» الحديث، وفيه أن سلمان لما قدم على

(١) صحيح البخاري كتاب البيوع باب كراهية السخب في السوق ٣٤٢/٤ رقم (٢١٢٥).

النبي ﷺ استثبت من وجود تلك الصفات، فوجدها كلها^(١).

ومن ذلك حديث أبي صخر العقيلي قال: حدثني رجل من الأعراب قال: «جلبت جلوبة إلى المدينة في حياة رسول الله ﷺ، فلما فرغت من بيعتي قلت: لألقين هذا الرجل فلاسمعن منه، قال: فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمشون، فتبعتهم في أقفائهم، حتى أتوا على رجل من اليهود ناشراً التوراة يقرأها يعزي بها نفسه على ابن له في الموت كأحسن الفتيان وأجمله، فقال رسول الله ﷺ أنشدك بالذي أنزل التوراة، هل تجد في كتابك ذا صفتي ومخرجي؟ فقال برأسه هكذا، أي: لا، فقال ابنه: إني والذي أنزل التوراة، إنا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك، وأشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله، فقال: أقيموا اليهود عن أخيكم، ثم ولي كفنه وحنطه وصلى عليه»^(٢).

ومع ما وقع في كتب أهل الكتاب من التحريف والتبديل، والحذف والنقص، وحرص أكثرهم على إخفاء ما يدل على نبوة محمد ﷺ من كتبهم،

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٤٤١ / ٥ رقم (٢٣٧٣٧)، وإسناده حسن، وللتوسع في تخريجه تراجع حاشية محققي المسند في هذا الموضع.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٤١١ / ٥ رقم (٢٣٤٩٢)، وفي إسناده ضعف، لكن قال ابن كثير في تفسيره ٤٨٣ / ٣: (هذا حديث جيد قوي له شاهد في الصحيح، عن أنس).



فقد بقيت فيها إشارات كثيرة واضحة تشير إلى بعثته ﷺ، ووجوب الإيمان به، وقد جمعت في كتب وبحوث كثيرة^(١)، ومن أمثلة ذلك ما جاء في التوراة المعاصرة: (جاء الرب من سيناء، وأشرق لهم من جبال سعير، وتلاًلاً من جبل فاران، وأتى من ربوات القدس، وعن يمينه نار شريعة لهم)^(٢)، ففي الجملة الأولى إشارة إلى جبل الطور بسيناء الذي كلم الله فيه موسى ﷺ، وجبال سعير إشارة إلى الموضع الذي أنزل الله فيه الإنجيل على عيسى ﷺ، فإن ساعير أو سعير هي أرض الخليل، وفيها قرية الناصرة التي ولد فيها المسيح، وفي الجملة الثالثة وهي: (وتلاًلاً من جبل فاران) إشارة إلى نبوة محمد ﷺ، فإن فاران اسم عبراني أطلق في التوراة على المكان الذي أقامت فيه هاجر مع ابنها إسماعيل، وهو مكة كما هو معلوم^(٣)، فجمعت هذه الجملة نبوة الأنبياء الثلاثة: موسى، وعيسى، ومحمد -عليهم الصلاة والسلام-.

(١) انظر مثلاً: الجواب الصحيح ١٦٠/٥ وما بعدها، وهداية الحيارى لابن القيم، وإظهار الحق لرحمة الله الهندي، والرسائل والرسالات للأشقر ص ١٦٧-١٩٤، وبحث محمد ﷺ في بشارات التوراة والإنجيل للدكتور الشفيع أحمد.

(٢) سفر التثنية ٣٣:٢ نقلاً عن «محمد ﷺ في بشارات التوراة والإنجيل» ص ٣٠.

(٣) المصدر السابق.



المبحث الثاني ذكره ﷺ للأنبياء قبله

وفيه ثلاثة مطالب:

- **المطلب الأول: أمره ﷺ بالإيمان بهم.**
- **المطلب الثاني: ذكره ﷺ لفضائلهم وقصصهم وبيان الحكمة في ذلك.**
- **المطلب الثالث: لقاءه ﷺ بهم.**

ایض



المطلب الأول

أمره ﷺ بالإيمان بهم

الإيمان بالأنبياء ركن من أركان دين نبينا محمد ﷺ، قال سبحانه: ﴿ءَاْمَنَ
الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاْمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا
نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وفي حديث عمر المشهور في قصة
جبريل قال النبي ﷺ: «الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله،
واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره» رواه مسلم^(١).

وعلماء المسلمين متفقون على ما دل عليه القرآن وما جاءت به أحاديث
المصطفى ﷺ من وجوب الإيمان بالرسل جميعاً، وعدم التفريق بينهم، وأن من
كذب نبياً معلوم النبوة أو سبه أو استقصه فهو كافر يجب قتله^(٢).

وصار نبي هذه الأمة وأتباعه أولى الناس بالأنبياء، لتصديقهم لهم،
واتباعهم لما جاءوا به، وهم بهذا الاعتبار أولى وأقرب إلى الأنبياء من أمهم التي
لم تؤمن بهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ

(١) صحيح مسلم كتاب الإيمان باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ١ / ٣٦ رقم (٨).

(٢) انظر: لوامع الأنوار ٢ / ٢٦٣.

وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴿[آل عمران: ٦٨]، وقال النبي ﷺ: «يجيء نوح وأمه، فيقول الله تعالى: هل بلغت؟ فيقول: نعم، أي رب. فيقول لأمه: هل بلغكم؟ فيقولون: لا، ما جاءنا من نبي. فيقول لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد ﷺ وأمه. فنشهد أنه قد بلغ، وهو قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، والوسط: العدل»^(١). وتقدم حديث: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم»، وفي حديث صيام عاشوراء: «فنحن أحق وأولى بموسى منكم -يعني اليهود-» متفق عليه^(٢).

ومن حكمته سبحانه أن جعل أول الرسل يبشر بآخرهم ويؤمن به، وآخرهم يصدق بأولهم ويؤمن به، فكأنهم كالشيء الواحد، ويصدق ذلك ما تقدم في حديث أبي هريرة في تشبيه الأنبياء بالبنيان، واللينة الأخيرة فيه هي نبينا محمد ﷺ.

(١) صحيح البخاري كتاب الأنبياء باب قول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ ٣٧١ / ٦ رقم (٣٣٣٩) من حديث أبي سعيد الخدري.

(٢) صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء باب قول الله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ ٤٢٩ / ٦ رقم (٢٣٩٧)، وصحيح مسلم كتاب الصيام باب صوم يوم عاشوراء ٧٩٦ / ٢ رقم (١١٣٠).

المطلب الثاني

ذكره ﷺ لفضائلهم وقصصهم وبيان الحكمة في ذلك

عقد المصنفون في السنة كتباً وأبواباً للأحاديث التي فيها ذكر الأنبياء وقصصهم ومناقبتهم، ومن ذلك مثلاً: صنيع الإمام البخاري رحمته الله فإنه عقد كتاباً سماه «أحاديث الأنبياء» خرج فيه (٢٠٩) حديث مرفوع^(١)، وخرج مسلم جملة وافرة من ذلك في كتاب الفضائل، وفي مواضع متفرقة من كتابه، وهكذا صنع أئمة الحديث، وليس المقصود هنا تتبع ذلك، فهو أمر ظاهر لمن طالع كتب السنة، إلا أن الأهم من ذلك تلمس الحكم والفوائد من قص النبي ﷺ لأخبارهم، وذكره لفضائلهم، ومن تلك الحكم والفوائد:

(١) بيان وجوب الإيمان بهم، وتعظيم قدرهم في النفوس بذكر صفاتهم وأحوالهم ومناقبتهم.

(٢) بيان صفتهم الحقّة، وإبطال ما نسب إليهم سواء أكان في جانب الغلو أم جانب الجفاء.

(٣) بيان اقتدائه ﷺ بإخوانه الأنبياء، وسيره على منهجهم، واستحضاره

(١) انظر: فتح الباري ٦/٥٢٤.

لأحوالهم، ويشهد لذلك ما تقدم من قوله ﷺ: «يرحم الله موسى لقد أودى بأكثر من هذا فصبر»، وقوله عام الفتح: «مثلي ومثلكم كما قال يوسف لإخوته: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]».

٤) إرشاد الأمة لاتباعهم والاهتداء بهديهم فيما لم ينسخ من شرائعهم.
٥) أخذ العظة والعبرة من قصصهم وأحوالهم مع أمهم على حد قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]، وسنة الله في الأمم واحدة.

٦) تثبيت المؤمنين بذكر مقامات الرسل وأتباعهم، وعاقبة ذلك الحميدة لهم، وذلك نحو ما جاء في حديث خباب بن الارت قال: «شكونا إلى رسول الله ﷺ، وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا؟، ألا تدعو لنا؟، فقال: قد كان من قبلكم، يؤخذ الرجل، فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار، فيوضع على رأسه، فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد، ما دون لحمه وعظمه، فما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون» أخرجه البخاري^(١).

(١) صحيح البخاري كتاب المناقب باب علامات النبوة في الإسلام ٦/٦١٩ رقم (٣٦١٢).



ولاشك أن إخباره ﷺ عن أحوال الأنبياء وقصصهم بما يوافق ما عند أهل الكتاب في كتبهم، وهو رجل أُمي، نشأ بين قوم أميين، ولم يكن يقرأ كتاباً، ولا يكتب بخطه شيئاً، من أعظم الدلائل على صدق نبوته، وأنه إنما تلقى ذلك بوحي عن الله سبحانه.

المطلب الثالث

لقاؤه ﷺ بهم

ثبت في قصة الإسراء أنه ﷺ اجتمع بالأنبياء في مسجد بيت المقدس، وصلى بهم إماماً لهم^(١).

ثم عرج به إلى السماء، وفي كل سماء التقى نبي من الأنبياء، يستفتح قبل الدخول إليها، فيقال من؟ فيقال: جبريل، فيقال: من معك؟، فيقول: محمد، فيقول النبي في كل سماء: وقد أرسل إليه؟! مرحباً به ولنعم المجيء، ويقول بعضهم: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، ويخاطبه آدم وإبراهيم بالبنوة، وتفاصيل ذلك مذكورة في حديث الإسراء المشهور.

وهذا اللقاء والرؤية كانت بأرواح الأنبياء مصورة في صور أجسادهم، لا أنه رأى الأجساد المدفونة في الأرض كما بينه أهل العلم^(٢).

هذا في الدنيا، وأما في الآخرة، فإن الله يجمع الرسل يوم القيامة، ويسألهم عن أمهم بحضرتهم، فإن كل أمة تأتي مع نبيها، لتقوم الحجة عليهم، ويتبدأ

(١) صحيح مسلم كتاب الإيمان باب ذكر المسيح ابن مريم ١٥٦/١ رقم (١٧٢).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى ٤/٣٢٨.



بحسابهم، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ^ط﴾ [المائدة: ١٠٩]، وقال: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]، وتقدم الحديث الوارد في سؤال نوح وشهادة هذه الأمة بنبوته.

وفي موقف آخر من مواقف يوم القيامة يطول بالناس الموقف، ويضيق بهم، ويشتد القلق، ويلجمهم العرق، فيلتمسون الشفاعة في أن يفصل الله بينهم، فيأتون آدم، فيعتذر، ويدلهم على إبراهيم، ويأتون إبراهيم فيعتذر، ويدلهم على موسى، وهكذا يأتون النبي بعد النبي فيعتذرون، حتى يأتون النبي ﷺ، فيستأذن ربه في الشفاعة، فيأذن له، وهي المقام المحمود الذي يحمد فيه الناس لتخليصهم مما هم فيه.

وبعد العرض والحساب ووزن الأعمال وتطاير الصحف ينقسم الناس فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير وهم المكذبون بالأنبياء والرسل العاصون لهم، وأما الفريق الأول فهم الأنبياء، والمؤمنون بهم، نسأل الله ﷻ أن يجعلنا من الذين يؤمنون بأنبيائه ورسله، ولا يفرقون بين أحد منهم، وأن يلحقنا بهم بفضل منه ورحمة في أعلى جنات الخلد.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبعد، فهذه أهم النتائج والتوصيات التي وصلت إليها في هذا البحث:

(١) أهمية العناية بما ورد في القرآن والسنة في الأنبياء والرسل وما يتعلق بذلك من المسائل، والبحث فيه؛ لأن الإيمان بالرسل ركن من أركان الإيمان الستة، وبرغم وجود عدد من المؤلفات النافعة في هذا الباب، إلا أنني لم أقف على دراسة علمية موسعة توفي هذا الموضوع ما يستحقه.

(٢) الأنبياء والرسل جُمّ غفير، يجب الإيمان بهم إجمالاً، وتفصيلاً بمن قُص علينا نبأه في الكتاب والسنة، وأن عدد الرسل ثلاثمائة وخمسة عشر رسولاً كما ثبت في حديث أبي أمامة، وأما حديث أبي ذر فهو حديث ضعيف.

(٣) ثبوت اتفاق الأنبياء في الصفات الشخصية، فكلهم بشر كُمل، حازوا من الصفات البشرية أعلاها وأكملها، ومن ذلك: الذكورة، شرف النسب، كمال الخلقة، وفور العقل، حسن الخلق، ومن محاسن أخلاقهم: الأمانة، الصبر، الشفقة والرحمة، العفة.



٤) ثبوت اتفاق الأنبياء في الصفات النبوية: كتنازل الوحي عليهم، وإخبارهم بالمغيبات، وتأييدهم بالآيات والمعجزات، وأنهم لا يورثون، والعصمة من النسيان والخطأ فيما يبلغون عن الله ﷻ، وسياسة أمهم بالقيام على أمورهم، وتدبير ما يصلحهم، وغير ذلك.

٥) ثبوت اتفاق الأنبياء في حال الرسالة ومآلها، فهم يتتلون بأعداء الإنس والجن، يصدون عن دعوتهم، ويؤذونهم، ويكون لهم شوكة وقوة، بينما يكون غالب أتباعهم من الضعفاء، وبعد صراعهم مع أقوامهم، يظهرهم الله عليهم بالقوة المادية بإهلاك أعدائهم وإذلالهم، والقوة العلمية بإظهار حجتهم عليهم.

٦) اتفاق صفة النبي ﷺ وحاله مع صفة الأنبياء قبله وأحوالهم علامة من علامات صدق نبوته، وبذلك استدل هرقل عظيم الروم على نبوته.

٧) ثبوت اتفاق الأنبياء في أصول الشرائع: وهي التوحيد، ومكارم الأخلاق، وأصول العبادات كأركان الإسلام.

٨) اتفاق النبي ﷺ مع إخوانه الأنبياء في أصول الشريعة علامة من علامات صدق نبوته ﷺ، وبذلك استدل النجاشي على نبوته ﷺ.

٩) ثبوت فضله ﷺ على جميع الأنبياء والمرسلين، بل الخلق أجمعين، وذكرت جملة من الفضائل التي اختص بها ﷺ.

(١٠) أن نبيه ﷺ عن تفضيله على الأنبياء محمول على التفضيل في أصل النبوة، أو على التفضيل الذي يؤدي للخصومة والفتنة، أو على التفضيل الذي يؤدي إلى توهم النقص في المفضول.

(١١) ثبوت فضل أمته ﷺ على سائر الأمم.

(١٢) ثبوت فضل شريعته على جميع الشرائع.

(١٣) ثبوت علم الأنبياء جميعاً ببعثته ﷺ، وتبشيرهم أمهم به، وأمرهم لهم بالإيمان به.

(١٤) أمره ﷺ بالإيمان بجميع الأنبياء، واعتباره ركناً من أركان الإيمان، بحيث يكفر من لم يؤمن بنبي ثبت نبوته.

(١٥) بيان الحكمة في ذكر النبي ﷺ لقصاص الأنبياء وفضائلهم.

(١٦) ثبوت لقاء النبي ﷺ في الدنيا بالأنبياء في الإسراء، وهو لقاء بأرواحهم مصورة في صور أجسادهم، ولقاؤه بهم أيضاً في الآخرة: يوم القيامة، وفي الجنة.

(١٧) أوصي بالتوسع في البحث في أدلة الكتاب والسنة بما يثبت اتفاق صفته ﷺ، وحاله، وأصول شريعته بإخوانه الأنبياء، مع الاستشهاد بما يوافق ذلك مما ورد في كتب اليهود والنصارى، بياناً للحق لهم، ودعوة لهم في الدخول



Prophet of Mercy

===== صلاة رسالة النبي ﷺ برسالة إخوانه الأنبياء ﷺ من خلال السنة النبوية =====

في الدين الحق، والإيمان بالرسول الحق، الذي بشرهم به أنبياءهم عليهم جميعاً
الصلاة والسلام.

ابيض



قائمة المراجع

- (١) الإبطال لنظرية الخلط بين الأديان، للشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد، نشر إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد.
- (٢) إتخاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة لشهاب الدين أحمد بن أبي بكر البوصيري (ت ٨٤٠هـ)، تحقيق دار المشكاة للبحث العلمي بإشراف أبو تيمم ياسر إبراهيم، دار الوطن، ط ١، ١٤٢٠هـ.
- (٣) اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملاء الأعلى لابن رجب الحنبلي، تحقيق محمد العمري أبو عبد الله ضمن كتاب (الجامع المنتخب من رسائل الحافظ ابن رجب).
- (٤) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري لأبي العباس شهاب الدين أحمد بن محمد القسطلاني، دار الفكر، ط ١، ١٤١٠هـ.
- (٥) الأسماء والصفات لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨هـ)، تحقيق عبد الله الحاشدي، مكتبة السوادى، ط ١، ١٤١٣هـ.
- (٦) إظهار الحق لرحمت الله بن خليل الرحمن الكيرانوي، تحقيق د. محمد أحمد ملكاوي، نشر رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء، ١٤٢٤هـ.
- (٧) إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت.

- (٨) إكمال المعلم بفوائد مسلم، للقاضي عياض بن موسى اليحصبي، تحقيق د. يحيى إسماعيل، دار الوفاء.
- (٩) البحر المحيط لأبي حيان محمد بن يوسف الأندلسي، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٢٢هـ.
- (١٠) بدائع الفوائد لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، تحقيق علي العمران، دار عالم الفوائد، ط ١، ١٤٢٥هـ.
- (١١) البداية والنهاية لإسماعيل بن عمر بن كثير (ت ٧٧٤هـ)، تحقيق محمد عبد العزيز النجار، مكتبة الفلاح - الرياض، مطبعة السعادة بمصر.
- (١٢) تاريخ دمشق لأبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (ت ٥٧١هـ)، تحقيق عمر بن غرامة العمري.
- (١٣) تحفة الأحوذني شرح جامع الترمذي لأبي العلي محمد عبد الرحمن المباركفوري (ت ١٣٥٣هـ) تصحيح عبد الوهاب عبد اللطيف، نشر المكتبة السلفية بالمدينة، ط ٢.
- (١٤) التعريفات الاعتقادية، تأليف سعد بن محمد آل عبد اللطيف، دار الوطن، ط ١، ١٤٢٢هـ.
- (١٥) تفسير الجلالين لجلال الدين المحلي، وجلال الدين السيوطي، دار ابن كثير.
- (١٦) تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت ٧٧٤هـ)، تحقيق سامي محمد سلامة، دار طيبة، ط ٢، ١٤٢٠هـ.
- (١٧) تفسير القرطبي = الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية.



- (١٨) التلخيص الكبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، نشر دار الكتب الإسلامية، توزيع رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد.
- (١٩) التوحيد ومعرفة أسماء الله ﷻ وصفاته على الاتفاق والتفرد لأبي عبد الله محمد بن إسحاق بن منده (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق د. علي ناصر فقيهي، نشر مركز شئون الدعوة بالجامعة الإسلامية، ط ٢.
- (٢٠) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للعلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق د. عبد الرحمن اللويحق، مؤسسة الرسالة.
- (٢١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن تأليف محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، تحقيق أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة.
- (٢٢) جامع الترمذي لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي (ت ٢٧٩هـ)، تحقيق أحمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ط ٢، ١٣٩٨هـ.
- (٢٣) الجامع لشعب الإيمان لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨هـ)، تحقيق د. عبد العلي عبد الحميد حامد، الناشر مكتبة الرشد، ط ١، ١٤٢٣هـ.
- (٢٤) الجرح والتعديل لأبي محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي (ت ٣٢٧هـ)، مصورة الطبعة الأولى في مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد - الهند.
- (٢٥) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق جماعة، دار العاصمة.

- (٢٦) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ)، دار الفكر- بيروت.
- (٢٧) دلائل النبوة تأليف الحافظ أبي نعيم الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ)، تخريج عبد البر عباس، تحقيق محمد رواس قلعة جي، المكتبة العربية بحلب، ط ١، ١٣٩٢هـ.
- (٢٨) دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨هـ)، تحقيق د. عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية-بيروت، ط ١، ١٤٠٥هـ.
- (٢٩) الرسل والرسالات، تأليف د. عمر بن سليمان الأشقر، دار النفائس، ط ١٤، ١٤٢٧هـ.
- (٣٠) الروض البسام بترتيب وتخريج فوائد تمام لأبي سليمان جاسم بن سليمان بن فهد الدوسري، دار البشائر الإسلامية، ط ١، ١٤١٢هـ.
- (٣١) زاد المعاد في هدي خير العباد لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط ٢٥، ١٤١٢هـ.
- (٣٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها لمحمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف-الرياض، ١٤١٥هـ.
- (٣٣) سلسلة الأحاديث الضعيفة وأثرها السيئ على الأمة لمحمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف-الرياض، ط ١، ١٤١٢هـ.



===== صلاة رسالة النبي ﷺ برسالة إخوانه الأنبياء ﷺ من خلال السنة النبوية =====

- (٣٤) سنن ابن ماجه لأبي عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجه (ت ٢٧٥هـ)، تحقيق خليل مأمون شيحا، دار المعرفة - لبنان، ط ٢، ١٤١٨هـ.
- (٣٥) سنن أبي داود لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٢٧٥هـ) تحقيق عزت الدعاس، دار الحديث-بيروت، ط ١، ١٣٨٩هـ.
- (٣٦) السنن الكبرى لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨هـ)، دار المعرفة-بيروت، ١٤١٣هـ.
- (٣٧) السنن الكبرى لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (ت ٣٠٣هـ)، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٢هـ.
- (٣٨) سنن النسائي لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (ت ٣٠٣هـ)، اعتنى به ورقمه ووضع فهارسه عبد الفتاح أبو غدة، نشر دار المطبوعات الإسلامية بحلب، ط ٣، ١٤١٤هـ، مصورة عن طبعة المطبعة المصرية في القاهرة سنة ١٣٤٨هـ.
- (٣٩) السيرة النبوية الصحيحة تأليف د. أكرم ضياء العمري، مكتبة العلوم والحكم.
- (٤٠) شرح الأصبهانية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق د. محمد بن عودة السعوي، دار المنهاج، ط ١، ١٤٣٠هـ.
- (٤١) شرح العقيدة الطحاوية لعلي بن علي الحنفي المشهور بابن أبي العز (ت ٧٩٢هـ)، تحقيق د. عبد الله التركي وشعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط ٢، ١٤١٣هـ.
- (٤٢) شرح صحيح البخاري لأبي الحسن علي بن خلف ابن بطل المالك (ت ٤٤٩هـ) تحقيق ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد-الرياض، ط ١، ١٤٢٠هـ.

- (٤٣) شرح صحيح مسلم ليحيى بن شرف النووي الشافعي (ت ٦٧٦ هـ)، مصورة عن طبعة المطبعة المصرية بالأزهر، ط ١، ١٣٤٧ هـ.
- (٤٤) الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي أبي الفضل عياض اليحصبي - نشر المكتبة التجارية الكبرى - توزيع دار الفكر - بيروت.
- (٤٥) الشئائل المحمدية لأبي عيسى محمد بن سورة الترمذي (ت ٢٧٩ هـ)، إخراج وتعليق محمد عفيف الزعبي، دار المطبوعات الحديثة - جدة، ط ٢، ١٤٠٦ هـ.
- (٤٦) الصارم المسلول على شاتم الرسول لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق محمد الحلواني ومحمد كبير، رمادي للنشر، ط ١، ١٤١٧ هـ.
- (٤٧) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية لإسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق أحمد عبدالغفور عطار، دار العلم للملايين، ط ٤، ١٩٩٠ م.
- (٤٨) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان لأبي حاتم محمد بن حبان البُستي (ت ٣٥٤ هـ)، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط ٢، ١٤٢٤ هـ.
- (٤٩) صحيح البخاري لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦ هـ)، مطبوع مع فتح الباري. الطبعة السلفية.
- (٥٠) صحيح السيرة النبوية تأليف محمد بن رزق بن طرهوني، دار ابن تيمية للطباعة.
- (٥١) صحيح مسلم لأبي الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت ٢٦١ هـ) تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة الإسلامية - استانبول - تركيا، مصورة عن الطبعة الأولى.



- (٥٢) الطبقات لمحمد بن سعد (ت ٢٣٠هـ)، دار بيروت - بيروت، ١٣٩٨هـ.
- (٥٣) علل الحديث لأبي محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي (ت ٣٢٧هـ)، تحقيق محمد صالح الدباسي، دار ابن حزم، ط ١، ١٤٢٤هـ.
- (٥٤) العلل الكبير للترمذي ترتيب أبي طالب القاضي. تحقيق صبحي السامرائي وأبو المعاطي النوري ومحمود الصعيدي، عالم الكتب ومكتبة النهضة الحديثة، ط ١، ١٤٠٩هـ.
- (٥٥) العلل الواردة في الأحاديث النبوية لأبي الحسن علي بن عمر الدارقطني (ت ٣٨٥هـ)، تحقيق د. محفوظ الرحمن زين الله السلفي، دار طيبة، ط ١، ١٤٠٥هـ، وتكملته بتحقيق الدباسي.
- (٥٦) الفتاوى الحديثة لأحمد بن حجر الهيتمي، دار المعرفة.
- (٥٧) فتح الباري بشرح صحيح البخاري لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) تحقيق الشيخ عبد العزيز بن باز، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٨٠هـ.
- (٥٨) فتح الباري شرح صحيح البخاري لأبي الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي (ت ٧٩٥هـ)، تحقيق جماعة من المحققين، دار الغرباء - المدينة المنورة، ط ١، ١٤١٧هـ.
- (٥٩) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير لمحمد بن علي الشوكاني، دار الفكر - بيروت.

- (٦٠) الكامل فى ضعفاء الرجال لأبى أحمد عبد الله بن عدى الجرجانى (ت ٣٦٥هـ)، دار الفكر-بيروت، ط ٢، ١٤٠٥هـ.
- (٦١) الكتب السماوية وشروط صحتها، تأليف عبد الوهاب طويلة، دار القبلة.
- (٦٢) كشف الغمة ببيان خصائص الرسول ﷺ والأمة، تأليف أبى الحسن الماربى.
- (٦٣) لسان العرب لأبى الفضل جمال الدين محمد بن منظور الإفريقى، دار صادر-بيروت، ط ١، ١٤١٠هـ.
- (٦٤) اللفظ المكرم بخصائص النبى ﷺ لمحمد بن محمد الخيضرى (ت ٨٩٢هـ)، تحقيق د. محمد الأمين الجكنى، ط ١، ١٤١٥هـ.
- (٦٥) لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية تأليف العلامة محمد بن أحمد السفارينى. المكتب الإسلامى، ط ٣، ١٤١١هـ.
- (٦٦) مباحث المفاضلة فى الاعتقاد تأليف د. عبد الرحمن الشطيفى، دار ابن عفان، ط ١، ١٤١٩هـ.
- (٦٧) كتاب المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين لأبى حاتم محمد بن حبان البستى (ت ٣٥٤هـ)، تحقيق محمود زايد، دار المعرفة-بيروت، ١٤١٢هـ.
- (٦٨) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد لعلى بن أبى بكر الهيثمى (ت ٨٠٧ هـ)، الناشر دار الريان للتراث-القاهرة، ١٤٠٧هـ.
- (٦٩) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد.



- (٧٠) مجموع فيه مصنفات أبي جعفر ابن البخاري محمد بن عمرو ابن البخاري (ت ٣٣٩هـ)، تحقيق نبيل سعد الدين جرار، دار البشائر الإسلامية، ط ١، ١٤٢٢هـ.
- (٧١) محمد ﷺ في بشارات التوراة والإنجيل د. الشفيع أحمد، نشر جامعة الملك سعود، ١٤١٦هـ.
- (٧٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، للملا علي بن سلطان القاري (ت ١٠١٤هـ)، الهند.
- (٧٣) المستدرك لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم (ت ٤٠٥هـ)، دار المعرفة-بيروت.
- (٧٤) مسند أبي داود الطيالسي لسليمان بن داود بن الطيالسي (ت ٢٠٤هـ)، تحقيق د. محمد بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات بدار هجر، ط ١، ١٤١٩هـ.
- (٧٥) مسند أبي يعلى الموصلي لأبي يعلى أحمد بن علي التميمي (ت ٣٠٧هـ)، تحقيق حسين سليم أسد، دار الثقافة العربية-دمشق، ط ١، ١٤١٢هـ.
- (٧٦) مسند الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ)، أشرف على تحقيقه شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤١٤هـ.
- (٧٧) مسند الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ)، المكتب الإسلامي-بيروت، مصورة عن الطبعة الميمنية بالقاهرة. [وهي الطبعة التي أحيل على أرقام صفحاتها في هذه الرسالة].
- (٧٨) مسند البزار (المسمى بالبحر الزخار) لأبي بكر أحمد بن عمرو البزار (ت ٢٩٢هـ)، تحقيق د. محفوظ الرحمن زين الله، مكتبة العلوم والحكم-المدينة المنورة، ط ١، ١٤٠٩هـ.

- (٧٩) مسند الشاميين لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (ت ٣٦٠هـ)، تحقيق حمدي السلفي، مؤسسة الرسالة، ط ٢، ١٤١٧هـ.
- (٨٠) معالم السنن لأبي سليمان حمد بن محمد الخطابي (٣٨٨هـ)، طبعه وصححه محمد راغب الطباخ، مصورة عن الطبعة الأولى سنة ١٣٥٢هـ.
- (٨١) المعجم الأوسط لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (ت ٣٦٠هـ)، تحقيق طارق بن عوض الله وعبد المحسن الحسيني، دار الحرمين-القاهرة، ١٤١٥هـ.
- (٨٢) المعجم الكبير لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (ت ٣٦٠هـ)، تحقيق حمدي السلفي، دار إحياء التراث العربي، ط ٢.
- (٨٣) المعجم تصنيف أبي سعيد أحمد بن محمد بن زياد بن الأعرابي (ت ٣٤١هـ)،
- (٨٤) معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس (٣٩٥هـ)، تحقيق عبدالسلام هارون، دار الجليل بيروت.
- (٨٥) مفتاح دار السعادة لابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت.
- (٨٦) مفردات ألفاظ القرآن، تأليف العلامة الراغب الأصبهاني، دار القلم، دمشق، ط ٣، ١٤٢٣هـ.
- (٨٧) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، لأبي حفص عمر بن إبراهيم القرطبي، تحقيق محيي الدين مستو وجماعة، ١٤٢٠هـ.
- (٨٨) من أخلاق الأنبياء، تأليف عبد العزيز السدحان، ط ١، ١٤٢٨هـ.
- (٨٩) منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، ط ١، ١٤٠٦هـ.



- (٩٠) المنهاج في شعب الإيمان لأبي عبد الله الحسين بن أحمد الحلبي (ت ٤٠٣ هـ)، تحقيق حلمي محمد فودة، دار الفكر، ط ١، ١٣٩٩ هـ.
- (٩١) ميزان الاعتدال في نقد الرجال لأبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨ هـ) تحقيق علي البجاوي، دار الفكر.
- (٩٢) النبوات، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق د. عبد العزيز الطويان، أضواء السلف، ط ١، ١٤٢٠ هـ.
- (٩٣) النهاية في غريب الحديث والأثر لمجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري المشهور بابن الأثير (ت ٦٠٦ هـ)، تحقيق طاهر الزاوي ومحمود الطناحي، المكتبة العلمية-بيروت.
- (٩٤) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، لابن قيم الجوزية.

ایض



صلة رسالة النبي ﷺ برسالات الأنبياء من خلال القرآن

إعداد

حمد بن إبراهيم العثمان

جامعة الكويت - كلية الشريعة - قسم التفسير والحديث



المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فإن موضوع صلة رسالة النبي ﷺ برسالات الأنبياء من خلال القرآن موضوع متشعب، وهو من صميم العقيدة، لأنه يتعلق بالإيمان بالنبين، ويتعلق بموضوع دعوتهم جميعاً وهو توحيد الله تبارك وتعالى.

لذلك رأيت أن أوجز الحديث في هذا الموضوع في عدة فصول:

الأول: بشارة الأنبياء بنينا محمد ﷺ.

الثاني: التكذيب بمحمد ﷺ تكذيب وكفر بموسى وعيسى والنبين ﷺ.

الثالث: الممدوحون في القرآن من أهل الكتاب.

الرابع: تبديل أهل الكتاب للكتب السماوية وصفة التبديل كما في القرآن.

الخامس: بطلان عقيدة الصلب والتثليث في القرآن والكتب السماوية.

وأرجو أن يسهم هذا البحث في إبراز حقيقة الإيمان بالنبين ﷺ جميعاً، وأن نتحقق جميعاً أن دعوتهم واحدة وهي توحيد الله وحده لا شريك له.

والحمد لله رب العالمين.

الفصل الأول

بشارة الأنبياء بنينا محمد ﷺ

النبون جميعاً بشروا بنينا محمد ﷺ:

نجد في القرآن والسنة البشارة بنينا محمد ﷺ وجاء التنصيص على ذلك من إبراهيم وعيسى عليهما السلام أكثر من غيرهما، وهذا معناه واضح وسببه ظاهر، ذلك أن إبراهيم عليه السلام أبوه، وعيسى عليه السلام آخر نبي قبل بعثة نينا محمد ﷺ، فطبيعي أن يُشَرَّ به أكثر من غيره.

قال نينا ﷺ: «أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى أخى عيسى»^(١).

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله^(٢): «إن الأنبياء عليهم السلام لم تزل تنعته وتحكيه في كتبها على أممها وتأمروهم باتباعه ونصره وموازرته إذا بُعث، وكان ما اشتهر الأمر في أهل الأرض على لسان إبراهيم الخليل والد الأنبياء بعده حين دعا لأهل مكة أن يبعث الله فيهم رسولا منهم، وكذا على لسان عيسى ابن مريم، ولهذا قالوا:

(١) رواه أحمد (١٢٧/٤)، وصححه ابن كثير في تفسيره ص ١٣٧٩، وقال الهيثمي: «أحد أسانيد أحمد رجاله رجال الصحيح، غير سويد بن سعيد، وقد وثقه ابن حبان». مجمع الزوائد (٢٢٣/٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم ص ١٣٨٠.

أخبرنا عن بدء أمرك يعني في الأرض، قال: «دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى ابن مريم، ورؤيا أمي التي رأت»، أي ظهر في أهل مكة أثر ذلك، والإرهاص بذكره صلوات الله وسلامه عليه».

وقال الحافظ البيهقي رحمه الله (ت: ٤٥٨هـ) مبيناً معنى قول النبي ﷺ: «دعوة أبي إبراهيم»^(١): «إن إبراهيم عليه السلام، لما أخذ في بناء البيت، دعا الله تعالى جده، أن يجعل ذلك البلد آمناً، ويجعل أفئدةً من الناس تهوي إليهم، ويرزقهم من الثمرات والطيّبات، ثم قال: ﴿وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿[البقرة: ١٢٩]، فاستجاب الله تعالى دعاءه في نبينا ﷺ، وجعله الرسول الذي سأل إبراهيم عليه السلام، ودعاه أن يبعثه إلى أهل مكة، فكان النبي ﷺ يقول: «أنا دعوة أبي إبراهيم»، ومعناه: أن الله تعالى لما قضى أن يجعل محمداً ﷺ خاتم النبيين، وأثبت ذلك في أم الكتاب - أنجز هذا القضاء بأن قيض إبراهيم عليه السلام، للدعاء الذي ذكرنا، ليكون إرساله إياه بدعائه كما يكون تقبله من صلبيه إلى أصلاب أولاده».

ومن الآيات الأخرى الدالة على معنى ما دعا به إبراهيم عليه السلام قوله تعالى:

(١) دلائل النبوة (١/ ٨١).

﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]، قال مكِّي بن أبي طالب
 رحمه الله^(١): «معنى سؤاله أن يكون من ذريته في آخر الزمان من يقوم بالحق،
 فأجيب الدعوة في محمد ﷺ».

ونبينا ﷺ أمه لما حملت به، قيل لها: إنك قد حملت بسيد هذه الأمة، فإذا
 وقع إلى الأرض فقولِي:

أعيـذـه بالواحد * من شر كل حاسـد
 من كل برّ عاھـد * وكل عبد رائـد
 يرود غـر رائـد
 فإنه عبد الحميد الماجد * حتـى أراه قد أتى المشاهد
 قال: آية ذلك أن يخرج معه نور يملأ قصور بصرى من أرض الشام، فإذا
 وقع فسميه محمدا، فإن اسمه في التوراة أحمد، يحمده أهل السماء وأهل الأرض،
 واسمه في الإنجيل: أحمد، يحمده أهل السماء وأهل الأرض، واسمه في الفرقان:
 محمد، فسمّته بذلك^(٢).

ومصدق ذلك موجود في القرآن، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ

(١) المحرر الوجيز (١٢/٦٧).

(٢) دلائل النبوة للبيهقي (٢/٨٢ - ٨٣).



يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا
بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ
مُبِينٌ ﴿[الصف: ٦].

قال الحافظ ابن كثير رحمته الله^(١): «يعني التوراة قد بشرت بي وأنا مصداق ما
أخبرت عنه، وأنا مبشر بمن بعدي وهو الرسول النبي الأمي العربي المكي أحمد،
فعيسى عليه السلام هو خاتم أنبياء بني إسرائيل، وقد أقام في ملأ بني إسرائيل مبشراً
بمحمد وهو - أحمد - خاتم الأنبياء والمرسلين الذي لا رسالة بعده ولا نبوة،
وما أحسن ما أورد البخاري الحديث الذي قال فيه: حدثنا أبو اليمان حدثنا
شعيب عن الزهري قال: أخبرني محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: سمعت
رسول الله ﷺ يقول: «إن لي أسماء أنا محمد وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو
الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب»، ورواه
مسلم من حديث الزهري به نحوه».

فنبينا ﷺ محمد أي محمود عند الله وملائكته ورسله، وعند كل عاقل
منصف من أهل الأرض، وهو أحمد أي أفضل وأكمل الحامدين لربه.

(١) تفسير القرآن العظيم ص ١٣٧٩.

قال العلامة مجير الدين بن محمد العليمي المقدسي رحمته الله (ت: ٩٢٧ هـ)^(١):
 «محمد معناه المستغرق لجميع المحامد، وهو الذي كثر حمد الحامدين له مرةً بعد أخرى، ويقال محمد فهو محمدٌ، فتسميته ﷺ بهذا الاسم لما اشتمل عليه من مُسمّاه، وهو الحمد، فإنه ﷺ محمود عند الله، وعند ملائكته، وعند إخوانه من المرسلين، وعند أهل الأرض كلّهم، وإن كفر به بعضهم، فإنّ ما فيه من صفات الكمال محمود عند كل عاقل، ومحمد هو المحمود حمداً متكرراً كما تقدّم، وأحمد هو الذي حمده لربه أفضل من حمد الحامدين غيره، وهو الذي يحمده أهل الدنيا وأهل الآخرة، وأهل السماء والأرض، فلكثرة خصائله المحمودّة التي تفوّت عدد العادّين سُمّي باسمين من أسماء الحمد يقتضيان التفضيل والزيادة في القدر والصفة، فدّل أحد الاسمين وهو محمد على كونه محموداً، ودلّ الاسم الثاني وهو أحمد على كونه أحمد الحامدين لربه، وأن الحمد الذي يستحقّه أفضل مما يستحقّه غيره، وقد أكرمه الله سبحانه بهذين الاسمين المشتقين من اسمه جل وعلا، وفيه يقول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

ألم تر أن الله أرسل عبده * ببرهانه والله أعلى وأمجّد
 وشقّ له من اسمه ليُجلّه * فذو العرش محمود وهذا محمدٌ

(١) فتح الرحمن في تفسير القرآن (٢/ ٣٥ - ٣٦).



نبينا ﷺ نبي رحمة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

فالعاقبة حميدة لمن آمن به واتبعه، فإن مآله إلى الجنة، ومن صدَّ الناس عنه فإنه غاش للخلق يسوقهم إلى عاقبة لا قبل لهم بها، جهنم وبئس المصير.
فإن قلت: كيف يكون نبي رحمة وهو يجاهد الناس ويقاتلهم؟

فنقول: إن جهاد النبي ﷺ إنما هو لمصلحة من جاهدهم يأخذ بحجزهم عن النار، فلم يقاتل لحظ نفسه، ولو كان الأمر كذلك لأباد خضراء أعدائه، ولكن من لا يعرف مصلحة نفسه ويرمي بنفسه في نار جهنم فإن النبي ﷺ تعامل معه بالأخف فالأخف، ينصحه بالكلمة الطيبة، فإذا لم ينتصح وذهب مسارعاً يقتحم نار جهنم، فإن النبي ﷺ لا يجد مناصاً من حجزه عن النار فيستعمل معه من القوة ما يزجره عن سوء العاقبة.

قال البغوي رحمه الله (ت: ٥١٦ هـ)^(١): «هو مبعوث بالرحمة، كما ذكر، وكما أخبر الله ﷻ، وذلك أن الله ﷻ بعث الأنبياء ﷺ وأيدهم بالمعجزات، فمن أنكر من تلك الأمم الحق بعد الحجة والمعجزة عذبوا بالهلاك والاستئصال، ولكن الله ﷻ أمر نبيه ﷺ بجهادهم بالسيف، ليرتدعوا عن الكفر، ولم يُجتاحوا

(١) شرح السنة (١٣/ ٢١٤).

بالسيف، فإن للسيف بقية، وليس مع العذاب المنزل بقية، وقد روي أن قوماً من العرب قالوا: يا رسول الله أفنانا السيف، فقال: «ذلك أبقي لآخركم»، فهذا معنى الرحمة المبعوث بها ذكره الخطابي.

قلت: ومما يؤيد ذلك حديث عائشة رضي الله عنها: أن الله ﻻ ﻳﺨﺪﻩ بعث إليه ملك الجبال، فقال: إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال رسول الله ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً».

وجاء في الإنجيل في شأن عيسى ما ينقمونه على نبينا محمد ﷺ من الجهاد بالسيف، فلماذا التناقض؟ أم هو محض العناد والمضادة للحق؟

قال العلامة رحمة الله العثماني الهندي رحمته الله (ت: ١٣٠٨ هـ) ^(١) «في الباب العاشر من إنجيل متى هكذا: «لا تظنّوا أني جئت لألقي سلاماً على الأرض. ما جئت لألقي سلاماً بل سيفاً»، فإما أن يقولوا هذا مما حُرّف من الإنجيل، وفي هذا تقرير لحاجتهم إلى كتابنا غير المبدّل، وإما أن يقرّوا به فيكون وفق معيارهم المسيح متطرفاً وحاشاه من ذلك! فنحن لا نطعن في عيسى ﷺ من باب المراغمة، بل نوقر جميع رسل الله.

وهذا نبي بني إسرائيل سليمان ﷺ، لم يكن يقبل من الناس إلا الإسلام



أو السيف، ولم يصفه أحد بالتطرف؟! قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنَ قَالَ
 أُتِمِدُونِي بِمَالِي فَمَا ءَاتَنِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا ءَاتَكُم بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيِكُمْ تَفْرَحُونَ
 ﴾ [النمل: ٣٦ - ٣٧].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله (ت: ٧٧٤هـ)^(١): «أما أنا فلا أقبل منكم إلا
 الإسلام أو السيف».

أما نحن فلا تأخذنا حمية الجاهلية، ولا نتقص أحداً من رسل الله، ذلك
 أن انتقاصهم قدح في ربوبية الله الذي أرسلهم. فديننا ونبينا ﷺ علمنا حب
 النبيين جميعاً وتوقيرهم، كما قال ﷺ: «لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من
 يونس بن متى»^(٢).

قال ابن أبي العز الحنفي رحمه الله (ت: ٧٩٢هـ)^(٣): «وذلك لأن الله تعالى قد
 أخبر عنه أنه التقمه الحوت، وهو مليم، أي: فاعل ما يلام عليه، وقال تعالى:

(١) تفسير القرآن العظيم ص ٣٨٠.

(٢) رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء باب قول الله تعالى: ﴿ وَإِنْ يُوَسَّسْ لَعْنِ الْمُزْسِلِينَ ﴾
 (ص ٥٧٤ - رقم ٣٤١٦)، ومسلم في كتاب الفضائل باب في ذكر يونس (ص ١٠٤٥ -
 رقم ٦١٥٩).

(٣) شرح العقيدة الطحاوية (١/ ١٦١ - ١٦٢).

﴿وَذَا آلَتُونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، فقد يقع في نفس بعض الناس أنه أكمل من يونس، فلا يحتاج إلى هذا المقام، إذ لا يفعل ما يُلام عليه، ومن ظنَّ هذا، فقد كذب، بل كل عبد من عباد الله يقول ما قال يونس: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، كما قال أول الأنبياء وآخرهم.

فأولهم: آدم، قد قال: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وآخرهم وأفضلهم وخاتمهم وسيدهم: محمد ﷺ، قال في الحديث الصحيح، حديث الاستفتاح، من رواية علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره، بعد قوله: «وَجَّهْتُ وَجْهِي»، إلى آخره: «اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي، واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعاً، لا يغفر الذنوب إلا أنت»، إلى آخر الحديث.

ومما ينبغي التنبيه عليه أن نبينا محمداً ﷺ يُخَيِّرُ أهل الكتاب بين الإسلام والجزية والجهاد، وإذا نزل عيسى ابن مريم عليه السلام في آخر الزمان فإنه لا يقبل إلا الإسلام، ولم ينسبه أهل الكتاب إلى قسوة ولا تطرف؟!.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده،



ليُوشكن أن ينزل فيكم ابنُ مريم حكماً عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الحرب، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها»، ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: «واقرؤوا إن شئتم ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾» [النساء: ١٥٩]^(١).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله^(٢): «قوله: «فيكسر الصليب ويقتل الخنزير» أي يبطل دين النصرانية بأن يكسر الصليب حقيقةً ويبطل ما تزعمه النصارى من تعظيمه، ويستفاد منه تحريم اقتناء الخنزير وتحريم أكله وأنه نجس، لأن الشيء المنتفع به لا يشرع إتلافه».

وقال: «قوله: «يضع الحرب» في رواية الكشميهني «الجزية»، والمعنى أن الدين يصير واحداً فلا يبقى أحد من أهل الذمة يؤدي الجزية، وقيل معناه أن المال يكثر حتى لا يبقى من يمكن صرف مال الجزية له، فتترك الجزية استغناء عنها.

-
- (١) رواه البخاري كتاب أحاديث الأنبياء باب نزول عيسى ابن مريم عليه السلام (ص ٥٨١ - رقم ٣٤٤٨)، ومسلم كتاب الإيمان باب نزول عيسى ابن مريم حاكماً بشريعة نبينا محمد ﷺ (ص ٧٧ - رقم ٣٨٩).
- (٢) فتح الباري (٦/ ٤٩٢).

وقال عياض: يحتمل أن يكون المراد بوضع الجزية تقريرها على الكفار من غير محاباة، ويكون كثرة المال بسبب ذلك، وتعقبه النووي، وقال: الصواب أن عيسى عليه السلام لا يقبل إلا الإسلام. قلت: ويؤيده أن عند أحمد من وجه آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه: «وتكون الدعوى واحدة»، قال النووي: ومعنى وضع عيسى الجزية مع أنها مشروعة في هذه الشريعة أن مشروعيتهما مقيدة بنزول عيسى لما دلّ عليه هذا الخبر، وليس عيسى بناسخ لحكم الجزية، بل نبينا ﷺ هو المبين للنسخ بقوله هذا».

واليهود يعرفون أن ما بعث به محمد ﷺ حق، ويعرفون أنه رسول الله حقاً وصدقاً، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [الأنعام: ٢٠]، وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١١٤].

قال الحافظ ابن كثير رحمته الله (ت: ٧٧٤هـ)^(١): «قال تعالى مخبراً عن أهل الكتاب: إنهم يعرفون هذا الذي جئتهم به كما يعرفون أبناءهم بما عندهم من الأخبار والأنباء، عن المرسلين المتقدمين والأنبياء، فإن الرسل كلهم بشروا بوجود محمد ﷺ ونعته وصفته، وبلده ومهاجره وصفة أمته».

(١) تفسير القرآن ص ٤٧٠.

فكفر بني إسرائيل بنينا محمد ﷺ باعته حب الدنيا، فإذا آمنوا بمحمد ﷺ ذهب جاه أحبار الضلالة من اليهود، وفاتهم ما يأخذونه من أموال الناس، فإذا انضاف إلى ذلك ما هو معلوم عنهم من الحسد فجاء نبينا ﷺ من العرب من ذرية إسماعيل، ولم يكن من ذرية إسحاق، فقد تناهت بذلك عداوتهم لرسول الله ﷺ والتضليل والتلبس على أقوامهم.

قال الحافظ عبدالرزاق الرسعني رحمه الله (ت: ٦٦١ هـ)^(١): «إن يهود المدينة كتبت إلى يهود العراق واليمن، ومن بلغهم كتابهم من اليهود في الأرض كلها: أن محمداً ليس بنبي، فاثبتوا على دينكم، فاجتمعت كلمتهم على الكفر». فالحاصل أن اليهود كفروا بنينا محمد ﷺ من أجل الدنيا، لذلك بكّتهم الله ونهاهم عن ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٤١].

قال أبو المظفر السمعاني رحمه الله (ت: ٤٨٩ هـ)^(٢): «ذلك أن علماءهم وأحبارهم كانت لهم مأكلة على أغنيائهم وجهّالهم، فخافوا أن تذهب مأكلتهم إن آمنوا بمحمد ﷺ، فغيروا نعتة، وكنمو اسمها، فهذا معنى بيع الآيات بالثمن القليل».

(١) رموز الكنوز (١/ ٣٩٠).

(٢) تفسير القرآن (١/ ٧٢).

وقال مجاهد رحمته الله: قام النبي ﷺ يوم قريظة تحت حصونهم، فقال: «يا إخوان القردة، ويا إخوان الخنازير، ويا عبدة الطاغوت». فقالوا: من أخبر هذا محمداً؟ ما خرج هذا إلا منكم، ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٧٦]: بما حكم الله للفتح ليكون لهم حُجَّةٌ عليكم^(١).

قال شيخ المفسرين أبو جعفر الطبري رحمته الله (ت: ٣١٠هـ): «فإذا كان معنى الفتح ما وصفنا، تبين أن معنى قوله: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ^٢» [البقرة: ٧٦]، إنما هو: أتحذثونهم بما حكم الله به عليكم وقضاه فيكم.

ومن حكمه جل ثناؤه عليهم ما أخذ به ميثاقهم من الإيمان بمحمد ﷺ، وبما جاء به في التوراة، ومن قضائه فيهم، وكل ذلك كان لرسول الله ﷺ، وللمؤمنين به حجة على المكذبين به من اليهود المقرين بحكم التوراة وغير ذلك». وأما توهم اليهود أن بعضهم هو الذي أخبر نبينا محمداً ﷺ بما كان من شأنهم ونقائصهم، فهذا من سفه عقولهم، وإلا ما في القرآن من البيان والتفصيل فوق الكتب السابقة كلها، مع سلامته من النقص والتبديل، حتى ما يتعلق

(١) جامع البيان (٢/١٤٨).

(٢) جامع البيان (٢/١٥٠).



بخاصة شؤون وأخبار بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦]، قال أبو عبد الله القرطبي رحمه الله: «إن هذا القرآن يبين لهم ما اختلفوا فيه لو أخذوا به، وذلك ما حرّفوه من التوراة والإنجيل، وما سقط من كتبهم من الأحكام»^(١).

وقال ابن القيم رحمه الله (ت: ٧٥١ هـ)^(٢): «وكتابتنا قد اشتمل على علوم الأولين والآخرين وعلم ما كان من المبدأ والمعاد، وتخليق العالم، وأحوال الأمم الماضية والأنبياء وسيرهم وأحوالهم مع أممهم، ودرجاتهم ومنازلهم عند الله وعددهم، وما أكرم به أتباعهم، وذكر الملائكة وأصنافهم وأنواعهم وما وُكِّلوا به واستعملوا فيه، وذكر اليوم الآخر وتفاصيل أحواله، وذكر الجنة وتفاصيل نعيمها والنار وتفاصيل عذابها، وذكر البرزخ وتفاصيل أحوال الخلق فيه، وذكر أشرار الساعة والأخبار بها مفصلاً بما لم يتضمنه كتاب غيره من حين قامت الدنيا، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها».

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٣/ ٢٣١).

(٢) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص ١٢٣.

الفصل الثاني

التكذيب بمحمد ﷺ وتكذيب وكفر بموسى وعيسى والنبیین جميعاً

لا يتحقق إيمان عبد إلا بالإيمان بالرسول جميعاً، قال تعالى: ﴿لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥].

قال أبو المظفر السمعاني رحمه الله (ت: ٤٨٩هـ)^(١): «قال ابن عباس رضي الله عنهما: نوح أول رسول أرسله الله تعالى، وهذا محمول على أنه أول رسول أرسله الله تعالى بعد آدم صلوات الله عليه، وهو صاحب شريعة، وإنما ذكر المرسلين، لأن من كذب رسولاً فقد كذب جميع الرسل».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله^(٢): «والله تعالى جعل من دين الرسل أن أولهم يبشر بآخرهم ويؤمن به، وآخرهم يُصدّق بأولهم ويؤمن به».

والنجاشي لما جاءه الصحابة، ضرب الناقوس فاجتمع إليه كل قسيس وراهب، فلما اجتمعوا، قال: أنشدكم بالله الذي أنزل الإنجيل على عيسى

(١) تفسير القرآن (٤/٥٧).

(٢) التدمرية ص ١٧٠.



ابن مريم عليه السلام، هل تجدون بين عيسى وبين القيامة نبياً مرسلًا؟ قالوا: اللهم نعم، قد بشرنا به عيسى ابن مريم، وقال: من آمن به فقد آمن بي، ومن كفر به فقد كفر بي^(١).

فالإيمان بالرسول جميعاً متلازم، وقد كفر الله من آمن ببعض الرسل دون بعض، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ۖ﴾ [النساء: ١٥٠ - ١٥١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله^(٢): «جعل الإيمان بهم متلازماً، وكفر من قال: إنه آمن ببعض وكفر ببعض».

والله عز وجل قد أخذ الميثاق على جميع الرسل إذا بعث نبينا محمد ﷺ أن يؤمنوا به، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَضْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۗ قَالُوا أَقْرَضْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا ۚ وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ۚ﴾ [آل عمران: ٨١].

(١) رموز الكنوز (١/٢٠٨ - ٢٠٩).

(٢) التدمرية ص ١٧١.

قال علي بن أبي طالب وابن عباس رضي الله عنهما: «لم يبعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق لئن بُعث محمد ﷺ وهو حيّ ليؤمنن به ولنصرنه»^(١).

وقال النبي ﷺ: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره»^(٢).

قال العلامة محمد بن علي الشوكاني رحمته الله (ت: ١٢٥٠ هـ)^(٣): «ولا ريب أن من آمن بالله، وبما جاءت به رسله، ونطقت به كتبه، فإن إيمانه بهذه المقاصد الثلاثة، هو أهم ما يجب الإيمان به، وأقدم ما يتحتم عليه اعتقاده، لأن الكتب قد نطقت بها، والرسل قد اتفقت عليها اتفاقاً يقطع كل ريب، وينفي كل شبهة، ويُذهب كل شك».

ومن لطائف ما ذكره العلماء من المناظرة في نبوة محمد وعيسى عليهما السلام، أن نصرانياً قال لعالم من علماء المسلمين: ناظري في الإسلام والمسيحية أيهما أفضل؟ فقال العالم للنصراني: هلم إلى المناظرة في ذلك، فقال النصراني: المتفق

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٦٧).

(٢) رواه مسلم كتاب الإيمان (ص ٢٤ - رقم ٩٣).

(٣) إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات - مطبوع ضمن الفتح

الرباني من فتاوى الشوكاني (١/ ٤٨٢).



عليه أحق بالاتباع أم المختلف فيه؟ فقال العالم: المتفق عليه أحق بالاتباع من المختلف فيه، فقال النصراني: إذن يلزمكم اتباع عيسى معنا، وترك اتباع محمد ﷺ، لأننا نحن وأنتم نتفق على نبوة عيسى، ونخالفكم في نبوة محمد عليهما الصلاة والسلام، فقال المسلم: أنتم الذين تمتنعون من اتباع المتفق عليه، لأن المتفق عليه الذي هو عيسى قال لكم: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ﴾ [الصف: ٦]، فلو كنتم متبعين عيسى حقاً لاتبعتم محمداً ﷺ، فظهر أنكم أنتم الذين لم تتبعوا المتفق عليه ولا غيره، فانقطع النصراني^(١).

والتكذيب بنبي واحد تكذيب بجميع النبيين والمرسلين لأن دعوتهم واحدة وهي الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطُّغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقال النبي ﷺ^(٢): «إنا معاشر الأنبياء إخوة لعلات ديننا واحد، وأمهاتنا

(١) أضواء البيان (١/ ٣١٢)، ط - دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط. الأولى.

(٢) رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء باب قول الله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ (ص ٥٨١ - رقم ٣٤٤٣)، ومسلم في كتاب الفضائل باب فضائل عيسى ﷺ =

شتى».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله^(١): «فدينهم واحد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وهو يُعبد في كل وقت بما أمر به في ذلك الوقت، وذلك هو دين الإسلام في ذلك الوقت».

وقال ابن القيم رحمته الله (ت: ٧٥١هـ)^(٢): «إن النبي ﷺ شبه دين الأنبياء الذي اتفقوا عليه من التوحيد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، والإيمان به وبملائكته وكتبه ورسله ولقائه، بالأب الواحد، لا شريك جميعهم فيه، وهو الدين الذي شرعه الله لأنبيائه كلهم، فقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وقال البخاري في «صحيحه»: «باب ما جاء أن دين الأنبياء واحد، وذكر هذا الحديث، وهذا هو دين الإسلام الذي أخبر الله أنه دين أنبيائه ورسله من أولهم نوح عليه السلام إلى خاتمهم محمد ﷺ، فهو بمنزلة الأب الواحد. وأما شرائع الأعمال

= (ص ١٠٤٠ - رقم ٦١٣٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٣٧٩).

(٢) بدائع الفوائد (٣/ ١١٦١).

والمأمورات فقد تختلف، فهي بمنزلة الأمهات الشتى، فإن لقاح تلك الأمهات من أب واحد، كما أن مادة تلك الشرائع المختلفة من دين واحد متفق عليه.

وظهور نبينا محمد ﷺ دليل على صحة نبوة موسى وعيسى عليهما السلام، وسائر النبيين، لأنهم بشروا به، فظهوره تصديق لتلك البشارة.

قال ابن القيم رحمه الله (ت: ٥٧١ هـ) ^(١): «لو لم يظهر محمد ابن عبدالله ﷺ لبطلت نبوة سائر الأنبياء، فظهور نبوته تصديق لنبواتهم وشهادة لها بالصدق، فأرساله من آيات الأنبياء قبله، وقد أشار سبحانه إلى هذا المعنى بعينه في قوله: ﴿جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ٣٧]، فإن المرسلين بشروا به وأخبروا بمجيئه، فمجيئه هو نفس صدق خبرهم، فكان مجيئه تصديقاً لهم، إذ هو تأويل ما أخبروا به».

قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٤].

فتحن نؤمن بجميع الرسل، لا نفرق بين أحد من رسله، ونؤمن بما أنزل الله على أنبيائه عليهم من الكتب السماوية، وأنها من عند الله، وأنها هدى ونور،

(١) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص ١٦١ - ١٦٢.

قبل أن يحصل فيها التبديل والتحريف، وأن القرآن مهيمن على كل الكتب السماوية السابقة.

قال شيخنا العلامة محمد الصالح العثيمين رحمته الله^(١): «كل هؤلاء نؤمن بهم على سبيل السواء، بدون تفريق، والإيمان هؤلاء إيمان مجمل، ولكن كل ما صحَّ عنهم أنهم أخبروا به وجب علينا الإيمان به، ولو تفصيلاً... هذا في الأخبار، لكن في الأحكام لا نتبع إلا ما حكمت به شريعة محمد ﷺ، فهو الذي كُلفنا به، ووجب علينا اتّباعه، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الَّذِي الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]. فالاتباع لمحمد ﷺ، أما الإيمان فهو عام لجميع الرسل بدون تفريق. فإذا صحَّ عن موسى ﷺ أنه أخبر بخبر يتعلّق بالله، أو بخبر يتعلّق بيوم القيامة، أو بالجنة، أو بالنار، وجب علينا أن نؤمن به إذا صحَّ.

أما ما يروى من الإسرائيليات فقد يكون صحيحاً وقد لا يكون. واعلم أن شريعتنا في الأحكام بالنسبة لمن سبق على ثلاثة أقسام: القسم

(١) تفسير سورة آل عمران (١/٤٩٠ - ٤٩٢).



الأول: ما وردت شريعتنا بخلافه، فهذا لا نعمل به، لأن شريعتنا ناسخة لجميع الأديان، مثال ذلك: القصاص في النفس والأطراف كان في التوراة واجباً مفروضاً، ولا عفو، لكن في الشريعة الإسلامية جاء مخيراً فيه، فنتبع القرآن.

القسم الثاني: ما ورد شرعنا بوفاقه، فإننا نعمل به اتِّباعاً لشريعتنا المصدّقة لما سبق من الشرائع، ولا نخالفه، وهذا كثير، مثل الطيبات، أحل الله الطيبات لنا ولغيرنا، لكن حرّم على بني إسرائيل بعض الطيبات بسبب ظلمهم.

القسم الثالث: ما لم يرد في شرعنا له وفاق ولا خلاف، هذا محل نزاع بين أهل العلم، وبحثه موجود في أصول الفقه، فمن العلماء من قال: إنه شرع لنا، ومنهم من قال: إنه ليس بشرع، والصحيح أنه شرع لنا، لدلالة شرعنا عليه، قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ آفَتَةً﴾ [الأنعام: ٩٠].

وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [الشورى: ١٣].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]. وكذلك النبي ﷺ أحياناً كان يُسند الحكم إلى أنه فعله أخى فلان من الأنبياء، وما أشبه ذلك، والمعنى يقتضي ذلك أيضاً، لأنه لولا أن لنا فائدة من قصص الأنبياء السابقين - ومن الفوائد أن نعتبر ونعمل بما عملوا - لم يكن

لذكر هذه القصص شيء من الفائدة كثير».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله^(١): «وما أتى به محمد ﷺ من الآيات فهو دليل على إثبات جنس الأنبياء مطلقاً، وعلى نبوة كل من سُمِّي في القرآن، خصوصاً إذا كان هذا مما أخبر به محمد ﷺ عن الله، ودلت آياته على صدقه فيما يخبر به عن الله. وحيثُذ فإذا قُدِّر أن التوراة أو الإنجيل، أو الزبور معجزٌ لما فيه من العلوم والإخبار عن الغيوب، والأمر والنهي، ونحو ذلك، لم يُنازع في ذلك، بل هذا دليل على نبوتهم صلوات الله عليهم، وعلى نبوة من أخبروا بنبوته.

ومن قال: إنها ليست بمعجزة، فإن أراد ليست معجزة من جهة اللفظ والنظم؛ كالقرآن، فهذا ممكن، وهذا يرجع إلى أهل اللغة العبرانية. وأما كون التوراة معجزة من حيث المعاني لما فيها من الإخبار عن الغيوب، أو الأمر والنهي، فهذا لا ريب فيه.

ومما يدل على أن كتب الأنبياء معجزة: أن فيها الإخبار بنبوة محمد ﷺ قبل أن يُبعث بمدة طويلة. وهذا لا يمكن علمه بدون إعلام الله لهم».



الفصل الثالث

المدوحون في القرآن من أهل الكتاب

جاء القرآن بمدح الحواريين أتباع عيسى عليه السلام وقت بعثته، فأمنوا بالشرع المنزل على عيسى عليه السلام، وكانت عقيدتهم الإقرار بالتوحيد لله، وعبودية المسيح عيسى ابن مريم وأمه.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ^ط قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُتِبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [آل عمران: ٥٢ - ٥٣]. فهؤلاء الحواريون قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ﴾ فعقيدتهم الإيمان بالإنجيل المنزل الذي لم يحرفه الكافرون، وأمنوا كذلك بمحمد ﷺ حيث قالوا: ﴿فَاكْتُتِبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «معناه اجعلنا من أمة محمد ﷺ في أن نكون ممن يشهد على الناس»^(١).

فأتباع عيسى عليه السلام هم الذين اتبعوه حقاً ولم يغيروا أو يبدلوا، قال الحافظ عبدالرزاق الرسعني رحمه الله (ت: ٢٦١هـ) عن حذاق العلماء: «والله ما اتبعه من

(١) المحرر الوجيز (٣/ ١٠٣).

ادعاه رباً^(١).

وقال قتادة والربيع والشعبي^(٢): «﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ﴾ [آل عمران:

٥٥]: هم أمة محمد ﷺ، لأنهم صدّقوا بنبوته، وأنه روح الله وكلمته».

قال أبو العباس القرافي رحمه الله (ت: ٦٨٤ هـ)^(٣): «إن تعظيم الحواريين لا

نزاع فيه، وأنهم من خواص عباد الله الذين اتبعوا عيسى عليه السلام ولم يبدلوا، وكانوا

معتقدين بظهور نبينا محمد ﷺ في آخر الزمان، على ما دلت عليه كتبهم، وإنما

كفر وخالف الحادثون بعدهم».

وقال أيضاً^(٤): «إن الذين اتبعوه ليسوا النصارى الذين اعتقدوا فيه أنه ابن

الله، وسلکوا مسلك هؤلاء الدبراء، فإن اتباع الإنسان موافقته فيما جاء به،

وكون هؤلاء المتأخرين اتبعوه، محل نزاع، بل متبعوه هم الحواريون، ومن تابعهم

قبل ظهور القول بالتثليث، وأولئك هم الذين رفعهم الله في الدنيا والآخرة،

ونحن منهم وهم منا.

(١) رموز الكنوز (١/١٩٦).

(٢) رموز الكنوز (١/١٩٦).

(٣) الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة، ص ٧٦، باختصار.

(٤) الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة، ص ٧٢.



ونحن إنما نطالب هؤلاء بالرجوع إلى ما كان أولئك عليه، فإنهم قدّس الله أرواحهم آمنوا بعيسى وبجملة النبيين صلوات الله عليهم أجمعين، وكان عيسى عليه السلام يشرهم بمحمد ﷺ، كما ستقف على نصوصه في آخر الكتاب إن شاء الله تعالى، فكانوا ينتظرون ظهوره ليؤمنوا به عليه السلام. جاءه أربعون راهباً من نجران فتأملوه، فوجدوه هو الموعود به، فأمنوا به في ساعة واحدة، بمجرد النظر والتأمل لعلاماته، فهؤلاء الذين اتبعوه، وهم المرفوعون المعظمون.

وأما هؤلاء النصارى فهم الذين كفروا به مع من كفر، وجعلوه سبباً لانتهاك حرمة الربوبية، بنسبة واجب الوجود المقدس عن صفات البشر إلى الصاحبة والولد.

والمدح لصوامع وبيع أهل الكتاب إنما كان في زمن شريعة التوراة والإنجيل المنزلة قبل التبديل قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا^١ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ^٢ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ^٣﴾ [الحج: ٤٠].

قال أبو العباس القرافي رحمه الله (ت: ٦٨٤ هـ)^(١): «والصوامع أمكنة

الرهبان في زمن الاستقامة حيث يعبد الله تعالى فيها على دين صحيح.

(١) الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة ص ٧٤.

وكذلك البيعة والصلاة والمسجد. وليس المراد هذه المواطن إذا كفر بالله تعالى فيها، وبُذلت شرائعه، وكانت محل العصيان والطغيان، لا محل التوحيد والإيمان.

وهذه المواطن في أزمنة الاستقامة لا نزاع فيها، إنما النزاع لما تغيرت أحوالها وذهب التوحيد وجاء التثليث، وكُذِّبَت الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام».

وكلام القرافي صحيح جداً، يدل لذلك أن النبي ﷺ ذم صوامع وبيع وكنائس أهل الكتاب لما بدّلوا وغيّروا، وحقّقوا الشرك عوضاً عن التوحيد. عن عائشة أن أم سلمة رضي الله عنها ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصُّور، فقال: «أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجداً، وصوَّروا فيه تلك الصُّور، أولئك شرار الخلق عند الله»^(١).

وقال النبي ﷺ: «لا تشدّدوا على أنفسكم فيشدّد عليكم، فإن قوماً شدّدوا على أنفسهم فشدد الله عليهم، فتلك بقاياهم في الصوامع والديارات

(١) رواه البخاري في كتاب الصلاة باب البيعة (ص ٧٥ - رقم ٤٣٤)، ومسلم كتاب في المساجد باب النهي عن بناء المسجد على القبور (ص ٢١٥ - رقم ١١٨١).



﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد: ٢٧] (١).

قال شيخ الإسلام رحمه الله (٢): «وقال فيما يعيب أهل الكتابين ويحذر موافقهم: «فتلك بقاياهم في الصوامع»».

وهذا واضح كذلك في سيرة الخلفاء الراشدين وإجماع الأمة، فإن مما اشترطه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في شروطه المشهورة على أهل الذمة: «ألا يُجَدِّدوا في مدائن الإسلام ولا فيما حولها كنيسة ولا صومعة» (٣).

وأما قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي ۚ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسِيسِينَ وَرَهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٢٧﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿١٢٨﴾ وَمَا لَنَا لَا نُوْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٩﴾ فَأَنبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ

(١) رواه أبو داود كتاب الأدب باب في الحسد (ص ٧٣٥ - رقم ٤٩٠٤).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ١٨١).

(٣) أحكام أهل الذمة (٢/ ٧٠١).

فِيهَا^٤ وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿ [المائدة: ٨٢ - ٨٥].

فهذه الآية سبب نزولها في النجاشي^(١)، وهي عامة لكل من آمن بالقرآن لقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ^٥﴾، وهو ليس مجرد معرفة وعلم مجرد، بل إيمان حقيقي يقتضي العمل بما أنزل الله على نبينا محمد ﷺ، كما قال عنهم: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَآكُتِبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾.

قال نجم الدين الطوفي رحمه الله (ت: ٧١٦هـ)^(٢): «إن المراد بالنصارى في الآية نصارى مخصوصون، وهم النجاشي وأصحابه من أهل الحبشة لا جميع النصارى؛ بدليل أنه وصفهم بأنهم أقرب مودة للمسلمين، وأنتم أشد عداوة لهم، ووصفهم بأنهم إذا سمعوا القرآن فاضت أعينهم تصديقاً له، وأنتم لا تصدقونه، ووصفهم بأنهم آمنوا بالإسلام وشهدوا بصلاح المسلمين، وأنتم

(١) هكذا ذكره جماعة من الصحابة كابن عباس وابن الزبير رضي الله عنهما، انظر فتح القدير (٢/ ٦٨ - ٦٩)، واستشكله ابن كثير لأن الآية مدنية، وقصة الصحابة مع النجاشي قبل الهجرة. تفسير القرآن العظيم ص ٤٤٤. وقال قتادة: أناس من أهل الكتاب كانوا على شريعة من الحق مما جاء به عيسى عليه السلام، يؤمنون به وينتهون إليه، فلما بعث الله نبيّه محمداً ﷺ صدّقوا به وآمنوا، وعرفوا الذي جاء به أنه الحق، فأثنى عليهم ما تسمعون. جامع البيان (٨/ ٥٩٧).

(٢) الإشارات الإلهية (٢/ ١٣٥ - ١٣٦).



لستم كذلك؛ فدل على أن المراد ما ذكرناه من خصوص النصارى، لا ما ذكرتموه من عمومهم، وكيف يثني عليكم وقد صرح قبل هذا بكفركم لأجل التثليث الذي تدينون به في أول السورة، يقول: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرَى أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة: ١٤]، وهو ذم لهم، فدل على أن الذم والمدح مختلف الموضوع، وأن المذموم غير الممدوح.

فالآية لمن أدرك منهم بعثة نبينا محمد ﷺ وآمن به، وهذا واضح من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا﴾ [المائدة: ٨٣]، فهؤلاء آمنوا بما أنزل على محمد ﷺ، وهم داخلون في عموم قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [١] وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ [٢] أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص: ٥٢ - ٥٤].

قال شيخ المفسرين محمد بن جرير الطبري رحمه الله (ت: ٣١٠هـ)^(١): «يعني بذلك تعالى ذكره قوماً من أهل الكتاب آمنوا برسوله وصدقوه، فقال: الذين آتيناهم الكتاب من قبل هذا القرآن، هم بهذا القرآن يؤمنون، فيقرّون أنه حق من

(١) جامع البيان (١٨/٢٧٦ - ٢٧٧).

عند الله، ويكذب جهلة الأميين الذين لم يأتهم من الله كتاب».

وأما قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ^ط وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ^ق قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ^ع إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَقَابِ^ك﴾ [الرعد: ٣٦]، فهنا أهل الملل هم الأحزاب، لأنهم هم الذين ينكرون بعضه، والصحابة هم المؤمنون بما أنزل على محمد ﷺ الفرحون به.

قال شيخ المفسرين أبو جعفر محمد بن جرير الطبري رحمه الله (ت: ٣١٠هـ):^(١) «يقول تعالى ذكره: والذين أنزلنا إليهم الكتاب ممن آمن بك واتبعتك يا محمد، يفرحون بما أنزل إليك، ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ^ق﴾، يقول: ومن أهل الملل المتحزبين عليك، وهم أهل أديان شتى، من ينكر بعض ما أنزل إليك». وقال أبو محمد ابن عطية الأندلسي رحمه الله (ت: ٥٤٦هـ):^(٢) «قال قتادة: عنى به جميع المؤمنين، و«الكتاب» هو القرآن، و«ما أنزل إليك» يُراد به جميع الشرع. وقالت فرقة: المراد بـ «الذين آتيناهم الكتاب» اليهود والنصارى، وذلك أنهم لهم فرح بما ينزل على النبي ﷺ من تصديق شرائعهم وذكر أوائلهم.

(١) جامع البيان (١٣/٥٥٥).

(٢) المحرر الوجيز (١٠/٤٧).



ويضعف هذا التأويل بأن همّهم به أكثر من فرحهم، ويضعف أيضاً بأن اليهود والنصارى ينكرون بعضه، وقد فرّق الله في هذه الآية بين الذين ينكرون بعضه وبين الذين آتاهم الكتاب.

و«الأحزاب» قال مجاهد: هم اليهود والنصارى والمجوس، وقالت فرقة: وهم أحزاب الجاهلية من العرب، وأمره الله أن يطرح اختلافهم ويصدع بأنه إنما أمر بعبادة الله وترك الإشراك، والدعاء إليه، واعتقاد المآب إليه، وهو الرجوع عند البعث يوم القيامة».

وبعض المفسرين يرى أن الآية في أهل الكتاب، قال الحافظ ابن كثير رحمته الله (ت: ٧٧٤هـ)^(١): «يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ﴾، وهم قائلون بمقتضاه ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي من القرآن لما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ [البقرة: ١٢١].. الآية، وقال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾ [الإسراء: ١٠٧] - إلى قوله -: ﴿إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً﴾ [الإسراء: ١٠٨]، أي إن كان ما وعدنا الله به في كتبنا من إرسال محمد ﷺ لحقاً وصدقاً مفعولاً لا محالة وكائناً، فسبحانه ما أصدق وعده، فله الحمد وحده

(١) تفسير القرآن العظيم، ص ٧٢٤.

﴿وَيَحْزَنُونَ لِلَّذِينَ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩].

وقوله: ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ^١﴾، أي: ومن الطوائف من يكذب ببعض ما أنزل إليك، وقال مجاهد: ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ﴾، أي: اليهود والنصارى، ﴿مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ^٢﴾، أي: بعض ما جاءك من الحق.

فالحاصل مما سبق أن المدح الوارد في القرآن لأهل الكتاب إنما هو للحواريين أنصار عيسى عليه السلام الذين لم يغيروا ولم يبدّلوا، وكانوا على التوحيد الخالص، يقولون الله واحد لا ثالث لثلاثة، ولا يقولون المسيح ابن الله.

وكذلك المدح جار فيمن بقي على دين المسيح المنزل غير المبدّل، وأدرك بعثة نبينا محمد عليه السلام فأمن به واتبعه، وهؤلاء قلة قليلة في زمن النبي عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ^٣ مِمَّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

قال الحافظ عبدالرزاق الرسعني رحمه الله (ت: ٦٦١ هـ)^(١): «قوله: ﴿مِمَّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ كعبد الله بن سلام وأصحابه، ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، وهم الذين أصرّوا على الكفر، وخرجوا عن الطاعة».

(١) رموز الكنوز (١/ ٢٦٧ - ٢٦٨).



قال أبو محمد ابن حزم رحمته الله (ت: ٤٥٦ هـ)^(١): «النصارى وإن كانوا أهل كتاب، ويقرون بنبوة بعض الأنبياء عليهم السلام، فإن جماهيرهم وفرقهم لا يقرون بالتوحيد مجرداً، بل يقولون بالتثليث، فهذا مكان الكلام عليهم».

نعم هذا أعظم الشأن، قال تعالى: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أُلْقِيَتْهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ۖ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ ۚ سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ۚ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝﴾ [النساء: ١٧١].

قال الحافظ ابن كثير رحمته الله (ت: ٧٧٤ هـ)^(٢): «قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۝﴾، أي لا تجعلوا عيسى وأمه شريكين، تعالى الله عن ذلك: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ۚ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ ۝﴾ [المائدة: ٧٣]، وكما قال في آخر السورة المذكورة: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَنعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُخِي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۝﴾ [المائدة: ١١٦] الآية، وقال في أولها:

(١) الفصل في الملل والنحل (١/١٠٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم ص ٣٨٥ - ٣٨٦.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧]،
 الآية. - والنصارى - عليهم لعائن الله - من جهلهم ليس لهم ضابط، ولا
 لكفرهم حد، بل أقوالهم وضلالهم منتشر، فمنهم من يعتقد إلهاً، ومنهم من
 يعتقد شريكاً، ومنهم من يعتقد ولدًا، وهم طوائف كثيرة لهم آراء مختلفة،
 وأقوال غير مؤتلفة، ولقد أحسن بعض المتكلمين حيث قال: لو اجتمع عشرة
 من النصارى لافترقوا على أحد عشر قولاً».

ولذلك تجد عقلاء النصارى ينفر أحدهم من اعتقاد قومه في التثليث، لأنه
 لا يمكن تصوّره تصوراً صحيحاً، ومنهم من يكون ذلك سبباً في هدايته ودخوله
 الإسلام.

من أولئك الحسن بن أيوب، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله^(١): «ومن
 أعلم الناس بمقالاتهم من كان من علمائهم، وأسلم على بصيرة، بعد الخبرة بكتبهم
 ومقالاتهم، كالحسن بن أيوب، الذي كتب رسالة إلى أخيه علي بن أيوب يذكر فيها
 سبب إسلامه، ويذكر الأدلة على بطلان دين النصارى، وصحة دين الإسلام».
 وقال في رسالته إلى أخيه لما كتب إليه يسأله عن سبب إسلامه^(٢): «ثمَّ

(١) الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح (٢/٣١٣).

(٢) الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح (٢/٣١٣).



أعلمك أن ابتداء أمري في الشك الذي دخلني فيما كنت عليه في المقالة من فساد التوحيد لله ﷻ بما أدخل فيه من القول بالثلاثة الأقانيم وغيرها، ووضع الاحتجاجات التي لا تزكو، ولا تثبت في تنوير ذلك، وكنت إذا تبهرته، وأجلت الفكر فيه بان لي عواره، ونفرت نفسي من قبوله، وإذا فكرت في دين الإسلام الذي من الله عليّ به وجدت أصوله ثابتة، وفروعه مستقيمة، وشرائعه جميلة».

إن دين أهل الكتاب اليوم ليس هو شرع الله الذي أنزله على موسى وعيسى عليهما السلام، واعتقاد أهل الكتاب اليوم ليس هو التوحيد الخالص لله ﷻ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله^(١): «وأما اليهودية والنصرانية المتضمنة للمنسوخ المبدل وهي التي عليها اليهود والنصارى الذين كذبوا محمداً ﷺ فهذه ليست دين أحد من الأنبياء، لا موسى ولا عيسى ولا غيرهما. فإذا قال أهل الكتاب للمسلمين: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصْرَى﴾، فقد أمرهم الله أن يقولوا: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [البقرة: ١٣٥]، فلا يجوز لنا اتباع ما اختص به أهل التوراة والإنجيل من الشرع المنسوخ، فكيف بالمبدل؟ بل نتبع ملة إبراهيم - وهي عبادة الله وحده بما أمر به - وهي التي كان عليها موسى وعيسى عليهما السلام، لكن كان لهم شرع اختصوا به دون إبراهيم، وكان من الدين

(١) تفسير آيات أشكلت (١/ ٢٨١ - ٢٨٥).

في حق أولئك الذين أمروا به خاصة، وإبراهيم ومن كان قبله لم يؤمروا به، وكذلك محمد ﷺ ومن آمن به لم يؤمروا بتلك الآثار والأغلال، بل رُفعت عنهم كما كانت مرفوعة عن إبراهيم، ولهذا قال ﷺ: «بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ»، وقال: «لا رهبانية في الإسلام»، وقال: «إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الْغُلُوَّ فِي الدِّينِ»، ولما رأى بيد عمر بن الخطاب ؓ ورقة من التوراة قال: «والذي نفسي بيده لو كان موسى ﷺ حيًّا، ثم اتبعتموه وتركتُموني لضللتُم».

ورُوي عنه أيضاً: «لو كان موسى وعيسى عليهما السلام حين ما وسعهما إلا اتباعي». فقد تبَيَّن أن اليهود والنصارى فيهم سعيد؛ وهم المتبعون شرع التوراة والإنجيل قبل النسخ والتبديل، وفيهم من هو مستحق للعذاب، ومع هذا نحن منهيون مطلقاً أن نتبع اليهودية والنصرانية. فإن ما اختص به السعداء منهم قد نُسخ، وأما ما اختص به الأشقياء فهو مبدل أو منسوخ تمسكوا به بعد النسخ، وما كان مشروعاً كان داخلياً في مسمى الإسلام والحنيفية لما كان مشروعاً، فلما نُسخ لم يبق داخلياً في الإسلام ولا في الحنيفية ملة إبراهيم، والمبدل بطريق الأولى».

فالْحَاصِلُ أن أهل الكتاب هم كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠]، قال



الشوكاني رحمه الله (ت: ١٢٥٠هـ)^(١): «بَيَّنَ حَالُ أَهْلِ الْكِتَابِ بِقَوْلِهِ: ﴿مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وَهُمْ الَّذِينَ آمَنُوا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْهُمْ، فَإِنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِهِ، ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، أَيِ الْخَارِجُونَ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ الْمَتَمَرِّدُونَ فِي بَاطِلِهِمُ الْمَكْذُوبُونَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَمَّا جَاءَ بِهِ».

(١) فتح القدير (١/ ٣٧٢).

الفصل الرابع

القرآن يذكر تبديل أهل الكتاب للكتب السماوية وصفة التبديل

الكتب السماوية التي أنزلها الله على رسله من قبل كالطورا والإنجيل حق، وهي شرعة تلك الأمم قبل بعثة نبينا محمد ﷺ، والقرآن مصدق لتلك الكتب مما لم يدخله نسخ أو تحريف، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

قال أبو العباس القرافي رحمه الله (ت: ٦٨٤ هـ)^(١): «وأما تصديق القرآن لما بين يديه فمعناه أن الكتب المتقدمة عند نزولها قبل تغييرها وتحييطها كانت حقاً موافقة للقرآن، والقرآن موافق لها، وليس المراد الكتب الموجودة اليوم، فإن لفظ التورا والإنجيل إنما ينصرفان إلى المنزلين».

ولذلك أمر الله المرتاب والشاك في صحة نبوة نبينا محمد ﷺ أن يسأل المنصفين الصادقين من أهل الكتاب هل يجدون البشارة بنينا ﷺ في كتبهم؟ وهل يجدون ما يدعو إليه من التوحيد مطابقاً لما أنزل على رسلم؟ وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ

(١) الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاخرة ص ٧٦.



يَقْرَءُونَ أَلْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
الْمُمْتَرِينَ ﴿[يونس: ٩٤].

قال ابن القيم رحمه الله (ت: ٧٥١هـ)^(١): «وقد أشكلت هذه الآية على كثير من الناس، وأورد اليهود والنصارى على المسلمين فيها إيراداً، وقالوا: كان في شك فأمر أن يسألنا، وليس فيها بحمد الله إشكال، وإنما أتى أشباه الأنعام من سوء قصدهم، وقلة فهمهم، وإلا فالآية من أعلام نبوته ﷺ، وليس في الآية ما يدل على وقوع الشك ولا السؤال أصلاً، فإن الشرط لا يدل على وقوع المشروط، بل ولا على إمكانه، كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءِاهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقوله: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ ءِاهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَأَبْتَغُوا إِلَيَّ الذِّى الْعَرْشُ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٢]، وقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، ونظائره.

فرسول الله ﷺ لم يشك، ولم يسأل.

وأما من زعم أن سبب نزول الآية كان في عبد الله بن سلام، فقد أخطأ.

(١) أحكام أهل الذمة (١/ ١٢).

قال ابن القيم رحمه الله (ت: ٧٥١هـ)^(١): «وأين كان عبدالله بن سلام وقت نزول هذه الآية؟! فإن السورة مكية، وابن سلام إذ ذاك على دين قومه، وكيف يُؤمر رسول الله ﷺ أن يستشهد على منكري نبوته باتباعه؟!».

ثم بين ابن القيم رحمه الله معنى الآية ومقصودها، فقال^(٢): «المقصود به إقامة الحجة على منكري النبوات والتوحيد، وأنهم مقرون بذلك لا يحددونه ولا ينكرونه، وأن الله سبحانه أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه بذلك، وأرسل ملائكته إلى أنبيائه بوحيه وكلامه، فمن شك في ذلك فليسأل أهل الكتاب، فأخرج هذا المعنى في أوجز عبارة وأدناها على المقصود، بأن جعل الخطاب لرسوله ﷺ الذي لم يشك قط، ولم يسأل قط، ولا عرض له ما يقتضي ذلك».

والقرآن مهيمن وناسخ للكتب السماوية قبله، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾^{طه}
[المائدة: ٤٨]، فقرأنا حاكم وقاض وناسخ للكتب السابقة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله^(٣): «والمهيمن الشاهد المؤتمن الحاكم،

(١) أحكام أهل الذمة (١/١٣).

(٢) أحكام أهل الذمة (١/١٥).

(٣) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (١/٢٩٩).



فيشهد بما فيها من الحق، ويبين ما حُرف فيها، ويحكم بإقرار ما أقره الله من أحكامها، وينسخ ما نسخه الله عنها، وهو مؤتمن عليها».

وكان النبي ﷺ يزجر أصحابه عن صحف أهل الكتاب لأنها منسوخة أولاً، ولأنه دخلها التغير والتحريف والتبديل.

ولما رأى النبي ﷺ بيد عمر بن الخطاب رضي الله عنه صحيفة من التوراة زجره، وقال له: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، وإنكم إما أن تكذبوا بحق، أو تصدقوا بباطل، والله لو كان موسى بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني»^(١).

وقال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: «يا معشر المسلمين! كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتابكم الذي أنزل الله على نبيكم ﷺ أحدث الأخبار بالله، محضاً لم يُشَبَّ، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلوا من كتب الله وغيروا، فكتبوا بأيديهم، قالوا: هو من عند الله، ليشتروا بذلك ثمناً قليلاً».

(١) رواه أحمد (٣/ ٣٨٧)، والدارمي (١/ ١١٥)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» ص ٣٣٩.

(٢) رواه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب قول النبي ﷺ لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء (ص ١٢٦٦ - رقم ٧٣٦٣).

ومما ينبغي التنبيه عليه في هذا المقام، أن الاحتجاج بشريعة من قبلنا لا يعني الرجوع إلى كتبهم المحرّفة، وإنما هو العمل بما جاء في شريعتنا مما ذكره الله عنهم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله^(١): «ونحن إذا قلنا: شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه، فإنما ذاك لكونه مشروعاً على لسان محمد صلوات الله عليه بالأدلة الدالة على ذلك».

وقال الكيا الهراسي رحمته الله^(٢): «المراد بشرع من قبلنا ما حكاه الله ورسوله عنهم، أما الموجود بأيديهم فممنوع اتباعه بلا خلاف».

وهيمنة القرآن على الكتب المتقدمة من وجوه متعددة، أنه جاء ببيان وتفصيل أتم من الكتب السابقة، وبيّن ما وقع فيها من التحريف، وبيّن ما كتبه أهل الكتاب من وحي الله، وأقر بعض أحكامهم، ونسخ بعضاً.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله^(٣): «وهكذا القرآن فإنه قرر ما في الكتب المتقدمة من الخبر عن الله وعن اليوم الآخر، وزاد ذلك بياناً وتفصيلاً، وبيّن الأدلة والبراهين على ذلك، وقرر نبوة الأنبياء كلهم ورسالة المرسلين، وجادل

(١) الصفدية (١/٢٥٨).

(٢) البحر المحيط في أصول الفقه (٦/٤٥).

(٣) مجموع الفتاوى (١٧/٤٤ - ٤٥).



المكذبين بالكتب والرسل بأنواع الحجاج والبراهين، ويبيّن عقوبات الله لهم ونصره لأهل الكتب المتبعين لها، ويبيّن ما حُرّف منها وبُدل، وما فعله أهل الكتاب في الكتب المتقدمة، ويبيّن أيضاً ما كتموه مما أمر الله ببيانه، وكل ما جاء به النبوات بأحسن الشرائع والمناهج التي نزل بها القرآن، فصارت له الهيمنة على ما بين يديه من الكتب من وجوه متعددة، فهو شاهد بصدقها، وشاهد بكذب ما حُرّف منها، وهو حاكم بإقرار ما أقره الله، ونسخ ما نسخه، فهو شاهد في الخبريات حاكم في الأموريات.

وكذلك معنى «الشهادة» و«الحكم» يتضمن إثبات ما أثبتته الله من صدق ومحكم، وإبطال ما أبطله من كذب ومنسوخ، وليس الإنجيل مع التوراة ولا الزبور بهذه المثابة، بل هي متبعة لشريعة التوراة إلا يسيراً نسخه الله بالإنجيل؛ بخلاف القرآن.

ثم إنه معجز في نفسه لا يقدر الخلائق أن يأتوا بمثله، ففيه دعوة الرسول، وهو آية الرسول وبرهانه على صدقه ونبوته، وفيه ما جاء به الرسول وهو نفسه برهان على ما جاء به.

والكتب السماوية لم تُحَرّف كلها، وإنما حُرّف بعضها، قال تعالى: ﴿يَتَأْهَلِ
الْكِتَابُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ

مَنْ أَلَكَّتْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ [المائدة: ١٥ - ١٦].

قال أبو عبدالله القرطبي رحمه الله^(١): «كثيراً مما كنتم تخفون من أَلَكَّت أي من كتبكم، من الإيمان به، ومن آية الرجم، ومن قصة أصحاب السبت الذين مسخوا قردة، فإنهم كانوا يخفونها».

وتحرّف كتب أهل الكتاب هو من ضرورات بعثة نبينا محمد ﷺ لتحصل الهداية للناس جميعاً بشرع من عند الله محفوظ لا تحريف فيه، ولذلك ذكر الله منة إرسال نبينا محمد ﷺ وإنزال القرآن في إثر الإعلام بتحريف وتبديل التوراة والإنجيل، قال ابن جرير رحمه الله في بيان هذا المعنى^(٢): «وَكِتَابٌ مُبِينٌ»، يعني كتاباً فيه بيان ما اختلفوا فيه بينهم من توحيد الله، وحلاله وحرامه، وشرائع دينه، وهو القرآن الذي أنزله على نبينا محمد ﷺ، يُبَيِّن للناس جميع ما بهم الحاجة إليه من أمر دينهم، ويوضّحه لهم حتى يعرفوا حقه من باطله».

وهذه الآية بخصوصها من دلائل نبوة نبينا محمد ﷺ، قال ابن عطية

(١) الجامع لأحكام القرآن (٦/ ١١٨).

(٢) جامع البيان (٨/ ٢٦٤).



الأندلسي رحمه الله^(١): «في الآية الدلالة على صحة نبوته، لأن إعلامه بخفي ما في كتبهم وهو أُمي لا يقرأ ولا يصحب القراءة دليل على أن ذلك إنما يأتيه من عند الله تبارك وتعالى».

وما وقع فيه التحريف، هو مما كان لهم مصلحة وهوى في كتبه أو تحريفه. قال ابن القيم رحمه الله لما ذكر ما حكاه عبدالله بن سلام رضي الله عنه عن التوراة أن ساعة الإجابة يوم الجمعة هي آخر ساعة بعد العصر، مدلاً لذلك على موافقة ما أخبر به نبينا ﷺ^(٢): «وهذه الساعة هي آخر ساعة بعد العصر، يُعظَّمها جميع أهل الملل، وعند أهل الكتاب هي ساعة الإجابة، وهذا مما لا غرض لهم في تبديله وتحريفه، وقد اعترف به مؤمنهم».

وذكر شيخ الإسلام رحمه الله أن الذي دخله التبديل بعض ألفاظ الخبريات، وبعض معاني الأموريات، حيث قال^(٣): «والأنجيل التي بأيدي النصارى تشبه هذا، ولهذا أمروا أن يحكموا فيها، فإن فيها أحكام الله، وعامة ما فيها من الأحكام لم يبدل لفظه، وإنما بدلت بعض ألفاظ الخبريات، وبعض معاني

(١) المحرر الوجيز (٥/٦٢).

(٢) زاد المعاد (١/٣٩٦).

(٣) الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح (٢/١٨).

الأمريات، كما نؤمر نحن أن نعمل بأحاديث الأحكام المعروفة عن النبي ﷺ، فإن العلماء اعتنوا بضبط الخبريات، كأحاديث الزهد والقصص والفضائل، ونحو ذلك، إذ حاجة الأمم إلى معرفة الأمر والنهي أكثر من حاجتهم إلى معرفة التفاصيل بالخبريات التي يُكتفى بالإيمان المجمل بها.

وأما الأمر والنهي، فلا بد من معرفته على وجه التفصيل، إذ العمل بالمأمور لا يكون إلا مفصلاً، والمحذور الذي يجب اجتنابه لا بد أن يُميّز بينه وبين غيره، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥].

وقد ذكر الله الكيفية التي وقع فيها تحريف التوراة، فقال سبحانه: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١]، قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله^(١): «القراطيس جمع قرطاس، و(القرطاس): الورقة، كما هو معروف، لأن نسخة التوراة الكبيرة كلها فيها الحق، فإذا أرادوا التحريف أخذوا أوراقاً مفرقة، وكتبوا فيها أشياء متعددة مما يريدون أن يحرفوه، وتركوا نسخة الكتاب الكبيرة غير حاضرة، فإذا أرادوا التحريف، قالوا: هذا القرطاس نقلنا فيه من محل التوراة في المحل الفلاني كذا وكذا، وهذا نصه!!

(١) العذب النмир (١/٤١٩).



وهو محرف، لم يأتوا بأصل الكتاب، لأنه لو جاء لظهرت الحقيقة فيه، وهذا معنى ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَأِيسَ﴾، ﴿تُبَدُّوْنَهَا﴾ أي: القراطيس المحرفة على أهوائكم ﴿وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾، وجعلوه بهذه القراطيس ليستعينوا بها على إخفاء ما يحبون وإبداء ما يحبون، لأنه لو جاءت نسخة الكتاب كاملة لُعرفت الحقيقة فيه، ولذلك يكتبونها كتباً محرّفة، كما قال: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ ﴿[البقرة: ٧٩]، وقال: ﴿وَأِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُودْنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨]، وهذا معنى قوله: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَأِيسَ تُبَدُّوْنَهَا﴾ محرفة للناس ﴿وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ في النسخة الكبيرة لا تُظهرونه. كانوا يخفون صفات النبي ﷺ، يجدون (رَبْعَةً)، يكتبون: (طويلاً مُشَدَّبًا)، (جَعَدَ الشعر): يكتبون: (سَبَطَ الشعر)، ويغيرون الحقائق؛ ولذا قال تعالى: ﴿تُبَدُّوْنَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾.

ولما تحقق المنصفون من أهل الكتاب بتحريف وتبديل كتبهم قادهم ذلك إلى الإسلام، قال يحيى بن أكثم^(١): «كان للمأمون - وهو أمير إذاك - مجلس

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٠/٥ - ٦).

نظر، فدخل في جملة الناس رجل يهودي حسن الثوب حسن الوجه طيب الرائحة، قال: فتكلم، فأحسن الكلام والعبارة، قال: فلما تقوَّض المجلس دعاه المأمون، فقال له: إسرائيلي؟ قال: نعم، قال له: أسلم حتى أفعل بك وأصنع، ووعدته. فقال: ديني ودين آبائي! وانصرف.

وقال: فلما كان بعد سنة جاءنا مسلماً، قال: فتكلم على الفقه، فأحسن الكلام، فلما تقوَّض المجلس دعاه المأمون، وقال: أأنت صاحبنا بالأمس؟ قال له: بلى، قال: فما كان سبب إسلامك؟ قال: انصرفت من حضرتك فأحببت أن أمتحن هذه الأديان، وأنت تراني حسن الخط، فعمدت إلى التوراة فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت، وأدخلتها الكنيسة فاشترت مني، وعمدت إلى الإنجيل فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت، وأدخلتها البيعة فاشترت مني، وعمدت إلى القرآن فعملت ثلاث نسخ وزدت فيها ونقصت، وأدخلتها الوراقين فتصفحوها، فلما أن وجدوا فيها الزيادة والنقصان رموا بها فلم يشتروها، فعلمت أن هذا كتاب محفوظ، فكان هذا سبب إسلامي.

قال يحيى بن أكثم: فحججت تلك السنة فلقيت سفيان بن عيينة فذكرت له الخبر، فقال لي: مصداق هذا في كتاب الله ﷻ قال: قلت: في أي موضع؟ قال: في قول الله تبارك وتعالى في التوراة والإنجيل: «بما استُحفظوا من كتاب الله»،



فجعل حفظه إليهم فضاع، وقال ﷺ: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ [الحجر: ٩] فحفظه الله ﷻ علينا فلم يضيع».

ولم يتواتر الإنجيل، وكان هذا من أسباب تحريفه ووقوع التبديل فيه، قال نجم الدين الطوفي رحمه الله (ت: ٧١٦ هـ)^(١): «وأما كون الإنجيل متواتراً فممنوع، لأنه إنما أُلِفَ على جهة التاريخ، وحفظ سيرة المسيح بعد أن رُفِعَ وقُتِلَ وصُلِبَ على زعمكم بنحو ثمانين سنة، معتمداً في جمعه على أربعة، وهم: لوقا، ومرقس، ويوحنا، ومتى. ومثل هذا لا يحصل به التواتر، ودعوى النصارى أن هؤلاء كانوا أنبياء معصومين حلَّ عليهم روح القدس دعوى خيال تورث الخبال تكاد تزول منها الجبال، فلا تسمع قوله: أطبقت النصارى عليه في شرق البلاد وغربها كإطباق المسلمين على القرآن».

قلنا: التواتر لا يثبت بمجرد الإطباق، وإنما يثبت بوجود حقيقة وشروطه، وهي اتفاق العدد الكثير المأمون تواطؤه على الكذب على الإخبار عن محسوس مع اتفاق الطرفين والواسطة في هذه القيود، وهذا المعنى موجود في إطباق المسلمين على نقل القرآن، وليس موجوداً في نقل النصارى للإنجيل، فإن الطرف الأول الذي على عهد المسيح لم يكونوا على شرط التواتر لقلتهم

(١) الإشارات الإلهية (٢/٦٦ - ٦٨).

وضعفهم، حتى إن المسيح - على زعمكم - قُتل قتل اللصوص وصلب بين لصين، وما استطلقوا جثته إلا استطلاقاً من هيردوس الملك، حتى دفنوها، وإن بطرس رئيس الحواريين وأشجعهم وأصدقهم في محبة المسيح لما سئل عن المسيح أنكروه في ليلة واحدة قبل أن يصيح الديك ثلاث مرات، ثم لم تزل الملة المسيحية خاملة مستضعفة مع اليهود لا يجسر أحد يتظاهر بذكر المسيح ولا بسيرته، ولا بالإنجيل حتى ظهر قسطنطين بن قسطنطين فأظهرها، وذلك بين من السنين نحو ثلاثمائة سنة، فأين التواتر، مما هذا شأنه.

وكذا قوله: إن الإنجيل معصوم، هو ممنوع؛ لأن المعصوم له تفسيران: أحدهما: يُراد به كلام الله ﷻ ورسله، والإنجيل الذي بأيدي النصارى ليس كلام الله ﷻ إلا على زعمهم أن المسيح هو الله والإنجيل كلامه، وذلك بناء ممنوع على ممنوع، وليس هو كلام المسيح جميعه بل بعضه كلامه وأكثره حكايات ومجريات من كلام غيره شبيه بالسيرة والتاريخ.

والثاني: أن يُراد به المحفوظ من التناقض والتهافت، وليس الإنجيل كذلك إذ قد بينَّ الناس فيه من التناقض كثيراً جداً على ما استقصيناه في كتاب مفرد، ولو لم يكن من ذلك إلا التهافت الذي في قصة صلب المسيح لكان كافياً حتى احتاج شراحه والمفسرون له إلى تكلف بعيد في إزالته، ولم يزل، فأين



الإنجيل والحالة هذه من العصمة».

أما أمة محمد ﷺ فقد اصطفاهم الله لحفظ كتابه، ويسر لهم أسباب حفظه فضلاً منه ومنّة.

قال قتادة رحمه الله^(١): «كان من قبلكم إنما يقرؤون كتبهم نظراً، فإذا رفعوها لم يعوها، ولم يحفظوها، وإن الله أعطى هذه الأمة من الحفظ ما لم يعط الأمم قبلها».

وأهل الكتاب أنفسهم يقرؤون بتواتر القرآن، وأنه لم يقع مثله لأهل الكتاب، قال العلامة رحمة الله العثماني الهندي رحمه الله^(٢): «جاء يوماً أمير من أمراء الإنكليز في كتاب في بلدة سهارنفور من بلاد الهند، ورأى الصبيان مشغولين بتعلم القرآن وحفظه، فسأل المعلم: أي كتاب هذا؟ فقال: القرآن المجيد، فقال الأمير: أحفظ أحد منهم القرآن كله؟ فقال المعلم: نعم، وأشار إلى عدة منهم، فلما سمع استبعد، فقال: اطلب واحداً منهم وأعطني القرآن أمتحنه، فقال المعلم: اطلب أنت أيهم شئت، فطلب واحداً منهم كان ابن ثلاث عشرة أو أربع عشرة، وامتحنه في مواضع، فلما تيقن أنه حافظ لجميع

(١) بدائع الفوائد (٤/ ١٤٣٠).

(٢) إظهار الحق (٢/ ٥٩٨).

القرآن تعجّب، وقال: أشهد أنه ما ثبت تواتر لكتاب من الكتب كما ثبت للقرآن، يمكن كتابته من صدر صبي من الصبيان مع غاية صحة الألفاظ وضبط الإعراب».

ومع ما أوقعه أهل الكتاب اليهود والنصارى من التحريف للكتب السماوية فإن كل طائفة منهم تضلل الأخرى، فإذا اجتمع مع ذلك التكذيب بنبوّة نبينا محمد ﷺ صارت البشرية جمعاء بلا كتاب هادٍ من رب السماء، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١].

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ [البقرة: ١١٣].

قال العلامة محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله (ت: ١٣٩٣ هـ)^(١): «إن التوراة هي أصل للنصرانية^(٢)، والإنجيل ناطق بحقيقتها، فكيف يسوغ للنصارى ادعاء أنها ليست بشيء كما فعلت نصارى نجران، وأن التوراة ناطقة بمجيء رسل بعد موسى، فكيف ساغ لليهود تكذيب رسول النصارى».

(١) التحرير والتنوير (١/ ٦٧٧).

(٢) لأن الإنجيل جاء متمماً للتوراة.



وقال العلامة محمد جمال الدين القاسمي رحمته الله^(١): «وَحَقُّ مَنْ حَمَلَ التَّوْرَةَ أَوْ الْإِنْجِيلَ، أَوْ غَيْرَهُمَا مِنْ كُتُبِ اللَّهِ، وَأَمِنَ بِهِ، أَنْ لَا يَكْفُرَ بِالْبَاقِي، لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْكُتَابِينَ مُصَدِّقٌ لِلثَّانِي، شَاهِدٌ بِصَحَّتِهِ. وَكَذَلِكَ كُتِبَ اللَّهُ جَمِيعاً مُتَوَارِدَةً عَلَى تَصْدِيقِ بَعْضِهَا بَعْضاً».

نعم الأمر كما قال العلامة القاسمي رحمته الله، حق لمن حمل التوراة والإنجيل أن يؤمن ببقية الكتب السماوية لأنها مصدقة لها، فحق أهل الكتاب الفرح بالقرآن، أولاً لأنه من عند الله هدى ونورا، وشرعة ومنهاجاً، وثانياً: لأنه مصدق لكتبهم ومشتمل عليها. قال تعالى عن نبينا محمد ﷺ: ﴿يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ [البينة: ٢]، قال نجم الدين الطوفي رحمته الله^(٢): ﴿صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾: القرآن، ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة: ٣]، يقتضي أن القرآن تضمن معاني الكتب التي قبله أو بعضها، ولا أفهم لهذا الكلام معنى إلا هذا، ثم على هذا قوله ﷺ: ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]، أي دين الكتب القيمة السابق ذكرها، وذلك إشارة إلى العبادة مخلصين حنفاء وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، فدل على أن الشرائع السابقة وردت بهذه الخصال جميعها، وهو موافق لقوله ﷺ: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا

(١) محاسن التأويل (٢/ ٢٢٥).

(٢) الإشارات الإلهية (٣/ ٤١٧).

وَصَّى بِهِ نُوحًا ﴿الشورى: ١٣﴾.

ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ

[فاطر: ٣٢]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أمة محمد ﷺ ورثهم الله كل كتاب أنزله»^(١).

(١) جامع البيان (٢٢/١٣٤)، البعث والنشور للبيهقي (رقم ٧٣)، تفسير ابن كثير



الفصل الخامس

بطلان عقيدة الصلب والتثليث في القرآن والكتب السماوية

قال تعالى عن اليهود: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ^١ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ^٢ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ^٣ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا^٤﴾ [النساء: ١٥٧].

قال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء، خرج على أصحابه وفي البيت اثنا عشر رجلاً من الحواريين، يعني فخرج عليهم من عين في البيت، ورأسه يقطر ماء، فقال: إن منكم من يكفر بي اثنتي عشرة مرة، بعد أن آمن بي، قال: ثم قال: أيكم يلقي عليه شبهي فيقتل مكاني ويكون معي في درجتي؟ فقام شاب من أحدثهم سناً، فقال له: اجلس، ثم أعاد عليهم، فقام ذلك، فقال: اجلس، ثم أعاد عليهم، فقام الشاب، فقال: أنا، فقال: هو أنت ذاك، فألقي عليه شبه عيسى، ورفع عيسى من روزنة في البيت إلى السماء، قال: وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبه فقتلوه ثم صلبوه، فكفر به بعضهم اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن به، وافترقوا ثلاث فرق:

فقلت فرقة: كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء وهؤلاء اليعقوبية، وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء، ثم رفعه الله إليه وهؤلاء النسطورية، وقالت فرقة: كان فينا عبدالله ورسوله ما شاء الله، ثم رفعه الله إليه، وهؤلاء المسلمون، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوهما، فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً ﷺ^(١).

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله (ت: ٧٧٤ هـ)^(٢): «هذا إسناد صحيح إلى ابن عباس رضي الله عنهما، ورواه النسائي عن أبي كريب عن أبي معاوية بنحوه». وقال الشوكاني رحمه الله (ت: ١٢٥٠ هـ)^(٣): «وصدق ابن كثير، فهؤلاء كلهم رجال الصحيح».

قال أبو المظفر السمعاني رحمه الله (ت: ٤٨٩ هـ)^(٤): «أما أمر عيسى والخبر عن قتله فلم يوجد فيه الإطباق، ولم يحصل عليه منهم الاتفاق، فإن العيسوية وهم فرقة كبيرة من النصارى يزعمون أن عيسى عليه السلام لم يُقتل، بل رفعه الله إليه،

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٤/ ١١١٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم ص ٣٧٥.

(٣) فتح القدير (١/ ٥٣٥).

(٤) قواطع الأدلة (١/ ٣٢٩ - ٣٣٠).



ولا يعتقدون التثليث، ونصارى الحبشة على هذا، وزعم هؤلاء أن محمداً ﷺ مبعوث إلى العرب خاصة، وفي اليهود من يقول هذا الأخير، ثم قد قالوا: إن خبر قتل عيسى من النصارى لا يوجد فيه شرط التواتر، لأننا بيننا أن شرط التواتر أن يستوي طرفاه وواسطته، وقد قيل: إن خبر قتله مستند إلى أربعة نفر، هم: يوحنا، ومتى، ولوقا، ومرقص.

وذكر أهل العناية بالأخبار أن عيسى ﷺ كان بأرض عربية، وكان أصحابه مطلوبين خائفين عليه وعلى أنفسهم، فلما وقعت الصيحة، وقيل: إنه قد قُتل جل أصحابه على خفية واستتار، ونظروا إلى شخص مصلوب مقتول وهم على حال وجل ورعب توهموا أن ما سمعوه حق، فأفاضوا الخبر بذلك، وأشاعوا في أصحابهم وأشياعهم، وأما عن اليهود: فإن أصل الخبر عنهم في قتله أوهى وأضعف من خبر النصارى، وذلك لأنهم كانوا يطلبون عيسى ﷺ يريدون قتله وهم لا يعرفونه بحلته، وإنما جعلوا لرجل منهم جعلاً فدّهم على شخص في بيت فهجموا عليه وقتلوه، وزعموا أنهم قتلوا عيسى ﷺ، وأشاعوا الخبر، وإذا كان مخرج المخبر به قد اعتورته هذه الآفات كان معدوم شرائط الصحة غير موثوق به، وقد أخبر الله تعالى في كتابه بالحماية من شرطه، وقال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ﴾ [النساء: ١٥٧]، فوجب الأخذ بهذا،

ونزل ما زعموه للآفات التي عرضت عليه فيه».

وقصة صلب المسيح في الإنجيل دالة على بطلانها، قال العلامة محمد تقى الدين الهلالي رحمه الله (ت: ١٤٠٧ هـ) وهو يذكر ما زعموا أنه تفوه به المسيح لما قصدوا صلبه^(١): «ونصه بالسريانية: إلی، إلی لا ما شبكتني؟ وآل اسم الله تعالى بالسريانية والعبرانية، ومنه جبريل، ولفظه بالسريانية كبرائيل «فكبرا» معناه بالسريانية رجل، وآل اسم الله، وهو رجل الله الذي يرسله إلى أنبيائه، ومعنى: «إلی، لا ما شبكتني؟» أي: إلهي إلهي لماذا أخلفت وعدك لي؟ أي: بالنجاة من اليهود، وهذه كلمة كفر، لأن عيسى معصوم أن يتهم الله تعالى بالكذب والغدر».

قال تعالى: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۖ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ وَإِنْ مِّنْ أَهْلٍ لَّيَكْتَبَ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿[النساء: ١٥٨ - ١٥٩].

هذه الآية صريحة في أن اعتقاد صلب وموت المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ما بُني على يقين، وإنما على أوهام، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ شَهِدَهُمْ﴾، قال العلامة محمد الطاهر ابن عاشور رحمه الله (ت: ١٣٠٣ هـ): «الظاهر أن الله

(١) «البراهين الإنجيلية على أن عيسى داخل في العبودية ولا حظ له في الألوهية»، بواسطة سبيل الرشاد (٥/ ٤٧).

يقذف في نفوس أهل الكتاين الشك في صحة الصلب، فلا يزال الشك يخالج قلوبهم ويقوى حتى يبلغ مبلغ العلم بعدم صحة الصلب في آخر أعمارهم تصديقاً لما جاء به النبي ﷺ حيث كذب أخبارهم، فنفى الصلب عن عيسى عليه السلام^(١).

قال ابن عباس عليه السلام: «لا يموت يهودي حتى يؤمن بعيسى ابن مريم»^(٢). وللعلماء قولان في عود الضمير في قوله تعالى: ﴿مَوْتَهُ^ط﴾: القول الأول: أن الضمير يعود على الكتاين، فالمعنى أن من نزل به الموت من أهل الكتاب لم تخرج نفسه حتى يتبين له الحق في عيسى ابن مريم عليه السلام أنه عبدالله ورسوله، ليس بإله ولم يصلب^(٣).

ويرجع هذا القول أمران:

أ - قراءة أبي بن كعب عليه السلام (قبل موتهم).

ب - سياق الآية، «لأن الآية في قصة عيسى».

القول الثاني: الضمير يرجع إلى عيسى عليه السلام، فيكون المعنى إذا نزل عيسى ابن مريم عليه السلام في آخر الزمان تحقق أهل الكتاب أنه كان حياً، ولم يصلب،

(١) التحرير والتنوير (٦ / ٢٥).

(٢) جامع البيان (٧ / ٦٦٩)، وصححه ابن كثير في تفسيره ص ٣٧٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم (ص ٣٧٦).

فيصدقون به، فتصير الملل كلها ملة واحدة، وهي ملة الإسلام الحنيفية، دين إبراهيم^(١).

قال ابن جرير الطبري رحمه الله (ت: ٣١٠ هـ)^(٢): «وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال: تأويل ذلك: وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى».

ودليل ترجيح هذا القول ما تواتر في الأحاديث من نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان^(٣).

وأولى الأقوال بالترجيح القول الأول لأنه أبلغ في إقامة الحجة على كل كتابي، لأن تقرير القول الثاني يوجب أن لا يتحقق ذلك إلا من يُدرك آخر الزمان وقت نزول المسيح ابن مريم عليه السلام.

قال العلامة محمد الطاهر ابن عاشور رحمه الله متقدماً عود الضمير في قوله: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ على عيسى عليه السلام^(٤): «ولا يخفى أن عموم قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ

(١) جامع البيان (٧/ ٦٦٤).

(٢) جامع البيان (٧/ ٦٧٢).

(٣) فتح القدير (١/ ٥٣٥).

(٤) التحرير والتنوير (٦/ ٢٥).



الْكِتَابِ ﴿، يبطل هذا التفسير، لأن الذين يؤمنون به - على حسب هذا التأويل - هم الذين سيوجدون من أهل الكتاب لا جميعهم﴾.

والحافظ ابن كثير رحمته الله قرر القولين، فإنه قال عن اختيار الطبري عود الضمير على عيسى عليه السلام: «هو الصحيح»^(١)، وقال أيضاً في عود الضمير في قوله: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ على الكتابي^(٢): «فهذا هو الواقع، وذلك أن كل أحد عند احتضاره ينجلي له ما كان جاهلاً به، فيؤمن به، ولكن لا يكون ذلك إيماناً نافعاً، إذ كان قد شاهد الملك، كما قال تعالى في أول هذه السورة: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنَ﴾ [النساء: ١٨]».

وهناك قول ثالث في عود الضمير في قوله: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ على نبينا محمد عليه السلام، قال أبو المظفر السمعاني رحمته الله (ت: ٤٥٨ هـ)^(٣): «وهذا قول ضعيف، لأنه لم يجر ذكر محمد عليه السلام في الآية».

قال شهر بن الحوشب: قال لي الحجاج يوماً: إن آية من كتاب الله ما قرأتها إلا تلجلج لي في نفسي منها شيء، قلت: وما هي؟ قال: ﴿وَإِنْ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ

(١) تفسير القرآن العظيم ص ٣٧٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم ص ٣٧٧.

(٣) تفسير القرآن (١/ ٥٠٠).

إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ^ط، وإني لأوتى بالأسير من اليهود والنصارى فأضرب عنقه، فما أسمعه يقول شيئاً.

قلت: إن اليهودي إذا حضره الموت؛ ضربت الملائكة وجهه ودُّبُّرَه، وتقول له: يا عدو الله؛ أذاك عيسى عبداً نبياً فكذبت به، فيقول: إني آمنت به، إنه عبد نبي، فيؤمن به حين لا ينفعه إيمانه، وتقول الملائكة للنصراني: يا عدو الله؛ أتى عيسى عبداً نبياً فكذبت به، وقلت: إنه الله وابن الله، فيقول: إنه عبد الله ورسوله حين لا ينفعه إيمانه.

قال الحجاج: ومن حدَّثك بهذا الحديث؟ قلت: حدثني به محمد بن الحنفية، قال: - وكان متكئاً فجلس - ثم نكث الأرض بقضيبه ساعة، ثم رفع رأسه إليّ، وقال: أخذتها من عين صافية، أخذتها من معدنها^(١).

ومما يدل على بطلان عقيدة الصلب، ما أخبر الله به ورسوله ﷺ من نزول عيسى ابن مريم في آخر الزمان، قال تعالى عن ابن مريم ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ [آل عمران: ٤٦].

قيل للحسن بن الفضل: «هل تجد نزول عيسى من السماء في القرآن؟ قال:

(١) تفسير القرآن العظيم للطبراني (٢/ ٣٢٨ - ٣٢٩).



نعم؛ قوله تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي آلَمِهِمْ وَكَهَلًا﴾ [آل عمران: ٤٦]، وهو لم يكتهل في الدنيا، وإنما رُفِعَ وهو شاب، وإنما معناه وكهلاً بعد نزوله من السماء^(١).

وقال أبو المظفر السمعاني رحمه الله (ت: ٤٨٩ هـ) في معنى ﴿وَكَهَلًا﴾^(٢): «هو ما فوق الغلام ودون الشيخ، وهو ابن أربع وثلاثين سنة، وأصله الطول، ومنه: اكتهل النبات إذا طال».

وقال السمين الحلبي رحمه الله^(٣): «الكهل من بلغ سن الكهولة وأولها ثلاثون، وقيل: اثنان، وقيل ثلاث وثلاثون، وقيل أربعون، وآخرها ستون، ثم يدخل في سن الشيخوخة».

وقال الحافظ البغوي رحمه الله (ت: ٥١٦ هـ)^(٤): «قال مجاهد: وكهلاً أي: حليماً، والعرب تمدح الكهولة، لأنها الحالة الوسطى في احتناك السن واستحكام العقل وجودة الرأي والتجربة».

ويبين أبو حيان الأندلسي رحمه الله أن تفسير مجاهد للكهل بالحليم من باب

(١) تفسير القرآن العظيم للطبراني (٢/ ٦٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٢٠).

(٣) الدر المصون (٢/ ٩٧).

(٤) معالم التنزيل (١/ ٣٠٢).

التفسير باللازم، فقال^(١): «وهذا تفسير باللازم»، ثم استنبط أبو حيان من الآية بطلان دعوى ألوهية ابن مريم، فقال^(٢): ﴿فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾، إشارة إلى تقلب الأحوال عليه، ورد على النصارى في دعواهم إلهيته».

والنصارى في أنفسهم مرتابون في عقيدتهم معتقدون صحة نبوة نبينا محمد ﷺ، فنصارى نجران نكصوا عن مباهلة النبي ﷺ خشية أن تصيبهم دعوة نبينا ﷺ، عن حذيفة رضي الله عنه قال^(٣): «جاء العاقب والسَّيِّدُ^(٤) صاحباً نجران إلى رسول الله ﷺ يُريدان أن يلاعنا، قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل، فوالله لئن كان نبياً فلاعنَّاه لا نُفْلِح نحن ولا عقبنا من بعدنا، قالاً: إنا نُعْطِيكَ ما سألتنا وابعث معنا رجلاً أميناً».

(١) البحر المحيط (٢/ ٤٦١).

(٢) البحر المحيط (٢/ ٤٦٢).

(٣) رواه البخاري في كتاب المغازي باب قصة أهل نجران (ص ٧٤٣ - رقم ٤٣٨٠)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل أبي عبيدة بن جراح (ص ١٠٦٦ - رقم ٢٤٢٠).

(٤) السيد اسمه الأيهم بتحتانية ساكنة، ويقال شرجيل، وكان صاحب رحالهم ومجتمعهم ورئيسهم في ذلك، وأما العاقب فاسمه عبد المسيح وكان صاحب مشورتهم، وكان معهم أيضاً أبو الحارث بن علقمة، وكان أسقفهم وحرهم وصاحب مدارسهم. فتح الباري (٧/ ٩٤).



قال الحافظ ابن حجر رحمته الله (ت: ٨٥٢ هـ)^(١): «وفي قصة أهل نجران من الفوائد أن إقرار الكافر بالنبوة لا يدخله في الإسلام حتى يلتزم أحكام الإسلام^(٢)، وفيها جواز مجادلة أهل الكتاب، وقد تجب إذا تعينت مصلحتها». وأما دعوى اليهود والنصارى أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ﴾ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ^٣ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١٢﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١١﴾ [البقرة: ١١١ - ١١٢].

فهذا غرور الأماني الكاذبة، فإلف الباطل سنوات طويلة يجعل الأوهام في اعتقاد صاحبها قطعيات، وهي محض ضلالات وزيد باطل، وما أشبه هؤلاء بمشركي قريش الذين دعوا على أنفسهم بالعذاب إن كان محمد ﷺ رسول الله حقاً وصدقاً.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا آلَ اللَّهِمْ إِنْ كَانَتْ هَٰذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ

(١) فتح الباري (٧/ ٩٥).

(٢) قال ابن حجر رحمته الله: «ذكر ابن سعد أن السيد والعاقب رجعا بعد ذلك فأسلم». فتح

الباري (٧/ ١٩٥).

فَأَمْطَرَ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ آتَيْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ [الأنفال: ٣٢].

قال الحافظ أبو المظفر السمعاني رحمه الله (ت: ٤٨٩)^(١): «وهذا يدل على شدة بصيرتهم في الكفر، وأنه لم تكن لهم شبهة وريب في كذب الرسول ﷺ، لأن العاقل لا يسأل العذاب بمثل هذا مترددا في أمره».

وقد نبّه المفسرون على التقدير الواقع في قول أهل الكتاب: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى﴾، فقال الشوكاني رحمه الله^(٢): «في هذا الكلام حذف، وأصله: وقالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً، هكذا قال كثير من المفسرين، وسبقهم إلى ذلك بعض السلف، وظاهر النظم القرآني أن طائفتي اليهود والنصارى وقع منهم هذا القول، وأنهم يختصون بذلك دون غيرهم، ووجه القول بأن في الكلام حذفاً ما هو معلوم من أن كل طائفة من هاتين الطائفتين تضلل الأخرى، وتنفي عنها أنها على شيء من الدين فضلاً عن دخول الجنة كما في هذا الموضع. فإنه قد حكى الله عن اليهود قولتهم تلك بقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾ [البقرة: ١١٣].»

(١) تفسير القرآن (٢/ ٢٦١).

(٢) فتح القدير (١/ ١٢٩ - ١٣٠).



وقال نجم الدين الطوفي رحمه الله (ت: ٧١٦ هـ)^(١): «هو نهي لهم عن التثليث، ومعناه عندهم أن الله ﷻ [جوهراً] ذو ثلاثة أقانيم، وعنوا بالجواهر القائم بذاته الغني عن محل يقوم به أو يقومه، وبالأقانيم الصفات، أو القوى، وهي كونه موجوداً ناطقاً حياً، فأقنوم الوجود سموه أباً، وأقنوم النطق سموه ابناً، وهو الكلمة المسيحية، وأقنوم الحياة سموه روح القدس.

قالوا: فقولنا: الأب والابن وروح القدس كقول المسلمين: الله الرحمن الرحيم، ثم إنهم زعموا أن كل واحد من الأب والابن وروح القدس إله كامل بالحد والحقيقة، وأنهم مع ذلك ليسوا ثلاثة آلهة في ضبط كثير وتخليط غزير، منه ما لا يعقل، ومنه ما لا تساعد الشبهة فضلاً عن الحجة، فلهذا قيل لهم: انتهوا عن هذا الاعتقاد الباطل الذي ليس له حاصل ولا وراءه طائل يكن الانتهاء عنه خيراً لكم.

﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ [النساء: ١٧١]: أي من كل الجهات لا تعدد ولا انقسام له بوجه، فقولكم: الأب والابن وروح القدس إله واحد، تناقض؛ لأنكم كثرتموه أولاً ثم وحدتموه ثانياً، وهو تهافت وتلاعب من الشيطان بعقولكم، وهذا بخلاف قول المسلمين: بسم الله الرحمن الرحيم، لأنهم يقولون ذلك على معنى أن

(١) الإشارات الإلهية (٢/ ٧٦ - ٧٨).

الذات الإلهية واحدة، لكنها متصفة بصفات كمالية، فإن اقتصرتم أنتم على مثل ذلك وافقتم، وإن تماديتم في تخليطكم المذكور فلكم الويل والشبور».

وقد جمع المأمون بين العتّابي وبين أبي قُرّة النصراني، فقال لهما: تناظرا وأوجزا. فقال العتّابي لأبي قرة: أسألك أم تسألني؟ فقال: سلني، قال: ما تقول في المسيح؟ قال: أقول إنه من الله ﷻ. فقال العتّابي: إن (من) تحييء على أربعة أوجه: فالبعض من الكل على سبيل التجزؤ، والولد من الوالد على سبيل التناسل، والخلُّ من الخلّة على سبيل الاستحالة، والخلق من الخالق على سبيل الصنعة، فهل عندك خامسة، قال: لا، ولكن لو قلت واحدة من هذه ما كنت تقول؟ فقال العتّابي: إن قلت: إنه كالبعض من الكل جزأته، والباري لا يتجزأ، وإن قلت: إنه كالولد من الوالد أوجبت ثانياً من الأولاد، وثالثاً، ورابعاً، إلى ما لا نهاية، وهذا لا يجوز على الباري ﷻ، وإن قلت على سبيل الاستحالة، أوجبت فساداً، والباري لا يستحيل، ولا ينتقل من حال إلى حال، وإن قلت: إنه كالخلق من الخالق، كان قولاً حقاً، وهو الحق الذي لا شك فيه»^(١).

والمسيح عيسى ابن مريم ﷺ نفسه أبطل عقيدة التثليث كما هو مثبت في

الأنجيل.

(١) بهجة المجالس (١٠٦/١).



قال العلامة رحمة الله العثماني الهندي رحمه الله (ت: ١٣٠٨ هـ)^(١): «في الآية الثالثة من الباب السابع عشر من إنجيل يوحنا قول عيسى عليه السلام في خطاب الله هكذا: [وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع^(٢) المسيح الذي أرسلته]».

وقال أيضاً^(٣): «في الباب الثاني عشر من إنجيل مرقس هكذا: [٢٨ - فجاء واحد من الكتبة وسمعهم يتحاورون فلما رأى أنه أجابهم حسناً سأله: أية وصية هي أول الكل (٢٩) فأجابه يسوع إن أول كل الوصايا هي: اسمع يا إسرائيل. الرب إلهنا رب واحد (٣٠) وتحب الرب إلهك».

وقال متمماً بعد ذكر الوصيتين من توحيد الله وحبه^(٤): «وفي الباب الثاني والعشرين من إنجيل متى في قوله عليه السلام: [بهاتين الوصيتين يتعلّق الناموس كلّهُ والأنبياء».

(١) إظهار الحق (٣/٧٣٦).

(٢) اسم عيسى هو مقلوب يسوع، وينطق بالعبرية يشوع. حاشية (٢) من إظهار الحق (٣/٧٣٦).

(٣) إظهار الحق (٣/٧٣٧).

(٤) إظهار الحق (٣/٧٣٨).

الخطبة

بعد هذا العرض الموجز يتبين أن النبيين جميعاً بشرُوا بمحمد ﷺ، وأن الكفر بمحمد ﷺ تكذيب لكل من سبقه من الرسل الذين بشرُوا به عليه الصلاة والسلام.

كما يظهر واضحاً أن النبيين جميعاً دعوتهم واحدة وهو توحيد الله تبارك وتعالى، وأن ما عليه النصارى اليوم من الغلو في المسيح عيسى ابن مريم وجعله ثالث ثلاثة ليس هو الشرع المنزل على عيسى ﷺ، وأن المدح للحواريين المتبعين لعيسى ﷺ لا ينطبق على النصارى اليوم الذين حرّفوا الإنجيل، وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً.

والمسيح ﷺ سينزل في آخر الزمان ليبطل عقيدة النصارى المبدلة، ويكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية.

والنصارى سيتحققون من بطلان عقيدتهم عند الموت، ولا ينفع حينئذ نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً.

فالناصح المحب هو الذي يأخذ بأيدي النصارى إلى الشرع المنزل رسالة



صلة رسالة النبي ﷺ برسالات الأنبياء من خلال القرآن

الإسلام خاتمة الرسالات، ودين محمد ﷺ الذي بشر به عيسى عليه السلام، فيكون
من أتباعه حقاً وصدقاً. والله أعلم.

قائمة المراجع

- (١) الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة، تأليف: أحمد بن إدريس القرافي، تحقيق: د. أحمد السايح، الناشر: مكتبة النافذة - مصر، الطبعة الأولى - ٢٠٠٦ م.
- (٢) أحكام أهل الذمة، تأليف: محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: د. صبحي الصالح، الناشر: دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة الثالثة - ١٤٠٣ هـ.
- (٣) إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد، ضمن الفتح الرباني من فتاوى الشوكاني، تحقيق: محمد صبحي حلاق، الناشر: مؤسسة الرسالة - الطبعة الأولى - ١٤٢٣ هـ.
- (٤) الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية، تأليف: سليمان بن عبد القوي الطوفي، تحقيق: حسن بن عباس بن قطب، الناشر: الفارق الحديثة للطباعة والنشر - القاهرة، الطبعة الأولى - ١٤٢٣ هـ.
- (٥) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، تأليف: محمد الأمين الشنقيطي، عناية: صلاح العلي، الناشر: دار إحياء التراث - بيروت، الطبعة الأولى - ١٤١٧ هـ.
- (٦) إظهار الحق، تأليف: رحمة الله بن خليل العثماني، تحقيق: د. محمد ملكاوي، الناشر: رئاسة إدارة البحوث العلمية - الرياض، الطبعة الرابعة - ١٤٢٤ هـ.



- (٧) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، تأليف: أحمد بن عبدالحليم بن تيمية، تحقيق: ناصر العقل، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية السعودية، الطبعة السابعة - ١٤١٩ هـ.
- (٨) بدائع الفوائد، تأليف: محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، تحقيق: علي العمران، الناشر: دار عالم الفوائد - مكة المكرمة، الطبعة الأولى - ١٤٢٥ هـ.
- (٩) التحرير والتنوير، تأليف: محمد الطاهر بن عاشور، الناشر: الدار التونسية للنشر.
- (١٠) تفسير آيات أشكلت، تأليف: أحمد بن عبدالحليم بن تيمية، تحقيق: عبدالعزيز الخليفة، الناشر: دار الصميعي - الرياض، الطبعة الثانية - ١٤٢٥ هـ.
- (١١) تفسير القرآن العظيم، تأليف: إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، الناشر: دار طيبة - الرياض، الطبعة الأولى - ١٤٢٢ هـ.
- (١٢) تفسير القرآن العظيم، تأليف: سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: هشام البدراني، الناشر: دار الكتاب الثقافي - الأردن.
- (١٣) تفسير القرآن، تأليف: منصور بن محمد السمعاني، تحقيق: ياسر بن إبراهيم، الناشر: دار الوطن - الرياض، الطبعة الأولى - ١٤١٨ هـ.
- (١٤) الجامع لأحكام القرآن، تأليف: محمد بن أحمد القرطبي، تصحيح: أحمد البردوني، الطبعة الثانية، مطبعة دار الكتب المصرية.
- (١٥) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تأليف: محمد بن جرير الطبري، تحقيق: د. عبدالله التركي، الناشر: دار هجر - الجيزة، الطبعة الأولى - ١٤٢٢ هـ.

- (١٦) الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح، تأليف: أحمد بن عبدالحليم بن تيمية، إشراف: علي المدني، مطبعة المدني.
- (١٧) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تأليف: أبي العباس السمين الحلبي، تحقيق: علي معوض، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، (س) الطبعة الأولى - ١٤١٤هـ.
- (١٨) دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، تأليف: أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: د. عبدالمعطي قلعجي، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى - ١٤٠٥هـ.
- (١٩) سبيل الرشاد في هدي خير العباد، تأليف: محمد تقي الدين الهلالي، تحقيق: مشهور آل سلمان، الناشر: الدار الأثرية - الأردن، (ش) الطبعة الأولى - ١٤٢٧هـ.
- (٢٠) السنن لابن ماجة القزويني، الناشر: دار السلام - الرياض، الطبعة الأولى - ١٤٢٠هـ.
- (٢١) السنن لأبي داود السجستاني، الناشر: دار السلام - الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ.
- (٢٢) شرح السنة، تأليف: الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الثانية - ١٤٠٣هـ.
- (٢٣) شرح العقيدة الطحاوية، تأليف: علي بن محمد بن أبي العز الحنفي، تحقيق: د. عبدالله التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الأولى - ١٤٠٨هـ.
- (٢٤) صحيح البخاري، تأليف: محمد بن إسماعيل البخاري، الناشر: دار السلام - الرياض، الطبعة الثانية - ١٤١٩هـ.
- (٢٥) صحيح مسلم، تأليف: مسلم بن الحجاج القشيري، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار السلام - الرياض، الطبعة الثانية - ١٤٢١هـ.



- (٢٦) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، اعتناء: خالد السبت، الناشر: دار عالم الفوائد - مكة المكرمة، الطبعة الثانية - ١٤٢٦ هـ.
- (٢٧) فتح الرحمن في تفسير القرآن، تأليف: محير الدين بن محمد العليمي المقدسي، تحقيق: نور الدين طالب، الناشر: وزارة الأوقاف القطرية - الطبعة الأولى - ١٤٣٠ هـ.
- (٢٨) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، تأليف: محمد بن علي الشوكاني، الناشر: دار الفكر - بيروت، ١٤٠٣ هـ.
- (٢٩) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع: عبدالرحمن بن قاسم، تصوير: مؤسسة قرطبة - القاهرة.
- (٣٠) محاسن التأويل، تأليف: محمد جمال الدين القاسمي، إشراف: محمد فؤاد عبدالباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية.
- (٣١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تأليف: عبدالحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق: المجلس العلمي - بفاس، ١٣٩٥ هـ.
- (٣٢) المسند لأحمد بن حنبل الشيباني، الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الخامسة - ١٤٠٥ هـ.
- (٣٣) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، تأليف: محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، الناشر: دار النور - ألمانيا.



الإيمان بالنبي

«نبوته . عموم رسالته . ختم النبوة . عصمته»

إعداد

أ. د. محمد حافظ الشريدة

أستاذ العقيدة الإسلامية والمذاهب والفرق والأديان

جامعة النجاح الوطنية - نابلس - فلسطين

رئيس هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في فلسطين

تهديد

الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً، ولم يكن له شريك في الملك وما كان معه من إله، لا إله إلا الله، لا خالق غيره ولا ربّ سواه، المستحق لجميع أنواع العبادة. ولذا قضى ألا نعبد إلا إيّاه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، بعثه الله وأهل الأرض أحوج إلى رسالته من غيث السماء، ومن نور الشمس والهواء، فقام بتبليغ الرسالة، وأداء الأمانة، والنصح للأمة حتى أتاه اليقين.

أما بعد:

فخيرية الأمة مستمدة من هذه الرسالة التي تشرّفت الأمة بحملها إلى الناس أجمعين، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧). فأمّتنا الإسلامية خير أمة أخرجت للناس، والخير فيها باقٍ إلى يوم الدين، بإذن رب العالمين، وقد كانت لنا حضارة سادت بجناحيها: المادي العمراني الدنيوي، والمعنوي الإيماني الأخلاقي طيلة قرون، ولكنها توارت لعيوب فينا نحن المسلمين، فنحن قوم أعزنا الله بالإسلام ومهما ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله! وقد تداعت علينا الأمم في هذا العصر كتداعي الأكلة على قصعتها، وأصبح كثير

منا كغثناء السيل، بسبب حب الدنيا وكرهية الموت! وإذا كانت هولندا الصغيرة البعيدة قد استعمرت إندونيسيا أكبر بلد إسلامي في الأرض، فإن جارتها الدنمارك قد جاهرت بعدائها السافر للإسلام والمسلمين، وذلك بتحدي مشاعر مليار ونصف مسلماً، بهجومها السافر على سيّد الأولين والآخرين محمد ﷺ!!!

ولأن الخير في أمتنا إلى يوم القيامة، ولأن الإيمان يأرز إلى الحجاز كما تأرز الحية إلى جحرها، ولأن مكة المكرمة ستبقى دار الإسلام إلى قيام الساعة (لا هجرة بعد الفتح)، فقد هيا الله للأمة الإسلامية أفراداً وجماعات وقيادات وجمعيات ووسائل إعلام مسموعة ومقروءة ومرئية، نذرت على نفسها أن تدافع عن النبي الرسول الخاتم ﷺ بكل ما أوتيت من قوة، فكان عقد هذا المؤتمر الدولي في رياض الإسلام قلب جزيرة العرب، تحت رعاية خادم الحرمين الشريفين (حفظه الله)، وقام على هذا المؤتمر العلمي العالمي أحد ركائز الصحوة الإسلامية الرشيدة: الجمعية العلمية السعودية للسنة وعلومه، وكم لجامعات وجمعيات وقيادات وأئمة الجزيرة العربية (وخاصة السعودية) من أيادٍ بيضاء في مشارق الأرض ومغاربها. ومعلوم أن من لم يشكر الناس لم يشكر الله تعالى، وتحدثاً بنعمة الله أقول: إن نصف حملة شهادات الدكتوراه في الشريعة الإسلامية في فلسطين هم من خريجي الجامعات السعودية. وجميع من يحمل شهادة



الأستاذية (بروفيسور في الشريعة) وأنا منهم، هم من خريجي جامعة أم القرى فقط، أدامها الله تعالى أما للقرى إلى يوم الدين.

بعد هذا التمهيد أقول:

إذا تصفحنا سير العظماء والمشاهير في التاريخ، وجدنا أن ميادين العظمة تختلف من شخص لآخر، فمنهم من تقتصر عظمتهم على النبوغ في العلم، ومنهم من تبرز عبقريته في الحرب أو الحكم، ومنهم من تتجلى عظمتهم في الفضيلة والآداب، ومنهم من يفوق أقرانه في الدماء والحنكة السياسية، أما نبي الرحمة ﷺ فقد جمع المجد من أطرافه، حيث جمعت له نواحي العظمة كلها في ذاته الكريمة الجليلة! فكان سَيِّدَ الرُّسُلِ والأنبياء، وأستاذ العلماء والحكماء، ومثال الكمال، في الخلق والخلق والأدب وضبط النفس، وكان متميزاً بحسن قيادته، وتأليفه بين القلوب، وكان في المعامع والحروب بطلاً لا يجارى ولا يعرف الخوف، مقدماً لا يعرف التردد، حكماً يضع الأمور في مقاصدها، وقد شهد له ﷺ القريب والبعيد والعدو والصديق، وحسبه شهادة الله له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤).

وقد أحببت أن أسهم في الكتابة عن نبي الرحمة ﷺ، فكان بحثي هذا عصارة فكري، حيث إنني درّست ودَرّستُ السيرة النبوية المطهرة العطرة الزكية

في المدارس والمعاهد والكليات والجامعات، ما يقارب نصف قرن من الزمن!
هذا، وكان بحثي على النحو الآتي:

١ - مقدمة، وتمهيد ومدخل إلى البحث وأهميته، ومعلومات مركزة عن

نبي الرحمة ﷺ.

٢ - الفصل الأول: نبوته ﷺ، فجحد نبوته إنكار لوجود الله تعالى،

وجحود لرسالات الأنبياء ﷺ! وأهم الدلائل على نبوته:

أ- معجزاته الحسية الكثيرة.

ب- القرآن الكريم.

ج- إثبات نبوته من خلال النظر في سيرته العطرة النضرة قبل البعثة

وبعدها.

د- إثبات نبوته من خلال ما أخبر به من أمور غيبية.

هـ - البشارة بنبوته في الكتب السماوية السابقة، مع كونها محرفة.

٣ - الفصل الثاني: عموم رسالته وعالميتها، فالدلائل السابقة تؤكد صدق

نبوته، وبالتالي نسخ رسالته لما سبقها من شرائع، وهيمتها عليها، وأنها خالدة

إلى يوم الدين.

٤ - الفصل الثالث: ختم النبوة: فمحمد ﷺ هو آخر الأنبياء والمرسلين



وزيبتهم وسَيِّدهم، ويترتب على ذلك:

أ- عظم مسؤولية أمته في الدعوة إلى الله.

ب- التأكيد على تحقيق الشريعة الإسلامية الخاتمة لمصالح للعباد.

ج- ضرورة فتح باب الاجتهاد د- وجوب انقياد غير المسلمين لتعاليم

هذه الرسالة الأخيرة.

٥ - الفصل الرابع: عصمته: من القتل أو المعاصي أو كتمان الوحي،

والوسطية في عصمته بين غلاة الصوفية ومنكري السنة النبوية (ممن يسمى

بالقرآنية).

٦ - الخاتمة: وفيها التوصيات والمقترحات وخلاصة البحث.

٧ - أسماء المصادر والمراجع.

والله وَلِيُّ التوفيق.

وكتب: أبو معاذ

محمد بن حافظ الشريدة النابلسي السلفي

غرة محرم ١٤٣١هـ



الفصل الأول

دلائل نبوة نبي الرحمة ﷺ

وفيه أربعة مباحث:

- المبحث الأول: معجزاته الكثيرة وعلى رأسها القرآن الكريم.
- المبحث الثاني: إثبات نبوته من خلال سيرته العطرة.
- المبحث الثالث: إثبات نبوته من خلال ما أخبر به من غيبات.
- المبحث الرابع: البشارة بنبوته في الكتب السماوية السابقة.

ایض

الفصل الأول

دلائل نبوة نبي الرحمة ﷺ

لله درُّ القائل:

وكيف يصح في الأذهان شيء * إذا احتاج النهار إلى دليل؟!
 إنَّ جحد نبوة محمد ﷺ هو إنكار لوجود الله تعالى، ووجود لرسالات
 الأنبياء جميعاً ﷺ، فالإيمان بالله يقتضى الإيمان برسله، لأنه هو الذي أرسلهم
 وأمر بالإيمان بهم، وجعل الإيمان بهم شرطاً في الإيمان به، والأدلة على نبوته ﷺ
 هي نفسها الأدلة على نبوة المرسلين السابقين ﷺ. فمن المستحيل أن يمكّن
 الله تعالى لأحد يفترى عليه الكذب، وأن ينشر دينه في العالمين، ومن المستحيل
 كذلك أن يتواطأ الرسل ﷺ على التبشير بنبي كاذب!!.

إن من أظهر الدلائل على نبوة الرسول ﷺ هي:

١ - معجزاته المادية والمعنوية.

٢ - إثبات نبوته من خلال النظر في سيرته المطهرة قبل البعثة وبعدها.

٣ - إثبات نبوته من خلال ما أخبر به من أمور الغيب.

٤ - البشارة بنبوته في الكتب السماوية السابقة.

المبحث الأول

معجزاته الكثيرة وعلى رأسها القرآن الكريم

أ - المعجزات الحسية^(١) :

لقد أيد الله تعالى محمداً ﷺ بمئات الآيات الدالة على نبوته، وعشرات المعجزات الدالة على صدق رسالته، وهي تبلغ أقصى مراتب الوضوح، وأعلى مقامات الحجج، ما بين آية قرآنية وأحاديث نبوية. ومن أهم المعجزات المادية لخير البرية ﷺ:

١ - نبع الماء من بين أصابعه الشريفة ﷺ :

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «رأيت رسول الله ﷺ وحانت صلاة

(١) جامعة القدس المفتوحة: الثقافة الإسلامية وطرائق تدريسها (٢)، ط ٢، ٢٠٠٦م، فلسطين، مطبعة بيت المقدس، ص ١٤١، وعمر سليمان الأشقر: نحو ثقافة إسلامية أصيلة، ط ٢، ١٤١٢هـ، دار النفائس الأردن، ص ١٢٢، وعبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي: لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، تحقيق ياسين محمد السواس، ١٤١٣هـ، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، ص ٢١٥، ومحمد نعيم ياسين: الإيمان، ط ٣، ١٤٠٢هـ، دار التوزيع الإسلامية، مصر، ص ٥٢، وخالد عبد الرحمن العك: معالم النبوة في الكتاب والسنة، دار النفائس، ط ١، ١٤١٥هـ، لبنان، ص ٨، وأبو نعيم الأصبهاني: دلائل النبوة، ٥٨٧/٢ والقاضي عياض، الشفا ١/٥٢٣.



العصر، فالتمس الناس الوضوء فلم يجدوه، فأُتي رسول الله ﷺ بوضوء، فوضع رسول الله ﷺ في ذلك الإناء يده، وأمر الناس أن يتوضؤوا فيه، قال: فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه ﷺ، فتوضأ الناس حتى توضؤوا من عند آخرهم»^(١).

٢- إطعام الكثير من الطعام القليل:

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ أطعم يوم الخندق ألف رجل من صاع من شعير وعناق»^(٢).

٣- حنين الجذع اليابس إليه:

فعن جابر رضي الله عنه قال: «كان المسجد مسقوفاً على جذوع نخل، وكان الرسول ﷺ إذا خطب يقوم إلى جذع منها، فلما صُنع له المنبر، سمعنا لذلك الجذع صوتاً كصوت العشار» وفي رواية «حتى ارتج المسجد لخواره»، وفي رواية

(١) في بعض الروايات: (وكانوا زهاء ثلاثمائة). أنظر: فتح الباري ٦/ ٥٨٠ باب ٢٥، حديث ٣٥٧٢ ومسلم ٣٩/ ١٥ والترمذي ٣١٣/ ١٣، وانظر حديث جابر حين عطش الناس يوم الحديبية وكانوا ألفاً وخمسمائة في فتح الباري ٦/ ٥١٨ باب ٢٥ حديث ٣٥٧٦ و٤٤١/ ٧ باب ٣٥ حديث ٤١٥٢ والدارمي ٢١/ ١ باب ٥ حديث ٢٧.

(٢) فتح الباري ٧/ ٣٩٥ باب ٢٩ من كتاب المغازي حديث ٤١٠١ ومسلم ١٣/ ٢١٦ والدارمي ١/ ٢٦ باب ٧ حديث ٤٣.

«حَتَّى تَصَدَّعَ وَانْشَقَّ، حَتَّى جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ فَسَكَتَ»^(١).

٤ - الإسراء والمعراج:

قال تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ ءَايَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾
(الإسراء: ١).

٥ - انشقاق القمر:

قال تعالى: ﴿أَفْتَرَبِ السَّاعَةَ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ (القمر: ١).

ويضاف إلى هذه المعجزات: تسبيح الحصى بين يديه الكريمتين ﷺ، وتسليم الحجر عليه، وانقياد الشجر إليه، وتظليل السحاب عليه، ودرشة أم معبد، إلى غير ذلك من المعجزات النبوية، التي أفرد بها جمع من الأئمة الأعلام بالتصنيف: (كدلائل النبوة) لكل من الأئمة: البيهقي، وأبي نعيم الأصبهاني، والطبراني، وابن أبي الدنيا، وأبي عبد الله المقدسي، (والوفا في فضائل المصطفى ﷺ).

(١) فتح الباري ٢/ ٣٩٧ باب ٢٦ حديث ٩١٨ والترمذي ١١١/ ١٣ وابن ماجه ٢٥٨/ ١ باب ١٩٦ حديث ١٤١٢ والدارمي ١/ ٢٢ باب ٦ حديث ٣١ واحمد ١/ ٢٤٩ و٣/ ٢٩٣ والنسائي ٣/ ١٠٢، وكان الحسن رضي الله عنه إذا حَدَّثَ بهذا الحديث بكى وقال: هذه خشبة تحن إلى رسول الله وأنتم أحق أن تشتاقوا إليه. أنظر ابن رجب الحنبلي: لطائف المعارف ص ٢١٥.



لابن الجوزي، (وشرف المصطفى) لأبي سعيد النيسابوري، (وأعلام النبوة) للهاوردي، و(الخصائص الكبرى) للسيوطي، (والشفا بتعريف حقوق المصطفى) للقاضي عياض....^(١).

إن معجزات الأنبياء ﷺ لا تحصل بأفعالهم، وإنما تحصل بفعل الله تعالى آية وعلامة لهم^(٢)، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا آيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (العنكبوت: ٥٠).

ومن الجدير بالذكر هنا: أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ لم يكن يقصد تحدي الناس بهذه المعجزات، ولكنها كانت تكريماً له ولأمته، وطمأنينة لقلوب أصحابه ﷺ. لقد جاءت هذه المعجزات والكرامات لقوم مؤمنين، فزادتهم إيماناً إلى إيمانهم، ولم تضطربهم إلى الإيثار اضطراراً، كما كان شأن أتباع الأنبياء من قبله ﷺ^(٣).

(١) انظر: يوسف إسماعيل النبهاني: حجة الله على العالمين في معجزات سيد المرسلين ﷺ، دار الفكر، لبنان، ص ٧٤ و ٧٤.

(٢) صالح بن فوزان الفوزان: الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، ط ١٤٢٣ هـ (طبعه مصورة) ص ١٨٤.

(٣) جامعة القدس المفتوحة: الثقافة الإسلامية ص ١٤١ و ١٤٢.

ولله درُّ القائل:

لو لم تكن فيه آيات مبيّنة * لكان منظره ينبئك بالخبر^(١)
إنَّ المعجزة أمرٌ خارقٌ للعادة، أظهره الله تعالى على يد نبيه ﷺ تأييداً له
في دعواه الرسالة، وهي علامة على النبوة، حيث إنها تخرج من عالم المادة
والأسباب بحيث يعجز البشر عن الإتيان بمثلها، فقدراتهم محدودة. ومعلوم أن
قدرة الله تعالى وحدها هي المطلقة، فكون الرسول ﷺ تظهر معه آثار القدرة
المطلقة، فذلك دليل على صلته بالله عز وجل، وأنه رسول الله حقاً وصدقاً.

ب - القرآن الكريم:

من المعلوم لأصحاب العقول والإيمان، أنَّ من كلام الله القرآن، وأن من
أفعاله الأكوان، والقرآن الكريم آيات الله المسطورة، والكون بمن فيه وما فيه من
عالم الغيب والشهادة آيات الله المنظورة، والقرآن الكريم مكتوب ومحفوظ في
السماء، كما هو مكتوب ومحفوظ في الأرض، وهو مكتوب في السطور ومحفوظ في
الصدور، فسبحان من خلق من التراب بشراً سوياً، وجعل من كلامه قرآناً عربياً!!
إنَّ أكبر دليل على نبوة سيّد ولد عدنان ﷺ، هو هذا القرآن كلام الله
المعجز، المقرون بالتحدي، المنقول بالتواتر، المتعبد بتلاوته، المنزل على قلب النبي

(١) النبهاني: حجة الله على العالمين ص ٧٤.



الرسول الخاتم محمد ﷺ، بوساطة أمين الوحي جبريل عليه السلام المبدوء بسورة الفاتحة والمختوم بسورة الناس^(١).

إن القرآن الكريم هو معجزته الكبرى، وآية النبوة الخالدة على مرّ الأيام والعصور، ليظل قائماً على صدق نبوته - عليه الصلاة والسلام - فهو الحجة البالغة، والدلالة الدامغة، والعصمة الواقية، والنعمة الباقية، وتولى الله تعالى حفظه من كل تحريف وتبديل، فلم تتغير فيه كلمة، ولم يتبدل منه حرف ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩).

بل قد تحدى الله البشرية على مدار التاريخ - وما زال التحدي قائماً إلى يوم القيامة - على أن يأتوا بقرآن مثله، فقال سبحانه: ﴿قُلْ لِّينِ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ (الإسراء: ٨٨)، فعجزوا، فخفف الله التحدي لما استعصى عليهم ذلك فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ﴾ (هود: ١٣). ولكنهم عجزوا أيضاً فخفف الله التحدي إلى منتهاه فقال سبحانه: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ

(١) الباحث: محمد حافظ الشريدة: تبسيط أحكام التجويد ط ١ مكتبة بلال نابلس فلسطين

صَدِيقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ (البقرة: ٢٣ - ٢٤).

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من الأنبياء نبي إلا أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ؛ فأرجو أن أكون أكثرهم تابِعاً يوم القيامة»^(١).

فكل نبي كان يأتي بالآية وتنقضي بموته، فقلّ لذلك من يتبعه، وكثر أتباع الرسول ﷺ لكون معجزته الكبرى باقية من بعده، فيؤمن بالله ورسوله كثير ممن يسمع القرآن على مر الزمان، ولهذا قال ﷺ: «فأرجو أن أكون أكثرهم تابِعاً يوم القيامة»^(٢).

إن الأمور التي تدل على أن القرآن كلام الله، وتدل على صدق نبوة محمد ﷺ كثيرة، أهمها^(٣):

- (١) متفق عليه انظر البخاري ٤/ ١٩٠٥ حديث ٦٩٦ ومسلم ١/ ١٣٤ حديث ٢٣٩.
- (٢) الإمام الذهبي: السيرة النبوية (طبعة مصورة) بيروت ص ٢٨٦.
- (٣) رحمة الله بن خليل الرحمن الكيرانوي العثماني الهندي: إظهار الحق تحقيق د. محمد احمد عبدالقادر ملكاوي ط ٣/ ١٤١٤ هـ دار الحديث القاهرة دار الحرمين للطباعة مصر ٣/ ٧٧٥



١ - كونه في الدرجة العالية من البلاغة، التي لم يعهد مثلها في تراكيب العرب، وتقاصرت عنها درجات بلاغتهم، فالقرآن في الدرجة العالية من البلاغة الخارجة عن مألوف العادة.

٢ - تأليفه العجيب وأسلوبه القيم، في المطالع والمقاطع والفواصل، مع ما اشتمل عليه من دقائق البيان، وحقائق العرفان، وحسن العبارة، ولطف الإشارة.

٣ - كون القرآن متضمنًا للإخبار عن الحوادث الآتية، ووجدت في الأيام اللاحقة على الوجه الذي أخبر به، كقوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ (الفتح: ٢٧).

وكقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩).

٤ - ما أخبر به من أخبار القرون الماضية والأُمم السالفة، مع أنه ﷺ كان أميا لا يقرأ ولا يكتب، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصِّلُ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (النمل: ٧٦).

٥ - ما فيه من كشف أسرار المنافقين واليهود، حيث إنهم كانوا يتواطؤون في السر على أنواع كثيرة متعددة من الكيد والمكر، وكان الله تعالى يطلع نبيه على تلك الأحوال، ويخبره عنها على سبيل التفصيل والإجمال. والعجيب الغريب

- أخي الكريم - أنهم كانوا يرددون حرفياً ما قاله القرآن عنهم وهذا من الأدلة على إعجاز القرآن وصدق رسالة محمد ﷺ.

٦- جمعه لمعارف جزئية وعلوم كلية، لم تعهد لها العرب عامة، ولا كان النبي محمد ﷺ يعلمها من قبل، من علوم الشرائع، وأخبار الغيب والدار الآخرة، والسير والمواظع والحكم.

٧- كونه بريئاً من الاختلاف والتفاوت، مع أنه كتاب كبير مشتمل على أنواع كثيرة من العلوم والمعارف، ولو كان من عند غير الله لوقع فيه أنواع من الكلمات المتناقضة، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: ٨٢).

٨- كونه معجزة باقية متلوة في أي زمان أو مكان، مع تكفل الله بحفظه، بخلاف معجزات الأنبياء ﷺ فإنها انقضت بانقضاء أوقاتها، وهذه المعجزة باقية على ما كانت عليه من وقت النزول إلى أن يُرفع من الصدور، ومن السطور قبيل الساعة.

٩- كونه جامعاً بين الدليل ومدلوله أي الأحكام، فالتالي له إذا كان ممن يدرك معانيه، فإنه يفهم مواضع الحجة والتكليف معاً في كلام واحد.

١٠ - حفظ الناس له في صدورهم بسهولة ويسر، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ



يَسِّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿ (القمر: ١٧ و ٢٢ و ٣٢ و ٤٠).

١١ - الخشوع والخشية من الله عند تلاوته، وهذه الخشية والخشوع قد

تعري من لا يفهم معانيه ولا يعلم تفسيره، فمنهم من أسلم لها لأول وهلة^(١).

١٢ - الإعجاز العلمي فيه^(٢):

حيث أشار إلى لفتات علمية كثيرة منها: إشارة القرآن لمراحل خلق الجنين

المختلفة، التي كشف عنها الطب حديثاً، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ

سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا

الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ

فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿ (المؤمنون: ١٢-١٤).

وكشف الباحثون أخيراً: أن القمر كان مشتعلاً ثم انطفأ ومحي ضوءه،

وأن النور الذي يخرج منه في الليل ليس إلا انعكاساً من سراج آخر هو الشمس،

والله يقول: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴿ (الإسراء: ١٢). قال

المفسرون: آية الليل القمر، وآية النهار الشمس.

١٣ - وخلاصة القول: أن القرآن آية فريدة بين آيات الرسل جميعاً، فهو

(١) رحمة الله الهندي: إظهار الحق ٣/ ٨٢١.

(٢) جامعة القدس المفتوحة: الثقافة الإسلامية ص ٥٤.

آية باقية دائمة لا تزول بوفاة من نزلت عليه، كما هو الحال بالنسبة للرسول السابقين ﷺ^(١). وهو كذلك آية كبرى تخاطب العقول والقلوب معاً، كما تخاطب فطرة الإنسان عبر الزمان والمكان... ولم يشأ الله أن يجعل معجزة الرسالة الأخيرة حسية تذهل من يراها فحسب، فلو شاء سبحانه لأنزل معجزة قاهرة تلوي أعناق الذين يشاهدونها، فلا يملكون معها جدالاً ولا انصرافاً عن الإيمان، قال تعالى: ﴿إِنْ نَشَأْ نُثَرِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ (الشعراء: ٤).

ولكن الله شاء أن تكون معجزة القرآن رسالة مفتوحة لكل الأمم والأجيال، وليست مغلقة على أهل زمان أو مكان أو أمة، فناسب أن تكون معجزتها مفتوحة للجميع، للبعد والقريب إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها^(٢).

(١) عمر الأشقر: نحو ثقافة إسلامية أصيلة ص ١٢٢.

(٢) سيد قطب: في ظلال القرآن ١٣٩٥ هـ دار الشروق مصر ولبنان ١٩ / ٢٥٨٤.



المبحث الثاني

إثبات نبوته من خلال سيرته العطرة

أ- النظر في سيرته المطهرة قبل النبوة:

تعدُّ سيرة النَّبيِّ ﷺ صورة نفسه الطاهرة، وآية صدق على أنه رسول كريم أمين، ففي بواكير حياته الأولى قبل البعثة، كانت حياته مبرأة من شوائب الجاهلية وأدرانها، فلم يسجد لصنم قط، ولم يعرف اللهو والمجون، بل كان يؤثر العزلة والخلوة بعيداً عن باطل القوم، وقد عرف بين قومه بالصادق الأمين^(١).

عن عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: مَا هَمَمْتُ بِقَبِيحٍ مِمَّا يَهُمُّ بِهِ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ إِلَّا مَرَّتَيْنِ مِنَ الدَّهْرِ، كِلْتَاهُمَا عَصَمَنِي اللَّهُ ﷻ مِنْهَا، قُلْتُ لَيْلَةً لِفَتَى كَانَ مَعِيَ مِنْ قُرَيْشٍ بِأَعْلَى مَكَّةَ فِي غَنَمٍ لِأَهْلِهِ يَرْعَاهَا: أَبْصُرْ لِي غَنَمِي حَتَّى أَسْمُرَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ بِمَكَّةَ كَمَا يَسْمُرُ الْفَتَيَانُ»، قَالَ: نَعَمْ، فَخَرَجْتُ فَلَمَّا جِئْتُ أَدْنَى دَارٍ مِنْ دُورِ مَكَّةَ، سَمِعْتُ غَنَاءً وَصَوْتَ دُفُوفٍ وَمَزَامِيرَ، فَقُلْتُ: «مَا هَذَا؟» فَقَالُوا: «فُلَانٌ تَزَوَّجَ فُلَانَةً لِرَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ تَزَوَّجَ امْرَأَةً مِنْ قُرَيْشٍ، فَلَهُوْتُ بِذَلِكَ الْغَنَاءِ وَبِذَلِكَ الصَّوْتِ، حَتَّى عَلَبْتَنِي عَيْنِي

(١) جامعة القدس: الثقافة الإسلامية ص ١٣٩.

فَنِمْتُ، فَمَا أَقْظَنِي إِلَّا مَسُّ الشَّمْسِ، فَرَجَعْتُ إِلَى صَاحِبِي، فَقَالَ: مَا فَعَلْتَ؟ فَأَخْبَرْتُهُ، ثُمَّ فَعَلْتُ اللَّيْلَةَ الْآخَرَى مِثْلَ ذَلِكَ، فَسَمِعْتُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَقِيلَ لِي مِثْلَ مَا قِيلَ لِي، فَسَمِعْتُ كَمَا سَمِعْتُ، حَتَّى غَلَبَتْنِي عَيْنِي، فَمَا أَقْظَنِي إِلَّا مَسُّ الشَّمْسِ، ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى صَاحِبِي، فَقَالَ لِي: مَا فَعَلْتَ؟ فَقُلْتُ: «مَا فَعَلْتُ شَيْئًا»، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَاللَّهِ مَا هَمَمْتُ بِغَيْرِهِمَا بِسُوءٍ مِمَّا يَعْمَلُهُ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ، حَتَّى أَكْرَمَنِي اللَّهُ عَجَلُ بِنَبَوَّتِهِ»^(١).

لقد جمع النبي ﷺ في نشأته خير ما في طبقات الناس من فضائل، فكان طرازاً رفيعاً من الفكر الصائب والنظر السديد، ونال حظاً وافراً من حسن الفطنة وأصالة التفكير وسداد الوسيلة والهدف، عاشر الناس على بصيرة من أمره وأمرهم، فإن وجد حسناً شارك فيه وإلا عاد إلى عزلته، فكان لا يشرب الخمر، ولا يأكل مما ذبح على النصب، ولا يحضر للأوثان عيداً، بل كان من أول نشأته نافراً من هذه الأوثان حتى كان لا يصبر على سماع الحلف بها^(٢).

لقد ولد النبي ﷺ في أشرف بيت من بيوت العرب وأزكاها نسباً وأعلاها مكانة، ونشأ يتيماً، ولما أصبح له من العمر ست سنوات، ماتت أمه

(١) البيهقي: دلائل النبوة ٢/٣٣ وابن كثير: البداية والنهاية ٢/٢٨٧.

(٢) المباركفوري: الرحيق المختوم ص ٦٨.



آمنة، فذاق مرارة الحرمان من عطف الوالدين، وكفله بعد ذلك جده عبد المطلب، ثم مات والرسول ابن ثمان سنوات، فكفله بعد ذلك عمه أبو طالب، ودافع عنه بكل ما أوتي من قوة، ولكنّ أبا طالب لم يسلم!

إن محمداً ﷺ لم يستشرف للنبوة ولم يحلم بها، وإنما ألهمه الله الخلوة للعبادة، تطهيراً نفسياً وإعداداً روحياً لتحمل أعباء الرسالة بعد ذلك، ولو كان يستشرف لها، لما فرع من نزول أمين الوحي عليه، ولما جاء إلى زوجته خديجة ؓ يخبرها عن تلك الظاهرة الغريبة التي رآها في غار حراء، جاءها فرعاً متعجباً مما رآه، ولم يتأكد من رسالته إلا بعد رؤية جبريل ؑ وهو يقول له: يا محمد أنت رسول الله، وإلا بعد أن أكد له ورقة بن نوفل، أن هذا هو الناموس الذي نزل على موسى وعيسى عليهما السلام^(١).

وهكذا يتبين لنا أن الله أعدّه وهَيَّأه لحمل أعظم رسالة خالدة في هذه الحياة الدنيا، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ب - النظر في سيرته الزكية بعد البعثة النبوية:

كان الرسول ﷺ يعلم علم اليقين أنه بعث إلى الحياة الإنسانية ليغيرها،

(١) مصطفى السباعي: السيرة النبوية (دروس وعبر) دار القرآن الكريم ١٤٠٠هـ

وأنة ليس رسولاً لقريش وحدها ولا إلى العرب وحدهم، بل رسول الله إلى الناس كافة. وقد فتح الله تعالى بصيرته على المدى البعيد الذي ستبلغه دعوته، وَعَلِمَ عَلَّمَ اليقين مستقبل الدين الذي بشر به والخلود الحي الذي سيكون له، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ومع ذلك كله لم ير في نفسه ولا في هديه الذي لن تشهد الأرض له مثيلاً أكثر من لبنة في البناء^(١).

وقف هذا النبي الكريم والإنسان المصطفى، يعلن هذا في أوضح بيان فيقول: «مثلي ومثل الأنبياء كمثلي رجل بنى داراً فأكملها فأحسنها إلا موضع لبنة فجعل الناس يدخلونها ويعجبون منها ويقولون لولا موضع اللبنة»، وفي رواية: «فجئت فختمت الأنبياء»، وفي رواية «فجعل الناس يطوفون به ويقولون: هلاً وضعت اللبنة، فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين»^(٢).

إنَّ محمداً ﷺ هو أصدق من تكلم من البشر، فكلامه حق وصدق وعدل، لم يعرف الكذب في حياته ولو كان مازحاً، بل حرَّم الكذب ونهى عنه

(١) خالد محمد خالد: رجال حول الرسول ١٤٢١هـ دار الفكر لبنان ص ٢١.

(٢) متفق عليه من حديث جابر رضي الله عنه انظر البخاري حديث ٣٥٣٤ ومسلم حديث ٢٢٨٧ ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه، البخاري حديث ٣٥٣٥ ومسلم حديث ٢٢٨٦ وأحمد في المسند ٢٥٦/٢ والترمذي ٣٢/١٠.



فقال ﷺ: «إِنَّ الصَّدَقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصَّدَقَ حَتَّى يَكْتُبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدْقًا»^(١).

والحقُّ يقال: لو كان الصدق رجلاً لكان نبيَّ الرَّحمة ﷺ، وهل يتعلم الصدق إلا منه، وهل ينقل الصدق إلا عنه، وهو الصادق الأمين في الجاهلية، فكيف حاله بعد الوحي والهداية؟!^(٢).

(١) متفق عليه من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، رواه البخاري حديث ٦٠٩٤ ومسلم حديث ٢٦٠٧.

(٢) عائض القرني: محمد ﷺ كأنك تراه ص ٢١ و٢٩ و٣١.

المبحث الثالث

إثبات نبوته من خلال ما أخبر به من غيبيات

النبوءات: هي الإخبار عن المستقبل، وكون وقوعها دليلاً على صحة دعوى الرسالة، يعود إلى أن علم الإنسان محدود لا يتجاوز الحاضر والماضي، ومحجوب عن المستقبل، والله تعالى وحده ذو العلم المحيط بكل زمان ومكان وما كان وما سيكون، فكون الرسول ﷺ أخبر عما سيكون ووقع كما أخبر، فذلك دليل على صدق نبوته وصحة رسالته^(١).

وقد أيد الله تعالى رسوله محمداً ﷺ بآياته البينات، ودلائله الساطعات، وحججه القاطعات، بما لا يدع ريباً لمرتاب، أو مغمراً لعياب^(٢).

وكتب السنة المطهرة والسيرة العطرة، طافحة بعشرات الأمثلة الدالة على صدقه ﷺ فيما أخبر به من غيبات، سواء في الماضي أو الحاضر أو المستقبل. وهذه النبوءات زائدة على ما جاء في القرآن، ولا عجب في ذلك، فقد شهد الله له بالنبوة والصدق فقال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾

(١) سعيد حوى: الرسول ﷺ ١/ ١٣.

(٢) العك: معالم النبوة ص ٨.

(النجم: ٤٣). وكفى بالله شهيداً.

وهذه نماذج مما أخبر به ﷺ من أمور غيبية وقعت أو تحققت^(١):

أما الماضية: فكقصص الأنبياء ﷺ وقصص الأمم البالية، من غير سماع من أحد ولا تلقى من كتاب، قال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَذَابَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (هود: ٤٩).
وأما المستقبلية فكثيرة جداً، منها^(٢):

عن حذيفة رضي الله عنه قال: «قام فينا رسول الله ﷺ مقاماً ما ترك فيه شيئاً إلى قيام الساعة إلا ذكره، حفظه من حفظه ونسيه من نسيه، وإنه ليكون منه الشيء قد كنت نسيته فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ثم إذا رآه عرفه»^(٣).
وقد أخرج أئمة الحديث الشريف (رحمهم الله): «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخْبَرَ الصَّحَابَةَ الْكَرَامَ بِفَتْحِ مَكَّةِ الْمَكْرَمَةِ وَبَيْتِ الْمَقْدَسِ وَالْيَمَنِ وَالشَّامِ وَالْعِرَاقِ، وَأَنَّ

(١) لعل أهم رسالة علمية تحدثت عن هذه النبوءات الماضية والحاضرة والمستقبلية، رسالة الماجستير: نبوءات النبي ﷺ ما تحقق منها وما يتحقق: لمحمد ولي الله عبد الرحمن الندوي، دار السلام ط ١٤١٠ هـ مصر.

(٢) رحمة الله الهندي: إظهار الحق ٤/ ١٠٠١-١٠١٢.

(٣) متفق عليه، رواه البخاري في كتاب القدر باب ٤ وكان أمر الله قادراً مقدوراً، ورواه مسلم في كتاب الفتن ١٨/ ١٥، وانظر فتح الباري ١١/ ٤٩٤.

الأمن سيظهر في البلاد المفتوحة حتى تسير المرأة من الحيرة إلى مكة لا تخاف إلا الله.... وأن خيبر ستفتح على يد علي بن أبي طالب (عليه السلام)، وأن الصحابة سيقسمون كنوز ملك فارس وملك الروم.... وهذه الأمور كلها تحققت في زمن الصحابة كما أخبر بذلك (عليه السلام)، وأخبر (عليه السلام) أن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة...»^(١) فوق ذلك كما قال.

وأخبر (عليه السلام) عن صلح الحسن مع معاوية (عليه السلام) فقال: «إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ»، فوق ذلك كما أخبر، وسمي ذلك العام بعام الجماعة^(٢).

كذلك أخبر (عليه السلام) بانتصار الصحابة الكرام وهزيمة المشركين في موقعة بدر، فكان كما أخبر: فعن عمر (رضي الله عنه) قال: «لما نزلت ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ﴾ سَيَهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ» (القمر: ٤٤ و٤٥)، لم أعلم ما هو حتى كان يوم بدر سمعت رسول الله (ﷺ) وهو يلبس درعه ويقول: سيهزم الجمع ويولون الدبر فعلمته»^(٣).

(١) رواه الترمذي ١٠٩/١٠ وابن ماجه ٣٧٧/٢ والدارمي ١٥٨/٢.

(٢) مسند أحمد ٤٩/٥ وفتح الباري ٣٠٦/٥ باب ٩ حديث، ٢٧٠٤ وسنن الترمذي ١٤٩/١٣ وسنن أبي داود ٢١٦/٤.

(٣) ذكره الإمام ابن حجر العسقلاني في فتح الباري ٦١٩/٨ شرح حديث ٤٨٧٥.



المبحث الرابع

البشارة بنبوته في الكتب السماوية السابقة

لقد بشرت الكتب السماوية السابقة بالنبي الرسول الأمي الخاتم ﷺ،
تارةً بالتصريح وأخرى بالتلميح، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ
الَّذِي جَاءَهُمْ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ (الأعراف: ١٥٧).
لكنَّ أهل الكتاب يكتمون الحق وهم يعلمون، وإلا فإنهم قد عرفوا
محمدًا ﷺ كما عرفوا أبناءهم، ولكنه العناد والجحود!
وهذه أهم البشارات بنبوته ﷺ من الكتب السابقة: «وحي من جهة بلاد
العرب: في الوعر في بلاد العرب تبيتين يا قوافل الددانيين، هاتوا ماءً لملاقاة
العطشان يا سكان أرض تيماء، وافوا الهارب بخبزه»^(١).
يقول الأستاذ محمد قطب^(٢):

والددانيون اسم قديم لبعض القبائل العربية وسكان تيماء: إشارة إلى أهل
المدينة، والهاربون المهاجرون من مكة، وهذا النص يشير إلى نزول الوحي في

(١) العهد القديم سفر أشعياء الإصحاح ٢١.

(٢) محمد قطب: ركائز الإيمان ط ١ ص ٢٠٠ و ٣٢٤.

الجزيرة العربية، واضطهاد قريش للصحابة وهجرتهم للمدينة..... وجاء في الإنجيل على لسان عيسى ﷺ:

(يأتي من بعدي الفارقليط)! وهذه الكلمة يونانية تعني الحمد. وقد أبى النصارى أن يترجموها في النسخة العربية وأبقوها هكذا، حتى تظل غير مفهومه للقارئ، لكي لا يعلم من هذا الذي سيأتي بعد المسيح وقد مر زمن طويل ولم يأت بعد المسيح إلا نبي الرحمة ﷺ.

وقد بدّل النصارى الإنجيل، حين دونوه بعد مدة من رفع عيسى إلى السماء، ثم ظلوا كلما ترجموه من لغة إلى لغة، يزدون الإشارات غموضاً، ومع ذلك فما تزال الإشارة باقية في أناجيلهم على لسان المسيح ﷺ: «يأتي من بعدي الفارقليط... من لا استحق أن أحلّ سيور حذائه، يملأ الأرض نوراً وعدلاً، يوبّخ العالم على خطيئته، ويعلم الناس جميع الحق، لأنّه ليس ينطق من عنده بل يتكلم بكل ما يسمع من عند الله».

وهذا يدل على أنّه ﷺ رسول موحى إليه من عند الله تعالى. وقد مرّ على ذلك قرابة عشرين قرناً، وما جاء فارقليط إلا محمد ﷺ نبياً ورسولاً، ولن يجيء غيره، وهو نفسه الذي تشير إليه الأناجيل!!

وجاء في التوراة: «جاء الربُّ من سيناء، وأشرق لنا من ساعير، وتلاً من

جبل فاران^(١).

وهذه العبارة تشير إلى أماكن نزول الهدي الإلهي إلى الأرض، فمجيئه من سيناء: أي إعطاؤه التوراة لموسى ﷺ، وإشراقه من ساعير: إعطاؤه الإنجيل لعيسى ﷺ، وساعير: هي سلسلة جبال ممتدة في الجهة الشرقية من وادي عربية بفلسطين وهي الأرض التي عاش فيها المسيح ﷺ، واستعلاؤه من جبل فاران: أي إنزاله القرآن الكريم على محمد ﷺ، وفاران: هو الاسم القديم لأرض مكة المكرمة التي سكنها إسماعيل ﷺ.

وقد رأى القس المهدي إبراهيم خليل أحمد، أن هذه البشارة تتطابق مع قوله تعالى: ﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ ۖ وَطُورِ سِينِينَ ۖ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ (التين: ١-٣). وجاء في التوراة كذلك: «وعدّ من الله لإبراهيم بأن يجعل من ابنه إسماعيل ابن الجارية أمة هادية عظيمة، وابن الجارية سأجعله أمة لأنه نسلك» ولم تكن أمة هداية عظيمة من نسل إسماعيل إلا أمة محمد ﷺ^(٢).

ويقول المؤرّخ الإنجليزي الشهير جيبون: (إن الأحبار والرهبان غيروا

(١) سفر التكوين ٢١: ٢١.

(٢) عبد المجيد الزنداني وأحمد سلامة وعبد الله الجرافي: كتاب توحيد الخالق ط ١٤٠٥ هـ.

وبدلوا بعد ظهور الإسلام نصوصاً كثيرة في التوراة والإنجيل! ويقول النصراني الذي هداه الله: (بشرى زخارى ميخائيل) في كتابه: - محمد رسول الله - هكذا بشرت به الأنجيل: (إن الرُّهبان قد حرفوا وبدلوا، ويظهر ذلك من اختلاف الطبقات للإنجيل، بفعل أيدي الرهبان حذفاً وتحريفاً!).

ويقول الأب عبد الأحد داود الآشوري (مطران الموصل) بعد إسلامه، في كتابه الإنجيل والصلب:

(إن عبارة المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة) لم تكن هكذا بل كانت: (الحمد لله في الأعالي، وعلى الأرض الإسلام، وللناس أحمد)!!^(١).

والحق يقال:

إن الأنبياء ﷺ رسل الله الواحد الأحد، وقد يأمر الله الرسول السابق أن يبشر برسول لاحق، فتكون نبوءة للأول وتمهيداً للثاني، وليس هذا شرطاً في كل رسالة، ولكنه حاصل. وقد يذكر بالبشارة اسم الرسول اللاحق أو صفاته، والبشارة كما شهد بذلك عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه يُستأنس بها إذا

(١) عبد المجيد الزنداني وأحمد سلامة وعبد الله الجرافي: كتاب توحيد الخالق ط ١٤٠٥ هـ



وجدت بقية العلامات^(١).

وجاءت صفة النبي ﷺ في التوراة: «محمد عبدي ورسولي سميته المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب بالأسواق، ولا يجزي بالسيئة مثلهما ولكن يعفو ويصفح، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله، وأفتح به أعينا عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً»^(٢).

(١) سعيد حوى: الرسول ﷺ ١/ ١٤.

(٢) هذا ما قاله الصحابي عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، حين سئل عن صفة محمد ﷺ في التوراة وكان قد قرأها.



الفصل الثاني

عموم رسالته ﷺ وعالميتها

اييض



الفصل الثاني

عموم رسالته ﷺ وعالميتها

تحدثنا في الفصل السابق عن إثبات نبوة الرسول محمد ﷺ، وإثبات نبوته يؤكد لنا عموم رسالته، وشمولها وكما لها وصلاحيتها لأي زمان أو مكان أو مجال أو أمة. وقد ثبت في الكتاب والسنة أنه ﷺ رسول الله إلى الثقلين، وأنه حجة الله على العالمين، وأن الله أخذ العهد على جميع النبيين أن يؤمنوا به إن أدركوه، وأن الله لا يقبل من أحد سوى شريعته - صرفاً ولا عدلاً - بعد بلوغ دعوته إليه، وأن شريعته مهيمنة على غيرها، لأنها ربانية إنسانية عالمية شافية وافية خالدة كاملة حنيفية سمحة، تتناسب مع الفطرة، واقعية مثالية فيها سعادة الدارين... ناسخة لما، قبلها ومصدقة لما فيها من حق ونور، ومبيّنة ليس فيها شيء من الباطل والزور، وأنها مصونة من التحريف والتزييف، وأنها دين ودنيا وأخرى، وعلم وإيمان وعبادات ومعاملات وأخلاقيات وسلوكيات...

لقد بُعث ﷺ في وقت كان الناس فيه محتاجين إلى من يهديهم إلى الصراط المستقيم، ويدعوهم إلى الدين القويم، ومن كمال حكمة الله الملك الممين، أن أرسل في هذا الوقت نبياً يكون رحمة للعالمين إلى يوم الدين، وما ظهر أحد يصلح

لهذا الشأن العظيم ويؤسس هذا البنيان القويم، سوى محمد النبي الكريم، الذي هو بالمؤمنين رؤوف رحيم، فأشرقت شمس التوحيد وأقمار التنزيه، وزالت ظلمة الشرك والتشويه والتثليث والتشبيه^(١)، وإلى ذلك أشار الله بقوله: ﴿يَأْهَلْ أَلِكْتَ بَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (المائدة: ١٩).

إنَّ البعثة النبويّة من الأمور الهامة العظيمة التي غيرت مجرى التاريخ، وأحدثت فيها تحولات كبيرة، فكانت الرسالة الخاتمة الخالدة كغيث أصاب أرضاً جدداء، فارتوى ترابها واخضر نباتها، وأنبتت من كل زوج بهيج، ومع ذلك فقد أنكرت طائفة من الناس تلك الرسالة بالكلية، وكذبت عناداً أدلتها اليقينية القطعية، شأنها في ذلك شأن من أنكر جميع النبوات، من الزنادقة الذين ناقضوا العقل والحس والفطرة واليقين! وطائفة صدقت الرسول ﷺ بأنّه رسول رب العالمين، ولكنه حسب زعمها للعرب وحدهم! وهذا مخالف للعقل والنقل، بل ومخالف لما جاء في بعض كتبهم من نصوص سلمت من التحريف!

قلت (أنا الباحث): لقد جادلت كاهن الطائفة السامرية الأكبر (بنابلس في فلسطين) في مسألة نبوة الرسول محمد ﷺ، فاعترف بنبوته ولكن للعرب

(١) انظر: فتح الباري ٤/٤٠٢ والبخاري ٣/٢١ حديث ٢١٢٥.



فحسب! فقلت له بالله عليك: هل يكذب النبي؟ فقال: لا إنَّ محمداً لصديق، فقلت له: إنَّ محمداً ﷺ النبي الصادق الذي لا يكذب، الموحى إليه من عند الله كما تقول، قال: «كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»^(١) فبهت الذي كفر ولم يجد جواباً!!!

إنَّ الأدلة على عموم الرسالة الإسلامية الخاتمة وعالميتها كثيرة جداً، منها:

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان: ١)، ومعلوم أن سورة الفرقان مكية، وأنها من السور المتقدمة في النزول، ومعلوم كذلك أنه ﷺ مبعوث إلى الجنِّ كذلك، وسورة الجنِّ مكية كذلك!!

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ (سبأ: ٢٨)، وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الأعراف: ١٥٨)، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران: ٨٥)، وقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣).

(١) رحمة الله الهندي: إظهار الحق ٤/ ١٠٧٦.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ، فَمَاتَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»^(١).

وقال ابن عباس رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى: «وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ»^(٢).
ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه العهد والميثاق، لئن بعث الله محمداً وهو حيٌّ ليؤمننَّ به ولينصرنَّه»^(٣).

وقد ألف شيخ الإسلام ابن تيمية في عموم رسالته ﷺ كتاباً بعنوان (إيضاح الدلالة في عموم الرسالة)^(٤).

(١) متفق عليه: انظر البخاري ١/١٨٦ ومسلم ١/٣٧٠، والطائفة السامرية بنابلس في فلسطين، تنتمي لليهود وتخالفهم في أمور أهمها: عدم الإيمان بنبي بعد موسى وهارون عليهما السلام، وأن الطور هو جبل جرزيم بنابلس، وأن التوراة السامرية هي الأصل. وهي أصغر طائفة دينية في العالم وتسكن بالقرب من جامعة النجاح الوطنية حيث أعمل، وقد صنف فيها كتاباً علمياً فريداً مُحْكَمًا صار مرجعاً للباحثين.

(٢) رواه مسلم ١٣٤ حديث ١٥٣.

(٣) الحافظ ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ١/٣٧٧.

(٤) الإمام ابن تيمية: إيضاح الدلالة في عموم الرسالة ١٩/٩ (ضمن مجموع الفتاوى، طبعة السعودية).



ومما يؤكد عموم الرسالة الإسلامية الأخيرة وشمولها، ما يأتي:

١ - أنه ليس فيها ما يصعب على الناس اعتقاده أو يشق عليهم العمل به،

قال الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة: ٢٨٦).

٢ - أن فيها ما لا يختلف باختلاف الزمان والمكان، كالعقائد والعبادات،

وقد جاء مفصلاً تفصيلاً كاملاً وموضحاً بالنصوص المحيطة به، فليس لأحد أن

يزيد فيه أو ينقص منه.

٣ - أن كل ما فيها من تعاليم إنما يقصد به حفظ الدين وحفظ النفس

وحفظ العقل وحفظ النسل وحفظ العرض وحفظ المال، (وهذه هي مقاصد

الشرعية العامة الكلية).

لقد أكمل الله تعالى به ﷺ الدين وأتم به النعمة، وأرسله بدين بلغ ذروة

الكمال الذي لا كمال بعده لدين من الأديان، إنه دين يخاطب البشرية جمعاء

بجميع أجناسها ولغاتها وألوانها، دين ضمن الله به للبشرية السعادة والفوز في

الدنيا والآخرة، دين ختم الله به جميع الأديان ونسخ به جميع الرسالات، ولذا

فقد وجب على جميع المكلفين الإيمان بصاحب هذه الرسالة الخاتمة، وأن تفيء

البشرية كلها إليه وإلى دينه، وأمرها بذلك فقال جل ذكره: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ

لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (آل عمران: ١٣٢).

ويترتب على عموم الرسالة الخاتمة وعالميتها: وجوب إيصالها للعالم أجمع، بكل السبل الممكنة، عبر وسائل الإعلام المسموعة والمقروءة والمرئية وخاصة (الإنترنت)، وضرورة إقامة الإسلام في الصدور، ليقوم حكم الله في الدور والقصور، وصدق الله العظيم الغفور إذ يقول: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣).



الفصل الثالث ختم النبوة

وفيه مبحثان:

- المبحث الأول: الأدلة على ختم النبوة.
- المبحث الثاني: ما يترتب على ختم النبوة من أمور.

ایض



المبحث الأول

الأدلة على ختم النبوة

حدث صراع بيني وبين القاديانيين (الأحمديين في فلسطين)، وهم مدعومون من الصليبية العالمية والصهيونية الماسونية، والتفاصيل موجودة في الإنترنت (في موقعي: الشفاء والديوان)، ويتسَّرون بالتشيع والتصوّف تارةً، وبمحرابة الشيوعية والتنصير تارةً أخرى، ولهم فضائية عالمية باسم قناة الأحمدية، ونشاطهم بارز في دولة الكيان الصهيوني، ويحاولون جاهدين مدّ نفوذهم في كافة أرجاء فلسطين، تحت مظلة الادعاء بأنهم إحدى الفرق الإسلامية المعتبرة! وقد أصدرت فتوى بتكفيرهم - عبر الإنترنت والمساجد والجامعات - فقاموا بالردّ عليّ في عدة نشرات جاء في آخرها: (الله أكبر يا دكتور! الشريعة هل يجوز أن تكفّر مسلمين لمجرد أنهم يؤمنون بوجود أنبياء بعد محمد ﷺ؟! قلتُ: من لم يكفركم فهو كافر، وإن صلى وصام وحجّ بيت الله الحرام!!)

إنّ معنى ختم النبوة: أنّه لا تبدأ نبوة ولا تشرّع شريعة بعد نبوته وشريعته، وأما نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان فلا ينافي ذلك، لأنّه إذا نزل فإنما

يتعبد هو وغيره بشريعة محمد ﷺ، دون شريعته المتقدمة لأنها منسوخة!
ومن ادّعى عدم ختم النبوة بعد محمد ﷺ أو صدّق من يدّعي ذلك فهو
كافر مرتد زنديق! ولعلّ الحكمة في ختم النبوة به ﷺ: أنه بُعث إلى الناس كافة
إلى قيام الساعة، وإذا كانت رسالته عامة للناس، فلا بد أن تكون شريعته كاملة
شاملة لمصالح العباد، في أي زمان أو مكان أو مجال. والحمد لله أن الشريعة
الإسلامية لا تزال حية محفوظة على صورتها الحقيقية، ولم تلعب بها يد النسيان أو
التحريف أو التبديل، كما حدث للرسالات السابقة! (١). قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا
الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩).

وأكبر دليل على ختم النبوة والرسالة بمحمد ﷺ قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ
مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ (الأحزاب: ٤٠)، وليس
بعد شهادة الله تعالى شهادة أو كلام أو جدال!!

وهناك كثير من الأحاديث النبوية الصحيحة، التي بينت بما لا يدع مجالاً
للشك، ختم النبوات والرسالات ببعثه ﷺ منها:

عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «وأنا خاتم النبيين»،
وفي رواية «وختم بي الرسل»، وفي رواية «وختم بي النبيون»، وفي رواية «وإنه لا

(١) الفوزان: صحيح الاعتقاد ص ٢١٠-٢١٥.

نبي بعدي^(١).

وعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «وإنه سيكون في أمتي كذابون

ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين، لا نبي بعدي^(٢)».

وعن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني عبد الله في

أم الكتاب وخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته^(٣)».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (ومن قال إن الرسول ﷺ كان نبياً قبل أن

يوحى إليه، فهو كافر باتفاق المسلمين، وإنما المعنى أن الله كتب نبوته فأظهرها

وأعلنها، بعد خلق جسد آدم وقبل نفخ الروح فيه، كما أخبر أنه يكتب

رزق المولود وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، بعد خلق جسده وقبل نفخ

الروح فيه^(٤)).

(١) انظر أحاديث ختم النبوة في البخاري ١/٨٦ و ٤٤/٤٤ وفتح الباري ٦/٥٥٨ باب ٨ حديث

٣٥٣٤ ومسلم ١/١٨٤ و ١٩٠ و ٣٧١ وأحمد ٢/٢٥٦ و ٣١٢ وأبو داود ٤٥/٤٥ والترمذي

١٠/٣٠٢ و ١٣/١٠١، وانظر تفسير القرطبي ٦/٦٣ وتفسير ابن كثير ٣/٤٩٣.

(٢) رواه أبو داود في كتاب الفتن، والترمذي في الفتن، باب ما جاء لا تقوم الساعة حتى يخرج

كذابون وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) أحمد ٤/١٢٧ والحاكم ٢/٤١٨ و ٦٠٠ وابن حبان حديث ٢٠٩٣.

(٤) انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٨/٢٨٢.

وفي حديث الشفاعة الذي رواه أبو هريرة: «أن الناس يقولون لمحمد ﷺ يوم الحشر وهم يطلبون الشفاعة عنده: يا محمد أنت رسول الله وخاتم النبيين»^(١).
فمحمد ﷺ خاتم النبيين لا نبي بعده - عليه الصلاة والسلام - إلى أن تقوم الساعة، فهو آخر الأنبياء وهو خاتمهم، قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ (الأحزاب: ٤٠) والخاتم (بالكسر) هو الزينة، وبالفتح هو الآخر الذي ليس بعده رسول ولا نبي، ولكن شريعته باقية ومستمرة إلى أن تقوم الساعة، وكاملة لا تحتاج إلى بعثة نبي جديد، كما قال رسول الله ﷺ في الحديث: «إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِن تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَن تَضِلُّوا بَعْدِي كتاب الله وسنتي»^(٢).

(١) مسلم ١٨٤ و ٣٧١.

(٢) أخرج الحاكم والبيهقي والدارقطني من طريق صالح بن موسى عن عبد العزيز بن ربيع عن أبي صالح مولى أم حبيبة زوج النبي ﷺ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إني قد تركت شيئين لن تضلوا أبداً ما أخذتم بهما وعملت بهما فيهما: كتاب الله وسنتي ولن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض».



المبحث الثاني

ما يترتب على ختم النبوة من أمور

الأحاديث النبوية الشريفة الصحيحة - سالفه الذكر - واضحة الدلالة في إثبات ختم النبوة والرسالة والشرائع بمحمد ﷺ، ومعلوم في اللغة العربية أن (لا) نافية للجنس، فإذا ضمت هذه الأحاديث الصحيحة الكثيرة للآية السابقة لم يبق أي احتمال ولو كان ضعيفا لمجيء نبي أو رسول بعد نبي الرحمة ﷺ. ويترتب على الاعتقاد الجازم بختم النبوة بمحمد ﷺ: عظم مسؤولية الأئمة العلماء ورثة الأنبياء، بل عظم مسؤولية الأمة جمعاء، في فهم شريعته وتعليمها ونشرها والدفاع عنها، لأن المسلمين - في أي زمان أو مكان - لا ينتظرون نبياً جديداً ينوب عن رسول الله ﷺ في حفظ شريعة الله، وتبليغها للمكلفين إلى يوم الدين، بخلاف الأمم السابقة، التي كانت تسوسها الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي آخر^(١).

ولله در القائل:

الله أكبر إن دين محمد * وكتابه أقوى وأقوم قила
لا تذكر الكتب السوالف قبله * طلع الصباح فأطفأ القنديلا

(١) انظر: فتح الباري ٦/ ٥٧٤.

ويترتب على ختم النبوة بمحمد ﷺ كذلك: عالمية الرسالة الخاتمة وشمولها، وخلودها وصلاحتها لأي زمان أو مكان أو مجال أو أمة إلى قيام الساعة، وأن الله تعالى لا يقبل من أحد غيرها، وأنها ناسخة لما قبلها من الشرائع ومهيمنة عليها، وأن سعادة الدارين محصورة في تعاليمها السمحة، وأن المسلمين جميعاً مطالبون بالالتزام الكامل بالشرعية الإسلامية ليكونوا قدوة للعالمين.

والأدلة على عالمية الشريعة الإسلامية الأخيرة: نصوص الكتاب والسنة التي بينت بما لا يدع مجالاً للشك، أن هذا الدين الحنيف ليس للعرب فحسب، وإنما هو للعالمين إلى يوم الدين، قال رب العالمين: ﴿إِنَّهُ هُوَ إِلَّا ذِكْرُنَا لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام: ٩٠).

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»^(١).

ومعلوم أن التشريعات الإسلامية ليست طائفية أو إقليمية أو حزبية، والغاية فيها لا تبرر الوسيلة كما يقولون، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ (النساء: ٥٨).

(١) متفق عليه، البخاري ٨٦ ومسلم ١/ ٣٧٠.



والشريعة الإسلامية تنبذ وتحارب أي مقومات تفرق بين الناس بسبب اللون أو الجنس أو المال أو اللغة... فالمقياس الوحيد فيها للتفاضل بين البشر هو تقوى الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَدُّكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣).

ويترتب على كون نبي الرحمة محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، ضرورة صلاحية الشريعة الإسلامية وخلودها، لأنها إنسانية عالمية شاملة كاملة وافية، تتناسب مع الفطرة والعقل والروح والجسد والفكر والعاطفة وهذا يؤدي إلى التأكيد على مرونة الشريعة الخاتمة ويسرها، وصلاحيتها لكل الأمم والشعوب، وأنَّ باب الاجتهاد مفتوح غير مغلق، ما دام في الأرض من يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ.

إنَّ لكل إنسان حقوقاً وعليه واجبات كذلك، فيجب أن يجد كل متِّمٍ لهذا الدين، في دستور الأمة الخالدة (الكتاب والسنة) وما يُستنبط منهما من أحكام وفرعيات واجتهادات، ما يجيب عن تساؤلاته في قضايا الفردية والعامة والخاصة، ومعلوم أن الشريعة الخاتمة جاءت بالقواعد والأصول والمبادئ والأسس العامة التي تلبي حاجات الناس، وتركت كثيراً من التفاصيل والاستنباط لأصحاب الشأن من العلماء الذين هم ورثة الأنبياء بشروط معروفة، وعلى فرض أن باب الاجتهاد قد أغلق، كما ذهب إلى ذلك بعض الجهلة

ومتعصبي المذاهب، فإنه والحالة هذه خلت مسائل وقضايا كثيرة جداً من وجود إجابات دينية لها، وقد يؤدي ذلك إلى: اضطرار المسلم لتحكيم غير الشريعة في بعض شؤون حياته اليومية، ويؤدي إلى شيوع عدم صلاحية الإسلام للحياة، وهذا عين المستحيل! فنصوص الشريعة غير متناقضة، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣).

ويؤدي إغلاق باب الاجتهاد إلى فتح الباب لغير العلماء، أن يشرعوا للسائلين ما لم يأذن به الله تعالى، إما اضطراراً لفقد الحكم الشرعي في القضايا المتجددة باستمرار، وإما نفاقاً واصطياداً في الماء العكر، لغياب المجتهدين من العلماء، لتسويغ الخروج على خاتم الأنبياء ﷺ!!



الفصل الرابع

عصمة النبي الخاتم ﷺ

وفيه مبحثان:

- المبحث الأول: عصمته من المعاصي وكتمان الوحي.
- المبحث الثاني: الوسطية في عصمته بين غلاة الصوفية ومنكري السنة النبوية.

ایض

المبحث الأول

عصمته من المعاصي وكتمان الوحي

العصمة: هي حفظ الله تعالى لنبيه ﷺ من ارتكاب السيئات.

وإن أهم مجالات عصمته ﷺ: تبليغ الوحي كما أنزل، بدون زيادة أو نقص أو عبث أو تبديل أو تحريف... قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿١﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٢﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٣﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ (الحاقة: ٤٤-٤٧).

تقول عائشة رضي الله عنها: لو كان محمد ﷺ كاتماً شيئاً من الوحي، لكتّم هذه الآية ﴿وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ﴾ (الأحزاب: ٣٧).

أما العصمة من ارتكاب المعاصي - وهي الكبائر والصغائر - قبل النبوة وبعدها، فالراجع من أقوال العلماء: أنه ﷺ معصوم عن ارتكاب الكبائر عمداً أو سهواً قبل البعثة وبعدها، أما الصغائر: فَجَوَّزَ بعض العلماء صدورها عنه سهواً لا عمداً قبل البعثة، والواقع أنه كما يذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أن القول بأن الأنبياء معصومون عن الكبائر دون الصغائر.

وأما ما يتعلق بالأمور الاجتهادية التي لم ينزل فيها نص شرعي، فالراجع جواز فعل خلاف الأولى في اجتهاده في بعض المسائل! والحق يُقال: إنَّ للرسول ﷺ أن يجتهد فيما لا نص فيه، فإذا أقرَّه الله على اجتهاده، علمنا أنه حق يجب العمل به، وحينئذ يكون بمثابة الحكم الموحى به، لأن تقريره تعالى وحي، كما أنَّ تقريره ﷺ سنَّة واجبة. ومن الأمثلة على اجتهاده ﷺ: قبوله الفداء من أسرى غزوة بدر^(١). والراجع في هذه المسألة وغيرها: أنَّه ﷺ لم يخطئ في اجتهاده قط، وإنَّما كان ما أخذ به خلافاً للأولى، فهو ليس خطأً في الاجتهاد، وإنَّما اختيار غير الأولى - حسبما يفهم من آية الأنفال في هذه المسألة - والمجتهد مأجور أصاب أو أخطأ!^(٢).

كذلك فقد عصم الله تعالى رسوله ﷺ من تسلُّط أعدائه عليه بالقتل، أو منعه من تبليغ رسالة ربه، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (المائدة: ٦٧) فمع كثرة من قصد ضرره وإيذائه ﷺ، قد عصمه الله من القتل، حتى انتقل من الدار الدنيا إلى منازل الحسنى في العقبى^(٣).

(١) قال تعالى: ﴿مَا كُنْتَ لَتَيْمُنَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ أَنْتَرَى حَتَّى يُفْخِرَ﴾ (الأنفال: ٦٧).

(٢) عبد الغني عبد الخالق: حجَّة السنة، دار القرآن الكريم ١٤٠٧ هـ، معهد الفكر الإسلامي، أمريكا.

(٣) رحمة الله الهندي: إظهار الحق ٨٠٦/٣.



فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان النبي ﷺ يُحْرَسُ، حتى نزلت هذه الآية «والله يعصمك من الناس» فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة فقال لهم: يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله»^(١).

والحكمة من عصمة الله رسوله ﷺ قبل النبوة وبعدها: ليعده ليكون نبياً رسولاً، وأنه سيواجه المشركين والمنافقين الذين سيحاربونه ويشيرون حوله الشبهات للقضاء على دعوته، ولو وقع ﷺ في المعاصي فسوف يتخذها الأعداء وسائل اتهام له ونقاطاً (سوداء كما يقولون) ضده، وسيصدون الناس عن دينه. من خصائص نبي الرحمة ﷺ:

١- أَنَّهُ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ (الأحزاب: ٤٠).

٢- أَنَّهُ سَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ.

٣- أَنَّهُ لَا يَتِمُّ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَزِنَ بِرِسَالَتِهِ، لقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا

يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ (النساء: ٦٥).

٤- أَنَّهُ لَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا بِشَفَاعَتِهِ.

(١) رواه الترمذي ١٧٤/١١ حديث رقم ٤.

٥- سَبَقُ أُمَّتِهِ الْأُمَمِ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، لِعُمُومِ قَوْلِهِ ﷺ: «نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

٦- أَنَّهُ صَاحِبُ لُؤَاءِ الْحَمْدِ يَحْمِلُهُ ﷺ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَكُونُ الْحَامِدُونَ الْمُسْلِمُونَ تَحْتَهُ، لِحَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَبِيَدِي لُؤَاءُ الْحَمْدِ وَلَا فَخْرَ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ يَوْمُئِذٍ - آدَمَ فَمِنْ سِوَاهُ - إِلَّا تَحْتَ لُؤَائِي، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ وَلَا فَخْرَ»^(٢).

٧- أَنَّهُ صَاحِبُ الْمَقَامِ الْمَحْمُودِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ (الإسراء: ٧٩).

وهذا المقام هو ما يحصل من مناقبه ﷺ يوم القيامة من الشفاعة وغيرها.
٨- أَنَّهُ صَاحِبُ الْحَوْضِ الْمُرْوَدِ، وَاللُّؤَاءِ الْمَعْقُودِ، وَالْشَّفَاعَةِ الْعَظْمَى يَوْمَ الْخُلُودِ.

٩- أَنَّهُ إِمَامُ النَّبِيِّينَ وَخُطْبَتِهِمْ وَصَاحِبُ شَفَاعَتِهِمْ، لِحَدِيثِ أَبِي بَنٍ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجمعة، باب: فرض الجمعة، رقم ٨٧٦ ومسلم، كتاب الجمعة، باب: هداية هذه الأمة ليوم الجمعة، برقم ٨٥٥.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الفضائل، باب: تفضيل نبينا على جميع الخلائق رقم ٢٢٧٨ وأبو داود، كتاب السنة، باب: التخيير بين الأنبياء ﷺ برقم ٤٦٧٣.



أن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم»^(١).

١٠ - أن أمته خير الأمم، لقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾

(آل عمران: ١١٠).

(١) أخرجه الترمذي، كتاب المناقب، باب: في فضل النبي برقم ٣٦١٣.

المبحث الثاني

الوسطية في عصمته بين غلاة الصوفية ومنكري السنة النبوية

أولاً: غلاة الصوفية:

غلاة الصوفية: هم أناس ضالون جهلة فيهم شبه بالنصارى الذين عبدوا الله على جهل، وفيهم شبه بالكفار الذين يعبدون الأصنام والأحجار، وهؤلاء أطاعوا الله ظاهراً في جانب وعصوا الله تعالى في جوانب، فخسروا الدنيا والآخرة وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا!! وذلك هو الخسران المبين^(١).

والحق يقال: إنَّ الرافضة هم أول من فتح باب الغلو في هذه الأمة في علي ابن أبي طالب عليه السلام والأئمة من ذريته... فإن الصوفية المبتدعة قد انتقلت إليها عدوى الغلو من الرافضة، فهناك تشابه كبير بينهما! وإذا كان المذهب الرافضي قد دار فيه الغلو حول علي وذريته، فإن الغلو عند الصوفية قد دار حول الرسول ﷺ والأولياء من بعده! وإذا وجد في غلاة الشيعة من قال: إن روح الله قد حلت في الرسول ﷺ ثم في علي وذريته، فقد وجد في الصوفية من يقول بالحلول والاتحاد (كاللاج) مثلاً! فكانت الشيعة المتأثرة بالتراث المجوسي واليهودي

(١) انظر عبد الرحمن عبد الخالق: الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة، ط ١ (مصورة).



(ابن سبأ)، المعبر الرئيس لا تتقال العقائد الباطلة للصوفية المنحرفة^(١).

يقول الشاعر البرعي اليمني الصوفي (عند القبر النبوي):

يا رسول الله يا من ذكره * في نهار الحشر رمزاً ومقاماً

فأقلني عثراي سيدي * واكتساب الذنب من خمسين عاماً!^(٢)

سبحان الله! من الذي يقيل العثرة إلا الله؟! إن غلاة التصوف جعلوا محبة

النبي ﷺ نشيداً ورقصاً وشعوذة ومراسيم، ما أنزل الله بها من سلطان!!

ويقول البوصيري (الصوفي الشهير) في البردة (قرآن غلاة الصوفية):

يا أكرم الخلق ما لي من ألؤذ به * سواك عند حدوث الحادث العمم

إن لم تكن في المعاد أخذاً بيدي * صفحاً وإلا فقل يا زلة القدم

فإن من جودك الدنيا وضرتها * ومن علومك علم اللوح والقلم^(٣)

الله أكبر!! بعض معلومات الرسول ﷺ كعلم الله تعالى (والعياذ بالله مما

يقوله البوصيري!!).

وهذه الأحاديث النبوية الصحيحة تردُّ على ضلالات الصوفية الجهلة

المبتدعة:

(١) عبد الرؤوف محمد عثمان: محبة الرسول ﷺ ص ١٦١.

(٢) عائض القرني: رحمة للعالمين، دار ابن حزم ط ١٤١٣ هـ ص ١٣٩.

(٣) ديوان البوصيري، تحقيق محمد سيد كيلاي ص ٢٠٠.

- «لَا تُظْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ»^(١).

- «يا أيها الناس، إِنَّمَا أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، قُولُوا بِبَعْضِ قَوْلِكُمْ وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ»^(٢).

وغضب رسول الله ﷺ حين سمع من قال له: «ما شاء الله وشئت»، وقال: سبحان الله سبحان الله، أَتَجْعَلُنِي لِلَّهِ نَدًّا؟ بل ما شاء الله وحده»^(٣).
فيا من عَطَلَ سُنَّتَهُ ﷺ، أو أخذ شيئاً وترك شيئاً، لقد أخطأت خطأً بيناً،
فإنَّ الكمال في اتباع سنته فحسب!.

هذا، وقد تَوَسَّطَتِ الطائفة المنصورة (أهل السنة والجماعة كثر الله سوادها) في حبه ﷺ فسلمت من ضلال الشيعة والصوفية، ومن كفر البابية والقاديانية، ومن منهج منكري السنة النبوية، والمعتزلة العقلانية!!
ثانياً: القرآنيون (منكرو السنة النبوية):

ما يسمَّى بالقرآنيين الربانيين: فرقة قديمة جديدة مرتدة عن الإسلام،

(١) رواه البخاري ٢٠٤/٤ حديث ٣١٨٩ و٣٤٤٥.

(٢) روه أحمد حديث رقم ١٥٧٢١ وأبو داود حديث رقم ٤١٧٢.

(٣) رواه أحمد ١/٢١٤ وابن ماجه حديث ٢١١٧ وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه.



يزعمون أنهم يهتدون بهدي القرآن فقط، فيرفضون السنة النبوية ولا يحتجّون بها، ولا يعتبرونها أصلاً يرجع إليه! ويزعمون أنهم يتبعون تعاليم القرآن الكريم! ولعل أهم من ردّ عليهم من السابقين: الإمام الشافعي في كتابه: (الرسالة)^(١)، ومن المعاصرين: زميلي الدكتور خادم إلهي بخش في رسالته القيمة: (فرقة أهل القرآن في باكستان وموقف الإسلام منها)^(٢)، والدكتور عبد الغني عبد الخالق في كتابه: (حجية السنة النبوية)^(٣)، والدكتور مصطفى السباعي في كتابه: (السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي)^(٤)، وشيخ الإسلام في هذا العصر عبد العزيز بن باز في رسالته القيمة: (وجوب العمل بالسنة وكفر من أنكرها)^(٥)، والعلامة المحدث الألباني في رسالتيه (السنة حجة بنفسها) و(حجية خبر الأحاد)^(٦).

(١) محمد بن إدريس الشافعي: الرسالة، تحقيق أحمد شاكر، ط ١.

(٢) خادم إلهي بخش: فرقة أهل القرآن في باكستان وموقف الإسلام منها، رسالة ماجستير جامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة، ١٣٩٩ هـ.

(٣) عبد الغني عبد الخالق: حجية السنة.

(٤) مصطفى السباعي: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ط ١.

(٥) عبد العزيز بن باز: وجوب العمل بالسنة وكفر من أنكرها، ط ٤، ١٤٢٠ هـ.

(٦) محمد ناصر الدين الألباني: رسالة السنة حجة بنفسها ورسالة حجية خبر الأحاد.

لقد أراد الله تعالى بالقرآن الكريم أن تكون السنّة المطهّرة سائرة معه، تفسر معانيه، وتوضح مبانيه، فلا شك أن السنة النبوية لها الأهمية العظمى في فهم القرآن، وتفسير مبانيه، وبيان معانيه، وتطبيق أحكامه.

إنّ السنّة النبويّة هي أصل التشريع الثاني، إذا حكمت بشيء من أوامر ونواهٍ فهو حكم رباني، لا يجوز لأحدٍ ردّه ولا أن يجادل فيه، إذا صح الخبر عن الرسول ﷺ، ولو كان الرسول ﷺ يقول شيئاً من عنده وينسبه إلى الله تعالى لعاجله الله بالعقوبة، ولكنه ﷺ الصادق المصدوق فيما يبلغه عن ربه، ومؤيد بالمعجزات الباهرات. فأقواله هديّ كريم، وأفعاله تشريعٌ حكيم، وتقريراته حقٌّ سليم، وحياته ﷺ كانت تمثيلاً حياً وتفسيراً حقيقياً لما جاء في القرآن الكريم، ولا يمكن لأحد أن يتّبع القرآن حقاً وصدقاً أكثر من اتّباع الرسول ﷺ الذي جاء هو بالقرآن الكريم.

ومعلوم أخى في الله أن القرآن نفسه أمرنا باتّباع السنّة، كما أمرنا بذلك الرسول الكريم ﷺ. ولا يمكن لأحد أداء شعائر التّعبد وغيرها بدون رجوع للسنّة النبوية! وقد هيأ الله لأمتنا أئمة يعتنون بنقل السنّة - بطرق صحيحة - لتصل إلينا سالمة، كي نقتدي بها، كما وصل إلينا القرآن الكريم. فالمحافظة على السنّة محافظة على القرآن، وحفظ الكتاب مستلزم لحفظ السنّة، ولا يستقيم حفظ



للنص بدون حفظ البيان، ولا يتمُّ المراد بالكتاب إلا بالسَّنة المطهَّرة^(١). قال تعالى:
﴿ فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾
(النساء: ٥٩). فالرُّدُّ إلى الله: أي إلى القرآن الكريم، والرُّدُّ إلى الرسول: أي إلى
حكمه في حياته وإلى سنته، بعد وفاته ﷺ.

عن المقدَّام بن معدٍ كَرَب: عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ
الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلَا يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانُ عَلَى أُرِيكَتِهِ يَقُولُ: عَلَيْكُمْ بِهَذَا
الْقُرْآنِ، فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلَالٍ فَأَحْلَوْهُ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرَّمُوهُ»^(٢).
وحيث كنت أعمل مفتياً شرعياً لمحافظة نابلس بفلسطين، أصدرت فتوى
بكفر هؤلاء الزنادقة، الذين يؤمنون بالكتاب ويكفرون بالسَّنة، ونشرتها عبر
وسائل الإعلام المتنوعة.

(١) صالح أحمد رضا: ظاهرة خطيرة في رفض السنة النبوية في المجتمع الإسلامي
ص ٩٤ و ٩٥ و ١٤ - ١٦.

(٢) رواه أحمد ٤/ ١٣٠ وأبو داود رقم ٤٦٠٤ والترمذي ٢٦٦٠ وابن ماجه رقم ١٢ والحاكم
١٠٩/ ١ والدارمي ٨٤٤/ ١ وابن حبان رقم ١١.

الخاتمة

وفيها خلاصة البحث والنتائج والتوصيات:

١ - أنعم الله تعالى على الخلق نعماً مادية ومعنوية لا تُعدُّ ولا تحصى، وعلى رأس هذه النعم: نعمة الإيمان بالله تعالى، والإيمان بالرسول ﷺ، فرع عن الإيمان بالله، ولا يتحقق الإيمان بالأنبياء إلا بتصديقهم جميعاً، وقد كان خيرهم وآخرهم نبي الرحمة ﷺ.

٢ - أهم معجزة لنبي الرحمة: القرآن الكريم المحفوظ بحفظ الله له، والذي أعجز العالمين الإتيان بسورة واحدة من مثله.

٣ - إن سيرته المطهرة ﷺ قبل النبوة وبعدها، آية صدقه وبرهان نبوته، فقد ولد ﷺ على مثل ضوء الشمس (وكان منظره ينبئك بالخبر)! كذلك فقد أخبر عن أمور الغيب (الماضية والحاضرة والمستقبلية) رأي العين، ونبوءاته تحققت تباعاً.... وبشَّرت به الكتب السماوية؛ ولذلك آمن به كثير من أهل الكتاب وغيرهم.

٤ - كل هذه الدلائل تؤدي إلى تصديقه ﷺ بكل ما جاء به من عند



رَبِّهِ ﷻ، وتؤكد بالتالي على عموم رسالته وعالميتها، وهيمنتها على غيرها، ونسخها لما قبلها، وأن الله لا يقبل غيرها، وأنها وحدها الصالحة لأي زمان أو مكان أو مجال أو أمة إلى يوم الدين.

٥- نبي الرحمة ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين وزيتهم، وأنه لا نبوة ولا رسالة ولا شريعة بعده، ومن ادّعى ذلك كالكاديانية أو البابية أو البهائية فقد كفر، وماواه سَقَر وبئس المستقرّ!!

ويترتب على ختم النبوة: عظم مسؤولية المسلمين في الدعوة إلى الله، والإيمان بأنه لا تتحقق مصالح البشرية المادية والمعنوية إلا بتعاليم الشريعة الإسلامية الأخيرة، وهذا يعني أن يبقى باب الاجتهاد مفتوحاً للعلماء الأتقياء الأكفاء، لحلّ مشاكل الحياة والأحياء إلى يوم الدين. وعلى غير المسلمين - في مشارق الأرض ومغاربها - أن يدرسوا كتبهم السماوية التي أثبتت رسالة نبي الرحمة ﷺ.

٦- من خصائص نبي الرحمة ﷺ عصمته، سواء من القتل حتى يبلغ تعاليم الرسالة الأخيرة، أو من اقتراف الذنوب والمعاصي قبل النبوة وبعدها، وعصمته كذلك من كتمان شيء من الوحي. والوسطية في عصمته بين غلاة الصوفية المبتدعة، ومنكري السنة النبوية، ممن يدعون بالقرآنيين الزنادقة!

٧- إنَّ المستقبل لهذا الدين، ولو كره المشركون والكافرون والمنافقون،
والعاقبة للمتقين ولو بعد حين، وإن الخير في أمتنا إلى يوم الدين. وإن إساءة
الحاقدين لنبي الرحمة ﷺ، أثارت الشعور الديني الدفين عند عامة المسلمين
(وحتى المقصرين). وأثبتت أن الصراع بيننا وبين أعدائنا صراع عقدي ديني!!
وما دام ذلك كذلك: فعلى أمتنا الإسلامية أن تفهم الإسلام بحق، وأن تنشره
برفق، وأن تدافع عنه بصدق.

ولا أحقّ بتعلّم سيرته وسنته، وتعليمها ونشرها والدفاع، عنها وعقد
المؤتمرات حولها، من أئمة الحرمين الشريفين، وخريجي الجامعات السعودية؟!
فلا هجرة بعد الفتح، والإيمان يأرز إلى المدينة النبويّة كما تأرز الحية إلى جحرها!.
والحمد لله ربّ العالمين، وصلى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله
وأصحابه وأتباعه تسليماً كثيراً.



قائمة المراجع

- (١) ابن تيمية: إيضاح الدلالة في عموم الرسالة (ضمن مجموع الفتاوى، طبعة السعودية).
- (٢) ابن تيمية: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية.
- (٣) ابن رجب الحنبلي: لطائف المعارف.
- (٤) ابن كثير: البداية والنهاية.
- (٥) أبو نعيم الأصبهاني: دلائل النبوة.
- (٦) البيهقي: دلائل النبوة.
- (٧) جامعة القدس المفتوحة: الثقافة الإسلامية وطرائق تدريسها (٢)، ط ٢، ٢٠٠٦م، فلسطين، مطبعة بيت المقدس.
- (٨) الحافظ ابن كثير: تفسير القرآن العظيم.
- (٩) خادم إلهي بخش: فرقة أهل القرآن في باكستان وموقف الإسلام منها، رسالة ماجستير جامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة، ١٣٩٩هـ.
- (١٠) خالد عبد الرحمن العك: معالم النبوة في الكتاب والسنة، دار النفائس، ط ١، ١٤١٥هـ، لبنان.
- (١١) خالد محمد خالد: رجال حول الرسول ١٤٢١هـ دار الفكر لبنان.
- (١٢) ديوان البوصيري، تحقيق محمد سيد كيلاني.

- (١٣) الذهبي: السيرة النبوية (طبعة مصورة) بيروت.
- (١٤) رحمة الله بن خليل الرحمن الكيرانوي العثماني الهندي: إظهار الحق تحقيق د. محمد احمد عبد القادر ملكاوي ط ٣، ١٤١٤ هـ دار الحديث القاهرة دار الحرمين للطباعة مصر.
- (١٥) سعيد حوى: الرسول صلى الله عليه وسلم.
- (١٦) سيد قطب: في ظلال القرآن ١٣٩٥ هـ دار الشروق مصر ولبنان.
- (١٧) صالح أحمد رضا: ظاهرة خطيرة في رفض السنة النبوية في المجتمع الإسلامي.
- (١٨) صالح بن فوزان الفوزان: الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، ط ٨ ١٤٢٣ هـ (طبعه مصورة).
- (١٩) عائض القرني: رحمة للعالمين، دار ابن حزم ط ١ ١٤١٣ هـ.
- (٢٠) عائض القرني: محمد صلى الله عليه وسلم كأنك تراه.
- (٢١) عبد الرؤوف محمد عثمان: محبة الرسول صلى الله عليه وسلم.
- (٢٢) عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي: لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، تحقيق ياسين محمد السواس، ١٤١٣ هـ، دار ابن كثير، دمشق - بيروت.
- (٢٣) عبد الرحمن عبد الخالق: الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة، ط ١ (مصورة).
- (٢٤) عبد العزيز بن باز: وجوب العمل بالسنة وكفر من أنكرها، ط ٤ ١٤٢٠ هـ.
- (٢٥) عبد الغني عبد الخالق: حجية السنة، دار القرآن الكريم ١٤٠٧ هـ، معهد الفكر الإسلامي، أمريكا.
- (٢٦) عبد المجيد الزنداني وأحمد سلامة وعبد الله الجرافي: كتاب توحيد الخالق ط ١ ١٤٠٥ هـ.
- (٢٧) عمر سليمان الأشقر: نحو ثقافة إسلامية أصيلة، ط ٢، ١٤١٢ هـ، دار النفائس الأردن.



- (٢٨) العهد القديم سفر أشعياء الإصحاح.
- (٢٩) الفوزان: صحيح الاعتقاد.
- (٣٠) القاضي عياض: الشفا.
- (٣١) المباركفوري: الرحيق المختوم.
- (٣٢) محمد بن إدريس الشافعي: الرسالة، تحقيق أحمد شاكر، ط ١.
- (٣٣) محمد حافظ الشريدة: تبسيط أحكام التجويد ط ١ مكتبة بلال نابلس فلسطين.
- (٣٤) محمد قطب: ركائز الإيمان ط ١.
- (٣٥) محمد ناصر الدين الألباني: رسالة السنة حجة بنفسها ورسالة حجة خبر الآحاد.
- (٣٦) محمد نعيم ياسين: الإيمان، ط ٣، ١٤٠٢هـ، دار التوزيع الإسلامية، مصر.
- (٣٧) محمد ولي الله عبد الرحمن الندوي: نبوءات النبي صلى الله عليه وسلم ما تحقق منها وما يتحقق، رسالة ماجستير، دار السلام ط ١٠١٤هـ مصر.
- (٣٨) مصطفى السباعي: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ط ١.
- (٣٩) مصطفى السباعي: السيرة النبوية (دروس وعبر) دار القرآن الكريم ١٤٠٠هـ.
- (٤٠) النبهاني: حجة الله على العالمين.
- (٤١) يوسف إسماعيل النبهاني: حجة الله على العالمين في معجزات سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، دار الفكر، لبنان.

ایض



محبة المصطفى ﷺ

«موجباتها، مقتضياتها، وكيفية التعبير عنها»

إعداد

د. محمد المصلح

ابيض



مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه ومن والاه إلى يوم الدين أما بعد:

فإن التعلق بالأشخاص يقوى ويزداد متانة كلما ازدادت المعرفة بهم، والاطلاع على خواص أحوالهم، والمحبة الحقيقية هي الناشئة عن إدراك خواص المحبوب.

وعندما يتعلق الأمر بالمصطفى - عليه الصلاة والسلام - فإن درجة محبته ومدى تمكنها من العقول والقلوب رهين بمقدار معرفة سيرته وشأئله وأخلاقه، مما ينشأ عنها اتباع المحبوب ﷺ، والتفاني في التآسي به.

وتأسيساً على ذلك فإن المدخل الرئيس لاكتساب هذه المحبة وتوثيق عراها في الوجدان والأذهان هو معرفته ﷺ من حيث يجب أن يعرف؛ أي من حيث كونه رسولاً للعالمين، ومعنى ذلك أن محبة المصطفى لها أسباب وموجبات عقلية وشرعية تنظمها المعرفة به وإدراك خواصه.

بيد أن تلك المعرفة وذاك الإدراك لا يكفيان لتحقيق محبة المصطفى على

الوجه المطلوب شرعا، وذلك أن هذه المحبة لا يقنع فيها بأن تبقى حبيسة الوجدان والأذهان، بل يطلب فيها شرعا أن تترجم عبر الجوارح في سلوك خاص، يتمثل أساسا في طاعة المحبوب واتباعه؛ لذلك لا بد من الوقوف على دلائل هذه المحبة وعلامات صدقها، وما تقتضيه وتستلزمه من تكاليف وتبعات؛ إذ إنه بهذه المقتضيات ومراعاتها والتزامها تحدد مواقع الأشخاص ودرجاتهم في سلم هذه المحبة، كما يحدد مدى قربهم وبعدهم منها.

ونظرا لأهمية هذه الجوانب - في نظري - في بيان حقيقة محبة المصطفى ﷺ ومدى الصدق فيها، والاتباع والابتداع في ترجمتها، آثرت تناولها في هذه الورقة، مرتكزا على المحاور الآتية:

أولاً: حقيقة المحبة في اللغة والاصطلاح.

ثانياً: حقيقة محبة المصطفى ﷺ.

ثالثاً: بواعث هذه المحبة وموجباتها.

رابعاً: علاماتها ومقتضياتها وكيفية ترجمتها في الواقع.



أولاً: المحبة لغة واصطلاحاً:

المحبة لغة:

من معاني المحبة في أصلها اللغوي: الصفاء واللزوم والثبات واللب والحفظ والإمساك^(١)، وهي معان كلها ملحوظة في المعنى الاصطلاحي للمحبة الآتي بيانه.

المحبة اصطلاحاً:

الحد التام وفق القواعد المنطقية هو المتضمن للجنس والفصل، ومعناه أن يصنف المَعْرِفُ ضمن جنسه العام، ثم يميز بما يفصله عن هذا الجنس مما هو خاص به لا يشاركه فيه غيره.

وهذا التعريف المتناول ماهية المَعْرِف يصعب استعماله في تحديد معاني الأشياء غير الملموسة، مثل الحب والكراهة، والفرح والحزن... لذلك يلجأ عادة إلى التعريف بالرسم الذي يحدد المَعْرِف بخواصه وآثاره ولوازمه؛ لبيان معاني هذه الأشياء غير الملموسة.

وبما أن المحبة تدرج في غير الملموس فإن تعريفها بالماهية يصعب تحديده؛ لذلك نلحظ على من عرفوها اعتمادهم الرسم بدل الحد، وقد جاءت عباراتهم

(١) لسان العرب (حب)، مقاييس اللغة (حب).

مختلفة في التعبير عنها تبعاً لتنوع خواصها ولوازمها، وكل واحد حاول تقريبها من حيث الخواص التي رأى أنها الغالبة فيها أو الأهم.

ومن التعريفات التي وضعت للمحبة:

١ - إثارة المحبوب على جميع المصحوب.

٢ - موافقة الحبيب في المشهد والمغيب.

٣ - مواطاة القلب لمرادات المحبوب.

٤ - استيلاء ذكر المحبوب على قلب المحب^(١).

ويلاحظ على هذه التعريفات تناولها آثار المحبة وخواصها، لا حقيقتها

وماهيتها؛ لأن ذلك مما يصعب إدراكه كما ذكرت، بيد أن القاضي عياضاً رحمته الله

حاول في كتابه (الشفاء) أن يضع حداً لحقيقة المحبة، فقال - بعد ذكر جملة من

التعريفات للمحبة - : «وأكثر العبارات المتقدمة إشارة إلى ثمرات المحبة دون

حقيقتها، وحقيقة المحبة: الميل إلى ما يوافق الإنسان...»^(٢).

لكن بما أن الميل القلبي أو العقلي أو هما معا عنصر مهم في معنى المحبة فإنه

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين، لابن القيم ص ٨، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) كتاب الشفاء ٢/ ٢٩، دار الكتب العلمية - بيروت وبهامشه: مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء

لأحمد بن محمد الشمني.



لا يكفي وحده - على ما يبدو - لتشخيص حقيقة المحبة خصوصاً في معناها الشرعي؛ لأن ما يوافق الإنسان قد لا يوافق الشرع.

وقد تنبه العلامة ابن القيم رحمه الله إلى صعوبة وضع حد للمحبة يبين الحقيقة والماهية لذلك، قال: «لا تحد المحبة بحد أوضح منها، فالحدود لا تزيدها إلا خفاء وجفاء، فحدها وجودها، ولا توصف المحبة بوصف أظهر من المحبة»^(١).

ثم ذكر رحمه الله أن الذين تكلموا على المحبة كلهم لاحظوا خصائصها وآثارها، وبناء على ذلك قربوا معناها، قال: «وإنما يتكلم الناس في أسبابها، وموجباتها، وعلاماتها، وشواهداها، وثمراتها، فحدودهم ورسومهم دارت على هذه الستة، وتنوعت بهم العبارات، وكثرت الإشارات بحسب إدراك الشخص ومقامه وملكه للعبارة»^(٢).

(١) مدارج السالكين ٩/٣، تحقيق محمد حامد الفقي الناشر دار الكتاب العربي بيروت ط الثانية.

(٢) المصدر نفسه ٩/٣.

ثانياً: محبة المصطفى ﷺ:

مما لا جدال فيه أن كل مؤمن بنبوّة محمد ﷺ ورسالته يدعي محبته، غير أن ما يميز الصادق فيها وغير الصادق هو مدى مراعاة مقتضياتها، فمن يدعيها وهو لا يراعي مقتضياتها لا يعد صادقاً فيها، وكذا من يترجمها بما يخالف مقتضياتها، لذلك لا بد من بيان ما هو شرط، ومكون أصل هذه المحبة، وما هو شرط فيها، ولا بد من تحديد عنصر الاتباع هل هو شرط للمحبة لا يتحقق أصلها دونه، أو هو شرط فيها؟

ومثار هذا التساؤل الأخير حول الاتباع هل هو شرط أو شرط؟ هو أن بعض علماء الأمة عرف المحبة بأنها اتباع، ومنهم الإمام سفيان الثوري القائل: «المحبة اتباع رسول الله ﷺ»^(١) وظاهر كلامه أن الاتباع شرط، بيد أن الراجح أن كلام الإمام الثوري معبر عن آثار المحبة لا عن حقيقتها وأصل وجودها، فيكون قد عرف المحبة بأهم آثارها وعلاماتها. ويبقى القول بأن أصل وجود محبة المصطفى هو الميل العاطفي له ﷺ هو المعول عليه، وأن الاتباع شرط لها^(٢).
وتبعاً لذلك يثار تساؤل آخر حول طبيعة هذه المحبة هل هي قلبية

(١) الشفا ٢/ ٢٩.

(٢) المصدر نفسه ٢/ ٢٩.



عاطفية؟ أو عقلية؟ أو قلبية وعقلية معاً؟

ومن خلال تعريفات السابقين لمحبة المصطفى التي هي تعريفات بالرسم لا بالحد - كما ذكرت سابقاً -، وأخذاً بالتساؤلات السابقة يمكن صياغة تعريف جامع لهذه المحبة في أعلى كمالها، كما يمكن صياغة تعريف لها في أدنى مستويات وجودها عند مدعيها.

فأما التعريف الجامع لها فهو: «الميل العاطفي والعقلي إلى رسول الله ﷺ وإيثاره على كل محبوب من الخلق، واتباع ما جاء به».

وأما التعريف المتناول لأصل وجودها فقط فهو «الميل القلبي والعقلي إلى الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام».

وتأسيساً على ذلك يتبين أن لهذه المحبة درجات، كما أن لها نواقض ومضادات.

فأدنى مستوياتها هو وجود الميل القلبي والعقلي إلى رسول الله ﷺ، بعيداً عن درجة هذا الميل وحرارته، فالذي يوجد عنده هذا الميل لرسول الله ﷺ - بعد إيمانه به نبياً ورسولاً - فهو محب لرسول الله ﷺ (ما لم ينقض هذه المحبة بما يتنافى معها مما سيأتي الحديث عنه بعد)، لكنها محبة ناقصة.

والذي يضيف إلى هذا الميل والتعلق إيثاره ﷺ وإيثار سته على مآلوفات

النفس والهوى فقد حَصَلَ درجة في هذه المحبة، وارتقى في سلمها، والذي يضيف إلى ذلك إثارة ﷺ على نفسه التي بين جنبيه، وإثارة سنته على مآلوفات النفس والهوى يكون قد ارتقى في سلم هذه المحبة إلى أعلى درجاته.

ولذلك فكل مؤمن به ﷺ له ميل إليه، فإن له نصيباً من هذه المحبة ما لم يناقضها بأن يأتي بما يتنافى معها، ويخالف مقتضياتها.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في هذا السياق: «فإن كانت المحبة متوسطة أو قريبة من ذلك كان معه (أي مع المحبوب) بحسب ذلك، وإن كانت المحبة كاملة كان معه كذلك، والمحبة الكاملة تجب معها الموافقة للمحسوب في محابه إذا كان المحب قادراً عليها، فحيث تخلفت الموافقة مع القدرة يكون قد نقص من المحبة بقدر ذلك وإن كانت موجودة...»^(١).

(١) مجموع الفتاوى، ج ١٠ ص ٧٥٢-٧٥٣، دار الوفاء ط الثالثة.



ثالثاً: بواعث محبة المصطفى وموجباتها:

هناك موجبات عقلية يقضي بها العقل السليم، وهناك موجبات شرعية قضى بها الشرع الحكيم، وذكر الموجبات العقلية ليس معناه اتخاذ العقل وحده وسيلة لإيجاب هذه المحبة؛ لأن مقتضيات العقلية غير ملزمة شرعاً، إلا إذا كانت مؤيدة بالوحي، وإنما المقصود من ذكرها هو إثبات أن هناك تطابقاً بين العقل والشرع في إقرار هذه المحبة.

١ - الموجبات العقلية لمحبة المصطفى ﷺ:

العقل السليم المسدد يوجب هذه المحبة من وجوه عدة أهمها:

أ- كونه ﷺ مبعوثاً رحمة للعالمين، مصداقاً لقوله ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. ومن تجليات هذه الرحمة إخراج البشرية من الظلمات إلى النور، ومن الضلال إلى الهدى، ومن الشقاء إلى السعادة، ومن عبادة العباد إلى عبادة رب العباد...

يقول ابن تيمية رحمه الله ﷺ في إثبات السند العقلي والجبلي لهذه المحبة: «وذلك لأنه لا نجاة لأحد من عذاب الله، ولا وصول له إلى رحمة الله إلا بواسطة الرسول ﷺ بالإيمان به، ومحبته، وموالاته، واتباعه، وهو الذي ينجي من عذاب الدنيا والآخرة، وهو الذي يوصله إلى خيري الدنيا والآخرة، فأعظم النعم وأنفعها نعمة

الإيمان، ولا تحصل إلا به ﷺ، وهو أنصح وأنفع لكل أحد من نفسه وماله، فإنه الذي يخرج الله به من الظلمات إلى النور لا طريق له إلا هو...»^(١).

ويقول القاضي عياض رحمه الله: «وأما إحسانه وإنعامه على أمته فكذا قد مر منه في أوصاف الله تعالى له من رأفته بهم، ورحمته لهم، وهدايته إياهم، وشفقته عليهم، واستنقاذهم به من النار، وأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم، ورحمة للعالمين، ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه يتلو عليهم آياته، ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويهديهم إلى صراط مستقيم... وأي إفضال أعم منفعة وأكثر فائدة من إنعامه على كافة المسلمين؟ إذ كان ذريعتهم إلى الهداية، ومنقذهم من العماية، وداعيتهم إلى الفلاح والكرامة، ووسيلتهم إلى ربهم، وشفيعهم، والمتكلم عنهم، والشاهد لهم، والموجب لهم البقاء الدائم والنعيم السرمد... فإذا كان الإنسان يجب من منحه في دنياه مرة أو مرتين معروفا أو استنقذه من هلكة أو مضرة مدة التأذي بها... فمن منحه ما لا يبديد من النعم، ووقاه ما لا يفنى من عذاب الجحيم أولى بالحب»^(٢).

فهذه المظاهر من الرحمة والإحسان تستوجب عقلاً وجبلة محبة من كان

(١) مجموع الفتاوى ٤٢٦/٢٧.

(٢) كتاب الشفا ٢/٣٠-٣١ وج ١/٥٦.



سبباً إليها، ودالاً على نيلها.


ب- كمال الخلقة وجمال الصورة:

لم تحفظ تفاصيل الصورة الخلقية لأي بشر في التاريخ كما حفظت تفاصيل صورته وهيئته ﷺ؛ فقد عرفت قسماً وجهه، ولون بشرته، وشعره، وطوله قامته، وشكل لحيته، وأنفه، وأسنانه، وطيب رائحته...

وقد حفظت لنا كتب السنة والسيرة والشئال^(١) كل هذه التفاصيل الجسدية لشخص رسول الله ﷺ، ولو استوعب المرء هذه التفاصيل والصفات لأمكنه أن يتخيل رسول الله ﷺ ويستعرض صورته أمام عينيه، وكأنه ينظر إليه.

وهذه الأوصاف الخلقة ترسم لرسول الله صورة جميلة جذابة لما تمثله من كمال الصفات الجسدية. ولا يسع المرء حين يتعرف على هذه الصفات ويقف على دقائقها إلا أن يتعلق بشخص رسول الله ويحبه^(٢)، لو قرأ المرء فقط ذلك

(١) ينظر مثلاً كتاب الشئال المحمدية للإمام أبي عيسى الترمذي.

(٢) ومن وصفوا صورة رسول الله ﷺ الخلقية: أبو هريرة، والبراء بن عازب، وعائشة، وابن أبي هالة، وابن عباس، وجابر ابن سمرة، وأم معبد، وأبو الطفيل، وحكيم بن حزام،  أجمعين.

الوصف الدقيق الرائع الذي وصفت به أم معبد^(١) ﷺ رسول الله ﷺ حين مر بها أثناء هجرته إلى يثرب، وعرف مدلولات عباراته وألفاظه لتعلق به وأحبه، واشتاق إلى رؤيته ﷺ؛ إذ الإنسان مفطور على حب الصور الجميلة. وعلى الإنسان المسلم أن يعرف هذه الأوصاف؛ لأنها من بواعث محبة المصطفى ﷺ.

ج- كماله الخُلقي ﷺ:

لقد بلغ رسول الله في مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم السقف الأعلى، بل هو الذي أتم صرح الأخلاق الحميدة، كما قال - عليه الصلاة والسلام -: «بعثت لأتم حسن الأخلاق»^(٢)، فهو مضرب مثل، وأسوة حسنة في كل خلق كريم، وخصلة حميدة، وشيمة حبيبة، ما بلغ أحد مبلغه ﷺ في حلمه، وجوده، وشجاعته، وحيائه، وتواضعه، وعدله، ووقاره، وزهده، ورجاحة عقله، وحسن

(١) هي أم معبد الخزاعية واسمها عاتكة بنت خويلد، ووصفها للنبي ﷺ مذكور في كتب السيرة والشئائل، وقد أخرجه الحاكم في المستدرک، وصححه، ووافقه الذهبي ٩/٣ - ١٠. وقال ابن كثير: وقصتها مشهورة من طرق يشد بعضها بعضاً. البداية والنهاية ٣/ ١٩٠ وحسنه الإمام الألباني رحمه الله. وقد جمع طرق قصة أم معبد الدكتور سليمان بن علي السعود في كتاب «أحاديث الهجرة: جمع وتحقيق ودراسة.

(٢) الموطأ باب حسن الخلق رقم ١٦٤٣.



عشرته، وشفقته على أمته، ورحمته بالمؤمنين، ورأفته بهم، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة التي ترجمها عليه الصلاة وسلام في سيرته وسنته.

ويكفي شهادة على كماله الخلقي قول ربنا ﷻ في حقه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]. قال القاضي عياض: «وإذا كان يجب بالطبع ملك لحسن سيرته أو حاكم؛ لما يؤثر من قوام طريقته، أو قاض بعيد الدار؛ لما يشاد من علمه أو كرم شيمته فمن جمع هذه الخصال على غاية مراتب الكمال أحق بالحب وأولى بالميل»^(١) هذه بعض البواعث والموجبات العقلية والفطرية على محبته ﷺ والتعلق به والشوق إلى لقائه.

٢- الموجبات الشرعية:

لقد وردت نصوص كثيرة توجب محبة المصطفى عليه الصلاة والسلام، وتقديمها على محبة المال والولد والنفس، منها قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ آلِهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

ومنها قوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»^(١).

ومن ذلك ما روى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال للنبي ﷺ: أنت أحب إلي - يا رسول الله - من كل شيء إلا من نفسي التي بين جنبي، فقال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه، فقال عمر: والذي أنزل عليك الكتاب لأنت أحب إلي من نفسي، فقال ﷺ: «الآن يا عمر»^(٢) أي: الآن آمنت بي حق الإيمان.

قال ابن القيم رحمه الله: «ولا يتم للمؤمنين مقام الإيمان حتى يكون رسول الله ﷺ أحب إليهم من أنفسهم، فضلاً عن أبائهم وآبائهم»^(٣).
فهذه النصوص وغيرها تدل على وجوب محبة النبي ﷺ وعلى أن الإيمان به ﷺ لا يكتمل إلا بها، وهي من حقوقه ﷺ على كل فرد آمن به.

-
- (١) البخاري كتاب الإيمان، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان، رقم ١٤، ومسلم كتاب الإيمان، باب وجوب محبة آله ﷺ أكثر من الأهل والوالد والولد... رقم ٧٠.
- (٢) البخاري، باب الأيمان والنذر، رقم ٦٢٥٧.
- (٣) روضة المحبين ص ٢٧٦.



رابعاً: علاماتها ومقتضياتها وكيفية ترجمتها في الواقع:

كل دعوى لا تقوم على دليل فأصحابها أدياء، إن محبة المصطفى ﷺ لها علامات تعرف بها، ومقتضيات تستلزمها إن لم تتحقق كانت هذه المحبة دعوى بلا دليل. ومن أهم علاماتها ومقتضياتها:

١- اتباعه ﷺ وطاعته في كل ما جاء به. إن أقوى شاهد على صدق المحب موافقته للمحبوب، فالمحب مطيع للحبيب، ومن أهم علامات محبة المصطفى ﷺ اتباعه ﷺ، وتحكيم سنته في الشأن الخاص والعام، ويترتب على ذلك أمران مهمان:

أ- إن الذي يدعي محبة المصطفى إذا لم يترجمها في سلوكه بالتأسي به ﷺ فهو غير صادق في هذه المحبة، يقول القاضي عياض رحمه الله: «اعلم أن من أحب شيئاً أثره وآثر موافقته، وإلا لم يكن صادقاً في حبه، وكان مدعياً، فالصادق في حب النبي ﷺ من تظهر علامة ذلك عليه وأولها الاقتداء به، واستعمال سنته، واتباع أقواله وأفعاله، وامثال أوامره، واجتناب نواهيه، والتأدب بآدابه في عسره ويسره، ومنشطه ومكرهه، وشاهد ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]^(١).

ب- إن الذي يدعي هذه المحبة ويعبر عنها بما يتنافى مع سنته ﷺ لا يكون محبا في ميزان الشرع، بل هو مبتدع مخالف لمقتضى هذه المحبة، إن هذا الشخص قد يكون صادقا في محبته العاطفية للمصطفى ﷺ، لكنه بتجاوزه لمقتضياتها في التعبير عنها يكون قد خرم هذه المحبة وناقضها.

إن التعبير عن محبة المصطفى لا يخضع للأذواق والأهواء والانفعالات. لا يجوز للمرء أن يعبر عن هذه المحبة بما يشاء، ويترجمها في سلوكه كيف يشاء؟

إن ما يخترعه بعض الأشخاص والطوائف من المسلمين من البدع والأوهام مدعين أن لهم محبة زائدة لرسول الله ﷺ، ويتخذون ذلك وسيلة للتعبير عن هذه المحبة، فإن الشرع لا يقره؛ لأن الشرع لم يعط الإنسان حرية التعبير عن عواطفه ومشاعره وتلبية دواعيها بأي طريقة شاء، بل هذب هذه العواطف والمشاعر، ووضع ضوابط وشروطا للتعبير عنها، وتلبية دواعيها. فالإنسان مثلا يجب المال وتتعلق به نفسه، والشرع يقدر هذا الحب للمال وتعلق النفس به، لكنه لم يبح للإنسان أن يكتسبه بأي طريقة شاء، بل وضع له حدودا وضوابط يجب عليه أن يحترمها.

والرجل مجبول على حب المرأة والتعلق بها، وقد أقر الشرع هذا الحب، بيد



أنه لم يبح للرجل أن يستجيب لدواعي هذه المحبة ويلبّيها كيف يشاء؟ بل حدد له طريقة واحدة لإشباع مقتضاها الضاغطة هي الزواج الشرعي. هكذا محبة المصطفى ﷺ حدد الشرع للتعبير عنها وترجمتها كيفية خاصة هي الانضباط بسنته ﷺ والالتزام بها.

٢- تعزيره وتوقيره ﷺ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في بيان معنى التعزير والتوقير: «التعزير اسم جامع لنصره وتأنيده، ومنعه من كل ما يؤذيه، والتوقير اسم جامع لكل ما فيه سكينه وطمأنينة من الإجلال والإكرام، وأن يعامل من الشرف والتكريم والتعظيم بما يصونه عن كل ما يخرج عنه عن حد الوقار»^(١).

وهذه النصرة والتأييد والإجلال والاحترام تجب له ﷺ في حياته وبعد وفاته.

ومن مظاهر نصرته وتأنيده وإجلاله بعد وفاته الانتصار لسنته، والذود عنها وخدمتها، وعدم تقديم شيء من الآراء عليها، والتأدب بآدابه، والصلاة عليه، وإظهار الخشوع والانكسار عند ذكر اسمه.

(١) الصارم المسلول على شاتم الرسول، ص ٤٢٢.

٣- حب من أحبه المصطفى ﷺ، وبغض من أبغضه ومعاداة من عاداه.
من مقتضيات محبة المصطفى - عليه الصلاة والسلام - حب من كان رسول الله
يحبّه، وبغض من كان يبغضه ومعاداة من كان يعاديه.

ومن أحبهم النبي ﷺ وأمر بحبهم:

أ- آل بيته: فهؤلاء تجب محبتهم بمقتضى محبة محمد ﷺ، وبمقتضى أمر
النبي ﷺ، بمحبتهم، فمحبتهم واجبة بيد أنها محبة تشرع لا محبة تشيع.

ب- الصحابة رضي الله عنهم: من علامات محبة المصطفى ومقتضاها حب صحابته
الكرام كلهم دون استثناء، وتوقيرهم واحترامهم، فلا يجوز بغض أحدهم أو
تنقصه أو تناوله بسوء باسم حرية البحث والنقد أو تحت أي عنوان؛ لأن كل
ذلك مخالف لمقتضيات محبة المصطفى ﷺ. يقول القاضي عياض رحمه الله: «ومن
توقيره وبره ﷺ توقير أصحابه وبرهم، ومعرفة حقهم، والاقتداء بهم، وحسن
الثناء عليهم، والاستغفار لهم، والإمساك عما شجر بينهم، ومعاداة من عاداهم،
والإضراب عن أخبار المؤرخين وجهلة الرواة وضلال الشيعة والمبتدعين
القاذحة في واحد منهم...»^(١).



وفي الصحيحين أن النبي ﷺ قال «لا تسبوا أحداً من أصحابي فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه»^(١).

ويكفيهم فضلاً وعدلاً أن الله تعالى رضي عنهم ووعدهم بالحسنى التي هي الجنة، فقال - جل من قال -: ﴿وَالسَّيْقُوتَ الْأُولُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقال - أيضاً -: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيَّتِكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتْلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ [الحديد: ١٠].

فبغض أحد هؤلاء الصحابة أو تنقصه أو ذكره بسوء، أو تجريحه، كل ذلك يعتبر مخالفة لما تستوجهه محبته ﷺ.

ج- حب عموم المؤمنين: وصف الله تعالى رسوله الكريم في علاقته بالمؤمنين به بأنه رؤوف رحيم، وبأنه لين القلب واللسان لهم، فقال ﷺ: ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

(١) البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً»، رقم الحديث ٣٧١٧. ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب تحريم سب الصحابة، حديث رقم ٢٥٤١.

فهذه شهادة الله تعالى لنبيه بأنه كان شديد الرحمة والمودة للمؤمنين به، وكان يحس ألماً في قلبه إذا أصيب أحد من هؤلاء بأذى أو مكروه ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: ١٢٨].

فمحنة المصطفى ﷺ تستلزم محبة المؤمنين به، لأنه أحبهم وسعى إلى رحمتهم والرافة بهم.

د- حب أمته ﷺ وتقديم النصح لها: كان رسول الله ﷺ شديد المحبة لأمته، وحريصاً على التخفيف والتيسير عليها. من شواهد ذلك:

- قوله ﷺ: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة»^(١).

- قوله ﷺ: «لكل نبي دعوى مستجابة يدعوبها، وأريد أن أختبئ

دعوتي شفاعاً لأمتي في الآخرة»^(٢).

- قوله ﷺ: «يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا»^(٣).

(١) البخاري، كتاب الجمعة، باب السواك يوم الجمعة رقم ٨٩٥. ومسلم، كتاب الطهارة، باب السواك رقم ٦١٢.

(٢) البخاري، كتاب الدعوات، باب لكل نبي دعوة مستجابة رقم ٥٩٤٥. ومسلم في كتاب الإيمان، باب اختباء النبي ﷺ دعوة الشفاعة لأمته رقم ١٩٨.

(٣) البخاري، كتاب العلم، باب ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا رقم ٦٩. ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب الأمر بالتيسير وترك التنفير.



فهذه الأحاديث وغيرها تدل على أن النبي ﷺ أحب أمته حباً شديداً، ومقتضى ذلك أن محبته ﷺ تستلزم محبة أمته، وتقديم النصح لها، والسعي إلى رفع المعاناة عنها، والاهتمام بشأنها، والاعتزاز بالانتماء إليها...
فالمسلم الذي يبغض أمة محمد ﷺ أو يحتقرها، أو يسعى إلى كسر شوكتها، وتشتيت شملها، وتفريق كلمتها ووحدتها، أو يعين عليها عدوها يعد شرعاً غير صادق في محبته للمصطفى ﷺ؛ لأن المحبة الصادقة تقتضي موافقة المحبوب فيما يحبه ويكرهه.

هذه بعض علامات محبة المصطفى وبعض مقتضياتها.

خاتمة

وخلاصة ما سبق أن محبة المصطفى ﷺ لها أسباب وموجبات عقلية وشرعية، ولها علامات ومقتضيات، وأن الطريق الصحيح لاكتسابها هو إدراك تلك الموجبات والأسباب ومعرفتها، وكلما ازداد المرء معرفة بتلك الأسباب وإدراكاً لها ازداد معرفة برسول الله ﷺ واقترباً منه، وكلما ازداد معرفة به ازداد محبة له ﷺ وتعلقاً به وشوقاً إلى لقائه.

ثم إن هذه المحبة الناشئة عن المعرفة لا تكتمل إلا بترجمتها في السلوك بطاعة المحبوب ﷺ واتباعه، ومراعاة جميع مقتضياتها ومستلزماتها، وتجنب خوارمها ونواقضها المذكورة.

وصل اللهم وسلم على الحبيب المصطفى ما تعاقب الليل والنهار.



محبة النبي ﷺ

إعداد

د. رضا بوشامة

أستاذ الحديث بجامعة الأمير عبد القادر الإسلامية - قسنطينة - الجزائر

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

أما بعد:

فإن من إحسان الله إلى هذه الأمة أن بعث فيها نبيَّه محمداً الذي اصطفاه واجتباؤه، وجعله خاتم الرسل، وحبَّه إلى أوليائه المتقين، بل جعل محبتهم له دليلاً على إيمانهم وتقواهم، فأوجب عليهم تعظيمه وتعزيزه وتوقيره ومحبته وتقديمها على كلِّ المحاب، فقام المسلمون بأداء ما افترضه الله عليهم من محبة نبيه وتوقيره وإكرامه وبره واتباعه وطاعته حق قيام، وظهر من حبهم لرسول الله ﷺ ما جعلهم يقدون به بكل عزيز وغال، ويؤثرونه على الأهل والأوطان والأموال، حتى باعوا أنفسهم وأموالهم لرب العالمين. نصرة لدينه، ودفاعاً عن نبيه ﷺ، ونشراً لهذا الدين في العالمين، فرضي الله عنهم أجمعين.

وقد وردت أحاديث كثيرة في السنة المطهرة فيها البيان الوافي لعظم هذه

المحبة، وكيف تكون وتثبت، وما أعدّه الله تعالى لمحبيه من النعيم، وفي هذا البحث المتواضع أذكر في مستهله بعض الأحاديث الواردة في ذلك، ثم أردفه ببعض الفصول، وهي:

- معنى المحبة لغة واصطلاحاً.

- وجوب محبة النبي ﷺ.

- أقسام محبته ﷺ.

- البواعث على محبته ﷺ.

- أسباب زيادة محبته ﷺ.

- علامات ومظاهر محبته ﷺ.

- ثمار المحبة.

- بعض مظاهر الغلو في ادعاء محبته ﷺ.

- الخاتمة، وفيها ذكر بعض التوصيات والمقترحات.

أسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن أحبه حقَّ المحبة، واتبعه حقَّ الاتباع.



الأحاديث

أخرج البخاري ومسلم بسنديهما عن أنس قال: قال النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين»^(١).

وروى البخاري بسنده عن عبد الله بن هشام قال: «كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال له عمر: يا رسول الله، لأنت أحبُّ إليَّ من كلِّ شيءٍ إلاَّ من نفسي. قال النبي ﷺ: لا والذي نفسي بيده، حتى أكون أحبَّ إليك من نفسك، قال له عمر: فإنه الآن والله لأنت أحبُّ إليَّ من نفسي. فقال النبي ﷺ: الآن يا عمر»^(٢).

وأخرج عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يُحِبَّ المرء لا يحبُّه إلاَّ الله، وأن يكره أن يعودَ في الكفر كما يكره أن يُقذف في النار»^(٣).

(١) صحيح البخاري (١٥)، وصحيح مسلم (٤٤)، ومسند الإمام أحمد (١٢٨١٤).

(٢) صحيح البخاري (٦٦٣٢)، ومسند الإمام أحمد (١٨٠٤٧).

(٣) صحيح البخاري (١٦)، وصحيح مسلم (٤٣)، ومسند الإمام أحمد (١٢٠٠٢).

وأخرج البخاري بسنده عن أنس رضي الله عنه: «أن رجلاً سأل النبي ﷺ متى الساعة يا رسول الله؟ قال: وماذا أعددت لها؟ قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكنني أحب الله ورسوله، قال: أنت مع من أحببت»^(١).
وفي رواية: «قال: وماذا أعددت لها؟ قال: لا شيء، إلا أنني أحب الله ورسوله ﷺ فقال: أنت مع من أحببت». قال أنس: «فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي ﷺ: أنت مع من أحببت». قال أنس: «فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكر وعمر وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم، وإن لم أعمل بمثل أعمالهم»^(٢).

(١) صحيح البخاري (٦١٧١)، وصحيح مسلم (٢٦٣٩)، ومسند الإمام أحمد (١٢٧٦٢).

(٢) صحيح البخاري (٣٦٨٨)، وصحيح مسلم (٢٦٣٩)، ومسند الإمام أحمد (١٣٣٧١).

١. معنى المحبة لغة واصطلاحاً:

المحبة لغة:

الحُبُّ نَقِيضُ البُغْضِ، والحُبُّ الودادُ والمَحَبَّةُ وكذلك الحُبُّ بالكسر.

وذكر ابن القيم أنَّ كلمة المحبة مشتقة من عدة أمور، منها:

١ - الصفاء والبياض، ومنه قول العرب لصفاء بياض الأسنان ونضارتها:

حَبَبُ الأسنان.

٢ - العلو والظهور ومنه الحَبَابُ، وهو ما يعلو الماء عند المطر الشديد.

٣ - اللزوم والثبات، ومنه حَبَّ البعيرُ وأَحَبَّ إذا بَرَكَ ولم يقم.

٤ - القلق والاضطراب، ومنه القرط، سمي حَبًّا لقلقه واضطرابه في

الأذن.

٥ - الحفظ والإمساك ومنه الحُبُّ، وهو إناء واسع، إلى غير ذلك من

الأمر المذكورة لأصل اشتقاق هذه الكلمة^(١).

المحبة اصطلاحاً:

قال ابن القيم: «لا تُحَدُّ المحبةُ بحدٍّ أوضح منها، فالحدود لا تزيدها إلا

(١) انظر: لسان العرب مادة (حب)، القاموس المحيط (باب الباء فصل الحاء)، روضة المحيين

خفاء وجفاء، فحُدُّها وجودها، ولا توصف المحبة بوصف أظهر من المحبة،
وإنَّما يتكلَّم الناس في أسبابها، وموجباتها، وعلاماتها، وشواهداها، وثمراتها،
وأحكامها، فحدودهم ورسومهم دارت على هذه الستة، وتنوّعت بهم العبارات
وكثرت الإشارات، بحسب إدراك الشخص ومقامه وحاله وملكه للعبارة»^(١).
وقال ابن حجر: «وحقيقة المحبة عند أهل المعرفة من المعلومات التي لا
تُحدُّ، وإنَّما يعرفها من قامت به وجداناً لا يمكن التعبير عنه»^(٢).

(١) مدارج السالكين (٩/٣).

(٢) فتح الباري (١٣/٥٩٥).



٢. وجوب محبة النبي ﷺ:

دلَّت الأحاديث الماضية أنَّ محبته ﷺ من أعظم الواجبات المقدَّمة، وأنَّ المؤمن حقَّ الإيمان يقدم محبَّته على كلِّ محبوب، ولو كان أباه وابنه ونفسه، وجاء ما يدل على ذلك أيضًا في كتاب الله تعالى حيث قال عز من قائل: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرْتَضُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

قال القاضي عياض: «كفى بهذه الآية حصًّا وتنبيهًا ودلالة وحجة على لزوم محبته ووجوب فرضها واستحقاقه لها ﷺ؛ إذ قرَّع تعالى من كان ماله وأهله وولده أحب إليه من الله ورسوله وأوعدهم بقوله تعالى: ﴿فَتَرْتَضُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ﴾، ثم فسَّتهم بتمام الآية، وأعلمهم أنَّهم ممن ضلَّ ولم يهده الله»^(١).

فمَن آمن به واتبعه وأحبه وقَدَّمه على كل حظوظه نال النصيب الوافر من قول الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِمْ لِيَرْجِعُوا فِي قُلُوبِهِمْ وَلِيُنْذِرُوا أُمَّمَاتَهُمْ وَلِيَتَذَكَّرُوا أُولَى الْأَلْبَابِ﴾ [الأحزاب: ٦]، لذا كان صحابة رسول الله ﷺ أعظم الناس حبًّا له وإيثارًا لجميع محابهم.

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/ ٥٦٣).

فمن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: «... ما كان أحد أحبَّ إليَّ من رسول الله ﷺ، ولا أجلَّ في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً له، ولو سُئلت أن أصفه ما أطق؛ لأنِّي لم أكن أملأ عيني منه»^(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إنَّه أخبر أنَّه أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن حقه أنَّه يجب أن يُؤثره العطشان بالماء، والجائع بالطعام، وأنَّه يجب أن يُوقَى بالأنفس والأموال، كما قال ﷺ: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ [التوبة: ١٢٠]. فَعَلِمَ أَنَّ رَغْبَةَ الْإِنْسَانِ بِنَفْسِهِ أَنْ يَصِيبَهُ مَا يَصِيبُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْمَشَقَّةِ مَعَهُ حَرَامٌ.

وقال تعالى مخاطباً للمؤمنين فيما أصابهم من مشقات الحصر والجهاد: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وَمِنْ حَقِّهِ: أَنْ يَكُونَ أَحَبَّ إِلَى الْمُؤْمِنِ مِنْ نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَجَمِيعِ الْخَلْقِ، كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ... الآية [التوبة: ٢٤]،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٢١).



مع الأحاديث الصحيحة المشهورة كما في الصحيح من قول عمر: «يا رسول الله لأنت أحب إليّ من كلّ شيء إلّا من نفسي فقال: لا يا عمر! حتى أكون أحبّ إليك من نفسك. قال: فأنت والله يا رسول الله أحب إليّ من نفسي. قال: الآن يا عمر»، وقال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين» متفق عليه.

ومن ذلك: أن الله أمر بتعزيزه فقال: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٩]، والتعزيز: اسم جامع لنصره وتأييده ومنعه من كلّ ما يؤذيه. والتوقير: اسم جامع لكلّ ما فيه سكينه وطمأنينة من الإجلال والإكرام، وأن يعامل من التشريف والتكريم والتعظيم بما يصونه عن كلّ ما يخرجّه عن حدّ الوقار^(١).

(١) الصارم المسلول (٣/٨٠٢-٨٠٣).

٣. أقسام محبته ﷺ:

ذكر بعض أهل العلم أنَّ محبته ﷺ تنقسم إلى قسمين، إحداهما واجبة على كلِّ من آمن بشريعته وصدق به، والثانية هي لأهل سنَّته المختصين به.

قال ابن رجب رحمته الله: «وأما محبة الرسول: فتنشأ عن معرفته ومعرفة كماله وأوصافه وعظم ما جاء به، وينشأ ذلك في معرفة مرسله وعظمته - كما سبق -، فإنَّ محبة الله لا تتم إلا بطاعته، ولا سبيل إلى طاعته إلا بمتابعة رسوله، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

ومحبة الرسول على درجتين أيضاً:

إحداهما: فرض، وهي ما اقتضى طاعته في امثال ما أمر به من الواجبات، والانتهاء عما نهى عنه من المحرَّمات، وتصديقه فيما أخبر به من المخبرات، والرضا بذلك، وأن لا يجد في نفسه حرجاً مما جاء به، ويسلم له تسليماً، وأن لا يتلقى الهدى من غير مشكاته، ولا يطلب شيئاً من الخير إلا مما جاء به.

الدرجة الثانية: فضل مندوب إليه، وهي: ما ارتقى بعد ذلك إلى اتباع سنَّته وآدابه وأخلاقه، والافتداء به في هديه وسنَّته، وحسن معاشرته لأهله وإخوانه، وفي التخلص بأخلاقه الظاهرة في: الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، وفي جوده وإيثاره وصفحه وحلمه واحتماله وتواضعه، وفي أخلاقه الباطنة من:



كمال خشيته لله ومحبته له وشوقه إلى لقائه، ورضاه بقضائه، وتعلق قلبه به دائماً، وصدق الالتجاء إليه والتوكل والاعتماد عليه، وقطع تعلق القلب بالأسباب كلّها، ودوام لهج القلب واللسان بذكره، والأنس به والتنعم بالخلوة بمناجاته، ودعائه وتلاوة كتابه بالتدبر والتفكير.

وفي الجملة: فكان خُلِّقه القرآن، يرضى لرضاه ويسخط لسخطه، فأكمل الخلق مَنْ حَقَّق متابعتَه وتصديقَه قولاً وعملاً وحالاً...»^(١).

(١) فتح الباري لابن رجب (١/٥٣).

٤. البواعث على محبته ﷺ:

بواعث وأسباب محبته ﷺ كثيرة جداً، وأهمها:

١ - أَنَّ محبَّته تابعةٌ لمحبة الله ﷻ وتعظيمه والإيمان به، قال ابن القيم: «وكلُّ محبةٍ وتعظيمٍ للبشر فإنَّما تجوز تبعاً لمحبة الله وتعظيمه، كمحبة رسوله وتعظيمه، فإنَّها من تمام محبة مُرسِلِه وتعظيمه، فإنَّ أُمَّته يحبُّونه لمحبة الله له، ويعظمُّونه ويجلُّونه لإجلال الله له، فهي محبة لله من موجبات محبة الله، وكذلك محبة أهل العلم والإيمان ومحبة الصحابة رضي الله عنهم وإجلالهم، تابعٌ لمحبة الله ورسوله لهم»^(١).

وتتضح محبة الله لنبيه وإجلاله وتعظيمه له أن جعله من المرسلين، واصطفاه على الخلائق أجمعين، وارتضاه لمقام الرسالة والنبوة، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وكذلك ما أوتيهِ ﷺ من الفضائل الكثيرة والمتنوعة في الدنيا والآخرة، من القرآن الذي هو كلام الله تعالى أنزله على نبيِّه، والشفاعة العظمى يوم القيامة، وغير ذلك مما اختصَّ به على سائر الخلق.

(١) جلاء الأفهام (ص ٢٠٥).



٢ - كمال رأفته ورحمته بأمته:

وهو ﷺ الرؤوف الرحيم كما وصفه بذلك المولى الكريم في قوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وأخرج الشيخان من حديث عبد الله بن زيد قال: «لما أفاء الله على رسوله ﷺ يوم حنين قسم في الناس في المؤلفة قلوبهم ولم يُعط الأنصار شيئاً، فكأنهم وجدوا إذ لم يُصِبهُم ما أصاب الناس، فخطبهم رسول الله ﷺ فقال: يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلّالاً فهداكم الله بي، وكنتم متفرّقين فألّفكم الله بي، وعالّة فأغناكم الله بي؟ كلّما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمّن. قال: ما يمنعكم أن تحيّبوا رسول الله ﷺ؟ قال: كلّما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمّن. قال: لو شئتم قلتم: جئتنا كذا وكذا. ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وتذهبون بالنبي ﷺ إلى رحالكُم؟ لولا الهجرة، لكنت امرأة من الأنصار، ولو سلك الناس وادياً وشعباً لسلكت وادي الأنصار وشعبها. الأنصار شعار، والناس دثار. إنكم ستلقون بعدي أثرة، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض»^(١).

(١) صحيح البخاري (٤٣٣١)، وصحيح مسلم (١٠٦١).

ومظاهر رأفته وحبه ورحمته بأمته ﷺ كثيرة جداً، فهو الذي بين وجاهد في الله حقَّ جهاده؛ ليوصل الخير لهذه الأمة المرحومة، فحريٌّ بالمؤمن أن يحبّه ويعظمه ويعزّره.

٣- كمال نصحه وإحسانه لأمته.

والإنسان مطبوع على حب مَنْ أحسن إليه وأسدَى إليه معروفاً، كما قال الشاعر:

أَحْسِنَ إِلَى النَّاسِ تَسْتَعْبِدُ قُلُوبَهُمْ * فطالما استعبد الإنسان إحساناً^(١)
وإحسانه إلى هذه الأمة بأن بلغها رسالة ربها حقَّ البلاغ، وبين لها سعادتها في الدنيا والآخرة، وأخرج الناس من الظلمات إلى النور، يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وقال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَادْكُرُونِي أَدْكُمْ وَإِلَىٰ وَلَا تَكْفُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥١ - ١٥٢].

(١) عنوان الحكم لأبي الفتح البستي (ص ٢٤).



لذا كان صحابته أعظم الناس حبًّا له؛ لما عرفوا من كمال نصحه لهم، وأنه السبب في إخراجهم من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد والإيمان.

٤ - كمال أخلاقه الشريفة، وصفاته الحميدة.

فقد كان محبوباً إلى الناس قبل بعثته لما اتصف به من الأخلاق العالية، وازداد حبُّ الناس له بعد البعثة لما عرفوه به من صدق الحديث والأمر بالخير، فكسب قلوب الناس بما كان يتصف به من حسن الخلق والتعامل الحسن مع أصحابه، بل ومع مَنْ عاداه وأظهر بغضه، فدانت له الأمم وعُرف لدى سائر الملل والنحل بأنه على خُلُقٍ عظيم، صلوات ربي وسلامه عليه.

قال معاوية بن الحكم السلمي وكان حديث عهد بجاهلية فأسلم، وجاء في وفد إلى رسول الله ﷺ قال: «بينا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجلٌ من القوم، فقلت: يرحمك الله. فرماني القومُ بأبصارهم، فقلت: واثكل أميَّاه! ما شأنكم تنظرون إليَّ؟! فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يُصمِتُونِي لَكِنِّي سَكَتُ، فَلَمَّا صَلَّى رسول الله ﷺ - فبأي هو وأمي - ما رأيتُ معلماً قبله ولا بعده أحسنَ تعليماً منه؛ فوالله ما كهرني، ولا ضربني، ولا شتمني، قال: إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةُ لَا يَصْلَحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّما هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ - أَوْ كَمَا قَالَ رسول الله ﷺ - قلت: يَا رَسُولَ

الله! إنِّي حديثُ عهد بجاهلية، وقد جاء الله بالإسلام، وإنَّ منَّا رجالاً يأتون الكهان؟ قال: فلا تأثم. قال: ومنَّا رجال يتطيَّرون؟ قال: «ذاك شيء يجدونه في صدورهم فلا يصدَّنهم....» الحديث^(١).

وأمثلة أخلاقه الشريفة العالية كثيرة جداً، بل كان خلقه القرآن، وهو أعلى الخلق أخلاقاً.

(١) صحيح مسلم (٥٣٧).



٥. أسباب زيادة محبته ﷺ:

لا شكَّ أنَّ كلَّ مسلم آمن بالله تعالى ربًّا وبالنبي ﷺ رسولاً يحبُّ هذا النبيَّ الكريم، إلَّا أنَّ هذه المحبة تتفاوت بتفاوت الأسباب الجالبة لها؛ من معرفته ومعرفة سيرته، وتعلُّم سنَّته وتطلُّبها، والافتداء به، قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «فكلُّ مسلم في قلبه محبةٌ لله ورسوله، لا يدخل في الإسلام إلَّا بها، والناس متفاوتون في درجات هذه المحبة تفاوتاً لا يحصيه إلَّا الله»^(١).

ومن هذه الأسباب المعينة على جلب المحبة إلى قلب العبد:

١ - معرفته ومعرفة سيرته:

وهذا من أعظم طرق جلب محبته ﷺ وزيادتها، فمن عرفه وعرف سيرته وأيامه، وما كان عليه في جهاده لتبليغ هذا الدين، وما عانى من صدِّ المشركين له، والتفاف الأحزاب حوله، ومحاولة قتله وإيقاف دعوته، وغير ذلك من الأمور التي تُعرف من خلال سيرته المليئة بالشجاعة والإقدام والجهاد، أحبه ﷺ، وكذا معرفة ما كان عليه من جميل الأخلاق والعادات والشيم.

٢ - تعلم سنَّته والسؤال عنها.

والمحبُّ دائماً يسأل عن أحوال محبوبه، وما كان عليه من الأعمال ليقتردي

(١) الداء والدواء (ص ٥٤٩).

به ويسلك مسلكه، كيف وقد قُرن بهذا الحبيب الأمر بطاعته واتباع سنته، فحرِيٌّ بمن يحبه أن يسأل عما كان عليه ويتعلَّم أقواله وأفعاله ليقْتدي به.

٣ - كثرة ذكره والسلام عليه ﷺ، فمن أحبَّ محبوباً أكثر ذكره، وقد شرع الله ﷻ عند ذكر الحبيب أن يصلِّي عليه، بل البخيل كلُّ البخيل من ذكر عنده فلم يصل عليه كما أخبر بذلك النبي ﷺ، وازدياد محبته في قلب المؤمن تكون بكثرة ذكره والصلاة عليه، قال ابن القيم رحمه الله بعد أن ذكر فوائد الصلاة عليه: «إنَّها سبب لدوام محبَّته للرسول ﷺ وزيادتها وتضاعفها، وذلك عقد من عقود الإيمان الذي لا يتم إلَّا به؛ لأنَّ العبد كلَّما أكثر من ذكر المحبوب، واستحضاره في قلبه، واستحضار محاسنه ومعانيه الجالبة لحبِّه، تضاعف حبُّه وتزايد شوقه إليه، واستولى على جميع قلبه، وإذا أعرض عن ذكره وإخطاره وإخطار محاسنه بقلبه، نقص حبُّه من قلبه. ولا شيء أقرُّ لعين المحبِّ من رؤية محبوبه، ولا أقرَّ لقلبه من ذكره وإخطاره وإخطار محاسنه، فإذا قوي هذا في قلبه جَرَى لسانه بمدحه والثناء عليه، وذكر محاسنه، وتكون زيادة ذلك ونقصانه بحسب زيادة الحب ونقصانه في قلبه، والحسُّ شاهد بذلك، حتى قال بعض الشعراء في ذلك:

عجبت لمن يقول: ذكرت حَبِّي * وهل أنسى، فأذكر؟! مَا نَسِيت



فتعجب هذا المحبُّ من يقول: ذكرتُ محبوبِي؛ لأنَّ الذِّكرَ يكون بعد النسيان، ولو كمل حب هذا لما نسي محبوبه.

وقال آخر^(١):

أريد لأُنسى ذكْرَها فكَأَنَّمَا * تَمَثَّلَ لِي لَيْلٍ بِكُلِّ سَبِيلٍ
فهذا أخبر عن نفسه أن محبَّته لها مانعٌ له من نسيانها.

وقال آخر^(٢):

يُرَادُ مِنَ الْقَلْبِ نَسْيَانَكُمْ * وَتَأْبَى الطَّبَاعُ عَلَى النَّاقِلِ
فأخبر أن حبَّهم وذكرهم قد صار طبعا له، فمن أراد منه خلاف ذلك أبت عليه طباعه أن تنتقل عنه، والمثل المشهور: «من أحبَّ شيئا أكثر من ذكره»^(٣)، وفي هذا الجناب الأشرف أحق ما أنشد:

لَوْ شَقَّ عَنْ قَلْبِي فَرَى وَسْطَهُ * ذَكَرَكَ وَالتَّوْحِيدَ فِي سَطْرِ
فهذا قلبُ المؤمن: توحيد الله وذكرُ رسوله مكتوبان فيه، لا يتطرَّق إليهما محوٌ ولا إزالة...»^(٤).

(١) ديوان كُتَيْبِ عَزَّة (ص ١٠٨).

(٢) ديوان المتنبي (٢/٢٦).

(٣) مجمع الأمثال للميداني (٢/٣٢٩).

(٤) جلاء الأفهام (ص ٥٢٥).

٤ - حبُّ لقياه والشوق إلى رؤيته.

فكلُّ حبيب يُحب لقاء حبيبه والاجتماع به، والمؤمن الذي فاتته رؤية النبي ﷺ في هذه الحياة يرجو من الله أن يجعله ممن يلتقي به في دار القرار، ويحُنُّ إلى ذلك ويشتاق إليه، ويسأل ربَّه سبحانه أن يميتَه على الإيمان وحبِّ النبيِّ ولد عدنان، وقد أخبر ﷺ أنه سيوجد في هذه الأمة أناس يأتون بعده يودُّ أحدهم أن يفتدي بكلِّ ما يملك من أجل رؤيته والنظر إلى ذاته الشريفة ﷺ، وهم من أشدَّ الناس وأعظمهم حبًّا له ﷺ، فعن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «من أشدَّ أمتي لي حبًّا، ناسٌ يكونون بعدي، يودُّ أحدهم لو رآني، بأهله وماله»^(١).

وهذا من كمال حبه والشوق إليه، لذلك جاء عن كثير من صلحاء هذه الأمَّة تمنى الموت من أجل لقاء حبيبهم ﷺ، مثل ما روي عن خالد بن معدان وهو من التابعين الذين لم يدركوا زمنه ﷺ تقول ابنته عبدة بنت خالد بن معدان: «قلَّ ما كان خالد يأوي إلى فراش مَقبله إلَّا وهو يذكر فيه شوقه إلى رسول الله ﷺ وإلى أصحابه من المهاجرين والأنصار، ثم يسميهم ويقول:

(١) صحيح مسلم (٢٨٣٢).



هم أصلي وفصلي وإليهم يحنُّ قلبي، طال شوقي إليهم، [فعجّل] ربي قبضي
إليك، حتى يغلبه النوم وهو في بعض ذلك»^(١).

(١) تاريخ دمشق (١٦/١٩٩).

٦ . علامات محبته ﷺ ومظاهرها:

وأما العلامات الدالة على حبِّ العبد لنبيه ﷺ فبينها الله تعالى في كتابه وأقامها الصحابة رضوان الله عليهم من خلال مؤازرتهم وتوقيرهم ودفاعهم عن نبيهم ﷺ، وأعظم تلك العلامات وضوحاً:

١ - طاعته واتباعه والعمل بسنته.

وطاعة الرسول ﷺ أوجبها الله تعالى في كتابه في آيات كثيرة، ويَبَيِّنُ أَنَّ طاعته من طاعة الله، وعصيانَه من عصيان الله، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢]، وقال: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ [النساء: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَاكَ الرَّسُولُ فَخُذْهُ وَمَا نَهَيْكُم عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، وهذه الآية الكريمة حاكمة على كل مَنْ ادَّعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمَّدية، فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأحواله، إلى آيات كثيرة في وجوب طاعة الرسول ﷺ واتباعه.



فغاية أقواله ﷺ وأفعاله أن تكون بياناً لحكم سكت عنه الكتاب، أو تقييداً لحكم أطلقه، أو بياناً لمجمله، ولا سبيل إلى مقابلة هذه السنة إلا بالسمع والطاعة والإذعان والقبول، وليس لنا بعده الخيرة، بل الخيرة كلّ الخيرة في التسليم له والقول به، واعتقاد أنّ سنته وحيّ من الله.

وورد عنه ﷺ أحاديث كثيرة أنّه لا بد من الاحتكام لأمره، وأنّ من مظاهر محبته الاقتداء به واتباع أمره فعن جابر بن عبد الله يقول: «جاءت ملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم فقال بعضهم: إنّهُ نائم وقال بعضهم إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: إنّ لصاحبكم هذا مثلاً فاضربوا له مثلاً، فقال بعضهم: إنّهُ نائم وقال بعضهم: إنّ العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: مثله كمثل رجل بنى داراً، وجعل فيها مائدة وبعث داعياً فمّن أجاب الداعي دخل الدار، وأكل من المائدة، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار، ولم يأكل من المائدة، فقالوا: أوّلوها له يفقهها، فقال بعضهم: إنّهُ نائم، وقال بعضهم: إنّ العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: فالدار الجنة، والداعي محمد ﷺ، فمّن أطاع محمداً ﷺ فقد أطاع الله ومن عصى محمداً ﷺ، فقد عصى الله، ومحمدٌ ﷺ فرق بين الناس»^(١).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٧٢٨١).

وقال رسول الله ﷺ: «فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سِتِّي فليس مِنِّي»^(١).
وعن أبي هريرة: أَنَّ رسول الله ﷺ قال: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ
أَبَى، قالوا: يا رسول الله! وَمَنْ يَأْبَى؟ قال: مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي
فَقَدْ أَبَى»^(٢).

وعنه ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ
عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي»^(٣).
إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة الدالة على وجوب اتباع سنة
النبي ﷺ والاحتجاج بها والعمل بها، وأنَّ هذا هو المغزى والأثر والمظهر لمن
أراد محبته.

٢ - الدفاع عنه في حياته وبعد مماته ﷺ.

أَمَّا فِي حَيَاتِهِ فَقَدْ قَامَ الصَّحَابَةُ بِذَلِكَ أَحْسَنَ قِيَامٍ، ففدوه بآبائهم وأُمَّهاتهم،
وباعوا أنفسهم لله ﷻ، كما قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ
دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ

(١) رواه البخاري في صحيحه (٥٠٦٣) ومسلم في صحيحه (١٤٠١).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٧٢٨٠).

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٧١٣٧)، ومسلم (١٨٣٥).



الْصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْآيَمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُخَيِّبُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ [الحشر: ٨ - ٩].

وعن أنس رضي الله عنه قال: «لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي ﷺ وأبو طلحة بين يدي النبي ﷺ مجوَّبٌ عليه بِحَجَفَةٍ له^(١)، وكان أبو طلحة رجلاً رامياً شديداً النَّزْع، كسر يومئذ قوسين أو ثلاثاً، وكان الرجل يَمُرُّ معه بجعبة من النبل فيقول: انثرها لأبي طلحة، قال: ويشرف النبي ﷺ ينظر إلى القوم، فيقول أبو طلحة: بأبي أنت وأمي لا تُشرف يُصَبِّك سَهْمٌ من سهام القوم، نحري دون نحرك»^(٢).

وعنه رضي الله عنه أيضاً: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَفْرَدَ يَوْمَ أُحُدٍ فِي سَبْعَةِ مِنَ الْأَنْصَارِ وَرَجُلَيْنِ مِنْ قُرَيْشٍ، فَلَمَّا رَهَقُوهُ قَالَ: مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الْجَنَّةُ، أَوْ هُوَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ. فَتَقَدَّمَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، ثُمَّ رَهَقُوهُ أَيْضاً فَقَالَ: مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الْجَنَّةُ أَوْ هُوَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ. فَتَقَدَّمَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ،

(١) أي مُتَرَسَّ عَلَيْهِ يَتَّقِيهِ بِهَا، والحجفة: الترس. انظر: النهاية في غريب الحديث (١/ ٣١١)،

(٣٤٥).

(٢) صحيح البخاري (٤٠٦٤).

فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة، فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه: ما أنصفنا أصحابنا^(١).

وقال قيس بن صرمة الأنصاري:

ثوى في قريش بضع عشرة حجة * يذكر لو ألقى حبيبا مؤاتيا
ويعرض في أهل المواسم نفسه * فلم ير من يؤوي ولم ير داعيا
فلما أتانا واستقرت به النوى * وأصبح مسرورا بطيبة راضيا
وأصبح لا يخشى ظلامة ظالم * بعيد وما يخشى من الناس باغيا
بذلنا له الأموال من جُلِّ مالنا * وأنفسنا عند الوغى والتأسيا
نعادي الذي عادى من الناس كلهم * جميعا وإن كان الحبيب المصافيا
ونعلم أن الله لا رب غيره * وأن رسول الله أصبح هاديا^(٢)
وأما الدفاع عنه بعد موته: فبالدفاع عن سنته ﷺ والذود عنها، بروايتها
وتنقيتها مما داخلها من الأحاديث الضعيفة والموضوعة وبيانها للناس والعمل
بها، وقد قام أهل الحديث بهذا الأمر خير قيام، فحفظوا وحافظوا على ميراث
نبيهم ﷺ، وذبوا عنه وعن سنته، فكانوا أحق الناس به بعد صحابته رضوان
الله عليهم.

(١) صحيح مسلم (١٧٨٩).

(٢) مستدرک الحاكم (٣/ ٧٣٥).



وكذلك الدفاع عنه مما يُثار حول سنته من شبهات، سواء المتعلقة بذاته أو بنسائه وأهل بيته، أو تشريعاته، فتُدَحِّصُ الشبهات، ويُنَيِّنُ الزلل بأسلوب علمي رصين.

وكذلك الدفاع عن شخصه وذاته الكريمة؛ خاصة في هذه الحقبة الزمنية المتأخرة التي تعرض فيها رسول الله ﷺ إلى هجمة شرسة من بعض الحاقدين الغربيين، الذين حاولوا تصوير النبي ﷺ بأبشع صورة، فقام المسلمون بالردِّ على تلك الهجمات كُلِّ بما أوتي من علم وقلم وجاه.

قال ابن حجر: «من استكمل الإيمان علم أنَّ حقَّ الله ورسوله آكدُّ عليه من حقِّ أبيه وأُمِّه وولده والناس أجمعين؛ لأنَّ الهدى من الضلال والخلاص من النار إنما كان بالله على لسان رسوله، ومن علامات محبته نصر دينه بالقول والفعل والذبُّ عن شريعته والتخلق بأخلاقه»^(١).

٣- تعظيمه وتوقيره والأدب معه.

وهذه الأمور بينها الله في كتابه، حيث أمر المؤمنين بتوقيره وتعزيزه وتعظيمه، ومن تعظيمه أن لا يتقدَّم أحدٌ بين يديه، ولا يرفع صوته فوق صوته،

(١) فتح الباري (١٣/٥٩٦).

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ^ط وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحُجُرَات: ١ - ٢].

قال ابن تيمية: «فقيام المدحة والثناء عليه والتعظيم والتوقير له قيام الدين كله، وسقوط ذلك سقوط الدين كله»^(١).

وقد ضرب الصحابة أجمل الأمثلة وأروعها في تعظيمه ﷺ، جاء في صحيح البخاري في حديث صلح الحديبية الطويل: قال عروة بن مسعود - وهو يصف النبي ﷺ وأصحابه لقريش -: «... فوالله ما تنحَّم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلَّك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له، فرجع عروة إلى أصحابه فقال: أي قوم! والله لقد وفدتُ على الملوك، ووفدتُ على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إن رأيت مَلِكاً قطُّ يعظِّمه أصحابه ما يعظِّم أصحابُ محمدٍ ﷺ محمداً، والله إن تنحَّم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلَّك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم

(١) الصارم المسلول (٢/٣٩٧).



ابتدروا أمره، وإذا توضعاً كادوا يقتتلون على وضوءه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له، وإنه قد عرّض عليكم خطّة رُشد فاقبلوها...»^(١).

وتعظيمه والأدب معه بعد موته ﷺ فهو التأدّب مع سنته وأحاديثه، وعدم الإعراض عنها لأجل قول فلان وفلان، قال أبو بكر ابن العربي المالكي: «حُرمة النبي ﷺ ميتا كحرمته حيّاً، وكلامه المأثور بعد موته في الرّفعة مثل كلامه المسموع من لفظه، فإذا قُرئ كلامه وجب على كلّ حاضر أن لا يرفع صوته عليه، ولا يُعرض عنه، كما كان يلزمه ذلك في مجلسه عند تلفّظه به...»^(٢).

ويقول ابن القيم: «ومن الأدب معه: أنّهم إذا كانوا معه على أمر جامع - من خطّة أو جهاد أو رباط - لم يذهب أحدُهم مذهبا في حاجته حتى يستأذنه... فإذا كان هذا مذهباً مقيّداً بحاجة عارضة، لم يُوسّع لهم فيه إلا بإذنه، فكيف بمذهب مطلق في تفاصيل الدّين: أصوله، وفروعه، دقيقة، وجليله؟ هل يشرع الذهاب إليه بدون استئذانه، ﴿فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]. ومن الأدب معه: أن لا يُستشكل قوله، بل تُستشكل الآراء لقوله، ولا

(١) صحيح البخاري (٢٧٣١).

(٢) أحكام القرآن (١٧٠٢/٤).

يُعَارِضُ نَصُّهُ بَقِيَّاسَ، بَلْ تُهْدَرُ الْأَقْيِسَةُ وَتَلْقَى لِنَصُوصِهِ، وَلَا يُحَرِّفُ كَلَامَهُ عَنْ حَقِيقَتِهِ لَخِيَالِ يُسَمِّيهِ أَصْحَابُهُ مَعْقُولاً، نَعَمْ! هُوَ مَجْهُولٌ وَعَنْ الصَّوَابِ مَعْزُولٌ. وَلَا يُوقِفُ قَبُولَ مَا جَاءَ بِهِ عَلَى مُوَافَقَةِ أَحَدٍ، فَكُلُّ هَذَا مِنْ قَلَّةِ الْأَدَبِ مَعَهُ ﷺ، وَهُوَ عَيْنُ الْجَرَاءَةِ»^(١).

وهذا من حقوقه ﷺ على هذه الأمة، ومظاهر محبته ﷺ كثيرة جداً، وجماعها حُبُّ الدِّينِ الذي جاء به، وحبُّ آلِه وأصحابه، وبهذه المظاهر يبرز مَنْ كَانَ مُحِبًّا لَهُ مَنْ يَدَّعِي محبته مجرد ادِّعاء، كما اختبر الله تعالى قوماً ادَّعَوْا محبَّته بِمُتَابَعَتِهِمْ لِلرَّسُولِ ﷺ فقال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، قال ابن كثير: «هذه الآية الكريمة حاكمة على كُلِّ مَنْ ادَّعَى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية؛ فَإِنَّهُ كَاذِبٌ فِي دَعْوَاهُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، حَتَّى يَتَّبِعَ الشَّرْعَ الْمَحْمُودِيَّ وَالدِّينَ النَّبَوِيَّ فِي جَمِيعِ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَحْوَالِهِ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ». ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ أي: يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إِيَّاهُ، وهو



مَحَبَّتُهُ إِيَّاكُمْ، وَهُوَ أَعْظَمُ مِنَ الْأَوَّلِ، كَمَا قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ الْحُكَمَاءِ: لَيْسَ الشَّأْنُ أَنْ تُحِبَّ، إِنَّمَا الشَّأْنُ أَنْ تُحِبَّ، وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَغَيْرُهُ مِنَ السَّلَفِ: زَعَمَ قَوْمٌ أَنَّهُمْ يَحِبُّونَ اللَّهَ فَاِبْتَلَاهُمْ اللَّهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ، فَقَالَ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾^(١).

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/٤٦).

٧. ثمار المحبة:

محبة النبي ﷺ من الفروض الواجبة على المسلم، ولا يتم إيمان المرء إلا بمحبته ﷺ، وتتفاوت هذه المحبة من مؤمن لآخر، فكلما قويت قوي الإيمان، وينقص بقدر نقصانها في قلب العبد.

وهذه المحبة تثمر للعبد ثمارا يانعة يجني العبد بعد البذار حصاده في الدنيا والآخرة، وثمار ذلك كثيرة جداً، أشار إليها النبي ﷺ في أحاديث متعددة سبق ذكرها، فمن ذلك:

١ - محبة الله تعالى للعبد، فمن أحبه ﷺ فحبَّ الله أحبه، فإنَّ محبة محبوب المحبوب من تمام محبة المحبوب، فينال بذلك العبد محبة الله له؛ لأنَّه أحبَّ من أحبَّ الله تعالى.

٢ - أن يجد المرء بمحبته حلاوة الإيمان في قلبه، لقوله ﷺ المتقدم: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار». قال ابن تيمية رحمه الله: «أخبر النبي ﷺ أن هذه الثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان؛ لأنَّ وجد الحلاوة بالشيء يتبع المحبة له، فمن أحبَّ شيئاً أو اشتهاه إذا حصل له مراده فإنَّه يجد الحلاوة واللذة والسرور بذلك، واللذة أمرٌ



يحصل عقيب إدراك الملائم الذي هو المحبوب أو المشتهى.... فحلاوة الإيمان المتضمنة من اللذة به والفرح ما يجده المؤمن الواجد من حلاوة الإيمان تتبع كمال محبة العبد لله وذلك بثلاثة أمور:

تكميل هذه المحبة، وتفريعها، ودفع ضدها.

فتكميلها: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما؛ فإنَّ محبة الله ورسوله لا يُكتفى فيها بأصل الحبِّ، بل لا بدَّ أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما كما تقدم.

وتفريعها: أن يحب المرء لا يحبُّه إلا الله.

ودفع ضدها: أن يكره ضدَّ الإيمان أعظم من كراهته الإلقاء في النار^(١). وقال ابن حجر في بيان أنَّ متابعته والتخلق بأخلاقه هي السبب الباعث على محبته المثمرة لحلاوة الإيمان في قلب المحب، قال: «وَأَلَّا يُتْلَى شَيْئاً مِنَ الْمَأْمُورَاتِ وَالْمَنْهَيَاتِ إِلَّا مِنْ مَشْكَاةٍ، وَلَا يُسْلَكُ إِلَّا طَرِيقَتُهُ، وَيَرْضَى بِمَا شَرَعَهُ حَتَّى لَا يَجِدَ فِي نَفْسِهِ حَرَجاً مِمَّا قَضَاهُ، وَيَتَخَلَّقُ بِأَخْلَاقِهِ فِي الْجُودِ وَالْإِيثَارِ وَالْحِلْمِ وَالتَّوَاضُّعِ وَغَيْرِهَا، فَمَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ عَلَى ذَلِكَ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ، وَتَتَفَاوَتْ

(١) مجموع الفتاوى (١٠/٢٠٥).

مراتب المؤمنين بحسب ذلك»^(١).

٣ - زيادة الإيمان وكماله، لقوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين».

فكمال الإيمان وزيادته يكون بمحبة سيد الخلق، وإيثار كلِّ محبوب عليه، وتقديمه على جميع الخلق، ولو كانوا أقرب الناس إلى العبد.

٤ - مرافقته في الجنة:

وهذا من أعظم النتائج والثمار التي يجتنيها العبد إذا أحبَّ سيد الخلق، فقد بَشَّرَ النبي ﷺ من أحبه بمرافقته في جنات عدن، كما جاء عن أنس رضي الله عنه: «أَنَّ رجلاً سأل النبي ﷺ متى الساعة يا رسول الله؟ قال: وماذا أعددت لها؟ قال ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله، قال: أنت مع من أحببت». وفي رواية: «قال: وماذا أعددت لها؟ قال: لا شيء، إلاَّ أَنِّي أحبُّ الله ورسوله ﷺ فقال: أنت مع من أحببت». قال أنس: «فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي ﷺ: أنت مع من أحببت». قال أنس: «فأنا أحبُّ النبي ﷺ وأبا بكر وعمر وأرجو أن أكون معهم بحبيَّ إياهم، وإن لم أعمل بمثل أعمالهم».

(١) فتح الباري (١/١١٩).



فالصحابه رضوان الله عليهم فرحوا بقوله ﷺ: «أنت مع من أحببت»
لأنهم أحبه في الدنيا، فتمنوا مرافقته في الجنة، فأثابهم الله بذلك، وإن لم يلحقوه
بأعمالهم.

قال الحافظ ابن حجر: «دل الخبر على أن أتباع الرسول وإن كان الأصل
أنه لا يحصل إلا بامتنال جميع ما أمر به، أنه قد يحصل من طريق التفضل باعتقاد
ذلك، وإن لم يحصل استيفاء العمل بمقتضاه، بل محبة من يعمل ذلك كافية في
حصول أصل النجاة، والكون مع العاملين بذلك؛ لأن محبتهم إنما هي لأجل
طاعتهم، والمحبة من أعمال القلوب، فأثاب الله محبتهم على معتقده؛ إذ النية هي
الأصل، والعمل تابع لها، وليس من لازم المعية الاستواء في الدرجات»^(١).

إلى غير ذلك من الثمار اليانعة والحصاد الرابح المجني بحبه واتباع سنته،
نسأل الله تعالى أن لا يحرمنا مرافقته في جنات النعيم.

(١) فتح الباري (٤٠ / ١٤).

٨. بعض مظاهر الغلو في ادعاء محبته ﷺ:

مما لا شك فيه أن النبي ﷺ نهى أُمَّته عن الغلو في الدين، ونهاهم عن الغلو في ذاته ﷺ فتجعل في مقام الربوبية أو الألوهية، ويُنَّ لهم حق الله تعالى، وحقه ﷺ، فله حق لا يكون لعبده، وهو ﷺ له حق ثابت له، بيَّنه في أحاديث كثيرة ونهى عن مجاوزة هذا الحق، ولا بد من التمييز بين الحقين، فقال فيما ثبت عنه: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا عبد الله ورسوله»^(١).

مع هذا النهي وغيره، لم يلتزم فئام من الناس هديه عليه الصلاة والسلام، فبالغوا في مدحه وإطرائه، وجعلوه في مرتبة لا تليق إلا بخالقه ﷺ، واستدلوا بذلك على عظم محبتهم له، ومن أنكر عليهم ما اقترفوه وقالوه رموه بكراهيته للنبي ﷺ وسوء الأدب معه.

فجردوا الرب من كل صفاته وأفعاله المختصة به، وأشركوا معه النبي ﷺ مدَّعين أن ذلك هو الإيمان الحقيقي بهذا النبي، كما قال شاعرهم:

دع ما ادعته النصارى في نبيهم * واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم
وانسب إلى ذاته ما شئت من شرف * وانسب إلى قدره ما شئت من عظم

(١) رواه البخاري في صحيحه (٣٤٤٥).



فإن فضل رسول الله ليس له * حد فيعرب عنه ناطق بضم
لو ناسبت قدره آياته عظما * أحيا اسمه حين يدعى دارس الرمم^(١)
وهذا غلو حذرنا منه نبينا الكريم صلوات الله وسلامه عليه، ولم يرض أن
يُجعل لله ندًا، والغلو ليس مقصورا على ما ادعته النصراني في المسيح من كونه
إلاها أو ابن الإله أو ثالث ثلاثة، بل الغلو هو أن يجعل النبي أو الولي أو غيرهما
في مقام الربوبية، والغلو والشرك بحر لا ساحل له، ومن أنزل الرسول ﷺ
منزلة الرب فقد غلا مهما مدحه وظن أنه يحبه.

وفي قصيدة البوصيري الكثير من هذا الغلو في النبي الكريم ﷺ الذي لو
سمعه لأنكره أشدَّ الإنكار كما أنكر على من سمعه غلا فيه في قوله: ما شاء الله
وشئت، فقال: «أجعلتني والله عدلاً، بل ما شاء الله وحده»^(٢).

ورحم الله الإمام ابن القيم حيث قال في بيان الفرقان بين حق الله الخالق
وحق نبيه المخلوق:

يا مَنْ له عقل ونورٌ قد غدا * يمشي به في الناس كلَّ زمانٍ
لكنَّا قلنا مقالة صارخ * في كلِّ وقتٍ بينكم بأذانٍ

(١) ديوان البوصيري (ص ٢٤١).

(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢١١٧)، وأحمد في المسند (١٨٣٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنه.

- * الرَّبُّ رَبُّ وَالرَّسُولُ فَعْبُدْهُ * حَقًّا وَلَيْسَ لَنَا إِلَهٌ ثَانٍ
- * فَلِذَاكَ لَمْ نَعْبُدْهُ مِثْلَ عِبَادَةِ الرَّ * حَمَنِ فَعَلَّ الْمَشْرِكِ النَّصْرَانِي
- * كَلَّا وَلَمْ نَغْلُ الْغُلُوَّ كَمَا نَهَى * عَنْهُ الرَّسُولُ مَخَافَةَ الْكُفْرَانِ
- * اللَّهُ حَقٌّ لَا يَكُونُ لِغَيْرِهِ * وَلِعَبْدِهِ حَقٌّ هُمَا حَقَّانِ
- * لَا تَجْعَلُوا الْحَقَّيْنِ حَقًّا وَاحِدًا * مِنْ غَيْرِ تَمْيِيزٍ وَلَا فُرْقَانٍ
- * فَالْحُجُّ لِلرَّحْمَنِ دُونَ رَسُولِهِ * وَكَذَا الصَّلَاةُ وَذَبْحُ ذِي الْقُرْبَانِ
- * وَكَذَا السُّجُودُ وَنَذْرُنَا وَيَمِينُنَا * وَكَذَا مَتَابُ الْعَبْدِ مِنْ عِصْيَانِ
- * وَكَذَا التَّوَكُّلُ وَالْإِنَابَةُ وَالتَّقَى * وَكَذَا الرَّجَاءُ وَخَشْيَةُ الرَّحْمَنِ
- * وَكَذَا الْعِبَادَةُ وَاسْتِعَانَتُنَا بِهِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ ذَاكَ تَوْحِيدَانِ
- * وَعَلَيْهِمَا قَامَ الْوُجُودُ بِأُسْرِهِ * دُنْيَا وَأُخْرَى حَبَّذَا الرُّكْنَانِ
- * وَكَذَلِكَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَالتَّ * هَلِيلُ حَقِّ إِهْنَا الدِّيَّانِ
- * لَكِنَّمَا التَّعْزِيرُ وَالتَّوْقِيرُ حَقٌّ * لِلرَّسُولِ بِمَقْتَضَى الْقُرْآنِ
- * وَالْحُبُّ وَالْإِيمَانُ وَالتَّصَدِيقُ لَا * يَخْتَصُّ بَلْ حَقَّانِ مَشْتَرِكَانِ
- * هَذِي تَفَاصِيلُ الْحَقُوقِ ثَلَاثَةٌ * لَا تَجْهَلُوهَا يَا أُولِي الْعُدْوَانِ
- * حَقُّ الْإِلَهِ عِبَادَةٌ بِالْأَمْرِ لَا * بِهَوَى النُّفُوسِ فَذَاكَ لِلشَّيْطَانِ
- * مِنْ غَيْرِ إِشْرَاكِ بِهِ شَيْئًا هُمَا * سَبَبَا النِّجَاةِ فَحَبَّذَا السَّبَبَانِ
- * وَرَسُولُهُ فَهُوَ الْمُطَاعُ وَقَوْلُهُ الـ * مَقْبُولُ إِذْ هُوَ صَاحِبُ الْبُرْهَانِ
- * وَالْأَمْرُ مِنْهُ الْحَتْمُ لَا تَخِيرُ فِيهِ * هُوَ عِنْدَ ذِي عَقْلٍ وَذِي إِيْمَانِ



- * مَنْ قَالَ قَوْلًا غَيْرَهُ فُئِمْنَا عَلَى
* إِنْ وَافَقَتْ قَوْلَ الرَّسُولِ وَحُكْمَهُ
* أَوْ خَالَفَتْ هَذَا رَدَدْنَاهَا عَلَى
* أَوْ أَشْكَلَتْ عَنَّا تَوَقَّفْنَا وَلَمْ
* هَذَا الَّذِي أَدَّى إِلَيْهِ عِلْمُنَا
* فَهُوَ الْمُطَاعُ وَأَمْرُهُ الْعَالِي عَلَى
* وَهُوَ الْمَقْدَمُ فِي مُحِبَّتِنَا عَلَى الْ
* وَعَلَى الْعِبَادِ جَمِيعِهِمْ حَتَّى عَلَى النَّ
* وَنَظِيرُ هَذَا قَوْلُ أَعْدَاءِ الْمَسِيحِ
* إِنَّا تَنَقَّصْنَا الْمَسِيحَ بِقَوْلِنَا
* لَوْ قُلْتُمْ وَلَكِنْ إِلَهُ خَالِقُ
* وَكَذَلِكَ أَشْبَاهُ النَّصَارَى مُذْ غَلَوْا
* صَارُوا مُعَادِينَ الرَّسُولِ وَدِينَهُ
* فَانْظُرْ إِلَى تَبْدِيلِهِمْ تَوْحِيدَهُ
* وَانْظُرْ إِلَى تَجْرِيدِهِ التَّوْحِيدَ مِنْ
* وَاجْمَعْ مَقَالَتَهُمْ وَمَا قَدْ قَالَه
* عَقْلٍ وَفِطْرَتِكَ السَّلِيمَةِ ثُمَّ زِنْ
* فَهَنَّاكَ تَعْلَمُ أَيُّ حَزْبَيْنَا هُوَ الْ
- * أَقْوَالُهُ بِالسَّبْرِ وَالْمِيزَانِ
* فَعَلَى الرَّؤُوسِ تُشَالُ كَالْتَّيْجَانِ
* مَنْ قَالَهَا مَنْ كَانَ مِنْ إِنْسَانٍ
* نَجْزِمُ بِهَا عِلْمَ وَلَا بُرْهَانَ
* وَبِهِ نَدِينُ اللَّهَ كُلَّ أَوَانٍ
* أَمْرُ الْوَرَى وَأَوَامِرُ السُّلْطَانِ
* أَهْلِينَ وَالْأَزْوَاجِ وَالْوِلْدَانِ
* نَفْسُ الَّتِي قَدْ ضَمَّهَا الْجَنَّبَانِ
* حِجِّ مِنَ النَّصَارَى عَابِدِي الصُّلْبَانِ
* عَبْدٌ وَذَلِكَ غَايَةُ النُّقْصَانِ
* وَفَتَيْتُمُوهُ حَقَّهِ بِوِزَانٍ
* فِي دِينِهِمْ بِالْجَهْلِ وَالطُّغْيَانِ
* فِي صُورَةِ الْأَحْبَابِ وَالْإِخْوَانِ
* بِالشُّرْكِ وَالْإِيمَانِ بِالْكَفْرَانِ
* أَسْبَابُ كُلِّ الشُّرْكِ بِالرَّحْمَنِ
* وَاسْتَدْعَ بِالنَّقَادِ وَالْوِزَانِ
* هَذَا وَذَا لَا تَطْغَى فِي الْمِيزَانِ
* مُتَنَقِّصُ الْمُنْقُوصِ ذُو الْعُدْوَانِ

- رامي البريء بدائه ومُصابه * فَعَلَ الْمَبَاهِثَ أَوْقَحَ الْحَيَوَانَ
- كُمَعِيرٍ لِلنَّاسِ بِالزَّغَلِ الَّذِي * هُوَ ضَرْبُهُ فَأَعَجَبَ لَذَا الْبُهْتَانَ
- يا فِرْقَةَ التَّقْيِصِ بَلْ يَا أُمَّةَ الدِّ * عَوَى بِلا عِلْمٍ وَلَا عِرْفَانٍ
- والله ما قَدَّمْتُمْ يَوْمًا مَقًا * لَتَهْ عَلَى التَّقْلِيدِ لِلْإِنْسَانِ
- والله ما قال الشيوخ وقال إلَّا * كُنْتُمْ مَعَهُم بِلا كِتْمَانٍ
- والله أغْلَطُ الشُّيُوخَ لَدَيْكُمْ * أَوْلَى مِنَ الْمَعْصُومِ بِالْبُرْهَانِ
- ولذا قَضَيْتُمْ بِالَّذِي حَكَمْتُ بِهِ * جَهْلًا عَلَى الْأَخْبَارِ وَالْقُرْآنِ
- والله إنَّهم لَدَيْكُمْ مِثْلُ مَعْدٍ * صُومٌ وَهَذَا غَايَةُ الطَّغْيَانِ
- تَبًّا لَكُمْ مَاذَا التَّنْقُصُ بَعْدَ ذَا * لَوْ تَعْرِفُونَ الْعَدْلَ مِنْ نَقْصَانِ
- والله ما يُرْضِيهِ جَعَلَكُمْ لَهُ * تُرْسًا لَشِرْكِكُمْ وَلِلْعَدْوَانِ
- وكذلك جَعَلَكُمْ الْمَشَايخَ جُنَّةً * لِحِلَافِهِ وَالْقَصْدُ ذُو تَبْيَانِ
- والله يشهد ذا بجذرِ قلوبكم * وَكَذَاكَ يَشْهَدُهُ أُولُو الْإِيمَانِ
- والله ما عَظَّمْتُمُوهُ طَاعَةً * وَمَحَبَّةً يَا أُمَّةَ الْعِصْيَانِ
- أنى وجَهِلْكُمْ بِهِ وَبِدِينِهِ * وَخِلَافُكُمْ لِلْوَحْيِ مَعْلُومَانِ
- أَوْصَاكُمْ أَشْيَاخُكُمْ بِخِلَافِهِمْ * لِيُوفَاقِهِ فِي سَالِفِ الْأَزْمَانِ
- خَالَفْتُمْ قَوْلَ الشُّيُوخِ وَقَوْلَهُ * فَعَدَا لَكُمْ خُلَفَاءُ مُتَّفَقَانِ
- والله أَمْرُكُمْ عَجِيبٌ مُعْجَبٌ * ضِدَّانَ فَيْكُمْ لَيْسَ يَتَّفَقَانِ
- تَقْدِيمُ آراءِ الرِّجَالِ عَلَيْهِ مَعٌ * هَذَا الْغُلُوفُ فَكَيْفَ يَجْتَمِعَانِ؟



- كَفَرْتُمْ مَن جَرَّدَ التَّوْحِيدَ جَهَ * لَّا مَنكُم بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ
- لَكِن تَجَرَّدْتُمْ لِنَصْرِ الشِّرْكِ وَالْ * بَدَعَ الْمُضِلَّةَ فِي رِضَا الشَّيْطَانِ
- وَاللَّهُ لَمْ يَقْصِدْ سِوَى التَّجْرِيدِ لِلتَّ * وَحِيدِ ذَاكَ وَصِيَّةَ الرَّحْمَنِ
- وَرِضَى رَسُولِ اللَّهِ مَنَّا لَا غُلُوءَ * الشِّرْكَ أَصْلَ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ
- وَاللَّهُ لَوْ يَرْضَى الرَّسُولُ دَعَاءَنَا * إِلَيْهِ بَادِرْنَا إِلَى الْإِذْعَانِ
- وَاللَّهُ لَوْ يَرْضَى الرَّسُولُ سَجُودَنَا * كُنَّا نَخِرُّ لَهُ عَلَى الْأَذْقَانِ
- وَاللَّهُ مَا يُرِضِيهِ مَنَّا غَيْرُ إِخْ * لَّا صِ وَتَحْكِيمٍ لِّذَا الْقُرْآنِ
- وَلَقَدْ نَهَى ذَا الْخَلْقِ عَنْ إِطْرَائِهِ * فَعَلَ النَّصَارَى عَابِدِي الصُّلْبَانِ
- وَلَقَدْ نَهَانَا أَنْ نُصَيِّرَ قَبْرَهُ * عِيدًا حِذَارَ الشِّرْكِ بِالرَّحْمَنِ
- وَدَعَا بَأْنَ لَا يُجْعَلُ الْقَبْرُ الَّذِي * قَدْ ضَمَّمَهُ وَثْنَا مِنَ الْأَوْثَانِ
- فَأَجَابَ رَبُّ الْعَالَمِينَ دَعَاءَهُ * وَأَحَاطَ بِهِ ثَلَاثَةُ الْجُودِرَانِ
- حَتَّى اغْتَدَّتْ أَرْجَاؤُهُ بِدَعَائِهِ * فِي عِزَّةٍ وَحِمَايَةٍ وَصِيَانِ
- وَلَقَدْ غَدَا عِنْدَ الْوَفَاةِ مُصْرِّحًا * بِاللَّعْنِ يَصْرُخُ فِيهِمْ بِأَذَانِ
- وَعَنَى الْأُلَى جَعَلُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدًا * وَهُمْ الْيَهُودُ وَعَابِدُوا الصُّلْبَانِ
- وَاللَّهُ لَوْلَا ذَاكَ أَبْرَزَ قَبْرُهُ * لَكِنَّهُمْ حَبَّبُوهُ بِالْحِيطَانِ
- قَصِدُوا إِلَى تَسْنِيمِ حُجْرَتِهِ لِيَمَ * تَنَعَ السَّجُودُ لَهُ عَلَى الْأَذْقَانِ
- قَصِدُوا مُوَافَقَةَ الرَّسُولِ وَقَصْدُهُ التَّ * جَرِيدَ التَّوْحِيدِ لِلرَّحْمَنِ^(١)

(١) الكافية الشافية للانتصار للفرقة الناجية (٤/ ٢١٣ - ٢١٥).

الخاتمة

قبل إسدال الستار على هذه الوريقات في بيان ركن من أعظم أركان الدين والإيمان، يمكن أن ألخص ما سبق طرحه في نقاط قليلة.

- ١ - المحبة لا حد لها، وحدُّها وجودها.
- ٢ - من أعظم واجبات الدين محبة سيد المرسلين ﷺ.
- ٣ - محبته ﷺ قسمان: واجبة ومندوبة.
- ٤ - محبته ﷺ تابعة لمحبة الله وتعظيمه.
- ٥ - من بواعث محبته كمال رأفته، ونصحه، وإحسانه، وأخلاقه.
- ٦ - أسباب محبته: معرفته ومعرفة سيرته وأيامه، وتعلم سنته وكثرة ذكره والصلاة عليه وحب لقيه والشوق لرؤيته.
- ٧ - علامات محبته ﷺ: طاعته والعمل بسنته، والدفاع عنه في حياته وبعد مماته، وتعظيمه وتوقيره والأدب معه ومع سنته.
- ٨ - أنَّ المحبة تؤتي ثمارها في الدنيا والآخرة، بمحبة الله للعبد، ووجده لحلاوة الإيمان في قلبه وزيادته، ومرافقة محبوبه في دار النعيم.
- ٩ - الغلو والمحبة نقيضان لا يجتمعان.